د. سناء أبو شرار

امرأة سوداء في باريس

د. سناء أبو شرار

الكتاب : امرأة سوداء في باريس

المؤلف : د. سناء أبو شرار

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠٢٢

رقم الإيداع : ١٥٣٩ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي : I.S.B.N : 978 - 977 - 493 - 939 - 6

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

ت فاكس : ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net



امرأة سوداء في باريس

رواية

د. سناء أبو شرار

إهداء

إلى أبي / القاضي القدير محمد أبو شرار

إلى أمي الحبيبة / شريفة عنان

امرأةٌ سوداءُ في باريسَ

غادرتُ أفريقيا

ولكنَّها لم تُغادرني

فغرقتُ في بردٍ أوروبيٍّ

لا يَنتهي

الآن وعلى سرير المرض أراقبها، لا أجرؤ على النظر لعينيها، أتحدث إليها محاولًا إغماض عينيَّ بحجة التَّعب، ولكنني في الحقيقة لا أمتلكُ الجرأةَ على مبادلتِها النظرات، وهي كذلك تتجنَّبُ أن تنظر بشكل مباشر إليَّ. بقيتْ بجانبي لتعتني بي رغم وجود الخادمة، فهي التي تحضِّر لي الطعام وتحرص على أن أتناول الدواء في المواعيد المحددة، وهي التي تُرافقني للمستشفى. لا أستطيعُ أن أقول لها شكرًا، فلم يتبقَّ بيننا سوى صمت قديم وطويل. أراقبها وهي تسير بخطواتها الهادئة، وأسترق النظر إلى وجهها الحزين من حينٍ لآخر، وأعرف بأنها لن تتكلم؛ لذا أحتفظ أنا أيضًا بصمتي الطويل.

ولإنني أستلقي لساعات على سريري الوثير، ينتابني النعاس من حينٍ لآخر، فأغفو أو أقاوم النوم، ولكن الذكريات لا تفارقني في أوقات غفوتي أو صحوتي؛ تختلط الصور والكلمات والأحداث مع دقائق النوم الطويلة أو القصيرة، ثم يأتي الألم ليوُقِف سيل الذكريات الدافق، فيبدأ الأنين الذي لا يتوقف حين يشتد ألمي، وتجلس هي بجانبي أحيانًا صامتة وأحيانًا باكية، تحاول أن تمدَّ يدها لتمسك يدي، ولكنها لا تستطيع، فتضعها على كتفي بحركة متعاطفة مع ألمي، ولكنها لا تمسك يدي، وكأن إمساك يدي يعني أن هناك رابطًا عاطفيًّا بيني وبينها، وهي تعلم وأنا أعلم بأن ذلك الرابط العاطفي قد مات منذ سنوات، أو أنني قطعته منذ سنوات.

تقف أمامي أو تجلس بقُربي، تشعر بالألم لمعاناتي، ولكنها لا تستطيع أن تُعبِّر بأكثر من ذلك، وتلزم الصمت. أحيانًا أتلوّى من الألم وأريد أن أصرخ، ولكنني أتماسك وأكتفي بالأنين، تتصل بالطبيب، فيأتي مسرعًا ليزيد من جُرعة الدواء، وبعد صراعي مع الألم يعود الهدوء من جديد، وأشعر وكأنني كنتُ في حلبة مصارعة أتلقى عشرات اللكمات، فينتابني النعاس ثم أغرق في النوم بعد ساعات الألم المُضني، وتبقى هي بجانبي لا تغادر إلى أن تتأكد من أنني قد غرقتُ في النوم. وفي أحيانٍ كثيرة أرغب بأن أستسلم لمرضي، وألا أتناول الدواء، وأن ينتهي كل شيء؛ لكي لا أستمر بضعفي الذي أمقته. ولكنني أقاوم ولا أستسلم، أريد أن أعود للحياة بكل قوتي، أقاوم مرضي، وأقاوم صمتها الذي يلومني في كل لحظة.

أحيانًا أتمنى أن أطردها ولكنني لا أستطيع، فلا أريد أن أبقى وحدي مع الخادمة، لابد أن تبقى معي، أكره وجودها في لحظات ضعفي، ولكنني لا أمتلك سوى الرضوخ لهذا الحضور الذي أكرهه، ورغم ذلك أحتاج إليه، أو أنني أقاوم وفي كل لحظة حُبي لها.

طلب مني الطبيب البقاء في المستشفى؛ لأن وضعي الصحي يزداد سوءًا رغم المتابعة الحثيثة من قِبل الأطباء، فمرضي مرض عُضال يكاد يفتك بجسدي، ولكنني وبشخصيتي التي تحدَّت العديد من الصعوبات، أريد أن أتحدى هذا المرض وأن أغلبه وألا استسلم للألم أو للذهاب بعيدًا عن ساحة الحياة، أريد أن أحيا، أريد أن أبقى هنا، أريد أن أرى الشمس كل يوم، أريد أن أكره زوجتي كل يوم، وأن أحبها بصمت خفي كل يوم.

ولكي أبقى على قيد الحياة أخذت قرارين وهما: أن أغـادر المستشفى وأن تأتي ممرضة تلازمني في بيتي، وتُشرف على وضعي الصحي مع زيـارة الطبيب الدائمة، وأن يتم إحضار جميع مستلزمات العلاج في البيت، وأن أذهـب للمستشفى فقط حين توجد ضرورة لذلك.

وقـراري الثاني كان أن أكتب مذكراتي، أن أحيا عبر تلك الذكريات البعيدة، أن أبقى على قيد الحياة ولو من خلال سطور أكتبها قبل موتي القادم.

غـــادرتُ المستشفى، وأتـــت الـمـمـرضـة الـتـي تـشـرف عـلـى وضـعـي الصحي، وتحوّلت غرفتي إلـى غرفة تشبه غـرف المستشفى مع كل الأدويـــة والأجـهـزة التي تُحيط بالسرير. ووضعت القلم والدفتر الأسـود بغلافه المُخمليِّ بجانب سريري؛ لأبدأ تنفيذ قراري الثاني بكتابة مذكراتي.

كنتُ فـي المستشفى أشعر بثقل الساعات والأيـــام، وأحـــاول جـاهـدًا ألا أشعر بـالأسـف والـحـزن لأجـل ذاتـــي، ولكنني الآن فـي غرفتي الـواسـعـة، أراقـــب الأشجار الخضراء عبر النافذة الكبيرة، وأشعر بنسمات الهواء الـبـاردة تلفحُ وجهي في كل صباح حين تفتح الممرضة الـنـافـذة، وأحـيـانًـا تتسلّل أشعة الشمس بخجل عبر الـزجـاج الشفاف، ثم لا يتبقى من النهار سـوى قطرات المطر التي لا تتوقف عن التساقط في فصل الخريف في باريس.

الأشـجـار والمطر والـشـمـس، ومـا يـرافـق الإنـسـان فـي رحلة وجـوده فـي حياته الطويلة أو القصيرة، تبدو كأنها أشياء بديهية لا يفكر بها الإنـسـان كثيرًا، ولكن حين يـدرك ويعلم بـأن حياته على وشـك أن تنطفئ وتنسحب مثل ظـل شمس الـغـروب، تُصبح الأشجار والشمس والمطر والقمر أشياء غالية عزيزة نـادرة، يريد

أن يحتضنها بكل لحظة، يريد أن يراها بكل ثانية، حتى أنـه يكره الـنـوم؛ لأنـه قد يسحبه بصمت إلى عالم الموت، فالشيء الوحيد الـذي يُخبره بأنه على قيد الحياة هو كل ما حوله، هو تلك الشمس الساطعة، وذلـك القمر المنير، وتلك الأشجار الفاتنة، وذلـك المطر المُشبع بالحياة؛ ثم هناك شـيء آخـر أصبح يمنحني الشعور بأنني لا أزال على قيد الحياة، وأنني لن أموت قريبًا، إنه دفتري الأسود المُخملي؛ إنه موعدي مع ذاتـي وذكرياتي، إنه صديقي الجديد، وللمصادفة الحزينة أو السعيدة هو أن بشرتي سوداء، ودفتري غلافه أسود داكن، كأنه قادم من أفريقيا مثلي.

تافارا

أمسكت قلمي في ذلك المساء الهادئ، حين غادرت زوجتي والممرضة غرفتي، وبقيت وحيدًا أمام نافذتي الكبيرة، حيث غرقت الحديقة والأشجار في الظلام، ولم يتبقَّ سوى الضوء الصغير بجانب سريري، ولم أخبر زوجتي بأنني أكتب مذكراتي، ولم أكن أريد أن تعرف بذلك، فأنا أكرهها رغم حبي لها، وإن أخبرتها بأنني أكتب مذكراتي فهذا يبدو كأنني أمنحها مساحة من نفسي، ولا أريد منحها ذلك، أريد أن تبقى بعيدةً، أريد أن أحافظ على كرهي لها، لأنني لو أعلنت حبي لها ولو أنها بادلتني ذلك الحب، سوف يصبح موتي أشدَّ عذابًا وألمًا، أريد أن تبقى بعيدةً كي لا ينتزعها الموت من قلبي، وأريد أن أبقى بعيدًا عن مشاعرها كي لا تتألم بفراقي، أريد أن أموت دون تشعر بحرقة رحيلي، وأن تُحافظ على ذلك البرود الطويل الذي بنى حائطًا من الجفاء بيني وبينها، فذلك الجفاء هو الذي يجمعنا، وهو الذي جعل زواجنا يستمر، فلو صارحتني بما تشعر به تجاهي أو لو صارحتها بما أشعر تجاهها، لانتهى هذا الزواج منذ سنوات، لذلك قرّرنا - دون أن نعترف بذلك - أن يجمعنا الصمتُ وغربتُنا ولونُنا الأسود؛ ورغم كل ذلك الصمت والجفاء كنت بحاجة لزوجتي، كنت بحاجة لما تبقى لي من وطني، وهي كانت تتشبَّث بزوجها في بلد غريب عنها وعن ثقافتها، وحيث لا تستطيع أن تعود لوطنها، وهكذا أصبح زواجنا كمركبٍ صغيرٍ مليء بالثقوب والشروخ، ولكنه يطفو على سطح الماء، لا يُبحر بعيدًا ولا يغرق أيضًا.

وفي صمت الليل الطويل، يُجافيني النوم، ويُلاحقني الخوف من الموت، فوجدت ترياقًا لأَرَقِي ولخوفي، وهو أن أكتب وأكتب إلى أن يأتي ذلك النوم الذي أبحث عنه، فيأتي دون عناء ودون تَقلُّبٍ مُنهِك، يأتي بصمت ودون أن أستدعيه بعد أن أكتب كلماتي وذكرياتي، بعد أن أسافر وبعد أن أسمع كلمات من رحلوا عن حياتي، وبعد أن أرى حياتي كلها تتدفق على الصفحات البيضاء، كشلال صاخب لا يعرف الهدوء، ولكنه ورغم عنفوانه ينتهي ليصبح جدولًا صغيرًا، يكاد أن يجفَّ في أرض بعيدة وغريبة عن منبعه الأصلي. وهكذا يبدأ قلمي باسترجاع الوجوه والكلمات، الصور والذكريات، البشر والأماكن، من البداية إلى أن يصل إلى سرير وثير في فيلا جميلة في باريس:

«فـي قرية أفريقية بعيدة، تقع بين شاطئ بحيرة زرقـاء كبيرة، وبين جبال خـضـراء شاهقة الارتـفـاع، كـان بيتي الصغير حيث عشت طفولتي مـع أمـي وأبـي وإخوتي الثلاثة، كانت حياتنا قَـرَويـةً وبسيطةً، تمضي برعاية البقرات الأربـع التي كـان يمتلكها والـدي، وبين حراثة الأرض التي ورثها عن والـده. وكـان بالقرب من بيتنا تلك المدرسة الصغيرة والتي لم تكن تحتوي إلا على فصلٍ واحـدٍ، يجتمعُ فيه كل أطفال القرية مهما بلغ سنهم، فمنهم من يستوعب الـدروس بسرعة ومنهم من لا يستطيع ذلـك، رغـم مـحـاولات الـمـدرّس الوحيد في القرية أن يفهم الجميع الدرس، أو على الأقل أن يستمعوا له.

وأنـا كنت الأول في ذلك الفصل المكتظ بـالأولاد والبنات من أعمار مختلفة. لم أكـن أحتاج أن أستمع للدرس مـرة ثانية؛ فمن المرة الأولـى أفهمه وأحفظه؛ ولهذا السبب بـدأ الـمـدرّس يستعين بي لأشـرح الـدرس لمن لم يفهم جيدًا، حتى أنـه كان يطلب مني أن أصحّح أوراق بعض التلاميذ.

لم يكن لدي أي اهتمام بأعمال الزراعة والحراثة، وكـان إخوتي يذهبون للحقل مع والـدي ويقومون بحلب الأبـقـار، وحين يتذمّرون من عـدم ذهابي معهم، يقول لهم والـدي إنني لابد أن أتابع دروسـي أو أن أصحّح الأوراق للأستاذ. وبمرور الوقت، لم تعد تكفيني كتب المدرسة، وأصبحت أضجر منها، ولـم يكن هناك مكتبة أو أي كتب غير التي توجد في المكتبة شبه الخالية في مدرستي الصغيرة جدًا.

وحين لاحظ المدرّس ضجري وبحثي المستمر عن أي كتاب أو أي ورقـة لأقرأها، حضر إلى منزلنا وطلب من والـدي أن يسمح لي بالذهاب معه إلى المدينة؛ كي أرى المكتبة هناك وأحضر الكتب التي أريـدهـا، لكن والـدي رفـض طلبه، وأخـبـره بأننا لا نمتلك النقود لشراء الكتب، ابتسم المدرّس وأخبره بأنني لن أشتري الكتب بل سأستعيرها. ولم يفهم والدي ما معنى استعارة الكتب فقال له المدرّس:

- يعني أننا سنأخذ الكتب وسـوف نُرجعها للمكتبة، ثم نستعير غيرها وهكذا دون أن ندفع أي نقود.

نظر إلي والدي وقال بقلق:

- لا أفهم ما سرّ تعلقك بهذه الكتب، لا أدري مـاذا تجد فيها، الحقل والجبال أجمل منها، فلماذا لا تعيش حياتنا وتكتفي بها، دون أن تتعلّق بشيء قد لا أستطيع توفيره لك أو قد لا يُفيدك؟.

في تلك السن الصغيرة لم يكن لـدي أي كلمات أردُّ بها على أبـي، كل ما كنت أعرفه هو أنني أريـد أن أقـرأ أي شـيء، وأن الجبال والأبـقـار وحتى البحيرة لا تعني لي شيئًا، ولكن لم يكن لدي الكلمات الكافية للتعبير عن مشاعري، فصَمَتُّ، وكان أبـي يمتلك صفةً رائـعـةً، لم يكن يُلحُّ عليّ بـأي شـيء، كـان يترك لنا حرية التصرف والشعور كذلك؛ لذلك لم يغضب لعدم ذهابي مع إخوتي للقيام بأعمال الزراعة، وكان في أغلب الوقت شخصًا صامتًا وهادئًا.

أمّـا أمـي، فلم يكن لديها الوقت لتفكر بشيء عدا شـؤون البيت وزيـارة الجارات، رغـم أنها كانت قريةً نائيةً، ولكن كـان يمكن لأي شخص أن يعيش بها كما يرغب دون أن ينتقده الآخـرون، تمضي الحياة بها بهدوء وسكينة، لقد كان في تلك القرية تقبُّل تفكيرِ بعضنا البعض أفضل مما وجدته في المدن الكبرى، بل واحترام عميق للاختلافات بين بعضنا البعض، لـم يكن هناك عدائية أو انـتـقـاد، كـان الجميع يعيشون بـوئـام رغـم الاخـتـلافـات، حتى المشاكل كانت تنتهي بنهاية الـيـوم مهما كانت كبيرة.

وحين يحلُّ الظلام تشتعل الفوانيس الصغيرة التي يصنعها القرويون من علب الحديد القديمة، وتجلس أمي بيننا قبل النوم، تحكي لنا قصصًا قديمةً عن جدها وجدتها، وعـن الجبال والـحـيـوانـات، حين كانت تخبرنا بتلك القصص كانت أمي تتحوّل إلـى امـرأة أخـرى، تلتمعُ عيناها ببريق دافـئ وتستعيد بشرتها رونقها، ثم تبتسم بسعادة غامرة وهـي تقص تلك القصص الـواحـدة تلو الأخـرى إلـى أن نشعر بالنعاس، ثم تغني لنا أغنيتها المفضلة قبل الـنـوم، كانت تغني نفس الأغنية في كل ليلة، وسألتها ذات مرة:

- أمـي، لـمـاذا تقصين علينا قصصًا متنوعة، ولكن تُغنينَ أغنيةً واحـدةً ألا تحفظين غيرها؟

نظرت إلـيّ وكأنها تنظر لشيء مـا لا أراه، وقـالـت بحزن حـاولـت أن تُخفيه بابتسامتها الواسعة:

- لأن القصص تأتي لعقلي بسهولة، هناك صور كثيرة في عقلي، ولكن لا يوجد سوى هذه الأغنية، أمّا لماذا أغنيها فسوف أخبركم بذلك حين تكبرون قليلًا.

وحيـن أتـذكـر تلك القصص ووجـه أمـي الـذي تتماوج تعابيره وفـقًـا لأحـداث القصة، أدرك بـأن أمـي وجـدت متعتها الوحيدة في الحياة بسرد القصص لنا، لقد كانت بحاجة لسرد القصص أكثر من حاجتنا لسماعها؛ لذلك وحين كبرنا وبدأنا نشعر بالخجل إن أتـت لتقصَّ علينا قصةً مـا، شعرتْ بذلك وتوقفتْ عن الحضور ليلًا لتحكي لنا قصصها الجميلة، وحين توقفتْ عن سـرد القصص لنا فَقَدَ وجهها نضارته وانطفأ بريق عيونها، لقد كانت أمـي كاتبةً دون أن تـدري، كانت أديبةً لا تستطيع أن تقرأ أو تكتب، كانت تكتب الـروايـات والقصص في خيالها، وتخطُّها لنا عبر الكلمات التي لا تنتهي، وحين توقفنا عن الاستماع لتلك القصص، انطفأ شيءٌ ما في روحها، أدرك الآن فقط أن أمي كانت تستمدُّ حياةً ما من تلك القصص التي تتوالى في خيالها، وأنها لو كانت تعرف القراءة والكتابة لما احتاجت لنا لنستمع لقصصها، لكتبت بصمت ولبقي ذلـك البريق فـي عينيها، ولكن فـي تلك القرى النائية المشكلةُ ليست فـي البعد عـن المدنية، المشكلة أنـه مـن الصعب على الإنـسـان معرفة نفسه بشكل صحيح، حين يعيش بمكان نـاءٍ وبعيدٍ عن الوسائل التي تتيح له أن يعرف نفسه، وأمـي لم تعرف بأنها أديبة، روحها كانت تـدرك ذلك لكن عقلها لم يدرك هذه الحقيقة.

في تلك الأكـواخ الصغيرة كان الهدوء سيّد المكان، وكل مشكلة توجد في بيتٍ ما تخص كل البيوت، ولا ينام أهـل القرية دون حل تلك المشكلة. فالحزين لابد من إخراجه من حزنه، والجائع لابـد من إطعامه، ومـن ليس له بيت لابـد من عمل بيت لـه، ومـن لا يستطيع الـزواج لابـد من إيجاد زوجـة لـه، ومـن لديه مشكلة مع زوجته لابـد من حلها قبل حلول الظلام، لم يتذمّر الأزواج حين تشتكي الزوجات؛ لأن كـل القرية ستأتي لتعرف مـا سبب الـخـلاف، ويجلس الـزوج مـع أهـل القرية

ويخبرهم وكأنهم جميعهم عائلته الكبيرة. سافرت كثيرًا ولم أجد أبـدًا قريةً تشبه قريتي، قريتي كانت جنتي الصغيرة التي لم أجد مثلها طوال حياتي.

وفي الباص القديم جلست بجانب أستاذي الأستاذ باكو، لم يكن كثير الحديث، فتح حقيبته الصغيرة وأخـرج فطيرتين، قـدّم واحـدةً لي وبـدأ بأكل الأخـرى بصمت، تناولت الفطيرة اللذيذة وبــدأت أراقــب الطريق من خـلال النافذة التي يعلوها الغبار، وحين توقف الـبـاص لاستراحة قصيرة، نزلت مسرعًا لأمسح ذلـك الغبار كي أتمكن من رؤيـة المناظر على الطريق، وساعدني أستاذي على تنظيف نافذتنا، فبدت براقةً لامعةً بخلاف بقية النوافذ، وعدنا لأماكننا فقال لي الأستاذ باكو:

- سـوف نذهب إلـى المكتبة الوحيدة بهذه المدينة وتستطيع أن تستعير فقط ثلاثة كتب، لابد أن تكون هادئًا وأن تحافظ على الكتب، وإلا لن يقبلوا أن تستعير منهم مـرةً أخـرى، فهم يحصلون بصعوبة على الكتب، لقد قـرأت عن بلاد يوجد فيها مكتبات ضخمة بها آلاف بل ربما ملايين الكتب، وكنت أحلم أن أذهـب لتلك البلاد وأن أقـرأ كل الكتب التي فيها ولكن لا أستطيع، هذا حلم بعيد، وأكتفي بأن أتخيل تلك المكتبات، لقد رأيـت صـورًا لها وهـي جميلة وبها أضـواء وطـاولات كبيرة من الخشب، وعشرات الرفوف حيث يضعون الكتب بعناية، حين نعود سـوف أجعلك تـرى صـورة هـذه المكتبات، لقد أعطاني هـذه الصورة سائح أجنبي زار قريتنا، ولا أزال أحتفظ بها.

كان هذا كل ما قاله الأستاذ باكو، ثم عاد لصمته من جديد. وعـدت أنا لأراقب الطريق المليء بالحفر عبر النافذة، كلما ابتعد الباص عن قريتي، بـدأت الأشجار الخضراء بالاختفاء، وبـدأت الأرض تبدو صفراء قاحلةً سـوى من بعض الشجيرات التي نبتت في نــواحٍ متفرقة. ودون أن أسـأل الأسـتـاذ عرفت أنها الصحراء لأنني قـرأت عنها، كـان كـل شـيء يبدو مصفرًا وجـافًـا ورأيــت بعض الحيوانات تستلقي بخمول على الأرض الساخنة، وبــدأت الـحـرارة ترتفع في الباص كلما تقدمنا نحو تلك المدينة البعيدة، وبــدأت قطرات العرق تتصبّب على جبيني، فناولني الأستاذ

علبة ماء كي أشرب وأغسل وجهي، لم أكن أعلم بأننا سوف نأتي إلى هذه المنطقة الصحراوية ولم أحضر معي الماء، معتقدًا أن الرحلة سوف تكون قصيرة، والأستاذ باكو قليل الحديث ولم يخبرني شيئًا عن هذه الرحلة الطويلة.

وبعد ساعات من الحر والتعب في الباص الذي يعلو ويهبط حسب الحفر الموجودة في الطريق، وصلنا لتلك المدينة الكبيرة، الشوارع واسعة ومغبّرة، ويسير عليها الكثير من الرجال والنساء والأطفال، السيارات قديمة ولها صوت مزعج، وهناك محلات قديمة وجديدة تكتظ بالبضائع من كل الألوان والأنواع. أمسك الأستاذ بيدي وطلب مني ألا أفلت يده وإلا سأضيع وأخبرني أن هناك الكثير من الأطفال الذين يضيعون كل سنة في هذه المدينة.

مدَّ يده مشيرًا لسيارة قديمة، وحين ركبنا أخبر السائق أن يتوجّه بنا لتلك المكتبة، وقال لي إن هذه السيارة اسمها سيارة أجرة وأنه يدفع ثمن المسافة التي ينقلنا إليها السائق، لقد كانت تلك أول مرة أركب فيها سيارة، كنت قد رأيت صور سيارات في كتب المدرسة، ولكن ركوب السيارة شيء مختلف وممتع حقًا ومنذ ذلك الوقت كانت السيارات أحد أحب الأشياء إلي، وكنت أرغب لو مشت بنا السيارة لمدة أطول، ولكنني خجلت من طلب ذلك من أستاذي.

وصلنا إلى بناية قديمة لها بوابة خشبية كبيرة مفتوحة ومُطلّة على الشارع، وقرأت الكلمة المكتوبة على اللوحة الكبيرة (مكتبة المدينة) شعرت بالحماس الكبير، حتى كدت أن أسبق الأستاذ ولكنني تماسكت وبطّأت خطواتي كي لا أسبقه.

كان يوجد بعض الطاولات وكراسي صغيرة الحجم يبدو أنها للأطفال، ثم سيدة تجلس خلف طاولة كبيرة ما إن رأت الأستاذ باكو حتى نهضت لتحيته والحديث معه.

بدأت أنظر للكتب التي كانت موجودة على الرفوف، لم تكن المكتبة كبيرةً ولكنها كانت كافيةً بالنسبة لي، فلقد كان هناك عشرات الكتب تتحدث عن مواضيع كثيرةً، وكان هناك كتب فيها صور ملونة، وكتب صغيرة وكبيرة، كتب مليئة بالخرائط وكتب مليئة بصور الحيوانات وكتب لا توجد فيها صور؛ كنت

أرغب لو أنني أستطيع أخذ كل هذه الكتب إلى بيتي في شاحنة كبيرة؛ كي لا أضطر لركوب ذلك الباص المُتعِب.

مديرة المكتبة رحبت بي وأخبرها الأستاذ بأنني طالب متفوّق لذلك اصطحبني معه، فقالت وهي تبتسم بسعادة:

- هـذا رائـع، أن يكون لدينا طالب متفوق، حسنًا، مكافأةً له يمكنه استعارة خمسة كتب على أن يُعيدها في الموعد المحدد.

شعرت بسعادة غـامـرة، وركضت نحو الـرفـوف كي أختار الكتب التي أريدها؛ وحين انتهيت من تصفحها حملتها جميعها، وتوجّهت نحو الطاولة الكبيرة حيث تلك السيدة التي كانت تتحدث مع الأستاذ باكو، ناولتني المديرة بطاقةً صغيرةً باسمي، وكـانـت تلك أول بطاقة أحصل عليها باسمي، شعرت بالفخر الشديد، وقرّرت أن أستمر بتفوقي كي أحصل على بطاقات أخرى.

وقبل أن نعود لقريتنا، تجوّلت مع أسـتـاذي في المدينة حيث كـان يريد شراء هدية لزوجته، كـان كل شـيء مكتظًا ومليئًا بالضجيج، البيوت متقاربة وفقيرة، الـسـيـارات قديمة ولـهـا أصـوات مزعجة تختلط بـأصـوات مـن يبيعون الأسـمـاك والفواكه والملابس، وهناك الكثير من الناس بأشكال وملابس مختلفة، يسيرون ولا يُـحـيّـون بعضهم البعض مثلما يفعل الـنـاس فـي قـريـتـي، يـسـيـرون بسرعة ووجوههم عابسة ومتعبة. رغبت بالعودة بسرعة لقريتي، فلم أشعر بالارتياح فـي هـذه المدينة المكتظّة بالوجوه والبيوت والـسـيـارات، وحيث الغبار يغطي الشوارع ونوافذ المنازل. اشترى أستاذي وشاحًا ملونًا لزوجته، وتمنيتُ لو أنه كان لـدي النقود لأشتري واحـدًا لوالدتي، وبـدلًا من شـراء وشـاح لها وعدتها في قلبي، بأنه حين يصبح لدي نقود أن أشتري لها الكثير من الهدايا.

وفي طريق العودة، بدا كل شيء أكثر هدوءً حتى الناس في الحافلة كانوا مُتعبين، لـم يكن هناك سـوى صـوت «مـوتـور» الحافلة الـذي يرتفع وينخفض حسب عمق الحُفر التي يمر بها على الطريق. احتضنت كتبي أغلى ما أملك، وكـان هناك سؤال يُلح علي ولكنني كنت مـتـرددًا بسؤاله لأسـتـاذي، ولكن كـان لابـد أن أسـألـه، فقلت

له بخجل شديد:

- أستاذ باكو، لماذا أحضرتني معك وقمتَ بهذه الرحلة الطويلة لأجلي؟

ابتسم وقال:

- هـذه الرحلة أقـوم بها مرتين في الشهر لأحضر الكتب، وإن لم يحضروا كتبًا جـديـدةً أُعيد قـراءة الكتب القديمة، ثم إنني لاحظت محبتك للقراءة فكان لابد من مساعدتك كي يستمر هـذا الحب للمطالعة ولا ينطفئ، فحب الـقـراءة يحتاج لرعاية ومتابعة وإلا يخبو ثم يتلاشى، وأنـت التلميذ الوحيد في القرية الـذي يحب الـقـراءة، فكيف لا أساعـدك؟! المهم هو أن تستمر بالقراءة ربما يكون لك مستقبل أفضل من مستقبلي.

وإلـى أن وصلنا تابع أسـتـاذي صمته الطويل وهـو يتصفح الكتب الكثيرة التي أحضرها معه، وأنـا بقيت أراقــب الطريق وأحتضن الكتب التي أحضرناها من المكتبة؛ كانت تلك الرحلة أهـم منعطف في حياتي، لأنني ولأول مـرة أشعر بأن لي كيانًا منفصلًا عن عائلتي، وأنني بِحب الـقـراءة دخلت إلـى عالم جديد أحب كل تفاصيله، وأنني لست في رحلة في حافلة قديمة يعلوها الغبار من الخارج والـداخـل، تسير بطيئةً عبر الـشـوارع غير المعبدة وتتعثر بين الحفر، ولكنني في رحلة إلـى العالم كله، فكُتبي هـذه أصبحت طائرتي التي تقودني إلـى بـلاد أخرى وعـواصـم أخـرى، وأقـابـل أشخاصًا جـددًا. وحين وصلت البيت أدركـت على الفور بأنني أصبحت إنسانًا آخر فقط بسبب تلك الكتب القليلة التي أحملها. والوحيدة التي شعرت بذلك هي أمي، فحين دخلت نظرت إلي بتأمل وقالت:

- هل رحلة مثل هـذه تغير ملامح وجهك لهذا الحد، أنـت لست ذلـك الصبي الذي خرج في الصباح الباكر، هناك شيء ما تغير، ما هو؟ ماذا حدث؟ هل تضايقت من الرحلة؟ أم ماذا؟

ابتسمتُ وقلتُ لها:

- لا يا أمي، لم يحدث شيء، ولكن أتى معي أصدقاء جدد.

وناولتها تلك الكتب، فتركت المكنسة الـتـي كـانـت تحملها وجلست على الكرسي الخشبي القديم، وبدأت تنظر لكتبي بذهول واستغراب وقالت:

- هذه أول مرة أرى كتبًا مثل هـذه، لم أذهـب إلى المدرسة ولم أتعلم القراءة والكتابة، ولكن هـذه الأشكال وهـذه الصفحات تعجبني كثيرًا، أنـت محظوظ لأنك تقرأ وتكتب، يا لها من صور ومن أشكال وحروف!

نسيت أمي تنظيف البيت والطعام الـذي كاد أن يحترق، لقد تحركت في نفسها تلك الكاتبة المدفونة، حتى أنها نسيت وقوفي بجانبها، وحين انتبهت، ناولتني الكتب وعادت لتمسك المكنسة، ثم قالت:

- أنت بعد أن تقرأ هذه الكتب سوف تتغير كثيرًا، بل لقد تغيرت بمجرد إحضارها معك، لا أدري إن كنت ستتحدث مع إخوتك كما في السابق، فهذه الكتب تغير الناس، لقد أخبرني بذلك حكيم القرية، حتى أنـه ألقى باللوم عليّ لأنني سمحت لك بالذهاب، وقـال لي إن هـذه الكتب تتلف الـدمـاغ وتجعل الشخص غريبًا عن الناس.

ضحكت وقلت لها:

- أمـي، إنها مجرد كتب، وحتى لا تقلقي كثيرًا سوف أقـرأ لك ولإخوتي منها في كل ليلة... ما رأيك؟

أشرق وجهها بسعادة وقالت:

- أجـل...أجـل... أريـد أن تقرأها لي حتى ولـو تلف دماغي، فحكيم القرية ذلك لا يستطيع أن يعالج كل الناس وأحيانًا أجده غبيًّا جدًا ولكن أخاف أن أقول ذلك.

ضحكنا سويًّا، وأعدت لي طعامي المفضل الذي كان عبارةً عن عصيدة البطاطا الحلوة، وجلسنا معًا نأكل ونتحدث في الزاوية الصغيرة من بيتنا والتي كنا نسميها المطبخ، كانت سعادتي تملأ كل كياني، وبمجرد الانتهاء من الطعام، خرجت راكضًا لأختلي بكتبي تحت الشجرة الكبيرة خلف منزلنا الخشبي، وأذهب في عالم بعيد عن القرية وبعيد حتى عن حدود نفسي، عالم من الكلمات والحروف والصور، تلك الكتب كانت سفنًا ضخمةً تحملني في رحلات بعيدة إلى

أقصى بقاع الأرض وإلى عمق العقل البشري، رحلات لا أنساها إلى هذه اللحظة؛ لأنها غيَّرت تشكيل ذاتي وجعلتني إنسانًا آخر، فمنذ تلك اللحظات تحت الشجرة مع كتبي الصغيرة تغير العالم بنظري، وأدركت أن هناك خلف الجبال الخضراء والتلال البعيدة عوالم أخرى لابد من أن أكتشفها، أو على الأقل أن أقرأ عنها وأعرف أنها موجودة.

كامالي

أرسل زوجي الخادمة لتشتري له ذلك الدفتر الأسود المُخملي، لم يطلب مني أن اشتريه له رغم أنه يطلب مني شراء كل ما يلزم للبيت، ويضع ذلك الدفتر الأسود تحت وسادته أو في درج الخزانة الصغيرة قرب سريره، ويحرص أشد الحرص على ألا أره أو ألمسه، فأتصرف كأنني لا أراه، لا أهتم بذلك الدفتر مهما كان الذي يكتبه به؛ فعلاقتي مع زوجي انتهت منذ سنوات، ولم يبقَ بيننا سوى عقد الزواج وذكريات جميلة قليلة حين كان الحب يجمعنا، ثم بدأت تلك الذكريات تنقرض مع مرور السنوات، ولم يبقَ منها سوى قصاصات متناثرة حين أجمعها لا أرى فيها سوى أشكال مشوهة صفراء وقديمة؛ فأنسحب لعالمي الصامت وأحاول أن أحيا الحياة التي فرضها زوجي عليّ، والتي هي قدري والتي لم أعد أقاوم صمتها أو كآبتها.

ولكنني ورغم قصاصات الذكريات المتناثرة حولي، لا أزال أحتفظ بالصور والأحداث كاملة في ذكرياتي ومشاعري، لا تزال تلك الحياة القديمة والسعيدة تسكن أعماقي، رغم أنني أعيش في كآبة رمادية لا أعرف كيفية الخروج من دوامتها الهادئة المخملية واللامتناهية، هنا في باريس عاصمة الجمال والموضة وكل ما تحلم به امرأة تعيش في أفريقيا، ولكنني هنا سجينة هذا الحزن الطويل الصامت والثقيل؛ في فيلا فخمة مع زوجي الجرّاح الثري والمشهور.

قطرات المطر تتساقط بهدوء عبر النافذة وأنا أشعر بالشوق لشمس بعيدة، لحرارة أفتقدها في جسدي وفي المكان، أنظر لنفسي عبر المرآة، إلى المرأة التي قاربت الأربعين من عمرها، والتي رحلت منذ سنوات من قريتها الجميلة في أفريقيا لتلحق بزوجها في فرنسا

أنظر لهذه المرأة السوداء التي ترتدي الملابس الفاخرة وخاتمًا ألماسيًّا باهظ الثمن، ولا أرى سوى وجه حزين بدأت التجاعيد تحفر خطوطها بعمق على البشرة الداكنة. وبعد سنوات من الغربة تعلمت كيف أتجاوز مراحل الحزن، وتأقلمت مع الكآبة وتعايشت مع صمتي الداخلي، وعشت حياتي مثل أي امرأة فرنسية تعيش حياة مرفّهة في باريس، ولكنني لم أستطع أن أتعلم

كيف أنسى جذوري. صنعت حياةً فرنسيةً لي، غيَّرتُ مظهري وطريقة المشي، غيَّرتُ تسريحة شعري وزينتي لأصبح امرأة باريسية، وبدأت أشعر بطعم السعادة من جديد عبر استقلالي المادي وعملي الذي أحب، كنت سأطلب الطلاق وأنفصل عنه وأعيش حياتي بشكل مستقل بعيدًا عنه، وعن كل الألم الذي سببه لي، ولكن وكأنه يصرّ على مصادرة حياتي سواء بإرادته أو بإرادة القدر، كأنني مرتبطة بهذا الرجل لآخر نفس من أنفاسه وربما لآخر نفس من أنفاسي، أشعر أنني سجينة تافارا، أنني لست زوجته بل سجينته، سجن بلا قضبان، قضبانه هي الجذور التي تجمعنا، الذكريات القديمة، ضعفي في بلد أوروبي غريب عني وأنا غريبة عنه، لوني الأسود في بلد أبيض، رفْضُ زوجي للونه الأسود وعشقه لكل ما هو أوروبي، كل تلك القضبان غير المرئية شيّدت أسوار سجن ضخم أتجوّل فيه بحريتي، ولكنني لا أستطيع الخروج منه، وكلما اقتربت من التحرر منه عاد قيد آخر ليغلق طريق الحرية أمامي.

اعتقدتُ أنني تحررت منه حين تأقلمت مع الحياة في باريس، وأتقنت كيفية العيش فيها، وبدأت أتذوق عذوبة الحياة فيها، ولكن وفجأةً تغير كل شيء، منذ أن أخبرني بأنه مريض بالسرطان، توقفت عجلة السعادة من جديد، وعادت غيوم الحزن تُحلّق في سماء روحي، كأنه يصرّ بكل وجوده على أن يكون سبب تعاستي، مراتٍ بسبب تكبره وجفائه، ومرةً أخيرةً بسبب مرضه، والآن وبعد بضعة سنوات من الابتعاد عنه والشعور بالسعادة دونه، يعود من جديد ثقيلًا على روحي، خانقًا لأحلامي، وداكنًا في وجودي، ولكني ورغم كل شيء لا أستطيع التخلي عنه، لو كان قويًا كالسابق عنيدًا ومتكبرًا لتركته دون تردد، ولكن الآن لا أستطيع أن أتركه في ضعفه، رغم أنني عشت في قبو قسوته إلا أنني لم أتعلم شيئًا من تلك القسوة، لم أنجح بأن أجعل قلبي حجرًا أو صخرةً.

بالأمس كان زوجي يعاني من آلام شديدة مما اضطرني لاستدعاء الطبيب حيث إن الممرضة لم تستطع أن تساعده على تخفيف ذلك الألم، أتى الطبيب وأجرى الإسعافات اللازمة له، نام زوجي لساعاتٍ طويلةٍ بعد ذلك الألم الذي كان يشعر به. جلستُ بجانب السرير لأطمئن بأنه بخير، وأذهب للنوم بعد ليلة طويلة من القلق ومن متابعة حالته مع الطبيب. ولكنني وقبل أن أغادر الغرفة، وقعت عيناي على ذلك الدفتر المُخملي، ترددت كثيرًا قبل أن أمسكه وأرى ما فيه، ثم

طغى فضولي على ترددي، أمسكت بالدفتر وفتحته بهدوءٍ شديدٍ، وقرأت السطر الأول ثم نظرت لزوجي لأتأكد بأنه لا يزال نائمًا، ثم قرأت السطر الثاني، ثم نظرت إليه، ثم السطر الثالث، ثم الصفحة الأولى والثانية وبين كل صفحة وأخرى أنظر إليه لأتأكد بأنه لا يزال نائمًا.

قرأت كل ما كتبه في ذلك الدفتر، وغادرت الغرفة لأذهب للنوم، لم يَنتبْنِي أي شعور تجاه ما قرأته، لأنني أعلم بأنه يكرهني ويحبني بذات الوقت، ولكنني شعرت بالصدمة لأنه لا يزال يتذكر أفريقيا وقريتنا الصغيرة، لم أَنَمْ في تلك الليلة، وكنت قد قررت منذ سنوات ألا أبكي وأن أتوقف عن الشعور، ولكنني بهذه الليلة بكيت لأن زوجي لا يزال يتذكر بأنه أفريقي، لا تزال حياتنا القديمة حية بأعماقه، لا تزال دماء أفريقيا تسري في عروقه رغم رفضه السابق لها، وإصراره على أنه أوروبي أسود البشرة، قرأت الحنين والذكريات، أحسست بأنفاسه التي تتوق لتلك الأرض، فقط عند لحظات الضعف والمرض والاقتراب من الموت، نتشبّث بتلك الجذور التي شكلت كياننا في الحياة، التكبر يمنحنا شعورًا زائفًا بالأمان ولكن الضعف يمنحنا شعورًا حقيقيًّا بواقع حياتنا، وطوال حياتي أحببت الضعف ولم أكن أخجل من ضعفي؛ لأنني كنت أرى في قريتي أن هناك نباتاتٍ قويةً تنمو بسرعة ويشتد عودها، وأن هناك نباتاتٍ ضعيفةً تنمو ببطء شديد، ولكنها تبقى على قيد الحياة، وأحيانًا تلك النباتات القوية تتكسر أمام العواصف، وتبقى النباتات الضعيفة حية؛ لأن العواصف لم تستطع كسرها بسبب ذلك الضعف، ولأول مرة منذ وصولي لفرنسا أشعر بالأسى لأجله ولأجلي وأشعر كم أننا غريبان في أرض بعيدة، وأننا لو كنا في قريتنا لأتى كل أهل القرية ليحاولوا مساعدته على الشفاء، لأحضروا الحكماء والمشعوذين من كل الأنحاء، ولبقي أهل القرية ليلًا ونهارًا أمام البيت ليتأكدوا إن كنا بحاجة إلى شيء، وليواسونا في حزننا، ولكننا هنا نعيش الغربة والوحدة رغم الثراء والشهرة والنجاح، الذي حققهم طوال سنوات غربته الطويلة.

وفي الصباح ذهبت للمكتبة واشتريت دفترًا مشابهًا لدفتره، مُخملي ولكن لونه أصفر مثل لـون شمس أفريقيا. وقــررت أن أكتب ذكرياتي، فحين قــرأت ما كتبه زوجــي شعرت بـالـدفء يسري بعروقي لأنــه كتب عـن ذكرياته القديمة، وشعرت بأنني قد أشعر بذلك الــدفء من جديد حين أكتب عن تلك الذكريات القديمة والبعيدة، حين أكتب عن مكان محكوم علي ألا أعـود إليه أبــدًا، إلـى أرض كانت وطني وأصبحت كوكبًا بعيدًا لا أحلم بالعودة إليه. وأريــد أن أكتب قبل أن يموت زوجــي لأنه ورغـم كرهه لي أصبح جـزءًا من وطني الـذي لن أعـود إليه وزوجــي قطعة منه، من أرضه ولونه، من ذكرياته ومشاعره.

أقـف خلف النافذة وأراقــب تساقط قـطـرات المطر على أشجـار الحديقة، ثم أرى طفلة صغيرة ســوداء البشرة تنظر إلـي عبر الـزجـاج الشفاف، كأنها خيال آتٍ مـن البعيد مـن الأرض الـسـمـراء، أمـد يـدي لألمس وجهها الأســود الـنـاعـم، ولكن يــدي تشعر بالبرودة الجافة لزجاج نافذتي المُطلة على الحديقة. أسحب يدي وأكتفي بمراقبة وجـه تلك الطفلة الـســوداء المبتسمة والسعيدة وتـقـول لـي إن اسمها كامالي.

كامالي هي أنـا، تلك الطفلة التي أصبحت امــرأةً تعيش في فرنسا؛ لا أزال أنظر عبر النافذة كي أحتفظ بوجه كامالي الطفولي وكـي أستجمع كل ذكرياتي، وأعـود في رحلة مع الــروح إلى قريتي على الطرف الآخـر من هذه الأرض. لابد أن استعيد طفولة كامالي كي أكتب عن الإنـسـان التي تقف على الطرف الآخـر من النافذة الـبـاردة، فعلى الطرف الخارجي منها هناك تلك الطفلة السعيدة المبتسمة، وعلى الطرف الداخلي منها توجد أنا المرأة الكبيرة بوجهها الصامت والحزين، ما يجمع بين الوجهين هو أن كلا الوجهين لونهما أســود، كليهما عيونهما ســوداء واسعة، عيون الطفلة تبدو بـراقـة كنجمة فـي السماء، أمـا عيون الـمـرأة فأصبحت ضيقة ومطفأة ولكن لا يـزال فيهما بريق خافت يختفي ثم يعود كأنهما لا تـزالان تبحثان عن لمعانٍ يأتي من البعيد.

فـي تلك القرية الإفريقية النائية كانت طفولتي، ولـم أكـن أعــرف أنــه توجد

بـلاد أخـرى غير قريتي، كـان كل الكون هو تلك القرية الهادئة ببيوتها الخشبية البسيطة، والحيوانات التي تتجول بين بيوت القرية كما تـشـاء، ثـم هناك أمي وأبـي وأربـع أخـوات وخمسة إخـوة، جميعنا نعيش في ذلك البيت الخشبي الصغير والـذي تم تقسيمه بقطع من القماش الطويل والممتلئ بـالألـوان والأشـكـال، وعلى مدخل البيت وضعت والـدتـي كـراسـي صغيرةً تجلس عليها مـع جـاراتـنـا، يتبادلن أطـراف الحديث ويطهونَ الطعام معًا. أما والـدي فبعد الانتهاء من علمه في الحقل يجلس مـع أصـدقـائـه تحت الشجرة الكبيرة الـتـي تُظلل بيتنا، يشربون الشاي الأســود الـداكـن، يضحكون ويتحدثون إلـى أن تغيب الشمس، فيغادر الجميع إلـى منازلهم ثم يدخل أبـي إلـى البيت يتحدث معنا قليلًا ثم يذهب للنوم، تخلو الطرقات الترابية من الـنـاس، ويحل الـهـدوء العميق على القرية، فلا نسمع سوى صوت بعض الحشرات أو البوم الذي يحطّ على الأشجار من حين لآخر.

وفي ذلك الليل حالك السواد حيث لا أضـواء في الشوارع ولا في البيوت، وبعد أن تطفئ والدتي الفانوس الصغير المعلق في سقف البيت، تغرق القرية كلها في ظـلامٍ دامــس، وكــان ذلـك الـظـلام مـن أشـد الأشـيـاء المُحببة إلـى نفسي، خصوصًا حين تبدأ أختي بسرد القصص الصغيرة لنا، أو حين يخبرنا أخـي الكبير بما حصل معه خلال اليوم، فتعلو ضحكاتنا أو تعلو نبرات التعجب، وأحيانًا الغضب المكتوم وذلـك حسب القصص والأحــداث، وهكذا يتحوّل الليل إلـى مسرح كبير في خيالنا، شخصياته تبدو كأشباح داكنة الـلـون، ولا أضـواء بذلك المسرح، فقط أطياف تمر في خيالنا الـذي ينسج القصص ويختلق الأحــداث، ويبدو الليل وكأنه حياة أخرى منفصلة عن عالم النهار، حيث يتجول كل منا بخياله الرحب في قريتنا الصغيرة، ولـم يكن من الممكن أن نذهب بخيالنا إلـى أبعد من تلك القرية، فقد كانت كل عالمنا وكل المساحة من الوجود الذي تتجول فيه أرواحنا وأجسادنا.

وحين يبدأ التعب والنعاس، يغفو كل منا تدريجيًّا، إلـى أن تصمت الأصــوات، وتتوقف الضحكات ويغرق الجميع في نـومٍ عميقٍ لم أعرفه أبـدًا في حياتي بعد أن غـادرت قريتي. وفي الصباح توقظنا والدتي للذهاب للمدرسة، ولم تكن تُصر على ذهابنا، فالبنات سـوف يتزوجن والأولاد سـوف يتابعون العمل في الحقل، لذلك

كـان الـذهـاب للمدرسة مسألة اختيارية، وكنا نذهب لأننا كنا نحب المدرسة ولكننا لم نهتم فعلًا بـالـدراسـة، كنا نقابل أصدقاءنا وصديقاتنا في تلك الغرف الخشبية المكتظة بـالأولاد والبنات، وحيث كنا نضحك أكثر مما نتعلم، وأحيانًا يقف الأستاذ حائرًا لا يـدري كيف يتصرف معنا إلـى أن يهددنا بأنه لن يسمح لنا بدخول الفصل مرة أخرى، فنلتزم بالهدوء لئلا ينفذ تهديده.

ولكن كـان هناك صبي واحـد يأتي للمدرسة معنا، بعيون لامعة متعطّشة لكل كلمة ورقـم وحـرف، وكـان يجلس في المقعد الأمـامـي؛ ليتمكّن من سماع كل كلمة والمشاركة بكل سـؤال؛ وكـان دائـمًـا الأول على المدرسة، كـان ذلـك الصبي بعيونه الواسعة ووجهه الجميل تـافـارا زوجـي الـذي أحببته منذ سنوات طفولتي الأولـى، والذي ينام على سرير المرض في هذه الفيلا الواسعة في باريس.

اليوم ذهبت لغرفته حين كان نائمًا، لأرى دفتره الأسـود من جديد وأقـرأ ما كتب فيه، ولكني لم أجد ذلك الدفتر، لا أدري أين خبأه، لقد شعر بأنني قرأته أو ربما أخبرته الممرضة بأنها رأتني أقـرأه، فحرص على أن يخبئه ولم أستطع قـراءة ما كتبه بعد ذلـك، ولكنني أحببت فكرة الكتابة وقـررت أن أستمر في الكتابة بدفتري؛ لأن ذلك كان يُشعرني بأنني لا أزال هناك في أرض الشمس والماء والقمر، أنني أعود هناك عبر هـذه الصفحات البيضاء وأرى الأمـاكـن التي أحببت والأشـخـاص الذين أحببتهم، أصبح دفـتـري عالمي الآخـر الـذي أعيشه بصمت ولكنه يملأ وجـودي بالحنين والذكرى وأمل العودة.

تافارا

أصبحت انتظر السفر مع أستاذي إلى المدينة لاستعارة الكتب، أصبحت تلك الرحلة إلى مكتبة المدينة جزءًا من حياتي لا أستطيع الاستغناء عنه، وكلما ذهبت معه لاستعارة الكتب، شعرت بأنني بعد فترة من الزمن سأقرأ كل الكتب التي في المكتبة، وحين أفكر بذلك ينتابني القلق الشديد؛ فلو قرأت كل تلك الكتب من أين سأحصل على كتب جديدة؟

فوضعت دفترًا خاصًّا للمكتبة أسجل فيه الكتب التي قرأتها، وفي كل مرة أذهب فيها إلى المكتبة أسجل أسماء الكتب التي على الرفوف والتي سوف أقوم بقراءتها، إلى أن امتلأ دفتري بجميع أسماء الكتب، وأصبحت كلما قرأت كتابًا أشطب اسمه من قائمتي؛ لأعرف كم تبقى من الكتب التي أريد قراءتها.

وهكذا كانت تمر الأيام والشهور وحياتي معلقة في المكتبة، ولا أجد نفسي بأعمال الزراعة وتربية المواشي، كانت والدتي تدافع عني في كل مناسبة، وتخبر والدي وإخوتي بأن ابنها تافارا سوف يكون طريقه طريق العلم، ولا يجب أن يطلب أحد منه غير الدراسة، ومع الوقت لم يعد والدي يطلب مني مساعدته، بل يكتفي بأن يستمع لي حين أتحدث مع أمي عن الكتب التي أقرأها.

وبعد فترة من الزمن انتقل اهتمامي من كتب التاريخ والجغرافيا والروايات إلى الكتب التي تتحدث عن جسم الإنسان، وبدأت أشعر بالانجذاب الشديد للطب ولأي معلومات عن جسم الإنسان والأمراض والأعشاب، كان في المكتبة بضعة رفوف تتضمن تلك الكتب الطبية، وقد قرأتها بسرعة قياسية، وحين انتهيت من قراءتها جميعها شعرت بالأسى وسألت الأستاذ باكو:

- ألا يوجد كتب عن الطب وجسم الإنسان في مكان آخر، لقد قرأت كل هذه الكتب؟

نظر إلي باستغراب وقال:

- ماذا؟ قرأتها كلها!

- أجل، لقد أعجبتني كثيرًا.

صمت قليلًا، وهو يتأملني ثم قال:

- يبدو يا تافارا أنه قد حان الوقت لتتعرّف على شخص سوف يجيب عن سؤالك، هيا بنا.

خرجنا من المكتبة وسرنا معًا بين الطرقات المتعرجة، إلى أن وصلنا إلى بيت صغير وأنيق تحيط به حديقة جميلة. وقفنا أمام الباب الخشبي الذي زينته بعض الزخارف الأفريقية القديمة، طرق الأستاذ الباب وبعد حين فتح الباب رجل طويل القامة يلبس نظارات إطارها أسود، جعلته النظارة يبدو أكثر طولًا وأكثر هيبةً. استقبلنا بحفاوة فقد كان صديق الأستاذ منذ سنوات.

دخلنا إلى بيته الأنيق بأثاثه الخشبي القديم والأشجار الطويلة التي أحاطت بشرفته، وتلك الزهور التي تسلقت الجدران، ثم رائحة القهوة التي اختلطت برائحة البخور التي كانت تعدها زوجته.

جلسنا معًا في الحديقة نشرب القهوة، وبقيت صامتًا طوال ذلك الوقت إلى أن قال له الأستاذ باكو:

- تافارا هذا الدكتور ساموني، تلميذي تافارا سألني اليوم سؤالًا لم أستطع الإجابة عنه، وأنت الوحيد الذي يستطيع أن يجيبه عن هذا السؤال، لقد قرأ جميع الكتب التي تتحدث عن جسم الإنسان، وعن الطب والأدوية والأعشاب الموجودة في مكتبة المدينة، ولكن لم يتبقَّ المزيد من تلك الكتب، وسألني أين يستطيع أن يجد مثل تلك الكتب، وحيث إنك طبيب فأعتقد بأنك تستطيع أن تجيبه عن سؤاله.

ضحك الطبيب الوسيم وقال:

- توجد كتب ولكنها باللغة الفرنسية، ومنها جزء كبير موجود في بيتي وجزء آخر في المستشفى حيث أعمل، فهل تعرف اللغة الفرنسية؟

نظرت إليه بدهشة وأشرت بالنفي.

- عمومًا هـذه الكتب سـوف تكون صعبةً ومعقدةً بالنسبة لـك؛ لأن من يدرسها هم الأطبـاء، لابـد أن تقرأ كتبًا أخـرى موجودة في المكتبة، ثم إذا قـررت أن تدرس الطب سوف تقرأها بطبيعة الحال.

- ولكنني أحـب أن أقرأها ولا أعـرف إن كنت سـأدرس الطب، فأهلي لا يملكون المال لأذهب للجامعة.

صمت الطبيب قليلًا ثم توجّه بالحديث إلى الأستاذ باكو:

- أنت تعرف الفرنسية، لماذا لم تعلم الأولاد في المدرسة هذه اللغة؟

ضحك الأستاذ وقال:

- أجـد صعوبة بتعليمهم الـمـواد الأسـاسـيـة، فكيف سأعلمهم الفرنسية وهم يعرفون بأنهم لن يخرجوا من قريتهم إلى أي مكان آخر؟.

- إذن علِّمها لمن يريد ذلك. هل تريد ذلك يا تافارا؟

- مـاذا؟! أنـا أتعلم الفرنسية؟! أجـل...أجـل... بالطبع، ثم أقـرأ الكتب التي في مكتبتك، هذا إذا سمحت لي.

ضحك الطبيب وربت على كتفي تأكيدًا على الموافقة.

مكثنا معه بعض الوقت ثم غادرنا لكي نلحق بالباص الأخير العائد إلى القرية، وفي الطريق سألت الأستاذ بخجل:

- هل ستعلمني الفرنسية؟

ابتسم وقال:

- أجـل وبكل سـرور، بشرط أن تحافظ على مستواك الـدراسـي، وألا يؤثر ذلك على تحصيلك العلمي، فالفرنسية ليست سهلة.

- أعـدك بذلك، ولكن أنت تتعب لأجلي فأنت تأتي للمكتبة معي ثم الآن اللغة

الفرنسية...

- لا أتعب بل أستمتع، ولابـد أن آتـي للمكتبة من حين لآخـر فأنا أحتاج للكتب أيضًا، أما اللغة الفرنسية فأنا سعيد بأن أدرِّسها لك؛ لأنني سأجد من أتحدث معه بالفرنسية في القرية.

وهكذا بـدأت دروس اللغة الفرنسية التي تعلمتها سريعًا؛ لأنني كنت أرغب بقراءة تلك الكتب الموجودة عند الطبيب، وكلما تعلمت الفرنسية أكثر أصبحت أتحدث أقل مع والدتي التي بـدأت تشعر بالحزن لابتعادي عنها، فلم تعد تتحدث معي كالسابق حتى أبـي وإخـوتـي بـدأوا يتجنبون الحديث معي، لـم أكـن أحسن التعبير عن نفسي، ولكنني كنت أتجاهل حزني لأنهم تغيروا معي.

اجتمعنا ذات يوم على طعام الغداء، فنظرت إليهم جميعًا وقلت فجأة:

- لماذا تغيرتم معي؟ لما لا تتكلمون كالسابق معي؟

ابتسم والدي وقال:

- لابد أن نتعلم اللغة الفرنسية لنتحدث معك أليس كذلك؟!

أجبته بضيق:

- والـدي أنـا أتعلم الفرنسية لكي أستطيع أن أقـرأ الكتب التي توجد عند ذلك الطبيب، ولم أعد أجلس معكم كالسابق لأنني لابد أن أدرس دروســي في المدرسة وكذلك اللغة الفرنسية.

أجابني والدي بهدوء:

- بالطبع يا بني، وهـذا جيد ولكن مـاذا ستفعل بعد ذلـك؟ أنـت لا تعرف شيئًا عن الزراعة ولا عن حيوانات المزرعة، كيف ستعيش بعد انتهاء المدرسة؟

نظرتُ إلى أمي عسى أن تقول شيئًا ما، ولكن أحد إخوتي قال ضاحكًا:

- سوف يستمر بقراءة الكتب ونحن نحضر له الطعام وحليب البقر...

ضحك بقية إخوتي إلى أن نهرتهم والدتي قائلةً:

- توقفوا عن هــذا، أخوكم يحب الـدراسـة والـقـراءة، دعـوه يفعل ما يريد، ولا داعـي للسؤال ما الـذي سيفعله لاحـقًـا، أمـا العمل في الـزراعـة فيمكنه تعلم ذلك في أي وقت.

عـاد الصمت يلفُّ المكان، ومنذ ذلـك الوقت أدركـت ومبكرًا بـأن الفجوة تتسع بيني وبين إخوتي وحتى بيني وبين أبـي، وأن الكتب أصبحت أقـرب إلى نفسي من أبـي وإخـوتـي، فقررت أن أغـرق فيها طـوال الوقت دون أن أهتم مـاذا سـوف أفعل لاحقًا.

وفي المساء أتت أمي وجلست بجانب فراشي وقالت بصوتٍ خافتٍ:

- اسمع يـا تـافـارا، لـم أعـد أستطيع أن أحكي لـك القصص فأنت كبرت الآن، ولكن لابد أن تعلم بأنني أريـدك أن تقرأ وتتعلم، لقد كان حلم طفولتي أن أقرأ ولم أستطع تحقيق حلمي والآن ورغـم أنـك تبتعد عني بسبب دراسـتـك وهــذه الكتب التي لا تنتهي، إلا أنني فخورة بك وأريـدك ألا تتوقف عن التعلم، وأرى بعينيك ما لا يـراه والـدك الـذي لا يفكر سوى بالأبقار والمزرعة؛ حتى لو وجدتني صامتةً حين ينتقدوك أعلم بأن قلبي وروحي معك.

احتضنت أمـي طويلًا، وكانت تلك الكلمات بداية لطريق حياتي الـذي لم أكن أعـرف أيـن سيتجه، ولكن كلمات أمـي جعلتني أستمر في المسير دون أن أعلم تفاصيل الطريق، جعلتني أمتلك الـجـرأة لأمضي نحو المجهول، مجهول يسمى العلم أتجه إليه ولا أعلم أين سيقودني، كل ما أعلمه كان هو أنني لم أعد أستطيع أن أتوقف.

كامالي

بدأ تافارا يتفوق علينا جميعًا، أصبح يتحدث الفرنسية، كل من في الصف ينظر إليه بانبهار، وأصبحت الفتيات يحلمن به ويتمنين أن يقع بحبهن، فهو طويل القامة، واسع العينين بشرته السوداء تتألق تحت أشعة الشمس وملامحه جذابة، لم يكن ينقصه أي شيء لتقع أي فتاة بحبه؛ ولكنني كنت أتجنب النظر إليه لأنني أعلم بأن كل الفتيات كن ينظرن إليه، وهو لم يكن يرى أيًّا منهن، كل ما كان يراه هو تلك الكتب التي يحملها معه ويقرأ بها حتى خلال استراحة الغداء. ولكنني لم أكن أمنع نفسي من مراقبته من بعيد، ومراقبة الفتيات اللواتي يتقربن إليه ويتحدثن معه وهو يجيب باقتضاب ثم يعود إلى كتبه؛ وفي النهاية يئس العديد منهن واعتقدن بأنه بلا مشاعر، ومنهن من لم تتوقف عن المحاولة المرة تلو الأخرى.

ولكن حادثة بسيطة غيّرت مجرى الأحداث وجعلت تافارا ينتبه إلى وجودي، لقد كنت الأجمل من بين الفتيات ولكنني لم أكن فخورة بذلك الجمال، بل اعتقدت بأن جمالي عادي وأنني مثل جميع الفتيات حولي، إلى أن بدأت نساء القرية بالحديث عن الزواج لمن في سني، وأصبحت مرشحة للزواج من عدة شباب بسبب جمالي، وأصبحت أمي تطلب مني أن أرتدي ملابس أجمل من السابق كي يظهر جمالي بشكل واضح، ولكنني كنت أرفض ارتداءها وأخبرت والدتي بأني لا أريد الزواج، ليس قبل أن أنتهي من المدرسة، ولم أخبرها بالطبع بأنني لابد أن أرى تافارا كل يوم حتى ولو لم ينظر إلي أو يهتم بوجودي. ولكن أمي أصرّت على فكرة الزواج وأن المدرسة لا أهمية لها وأن ابن زعيم القبيلة سوف يتقدّم لخطبتي، وقالت لي باستغراب:

- ألا تدركين كم أنت جميلة؟! العديد من الأمهات تحدثن معي بخصوص زواجك، لابد أن تغيري من طريقة ملابسك وتصرفاتك، أنت لست صغيرةً، أصبحت أنثى كبيرةً وجميع الشباب ينظرون إليك، لابد من أن تتزوجي، وجميع الفتيات يتزوجن بسنك.

- ولكن أنا لا أريد الـزواج، أريد أن أتابع دراستي في المدرسة وأن أرتـدي ملابسي البسيطة كالسابق، ولست جميلة كما تقولين أنـا مثل بقية الفتيات وهناك من هنّ أجمل مني.

- يا لك من غبية وعنيدة، أنـت لا تدركين معنى الجمال، نحن النساء كبيرات السن والـرجـال نعرف جيدًا من الفتاة الجميلة، وإذا تابعت دراستك في المدرسة فبعد سنتين ربما لن تجدي من يتقدم للزواج منك، أنت تعرفين أن جميع الفتيات يتزوجن بسن صغيرة.

- لا أريد الزواج، ولا أحب الرجال.

- مـاذا؟! هل تريدين أن تبقي في بيت أهلك دون زواج؟! هل تريدين الفضيحة لنا، الفتاة التي دون زوج لا قيمة لها... سـوف أخبر والـدك وهـو من سـوف يجبرك على الزواج بالإقناع أو بالضرب.

لـم تتوقف مـحـاولات والـدتـي، إلـى أن أخـبـرتْ والــدي بأنني أرفـض تعليماتها بخصوص الــزواج، أنني لا أريــد أن أتــزوج؛ أتــى والــدي ومعه تلك العصا الرفيعة التي كان يـؤدب بها إخوتي إن أخطأوا، وكانت تلك المرة الأولــى التي يضربني بها، تغيرت ملامح وجهه حتى كـدت لا أعـرفـه، وأصبح عدوانيًّا شـرسًـا، ضربني بالعصا على كل أنحاء جسدي، لم أصـرخ ولكنني كنت أبكي وأتألم بصمت، وحين انتهى من الضرب أو بالأحرى حين تعب من الضرب قال لي:

- لا مكان لبنت بلا زواج بهذا البيت، عليك أن تتزوجي خلال هذا العام، العام المقبل سـوف تكونين في بيت زوجـك، هـذه آخـر سنة لك في المدرسة، وإلا سوف تُضربين إلى أن يأخذك زوجك من هنا.

خرجت راكضةً من البيت باتجاه البحيرة، وجلست قرب الشاطئ أبكي بصمت، لقد كانت تلك المرة الأولــى التي أرى فيها والـدي بتلك الصورة العنيفة والشرسة، وشعرت بالخوف من العودة إلـى البيت، لم أكـن أخـاف منه من قبل ولكنني الآن كأنني أتعرف على شخص جديد لا أحبه ولن أحبه أبـدًا. لم أكن أعـرف لماذا لا أريد

الـزواج، رغـم أن كل الفتيات لا يفكرن إلا بـالـزواج في أسـرع وقـت وتـرك المدرسة، وكنت أدرك بأن الـزواج في قريتي هو أهم ما تقوم به الفتاة أو أهم شيء في حياتها، ولكنني لم أكـن أحـب ذلـك الـزواج، لم أكـن أريـد أن أكـون مع رجـل ما طـوال عمري في بيت صغير، أربـي الأولاد وأعـد الطعام وأساعد في الحقل، لم يكن لـدي فكرة أخـرى عن ما يمكن أن أفعله عـدا عن الـزواج، ولكن كل ما في تفكيري هو الرفض لهذا الشيء الذي اسمه زواج.

كنت غارقةً بأفكاري ودموعي إلـى أن سمعت صوتًا ينادي اسمي، التفت لأرى من هناك، لقد كان تافارا، يقف ورائـي يحمل كتبه وينظر لي بقلق، شعرت بالخجل ومسحت دموعي، فقال لي:

- لقد سمعت صوتك بكائك وأنا أمر من هنا، لماذا تبكين يا كامالي؟

لم أعـرف بماذا أجيبه، ولكن الدموع انهمرت أكثر من عيوني، ولـم أستطيع أن أجيب، فجلس بعيدًا عني وقال:

- إذا كنت لا تريدين إخـبـاري، فأرجو أن تتوقفي عن البكاء، فهذا شـيء حزين جدًا، أنت دائمًا مبتسمة وسعيدة.

تفاجأت حين قـال ذلـك ولـم أتخيل بأنه يعرف أي شـيء عني، حتى أنـه يعرف اسمي، فقلت له وأنا أمسح دموعي:

- ولكن، كيف تعرف اسمي؟

- نحن في الفصل معًا، هل نسيت ذلك؟

- أجل ولكنك لا تهتم بالحديث مع أحد.

- أنـا أحـب الـقـراءة أكثر من الحديث، ولكنني أعرفك وأعـرف اسمك، والآن لما تبكين؟ عيونك أصبحت شديدة الاحمرار، هذا يعني أنك تبكين منذ فترة طويلة.

صمت قليلًا، ثم قلت له بحزن:

- يريدون أن يُجبروني على الزواج، وأنا لا أريد أن أتزوج...

كنت أريـد أن أقـول له بأنني أحب المدرسة لأجله ولأجـل أن أراه كل يوم ولكنني صمتُّ، فأجاب مبتسمًا:

- الكثير من الفتيات لا يحببن الـزواج ولكن بعد فترة يتقبلن الفكرة ويعشن حياةً جميلةً.

- أجـل، ولكنني فعلًا لا أحب الـزواج، أحب هذه البحيرة وأحـب أن أسير وحدي بين الأشـجـار وأن أراقـب الحيوانات والطيور، وحين أتـزوج لن أستطيع أن أقوم بهذه الأشـيـاء، سـوف أخـدم زوجـي وأقـوم بأعمال البيت وتربية الأولاد، لا أحب هذه الحياة.

- ولكنك تستطيعين القيام بهذه الأشياء حتى لو كنت متزوجة!

- لا، سوف يكون هناك زوجـي ثم أولادي، أنظر إلى كل شيء حولي وأنـا أعلم أن هناك رابطًا يقيدني بأحدٍ مـا، حتى هـذه البحيرة لن يكون جمالها كالسابق سوف تبدو مقيدة بشيءٍ ما مثل روحي.

- حسنًا، ولكن ماذا ستفعلين إن لم تتزوجي؟

- لا يوجد لـدي أي بـديـل، وليس هناك بديل لأي فتاة لا تـتـزوج، فكل فتيات القرية يتزوجن حتى القبيحات منهن، كبار القرية يجدون زوجًـا لكل فتاة، ولكنني لا أعلم أي حياة يمكن أن أختار ليس لدي صـورة لأي حياة أخـرى، سوى أنني أسير وحـدي بين الأشـجـار والـتـلال، أجلس بجانب هـذه البحيرة، أستمع لصوت الطيور، أشياء بسيطة ولكني أحبها كثيرًا.

ابتسم والتمعت عيناه وقال:

- هل تعلمين، لقد قـرأت كتبًا كثيرةً وأحـد هذه الكتب تتحدث عن فتاة لم تكن تريد الـزواج ولكنها في قـارة اسمها أوروبـا، والناس هناك لونهم أبيض، وهي كانت تحب حريتها مثلك ولكنها كانت تريد أن تتعلم فـي مــدارس كبيرة، وأصبحت أستاذةً مشهورةً ولم تتزوج، ولكنهم هناك لا يعاقبون الفتاة التي لا تتزوج.

- أنا لا أهتم بالدراسة، أريد فقط أن أعيش حياتي هذه دون زوج.

ولكن سوف تنتهين وحيدةً دون رجل أو أولاد!

- أجـل، ولكن لا يهمني هذا الآن، ربما بعد فترة من الزمن أغير تفكيري ولكني الآن لا أريد هذا الزواج ومهما ضربني والدي لن أقبل.

- حسنًا، لقد تأخر الـوقـت، وسـوف يقلق أهلك بخصوصك، وإلـى أن يأتي زوج المستقبل حاولي الاستمتاع بحياتك، هيا الآن لنعود معًا إلـى القرية، لقد تأخر الوقت.

سـرت بجانبه بصمت، وعبر تلك الخطوات الصامتة عرفت أنني أحبه، وأنني سوف أحب أن يكون زوجـي، ولن أمانع بأن أكـون في بيت صغير معه. سرنا بصمت وحين اقتربنا من بيتنا شكرته لاهتمامه وركضت عائدةً إلى بيت أهلي.

لـم أنـمْ فـي تلك الليلة، وعـوضًـا عـن شـعـوري بـالألـم والغضب لضرب والـدي لـي، شعرت بالسعادة الغامرة لأنـه بسبب ضـرب والـدي انتبه تـافـارا إلـى وجـودي، وعلمت بأنه يحفظ اسمي فتحوّلت تعاستي إلـى سعادة وجفت دموعي بنسمات سعادتي الغامرة.

تافارا

أصبحت شابًا يافعًا، أتحدث الفرنسية بطلاقة وبدأت باستعارة كتب الطب من مكتبة الدكتور ساموني في المدينة، وكلما قرأت في تلك الكتب ازداد تعلقي بالطب وانتقادي لحكماء القرية، الذين يعالجون الناس بالسحر والشعوذة وأعشاب قد تدمر صحتهم وتقضي على حياتهم؛ في أحيان كثيرة كانوا ينجحون في العلاج بسبب خبرتهم الطويلة، ولكن حين بدأت أقرأ عن الأمراض وطرق علاجها بدأت أدرك خطورة ما يقومون به دون أساس علمي؛ أخبرت أمي بذلك وحذرتني من الحديث بهذا الموضوع وإلا سوف يسلطون علي الأرواح الشريرة للقضاء علي، لم أقتنع بكلام والدتي ولكنني فكرت أنه من الحكمة أن أصمت فأنا لا أعرف شيئًا عن عالم الأرواح الذي يتقنون كل تفاصيله.

وكان هناك شيء آخر في حياتي غير الكتب كانت هناك كامالي الجميلة بقوامها الرشيق وعينيها السوداوين الواسعتين وبشرتها الناعمة واللامعة، لم أكن أنتبه لوجودها ولكنني حين وجدتها تبكي وهي جالسة على حافة البحيرة، ارتعش شيء ما بداخلي ولاحظت كم هي جميلة بل رائعة الجمال، لم أتمالك نفسي وسألتها عن سبب بكائها، أخبرتني بأنها لم تكن تريد الزواج وأن والدها ضربها كي يجبرها على الزواج، تحدثنا طويلًا عن ذلك الزواج إلى أن ابتسمت وجفت دموعها وعدنا معًا إلى القرية؛ ومنذ ذلك اليوم وكامالي لا تغادر أفكاري ومشاعري، بقي لها في المدرسة عام واحد ثم سوف يتم تزويجها لأي شاب في القرية، أما أنا فكان لابد أن أذهب للمدينة لعامين آخرين لمتابعة دراستي لأنني صممت على أن أتابع الدراسة وأن أدرس الطب، لم أكن أعلم كيف ولا أين ولكن كان هذا حلمي وقراري.

كنا نتبادل النظرات وبعض الكلمات، فلم أكن أفهم ما هي تلك المشاعر التي أحملها تجاهها، إلى أن سألت أمي:

- أمي لماذا يفكر شخص ما بشخص آخر طوال الوقت ويحب أن يراه دائمًا؟

ابتسمت أمي وقالت لي:

- من الشخص الأول ومن الثاني؟

- لا يوجد شخص محدد، أعني بشكل عام.

- أنت تخفي سرًّا صغيرًا عني، هيا أخبرني من هي ولن أقول لأحد.

صمت قليلًا وتــرددت بالإجابة ولكنني كنت بحاجة للحديث عـن كامالي مع أحدٍ ما، كان لابد أن أفهم ما يدور في مشاعري، فقلت لها بارتباك:

- إنها كامالي...

ضحكت أمي وقالت:

- يا لك من حـاذق، لقد أحسنت الاختيار، فهي أجمل فتاة في القرية وتعجبني كثيرًا.

- لماذا تعجبك؟

- لأنها هادئة ولا تتحدث كثيرًا ولا تتصرف كأنها الأجـمـل... جميع نساء القرية يرغبن بأن تكون زوجةً لأحد أبنائهن.

- حتى أنت؟

- أجل بالطبع. حسنًا، أعتقد أنك واقـع في حب كامالي. ما تشعر به هو الحب، وهو الحب الأول بالنسبة لك، أنا سعيدة لأجلك.

- لماذا؟ ربما هـذه المشاعر تجلب لي المتاعب إذا تزوجت ولـم أعـد أستطيع رؤيتها.

- وربما تكون هي زوجة لك.

- ماذا!!

- أجـل، تعجبني كثيرًا، أنـت الآن اهتم بدراستك كعادتك وبنهاية هـذا العام سوف أطلبها للزواج لك.

- ولكني لا أمتلك المال ولا أزال أريد أن أتابع تعليمي.

- لا تهتم بذلك، سـوف تعيش معنا في هـذا البيت إلـى أن تكمل تعليمك ثم تعيشان معًا وسوف تكون مدرسًا في القرية...

قاطعتها قائلًا:

- أريد أن أكون طبيبًا.

- مـاذا؟! من أين لك بهذه الفكرة، لن يدعك حكماء القرية أن تكون طبيبًا ولن يسمحوا للناس بأن يأتوا لاستشارتك.

- أمي لا أفكر بهم، أريد أن أكون طبيبًا، ربما سأعمل في المدينة بعيدًا عنهم.

- حسنًا سوف نـرى، سوف أتحدث من الآن مع والـدة كامالي؛ كي لا يتم تزويجها لأحد غيرك.

وسوف أخبر والدك الليلة.

وفـي المساء حين اجتمعت العائلة للعشاء، أخبـرت والـدتـي أبـي الـذي علت الدهشة وجهه وقال بحنق:

- ولكن إخوته الذين أكبر منه لم يتزوجوا بعد!

- ولكنهم سوف يتزوجون قريبًا، كل واحـد منهم اختار عروسه وسـوف يتزوجون خلال أشهر قليلة، أما تافارا فسوف يتزوج بعد سنة، لدينا متسع من الوقت.

- ولكنه لا يعمل، لا يزال يدرس!

- أنـت تعلم أن شباب القرية يتزوجون بسن مبكرة، وهـو بعد سنتين سوف يعود للعمل ولزوجته، أريـد الاستعجال لأن كامالي يطلبها كثير من الشباب وهي تعجبني كثيرًا، أريدها فعلًا زوجةً لابني.

طـال النقاش لساعات، وفـي النهاية وافـق أبـي على مضض، ولـم يكترث إخوتي فسوف يتزوجون قريبًا ويبنون بيوتهم حـول بيت أمـي وأبـي ولـن يتغير شـيء في حياتهم أو في عملهم في القرية.

لم أكـن أدرك ما معنى الـزواج، وشعرت بـأن أمـي تستعجل الأمـور وأنني لم أعد

أستطيع أن أقـول لها بأنني متردد ولن أرغـب في الـزواج حاليًا، فهي لم تترك لي أي فرصة للتفكير، ولكنني وبنفس الوقت كنت أحـب كامالي وأخـاف فعلًا أن تتزوج غيري؛ ثم تذكرت بأنني نسيت أهـم ما في موضوع الـزواج وهـو رأي كامالي، ربما سترفض الـزواج مني من الأسـاس؛ لذلك كـان لابـد من الحديث معها قبل أن تذهب أمي وتتفاجأ برفضها.

كانت تمشي مع إحـدى صديقاتها، فناديتها، تركت صديقتها التي كانت تنظر إلينا بفضول كبير، وقلت لها:

- كامالي، هناك موضوع لابد أن أسألك عنه.

لم يغب ذلك اللمعان الرائع عن عينيها الجميلتين، فقالت باستغراب:

- ما هو؟

صمتُّ للحظات وشعرت بالارتباك ولكنني تمالكت نفسي وقلت لها:

- أنت لا تحبين الزواج، ولكن هل تقبلين أن تتزوجيني؟

تجمدت في مكانها ولـم تنطق بكلمة، وبعد لحظات انطلقت راكـضـةً لتلحق بصديقتها دون أن ترد على سؤالي.

عـدت إلـى البيت وشعور باليأس يتملكني وأخـبـرت أمـي بما حصل، قالت لي أمي:

- لقد استعجلت، كـان يجب أن تتريث قليلًا، عمومًا سـوف أذهــب اليوم في المساء إلى بيتها وأتحدث معها ومع والدتها.

وفـي المساء غـادرت أمـي البيت وعـادت بعد ساعتين، لم أعـد أستطيع القراءة أو التركيز بانتظار عودتها، وحين عـادت أخـذت بيدي وقادتني إلـى داخـل المنزل وقالت:

- قالت إنها بحاجة للتفكير.

- ولكن هل تعتقدين بأنها قد توافق؟

- لا أدري، فهي كانت صامتةً وخجولةً، ربما المفاجأة منعتها من الحديث. سوف أنتظر يومين ثم أذهب مرة أخرى.

غـادرت البيت وذهبت إلـى حافة البحيرة، في تلك اللحظات فقط أدركـت أنني أريـد كامالي فعلًا زوجـةً لي، التردد الـذي كنت أشعر به في السابق تلاشى، وجلست حيث كانت تجلس حين رأيتها تبكي، لامست الأرض التي جلست عليها وتأكدت بأنني أحبها وأنني لن أتـزوج غيرها، فقط كامالي ولا أحـد غيرها؛ وقـررت أنها إذا رفضت الــزواج بي سـوف أغـادر القرية لأعيش في المدينة، ولـن أعـود للحياة هنا لأني لن أستطيع رؤيتها زوجةً لرجل غيري.

اليومان مـرّا كأنهما دهـرٌ، وتجنبت خلالهما رؤيتها أو الحديث معها، ولم أستطع التركيز بـدراسـتـي، فقضيت أغلب الـوقـت فـي المشي بين الأشـجـار وعند حافة البحيرة. وبعد غـروب الشمس عدت للبيت بخطوات مترددة وبقلبٍ خافقٍ، دخلت إلى البيت وكانت أمي تحضر الطعام لنا، ناديتها بصوتٍ خافتٍ:

- أمي، أخبريني ماذا حدث؟

ابتسمت أمي وقالت:

- ليس الآن...

- أمي لابد أن أعرف الآن، لن أحتمل الانتظار.

- أخرج ونادي إخوتك ووالدك وسوف أخبرك ونحن نتناول الطعام.

جلسنا جميعًا على الأرض نتناول الطعام بصمت، إلى أن قالت والدتي بطريقة احتفالية:

- اليوم خطبت كامالي لتافارا، ووافقت على الزواج...

توقف والدي عن الأكل وقال بدهشة:

- ماذا تقولين؟ وكيف لم تخبريني من قبل؟

- لقد قلت لك من قبل إنه لابد أن يتزوج، ولكن لم أتوقع أن توافق، لقد تفاجأت

بقبولها.

نظر إخوتي إلى بعضهم البعض وتابعوا الأكـل بصمت، فلم يكن هناك ما يمكن قوله، ولكنني لم استطع إخفاء سعادتي فقفزت فرحًا لما قالته والـدتـي. ضحكوا جميعًا وهم يرونني أرقص وأقفز فرحًا وقال والدي:

- ابنك عاشق... هذا فعلًا جيد، أخيرًا أصبح لديه شيء آخر عدا الكتب.

احتضنت والدتي وشكرتها كثيرًا، فقالت وهي تضحك:

- ليس تافارا فقط عاشق، بل كامالي أيضًا، يبدو أنها تحبه كثيرًا.

وبعد سنة أنهت كامالي المدرسة وكـانـت جـاهـزة لـلـزواج، تـم زواجـنـا سريعًا بتكاليف بسيطة، وكـان لابـد أن أتـابـع سنتين مـن الـدراسـة فـي المدينة ثـم أعـود للقرية للتدريس؛ وبقيت كامالي مع أهلي تنتظر عودتي بنهاية كل شهر إلـى أن انتهيت من مدة الدراسة في المدينة وكـان لابد أن أعـود للقرية وابـدأ حياتي بسكن مستقل عن أهلي مثل ما فعل بقية إخوتي.

وحين أتذكر البساطة التي كـان يتم بها الـزواج في قريتي مقارنةً مع التعقيد في الـزواج في أوروبـا لا أدري هل أضحك أم أشعر بالحزن، أضحك لأن مهر كامالي كـان بقرةً كبيرةً وحليًا مصنوعةً من الخشب من جميع الألـوان والأشـكـال، البيت الـذي بنيته لها لـم يكن سـوى بيت مـن القصب والأخـشـاب، بيت صغير متواضع ليس به سوى مكان للنوم وزاوية لإعداد الطعام.

لم يكن هناك عقود ولا أوراق ولا فحوصات زواج، كل شيء يتم بسرعة وبسهولة كأن الـزواج ليس سوى وجبة إفطار خفيفة نتناولها ثم يعود الجميع لحياته العادية؛ وأشعر بالحزن لأن ذلك الـزواج البسيط دون فحوصات ولا تعقيدات كان ينجم عنه أحيانًا أمـراض وراثـيـة لم يكن أحـد في القرية يعرف سببها، ولكنني وبعد دارسـة الطب أعـرف ذلـك الآن، ثم هناك إثبات الـزواج، فلو قـرر الـزوج أن يغادر القرية لا يوجد أي إثبات على زواجـه سـوى أهـل القرية، ولـم يكن هناك أي ورقـة أو عقد لملاحقة الزوج خارج القرية.

عدت لقريتي بعد انتهاء دراستي في المدينة وأصبح لي بيت صغير مع كامالي، وأصبحت مدرسًا في مدرسة القرية الصغيرة، وكانت تلك السنة الأولى من حياتي معها في بيتنا الدافئ الصغير، كانت تلك السنة أجمل سنة في حياتي، حتى الآن حين أتذكر تلك السنة أشعر بالدفء يتسلل إلى كل جزء بكياني، وأشعر بالرغبة باحتضان بل بالقبض بين يدي على كل لحظة مرَّت في تلك السنة الرائعة؛ كامالي لم تكن إنسانًا عاديًّا، كانت مخلوقًا ممتلئًا بالحب والعاطفة والجمال، كان هناك شيء ما شفاف في روحها يتجاوز كل الحدود البشرية، ذلك اللمعان في عينيها لم يكن مجرد سمة جمال بل بريقًا لروح صافية جميلة لا ترى في الحياة إلا النقاء والهدوء والسكينة. أكرهها الآن ولكنني أحبها كما في السابق، بل تختلط مشاعري ولا أدري هل أكرهها أم أكره كل ما فرق بين قلبينا وجعلنا غريبين في فيلا كبيرة وسط باريس! هل أكرهها أم أكره نفسي وأكره كل الألم الذي سببته لها، ولا أزال أدافع عن نفسي وأتحدى ذاتي بأنني لم أجرحها! وألتمس الأعذار لنفسي عن كل الأخطاء وكل الجروح التي سببتها لها، وأتجاهل حتى هذه اللحظة حزنها الدفين، ولا أحاول حتى الاعتراف أمامها بأخطائي، لا أريد أن أسمع كلمات اللوم، لا أريد أن يكون بيننا تلك المواجهة التي قد تؤدي لنهاية حتمية لهذا الزواج الهشّ.

ولكنني ورغم المسافات التي بيني وبينها، فهناك وفي تلك السنة رائعة الصفاء والحب، كنت أعشق كامالي، كانت جزءًا من روحي وكياني، لم يكن للحياة أي معنى ولا صورة ولا نبض دون ابتسامتها الدافئة صباحًا وكلماتها الحنونة مساءً؛ كامالي حبي الوحيد الماضي والراحل والساكن بروحي رغم السنوات التي تفصلني عنه، كامالي تلك هي كل ما تبقى لي من هذه الحياة.

كامالي

منعت نفسي من قراءة دفتره الأسود، لأنني لم أكن أريد أن أقرأ ما سيكتبه عني، ولم أكن لأحتمل قراءة أنه يكرهني أو أنني أسوأ ما مر بحياته، وكل تلك العبارات التي يقولها الأزواج لزوجاتهم حين يفشل الزواج؛ كما وأنني أردت أن أكتب بصفاء ذهني لا تشوبه الكلمات أو المشاعر التي قد لا تعجبني، لم أرِد أن تختلط أفكاري بمشاعره ولا أن تتشوّش كلماتي بغبار الألم الذي تراكم على حياته بسبب المرض ولأسباب أخرى قد لا أعرفها؛ لذلك قررت أن أكتب عن ذاتي فقط دون أن تتداخل سطوري مع سطوره وأن أستعيد ولو عبر الكتابة صفاء الروح الذي كنت أتمتع به في قريتي البعيدة.

بمجرد أن طلبتني والـدة تافارا للزواج نسيت كرهي للزواج ووافقت على الفور، لأنني كنت أحبه كثيرًا ولم أكن لأقبل الـزواج إلا به؛ تمت إجـراءات الـزواج سريعًا، وهي إجـراءات بسيطة وانتقلت للسكن مع أهل تافارا إلى أن ينتهي من دراسته في المدينة، وبعد سنتين من انتهاء دراستـه، عـاد للقرية وأصبح مدرسًا في المدرسة التي كنا نـدرس بها سويًّا، وبنى بيتًا صغيرًا لنا، وكانت السنة الأولـى من الحياة معًا في بيتنا هي أجمل سنة في حياتي، لقد كنا نحب بعضنا البعض كثيرًا، وكـان هناك تفاهم روحـي عميق ما بيننا، ففي أحيان كثيرة لم نكن نتحدث ولكننا كنا سعداء بمجرد كوننا معًا، وفي الأوقـات التي يكون بها في البيت بعد عمله ينشغل بقراءة الكتب التي لم يكن يستغني عنها أبـدًا، لم يكن يزعجني ذلـك أبـدًا، لم أكـن أحب القراءة ولكنني كنت أحب أن أراه وهو غـارق بين تلك الكتب بشغف عميق وكأنه غير موجود معي، لم يكن يزعجني ذلـك الانفصال عني حين يغرق في الـقـراءة؛ حضرت والدته في يومٍ ما لزيارتنا ورأته وهو غارق في القراءة، فقالت لي:

- هل يقرأ هكذا طول الوقت؟

- أغلب الوقت، خصوصًا بعد عودته من المدرسة.

نظرت إلي بقلق وقالت:

- ألا يزعجك هذا؟ أن ينشغل عنك بهذه القراءة التي لا تتوقف؟

- لا أبدًا، بل أحب أن أراه وهو يقرأ، يبدو أكثر جاذبية.

ابتسمت وقالت:

- لقد أحسن الاختيار فعلًا، أنت أكثر فتاة تناسب تافارا القارئ.

لم أخبرها بأنه في الليل، يأتي بقربي، وأرى ملامح وجهه اللامعة تحت ضوء الفانوس وهـو يحدثني بهدوء وبـدفء عن الكتب التي يقرأها، ويقول لي أشياء أفهمها وأخـرى لا أفهمها، لم أقـلْ لها بأنه يقرأ لي شعرًا يترجمه من الفرنسية عن الحب وعن الجمال، وأنه يراني أجمل امـرأة بهذا الكون، لم أخبرها بأن تلك الأوقات التي نقضيها معًا تحت جُنح الظلام وفـي سكون الليل، حين لا أسمع سـوى صوته، هـي أجمل أوقــات عمري التي عشتها والـتـي سـوف أعيشها؛ فهناك أشـيـاء تعجز الكلمات عن وصفها، وهناك أشياء لو تحدثنا عنها تفقد عمقها وبريقها ولمعانها البراق في الروح والنفس.

كنت سعيدةً معه أيضًا لأنه ترك لي حرية التصرف بكل شـيء، ترك لي مصروف وإدارة البيت، وتـرك لي حرية الـخـروج متى أشـاء، وكـان يعلم مـدى حبي للبحيرة وأنني بحاجة للذهاب لرؤيتها كل يـوم، وكـان يعلم مدى حبي للمشي تحت المطر، وأنني بمجرد أن يبدأ المطر بالتساقط أخـرج من البيت حتى دون أن أخبره، فهو يعلم بأنه لن يجدني في البيت حين يتساقط المطر، ولا ينظر إلي باستغراب حين أعود بملابس مبللة، بل يضحك ويقول لي:

- لن تكبري أبدًا، الطفلة كامالي لن تغادرك أبدًا.

كنت أحب تحضير الطعام له والعناية بكل أمـوره وأحـب انتظاره حين يعود من المدرسة، لقد كان جـزءًا من كياني وروحـي، ولم أكن لأستطيع أن أحيا دون أنفاسه في حياتي، تافارا، حبي الدائم وألمي الدائم.

بعد تلك السنة الرائعة من الحياة معًا، حملت بطفلنا الأول تاكي، ولـم أكن أعلم بأن إنجاب الطفل سوف يبعدني بصورة ما عنه، وأنني سأنشغل ببكاء الطفل

وطعامه والعناية اليومية بـه، ولحسن الحظ بأنه كـرّس كل الوقت للقراءة خلال انشغالي بطفلنا الأول؛ وشعرت وربما اكتشفت أنـه رغـم روعـة وجـود الطفل بيننا، إلا أنه هناك مسافة حصلت بيننا، وأن تلك السنة وحدنا معًا لن تتكرر، وأن ابني الأول ورغـم حبي له جعلني أبتعد عن تـافـارا؛ وحين تحدثت عن ذلـك مع والدتي، أخبرتني بأن هذا شيء طبيعي، وأن كل أم وأب يعيشون هذه التجربة. وبعد مرور بضعة أشهر بـدأت علاقتي مع تافارا تستعيد دفئها الأول خصوصًا حين بـدأ طفلنا بالمشي والضحك واللعب. ثـم أنجبت طفلي الثاني سيمو، أصبح البيت ضيقًا وكـان لابد من توسعته أو بناء بيت جديد، قام تافارا بتوسعة البيت ولم يكن ذلك بالشيء الصعب، وامتلأ بيتنا بضحكات الأطـفـال ولعبهم، وأصبحت أمشي معهم تحت المطر وأذهــب برفقتهم إلـى البحيرة، فشعور الأمومة كـان شعورًا آخـر رائعًا بعد شعوري العميق بالحب لزوجي.

تـافـارا كـان أب رائـع بهدوئه وابتسامته الدائمة، وشغفه بالقراءة لطفلينا قبل النوم، فحتى طفلنا الثاني ورغـم أنه لم يكن يفهم كلمات والـده كان ينظر بفضول وانتباه لكل كلمة يقولها، لأن وجه تافارا يتغير حين يقرأ لهما تلك القصص، يصبح وجهًا لإنسان يسافر بعيدًا كأنه يحمل حقائبه في سفينة كبيرة ويغادر مع أمـواج البحر، يتحول بيتنا الـدافـئ مع نـور الفانوس الخافت ومـع صوته وهـو يقرأ تلك القصص إلــى سفينة كبيرة ترحل بعيدًا عبر الأفــق، تأخذنا معها ونغيب خلف البحر بلا عـودة ولا ذكـرى، تختفي ذاكرتنا وأسماؤنا ولا يبقى سـوى صـوت السفينة التي ترحل بنا بعيدًا، بعيدًا.

ست سنوات من الزواج مرَّت بسعادة غامرة، بحبٍ عميقٍ، وانسجام كبير حتى مع أولادنا، كنت سعيدة في بيتي مع أولادي ومع زوجي، في قريتي بين أهلي وأهل القرية، كل ما في الكون حولي يسير بانسجام مع الطبيعة والبشر، حتى الحيوانات تبدو أليفةً وآمنةً، حتى الطيور لم تكن تخاف من البشر، حتى الغيوم كانت تأتي ناعمةً رقيقةً، حتى الظلام في قريتي كان آمنًا ممتلئًا بالسكينة والهدوء، ظلام دامس تزينه فوانيس القرية التي يتراقص نورها حين تهب نسمات الصيف أو رياح الشتاء، ومن النافذة الصغيرة الخشبية وحين تنطفئ جميع فوانيس القرية، تلتمع النجوم في السماء، أراقبها وأنا مستلقية على فراشي الممدد على الأرض، أمسك

بيد تافارا قبل النوم وأقول له بأنني أحبه بمقدار عدد هذه النجوم، كنت أقول له تلك الجملة في كل ليلة قبل النوم، وكان يرد بقوله بأنه يحبني بعدد حبات المطر الذي أحبه كثيرًا. وهكذا أشاهد حياتي تلك عبر شاشة صغيرة في روحي، تلك الحياة مضت ولن تعود، ولكنني أراها عبر هذه الشاشة الصغيرة في روحي، أستلقي على سريري الوثير في باريس والذي لم أكن لأحلم بأنني سأنام على سرير مثله يومًا ما حين كنت في قريتي، ولكنني أشاهد تلك الشاشة الصغيرة في روحي وتتوالى الذكريات كأنها فيلم كتبت قصته وقمت بإخراج كل تفاصيله، أشاهده ولا أشعر بالتسلية ولكنني أشعر ببرودة الدموع التي تنساب على وجهي، وأشعر بالبرد الذي تجف عظامي تحت وطأته، وأشتاق. وأشتاق... أشتاق لذلك الحب ولذلك الدفء، أشتاق للنجوم ولقطرات المطر، أشتاق لضحكات أولادي وأشتاق ليد تافارا التي كنت أشعر بدفئها بكل ليلة، وأشعر ببرد لا يعرف الدفء، وبغربة لا تعرف النهاية.

والبرد بدأ منذ أن عاد تافارا يومًا ما من المدرسة مبكرًا ومعه تلك الرسالة، لوّح بها من بعيد وهو يكاد يرقص فرحًا، والتي جعلتني أنكمش في مكاني، لأن شعورًا ما راودني بأن حياتي بعد تلك الرسالة لن تكون كما كانت، كانت تلك الرسالة هاتفًا من القدر بأن حياتي السعيدة والجميلة أوشكت على الانتهاء.

- كامالي، لقد حصلت على منحة دراسة الطب في فرنسا، أنا سعيد... سعيد...

لم أرد عليه، تركت كل شيء، الأولاد والبيت، وخرجت حافية القدمين لأذهب لصديقتي الوحيدة، لأذهب للبحيرة، جلست بجوار صديقتي أبكي بصمت، وأنظر إلى كل ما هو حولي كأنني أرى الحياة لأول مرة، أو كأنني سأغادر حياتي وأنني لن أعود، بكيت كثيرًا إلى أن غربت الشمس، وحين عدت، وجدت تافارا يعتني بالأولاد ويعد لهم الطعام، لم يلمني لخروجي من البيت بتلك الصورة. وفي الليل، وتحت ضوء الفانوس ولأول مرة لم أخبره بأنني أحبه بعدد النجوم، ولكنني سألته بصوتٍ ثقيلٍ عن موعد سفره لفرنسا، أخبرني أنه لابد أن يغادر خلال شهرين. وقال لي:

- لماذا لم تخبريني مثل كل ليلة بأنك تحبينني بعدد النجوم؟

- لأنني لم أرَ النجوم الليلة، السماء تبدو قاتمةً وكأنها على وشك البكاء، شيء ما في صدري يقول لي بأن كل شيء سيتغير، شيء ما حزين كأنه شبح داكن اللون

دخل إلى بيتنا ولن يغادره.

- كامالي، لا تخافي حبيبتي فسفري لن يغير شيئًا في حياتنا، وسوف أصبح طبيبًا، وسوف تأتين إلى فرنسا.

- لست خائفة ولكنني أشعر هنا بقلبي بشيء ثقيل وحزين، أشعر بأنك لن تكون تافارا الذي أحببته، أشعر بأنني قد أفقدك أو أفقد هذا الحب نادر الوجود...

ضمني إلى صدره وقال كلمات كثيرة حنونة ولطيفة، ولكنني كنت أعلم بأن حياتي ستتغير وأن سحبًا من الظلام سوف تحجب شمس سعادتي، ولم أكن أمتلك الكلمات لأعبّر عن مشاعري، كان أحساسًا غامضًا صامتًا وثقيلًا ولا أستطيع مقاومته أو التغلب عليه حتى لو مشيت تحت المطر لساعات وساعات، ومنذ تلك الليلة بدأت بالتعرف على شيء جديد اسمه غربة الروح.

تافارا

كان يومًا حارًا مثل أغلب الأيام في قريتي، وكنت مشغولًا مع التلاميذ لتصحيح أوراقهم والحديث معهم، إلى أن جاء الأستاذ باكو مبتسمًا وطلب أن نتحدث خارج الفصل، خرجت على الفور للحديث معه، فطلب مني أن أعود للفصل وحين أنتهي من الدرس سوف يقابلني في غرفة الإدارة، اعتقدت بأنه سيتحدث معي عن أحد التلاميذ أو عن شيء ما يخص المدرسة، لذلك لم أفكر كثيرًا في الأمر؛ وحين انتهيت من الدرس قابلته كما اتفقنا. ناولني رسالة باسمي مفتوحة وقال لي:

- هذه الرسالة لك، لقد فتحتها لأن ما بها كان يُهمني مثلما كان يهمك، اقرأها.

لقد كانت الرسالة باللغة الفرنسية وموجهةً لي، قرأت الأسطر ببطء وكأنني لأول مرة أرى اللغة الفرنسية، وبدأت السطور تتضح تدريجيًّا، ورغم أنني فهمت كل ما قرأته إلا أنني نظرت إلى الأستاذ باكو مندهشًا:

- هل هذه الرسالة لي فعلًا؟ إنه خطأ في البريد أو في الاسم؟

ضحك قليلًا ثم قال:

- هي لك، ولقد حصلتَ على منحة لدراسة الطب في فرنسا.

وضعتُ يدي على فمي كي لا أصرخ من وقع المفاجأة وقلت له بصوتٍ مرتعشٍ:

- كيف هذا؟ كيف عرفوا اسمي؟ بل كيف عرفوا بوجودي أصلًا؟

- لقد أرسلت لهم جميع أوراقك وأبلغتهم أنك تتحدث الفرنسية وساعدني الدكتور ساموني عن طريق أصدقاء له في فرنسا؛ لأنه يعتقد بأنك شاب موهوب ويمكن أن يكون لك مستقبل كبير. المنحة سوف تغطي جميع المصاريف منذ خروجك من القرية حتى وصولك لباريس، لابد من الذهاب للمدينة لكي تحصل على جواز السفر والفيزا.

تسمَّرتُ في مكاني للحظات غير مصدّق ما يقوله لي، وفجأة قفزت عدة مرات

في الـهـواء ضاحكًا لشدة فرحي، ثم احتضنت الأسـتـاذ باكو دون تفكير، ولـم أكن لأتخيل بأنني سأحتضنه بـأي وقـت فـي حياتي بتلك الطريقة، ضحك بسعادة لأجلي وقال لي:

- أنـت تستحق ذلـك، لقد كنت دائمًا متفوقًا ومحبًا للعلم وكـان من واجبي أن أساعدك.

وبعد أن هدأت قليلًا سألته:

- لماذا لم تحصل أنت على منحة فأنت تتقن اللغة الفرنسية؟

- لـم يكن يوجد منح فـي السابق، ولـم يكن هناك مـن يساعدني بهذا الأمـر والآن كبرت في السن ولا أريـد أن أغـادر قريتي. لابـد أن تسافر خـلال شهرين من الآن وتحضر نفسك وأوراقــك للسفر، وهـنـاك مـن سيكون بانتظارك فـي باريس، والمنحة سـوف تكفي لمصاريفك هـنـاك ويمكنك إرســال الـمـال أيـضًـا لزوجتك والأولاد فسوف يكفيهم كـذلـك؛ لأن الحياة هنا رخيصة والمنحة سـوف تجعلهم يعيشون بحالة جيدة، ثم هناك أهلك الذين سـوف يبقون معهم إلـى أن تنتهي من دراسـتـك. سـوف تقرأ كل التفاصيل بتمعُّن حين تعود لبيتك، والآن هيا غادر المدرسة وسـوف أعطى الـدروس عوضًا عنك لأنـك لن تستطيع التركيز، هيا أذهب واحتفل مع عائلتك.

ركـضـت باتجاه البيت لأخـبـر كامالي عـن المنحة كنت اعتقد بأنها ستكون سعيدةً بخبر سفري لباريس، ولكنها تركت البيت فجأة دون أن تتكلم، خرجت حافية القدمين، شعرتُ بالبرودة تسري بجسدي، جلست مع الأولاد ريثما تعود ولمت نفسي لأنني لم أهيئ الأمر لها، ربما المفاجأة كانت أكبر من تفكيرها. غابت لساعات وكنت أعـرف أيـن ستذهب، لم ألحق بها، ولـم أكـن أستطيع تـرك الأولاد، فجلسنا جميعًا ننتظر حضورها.

وحين عـادت رأيـت كامالي أخـرى أمامي، انطفأ ذلك البريق المشرق في عيونها، شـيء ما انطفأ في قلبها ونظراتها، وخفت من ذلـك التعبير على وجهها، فكامالي

كانت تشعر بأشياء كثيرة قبل أن تحصل، ولا تـرى وجـوه الناس بل تـرى قلوبهم أيضًا، وتشعر بما يحمله الغد دون أن تفهم لماذا؛ فحياتها تـدور حول تلك الحاسة السادسة الغريبة التي تمتلكها والتي كانت تجعل منها مخلوقًا مختلفًا عن الآخرين وأنها رغم كونها معي ومع الأولاد هناك جزء بها بعيد لا أستطيع أن أصل له، جزء شفاف نـاءٍ كأنه ضباب يحيط بقمة جبلٍ بعيدٍ. لذلك امتزجت سعادتي بالسفر إلـى فرنسا بالخوف؛ لأن كامالي رأت ما لا أستطيع رؤيته وشعرت بما لا استطيع الشعور به، ولم تكن تعرف كيف تعبر بالكلمات عن ذلك الشعور فقط وجهها هو الـذي يتغير، فيضيء أحيانًا وينطفئ بأحيانٍ أخـرى. وفي تلك الليلة، لم تقل لي أنها تحبني بعدد نجوم السماء، في تلك الليلة بـدأت رحلة الانفصال بيننا، ولـم تعد كامالي كما كانت ولم أعد أنا كما كنت.

ورغم حبي العميق لكامالي إلا أن السفر إلى فرنسا شغل كل تفكيري ومشاعري، وبـدأت بالتحضير للسفر، فذهبت للمدينة عدة مـرات مع الأستاذ باكو لعمل جواز السفر والـحـصـول على الـفـيـزا، واشـتـريـت بعض الـمـلابـس، وحقيبة سفر صغيرة فلم يكن لـدي الكثير من الأشـيـاء لآخذها معي، وكنت أشغل نفسي بأشياء كثيرة كي أتجنب الحديث مع كامالي التي غرقت بصمت حزين.

لم يكن حزنها ليجتمع مع سعادتي بالسفر، ولم يكن شغفي بالعلم ليجتمع مع شغفها بالبقاء معي، وأصبحت انتظر يوم السفر بفارغ الصبر؛ كي لا أرى كل ذلك الحزن وكي لا أستمع لكل ذلك الصمت.

لم ترغب كامالي بالحديث عن موضوع المنحة، واضـطـررت للذهاب لوالدتي لترتيب الأمـور معها، لقد كانت والـدتـي أكثر من شجعني ورغـب فعلًا بـأن أسافر وأتابع دراستي، أما والدي وإخوتي فنظروا لبعض باستغراب وقال لي والدي:

- هذا يعني أنك لن ترجع لتعيش معنا؟

- كيف هذا يا والدي! بالتأكيد سأرجع.

- من يذهب لتلك البلاد لا يعود.

- ولكنني سأعود.

- أتمنى ذلك. عمومًا لا تقلق سوف نعتني بأولادك وزوجتك.

- سوف أرسل لهم النقود في بداية كل شهر.

- حسنًا، سوف أذهب للمدينة لاستلامهم ببداية كل شهر.

أخبرت والدتي عن حزن كامالي، فقالت:

- هـذا شـيء طبيعي، هـو صعب بالنسبة لها، ولكنه مستقبلك يـا بني، وربما تلحق بك مع الأولاد إلـى فرنسا ويـدرسـون هم أيضًا هناك، لا تفكر بها الآن سوف تعتاد على الحياة وتنتظر حضورك أو تسافر لتعيش معك.

- هناك سـؤال أريـد أن أسألك إيـاه قبل أن أسافر وكنت دائمًا أنسى أن أسألك هذا السؤال،

لماذا كنتِ تغنين تلك الأغنية دائـمًـا بينما كنت تحكين لنا عشرات القصص؟ لماذا تلك الأغنية الحزينة؟

نظرت بحزن عبر النافذة الخشبية وقالت:

- كانت أمـي تغنيها لـي حين كنت صغيرة، وحين وقعت الـحـرب الأهلية في قريتي، قتلوا أمي وأبـي وإخوتي، وأنقذني من الموت رجل كبير في السن أحضرني لهذه القرية، لم يكن عندي أي ذكريات من أمي سوى هذه الأغنية، ولم أكن أريد أن تحزنوا وأنتم صغار لهذه القصة التي كانت تُبكيني حين أتذكر أهلي، خصوصًا والدتي.

- ألم تعودي لقريتك تلك مرةً أخرى؟

- لم يعد يسكنها أحـد، لقد قتلوا كل من كان فيها، الحرب الأهلية تدمر القرى وتشرد الـنـاس، إنها أسـوأ ما يمكن أن يحصل في حياة الإنـسـان، هيا الآن لا أريد تذكر تلك الأحـداث الحزينة، سـوف أحضر الطعام وتذهب لإحضار كامالي والأولاد لنأكل معًا ونحتفل بسفرك، لا تفكر كثيرًا الآن بكامالي، سوف أعتني بها وأتحدث

معها، لابـد أن تهتم بمستقبلك وسـوف تفهم ذلـك لاحقًا وتـدرك ما معنى أن تكون زوجة دكتور بارع ومشهور، لأنك سوف تكون دكتورًا بارعًا ومشهورًا وسوف ترى.

كامالي

قالت لي والدة تافارا:

- لقد قلت لي بأنك تحبين رؤيـة تـافـارا وهـو يقرأ الكتب، فلماذا أنـت حزينة لأنه سيسافر؟

- يقرأ الكتب وهو معي ويعيش معي في بيتنا ومع أولادنـا، أما الآن فسوف يقرأ بعيدًا عني، وأبقى هنا وحيدة دون زوج، دون الرجل الـذي أحـب؛ وسيذهب بعيدًا إلى بلاد لا أعـرف عنها شيئًا، ربما سيحب امـرأة أخـرى، ربما لن يعود، ربما يحصل له شـيء في الطريق، ربما أشياء كثيرة...لن يكون معي، وحتى لو عـاد لن يكون تـافـارا الـذي أحببته والـذي أعـرفـه، سـوف تكون هناك مسافات كبيرة بيننا، سوف يكون طبيبًا وأنـا مـاذا أكـون؟ مجرد زوجـة وأم أولاده، بل ربما لن أستطيع الحديث معه لأنه سوف يقول أشياء لن أستطيع فهمها.

- لا...لا...أنـــت متشائمة، تـافـارا يحبك ولـن يحب أحـد غيرك، ولكن يا كامالي القرية سـوف تستفيد من وجـود طبيب حقيقي، وليس بعض المشعوذين الذين أحيانًا يضرون الناس أكثر مما ينفعوهم، نحن بحاجة لطبيب حقيقي.

- وهـل تعتقدين أنهم سيسمحون لـه بعلاج الـنـاس، أو حتى أن الـنـاس سوف يقبلون العلاج عنده؟

- بالطبع، بعد أن يدركوا أنـه طبيب جيد، عموما من المبكر الحديث عن هذا الآن، أريـد منك أن تبتسمي وأن تشجعيه لأنـه حزين بسبب بكائك الصامت، هيا يا كامالي سـوف نعتني بك أنـت والأولاد وسـوف يعود وقـت الإجـازات وحين تنتهي دراسـتـه سـوف يـعـود وتصبحين زوجـة أفـضـل طبيب...هيا يـا عـزيـزتـي، شاركيه فرحته قبل أن يغادر.

مسحت دموعي ابتسمت وقلبي لا يـزال باكيًا، وقـررت ألا أجعله يـرى دموعي

قبل سفره، فقط صديقتي البحيرة هي التي تراها ولن يراها أحد غيرها. وفي آخر ليلة له قبل سفره في الصباح الباكر جلس بجانبي وأمسك يـدي بدفئه الـذي كان يغلف روحي، وقال لي بكلماتٍ هامسةٍ:

- سوف أعود يا كامالي، ولن أحب أحدًا غيرك، أنت أجمل شيء في حياتي.

لم أجـد أي كلمات أقولها لـه، أسندت رأسـي على كتفه وسمعت صـوت المطر يتساقط في الخارج، وقلت له دون دموع:

- سوف تحبني دائمًا كعدد قطرات المطر، أليس كذلك؟!

- وأنت بعدد النجوم في السماء؟.

- أجـل، حتى وإن امـتـلأت السماء بالغيوم فالنجوم تختبئ خلفها ولكنها لا تنطفئ أبدًا.

- ولكن لماذا كل هذا الحزن يا كامالي، أنت تعرفين مدى محبتي للعلم والدراسة.

- لست حزينة لأنـك سـوف تذهب للدارسة، أنـا حزينة لأنني لم أعـد حـرة في روحـي، لهذا لم أكن أحب الـزواج، لأن هناك قيدًا في الـروح يربطنا في الـزواج، ولم أكـن أحـب هـذا القيد، والآن أشعر بـه أكثر مـن أي وقـت مضى، رغـم أنـك سوف تسافر ويكون لدي الكثير من الوقت مع نفسي والأولاد، ولكن القيد الروحي الذي يربطني بك أصبح أكثر ثقلًا وصـلابـةً، لأنني سـوف أفكر بك طـوال الوقت دون أن أراك، سـوف يكون جـزء من ذاتـي في مكان بعيد ومجهول حيث تكون أنـت، مكان غريب لا أعـرف عنه شيئًا إلا مـا أخبرتني عنه بأنه مكان بـارد وفيه الـنـاس بيض البشرة يلبسون ملابس مختلفة عنا، ويأكلون طعامًا مختلفًا عنا، فكيف أستطيع أن أعيش وجـزء من ذاتـي يرحل لمكان بعيد ومجهول. لا أدري هل تفهمني أم لا؟ ولكنه شعور ثقيل كنت أخـاف منه قبل الـزواج وهـا أنـا أقـع به ويحاصرني، وأنت هنا كنت أشعر بسعادة هذا الارتباط ولكن حين تبتعد سوف أشعر بجفائه وبعده وأنه يحاصر روحي ويجعل البهاء يذبل في نفسي.

قال كلمات كثيرة حنونة ورقيقة ولكنني لم أسمع أيًّا منها، غدًا لن يكون هنا، غدًا

سـوف يغرق البيت في الصمت وأصبح الزوجة الوحيدة، غـدًا سـوف تبكي النجوم فراق تافارا، غدًا تبدأ أول الصفحات الحزينة من حياتي، وتمنيت لو أنني لم أتزوج، تمنيت لو أنني لم أحب أحـدًا وأن تبقى روحـي حرة طليقة دون ارتباط بأحد، دون أن أستمد سعادتي من أحـد، والآن وبعد أن تزوجت أصبحت أكـره الـزواج أكثر من قبل، الآن أدركـت أنني وقعت في مصيدة الـزواج وأنـه ارتـبـاط الجسد والأصعب ارتباط الـروح، فلا أستطيع التحرر من هـذا القيد ولا أستطيع احتماله، لم أقـل له إنني بتلك اللحظات الأخيرة قبل رحيله ولأول مرة تمنيت أنني لم أتـزوج به، وإنني أفتقد حريتي الآن أكثر من أي وقت مضى، وأن ألم التعلق أشد قسوة من الوحدة السعيدة.

قلت له كلمات لطيفة قبل أن يرحل وكأنني سعيدة لرحيله ولمستقبله، وقلبي يعتصره الألـم ولا يتوقف عن الأنـيـن، نـام بقربي والابتسامة تعلو وجهه، تمدّدت بقربه دون أن أنام لكي أشبع من رؤيته ومن سماع أنفاسه قبل أن يرحل، وشيء ما في أنفاسه يقول لي بهمسٍ حزينٍ بأنه لن يعود، فكان لابد لي من أن أودع زوجي الـذي لن يعود، لم أنـمْ طـوال تلك الليلة، أمسح دموعي تـارة وأراقــب وجهه تارة أخرى تحت ضوء الفانوس الخافت.

وفـي الصباح الباكر حمل حقيبة سفره، ووقـف أمامي ليودعني ويـودع الأولاد وكـان الأستاذ باكو بانتظاره مع والـده ووالدته وإخوته، حاولت أن أمنع نفسي من البكاء ولكنني لم أستطع، غلبتني دموعي واختنقت الكلمات في حلقي، احتضنني ويــداه ترتجفان، أتـت والـدتـه كـي تخفف علينا ثقل ذلـك الموقف وطلبت منه الذهاب لـوداع والـده وإخوته، وحاولت تهدئتي، عاد بعد قليل احتضنني من جديد وقبَّل الأولاد، بكينا جميعًا في لحظات الـوداع تلك، وربما شعر كل منا بأنه لن يعود، فكان كأنه وداع حقيقي وليس مجرد فـراق ثم لقاء. غـادر مع الأستاذ باكو وراقبته وهو يبتعد أكثر فأكثر إلى أن غاب خلف الأشجار والتلال، وغـرق البيت بعد رحيله بصمت لم أعرفه طـوال حياتي، انتابتني قشعريرة كأنها قشعريرة الموت، ضممت أولادي لصدري وكـان لابد من أن أذهـب معهم لأي مكان، وألا أبقى في هذا البيت الذي أصبح صاخبًا بصوت الصمت الثقيل الجاثم على صدري.

وقبل أن أخرج من البيت، أتت والدة تافارا وقالت لي:

- هيا سوف تأتين للعيش معنا، سوف يقوم والد تافارا بتوسعة بيتنا خلال يومين، لن تبقي وحدك مع الأولاد هنا، هيا لنجمع أغراضكم ونذهب.

لقد أدركت بأن ذلك الصمت كان سيقتلني، لذلك لم أرفض طلبها، بل جمعت أغراضنا بسرعة كي أهرب من صمت هذا البيت، وبقي فيه فقط كتب تافارا التي كان يقرأها ولم تكن أغراضنا كثيرة، حملها إخوة تافارا وأخذوها لبيتهم، بقيت للحظات في البيت الفارغ، وتذكرت سعادتي التي كانت هنا، تذكرت كلماتنا وضحكاتنا، تذكرت عيون تافارا اللامعتين وملمس يده الدافئة، كل ذلك أصبح ذكرى بعيدةً، قد لا تعود أبدًا، لذلك كنت أعلم بأنني لن أعود للحياة بهذا البيت مرة أخرى، وأن أشخاصًا آخرين سوف يفتحون باب هذا البيت ولكن لن أكون أنا أو تافارا.

ودّعته وودّعت البيت الذي جمعنا، وبدأت صفحة جديدة في حياتي، صفحة لا توجد بها صور فراشات ولا زهور ملونة ولا قلوب حب حمراء، صفحة باردة رمادية غادرتها النجوم وجفت عنها قطرات المطر.

تافارا

كنت أعتقد أن والدي لا يحبني كثيرًا، وأنني بالنسبة له ابن غريب الأطوار وبعيد عن تقاليد العائلة، فلم أهتم بالزراعة ولا بالحيوانات ولم أحلب بقرة ولو مرة واحدة، ولم يكن بيننا أحاديث كما كان بينه وبين إخوتي، ولكنني تفاجأت بحبه لي يوم سفري، لأول مرة في حياتي أرى الدموع بعينيه، ضمني إلى صدره بقوة لمدة طويلة كأنه لن يراني مرة أخرى، وشعرت بمدى عمق مشاعره تجاهي، وقال لي بعد أن مسح دموعه:

- لقد كنت دائمًا فخورًا بـك، ولكنني لم أكـن أستطيع أن أعبر عن ذلـك، وكنت أعلم بأنني لن أفهم الكثير مما يوجد في عقلك؛ لأنني لم أقـرأ أي شيء بحياتي ولا أعـرف حتى الـقـراءة والكتابة، كنت ابني ولكنك كنت غريبًا عني لأنـك تعلم أشياء أكثر مني، وربما كنت أشعر...

صمت قليلًا ثم تابع بحرج مكتوم:

- كنت أشعر بأنني أقـل من ابني المتعلم... ولكنني فخور بك وسـوف نشتاق لك كثيرًا.

لم أعرف بماذا أرد على والـدي، ربما اختار ذلك التوقيت ليقول لي تلك الكلمات كي لا يسمع إجابتي، ولأنـه فعلًا لم يكن هناك إجابة لـدي، شعرت بالخجل الشديد لأن والـدي يشعر بأنه أقل مني، ولكنني لم أستطع أن أرد، وهو لم يُـرِد أن يستمع لأي إجابة مني.

لم نكن نتحدث كثيرًا عن مشاعرنا في قريتي الأفريقية، ليس لأنها دون أهمية ولكن لأننا كنا ملتصقين بـالأرض والطبيعة، وكانت الأحـداث سـواء السعيدة منها أو الحزينة جـزءًا من تلك الطبيعة، فـإن مـات شخص ما لا يستمر الحزن لشهور وسنوات، وإن تـزوج شخص ما لا يستمر الفرح لأيـام وأيـام، حتى المرض كنا نتقبله بشكل عـادي وأنـه جزء من حياتنا؛ لم يكن في حياتنا ذلك الجزء التراجيدي شديد الكآبة والحـزن، الـذي وجدته في أوروبـا في حـال الموت أو الـمـرض؛ وهـي إحدى

الأشـيـاء التي اشتقت لها كثيرًا فيما بعد عندما عشت في أوروبـــا، ذلـك الانسياب الطبيعي للأحداث وأنها جـزء من الحياة، وبهذا الانسياب الطبيعي ودّعـت والـدي وإخوتي وأمـي، وقفوا جميعًا بين الحزن لرحيلي والفرح لأجلي، ولكنني كنت أعلم بأنهم وخـلال أيـام بل ربما ساعات سـوف يعودون لحياتهم الطبيعية وسـوف أكون دائمًا جـزءًا من حياتهم رغم بُعدي عنهم، ففي المفاهيم التقليدية لقريتي حتى لو غاب من نحب يبقى معنا لأنه جزء من حياتنا.

أمـا كامالي، فلم تبكي، أو ربما خنقت دموعها، وقفت أمامي مبتسمة قبل أن أغـادر البيت، كان وداعنا سريعًا ودون كلمات، خرجت من البيت وأنا أشعر بنظراتها تتابعني إلـى أن اختفيت عن ناظريها. وحين ركبت الباص وبجانب الأستاذ باكو، كنت حزينًا لمغادرتي القرية وشعور بالخوف مما سيأتي ينتابني، ولكنني شعرت بحرية غريبة لأنني تركت كل ما يربطني بالقرية خلفي، وأنني سوف أكـرس حياتي الآن للدارسة وهو ما رغبت به فعلًا؛ فرغم حبي لكامالي ولأولادي كان هناك فراغ عميق بنفسي لا يملأه سـوى العلم وحبي للطب. تنفست الصعداء وقلت لنفسي الآن تبدأ الحياة التي أريـد، الآن أجـد نفسي، أنـا سعيد رغـم خوفي من المجهول ومن الغربة ولن أعود قبل أن أحصل على شهادة الطب.

وصلنا إلــى الـمـطـار، سـرت وراء الأسـتـاذ بـاكـو والـخـوف يتملكني، انتبه لي ولارتباكي، فقال لي وهو يبتسم:

- هل ترغب بالعودة إلى القرية؟ يبدو أنك خائف من هذا السفر!

صمتُّ قليلًا، وللحظات كنت أود أن أقـول له أجل أريـد العودة للقرية، ولكنني تماسكت وتذكرت طموحي وحلمي بالدراسة:

- لا...لا أريـد الـعـودة، ولكن هـذا ليس سـهـلًا، يبدو كـل شـيء غريبًا ومخيفًا قليلًا...

- أجـل بالطبع، فهي تجربة ليست سهلة ولكن لا تقلق، بمجرد أن تصل هناك ستجد من سيعتني بك ويتابع جميع أمورك.

سألته فجأة:

- وأنت أستاذ باكو، ألم تسافر من قبل؟

- في يومٍ ما رغبت بالسفر، جمعت بعض النقود واشتريت تذكرة السفر لأذهب إلى إيطاليا، وكنت أريد أن أبقى هناك وألا أعود للقرية، ولكنني بمجرد أن وصلت للمطار مثلك الآن، فقدت تلك الرغبة بالسفر، ليس بسبب الخوف ولكن لشدة تعلقي بالقرية والمدرسة، لم أتخيل بأنني لن أعود للقرية أو حتى أنني لن أعيش فيها لفترة طويلة، وبعد بضع ساعات كنت أقف أمام بيتنا، لم يصدق والداي رؤيتي، ولكنهما بعد أن تأكدا بأنني كنت أنا باكو وليس شبحي، أقاما حفلًا كبيرًا في القرية واستمر الغناء والرقص حتى ساعات الصباح الأولى، ولم أكن أتخيل مدى الألم الذي كان سيصيب أمي وأبي لو أنني رحلت ولم أعُد، ولم أندم على قراري بالعودة أبدًا. ولهذا سألتك إن كنت ترغب بالعودة.

- قصة غريبة فعلًا، ولكنني أفهمها جيدًا، فللحظات فكرت فعلًا بالعودة، ولكنني أريد أن أكون طبيبًا لذلك لابد أن أخوض هذه التجربة وأن أحتمل هذا الخوف.

- أجل، بالطبع. والآن، هيا لابد أن تذهب من هذه البوابة ولا يُسمح لي بمرافقتك.

احتضنته طويلًا وكررت كلمات الشكر والامتنان، وكانت ضحكته مشرقة جميلة وهادئة كعادته، وفكرت كم سأشتاق له ولصحبته ولسفرنا معًا في الباص، لم يكن فقط أستاذي بل كان صديقي الوحيد في القرية. تجاوزت البوابة والتفتُّ لألقي التحية عليه وأراه لآخر مرة، وفعلًا كانت تلك آخر مرة أراه فيها، ولكنه رافقني طوال سنوات دراستي برسائله واهتمامه بي، إلى أن توقفت تلك الرسائل وفقدت أي اتصال معه.

تم ختم جواز سفري، وانتهت معاملات الجواز والحقائب، واتجهت إلى الطيارة، المطار لم يكن كبيرًا وكان من السهل علي إيجاد طريقي، صعدت إلى الطائرة، لم

أكن أعـرف أين أتجه وشعرت بالارتباك الشديد، ووقفت تلك المرأة التي يسمونها مضيفةً أمـامـي مبتسمةً، ويـبـدو أنـه قـد مـر عليها كثير مـن الأشـخـاص مثلي ممن يركبون الطائرة لأول مـرة، تناولت تذكرتي وطلبت مني أن أتبعها، سـرت وراءهـا وشـعـور بالاطمئنان أخـيـرا ينتابني، أشــارت للمقعد الـذي يجب أن أجلس عليه، جلست في مقعدي، أراقــب وجـوه الآخـريـن وأنظر لكل جـزء من الطيارة، سقفها وأرضيتها، مقاعدها والشبابيك الضيقة حيث أستطيع رؤيــة المطار والطائرات المحلقة أو الهابطة، ثم بعض المضيفات الجميلات، دخـل إلـى الطائرة كثير من الناس منهم أفارقة مثلي وآخـرون ذوي البشرة البيضاء من الأجانب، الجميع يبحث عن مقعده، وحين جلس الجميع بـدأت المضيفة تتحدث عن تعليمات الأمـان التي لم أفهم منها أشياء كثيرة.

وعندما بــدأت الطائرة بمغادرة أرض المطار، شعرت بالخوف الشديد بسبب إقـلاع الطائرة وتمسكت بمقعدي بقوة، انتبه الشخص الـذي يجلس بقربي لتوتري وخوفي، فقال لي:

- يبدو أنها المرة الأولى التي تسافر بها!

- أجل...أجل.

- لا تخف، بعد دقائق سوف يحل الهدوء وتعتاد على الجو.

- حسنًا...حسنًا.

لم أرغـب بالحديث بسبب الخوف الـذي شعرت به، ولكن كما قال خلال دقائق بــدأت الطائرة بالتحليق بـهـدوء، فاستعدت أنفاسي وهــدأت نبضات قلبي. وبعد ساعة، بـدأت المضيفات بتوزيع الطعام، وضعت أمامي صينية صغيرة فيها وجبة صغيرة ساخنة وقطع من الخبز وأشياء أخـرى لم أعـرف ما هــي؛ شعرت بالارتباك، نظر لي جاري مرة أخرى وقال لي دون أن أسأله:

- هذه القطعة الصغيرة جبنة بيضاء، وهذه جبنة صفراء، هذه قطعة من الزبدة، وهـذا مربى الفراولة، المربى هو خليط بين السكر والفراولة والزبدة يصنعونها من

لبن الأبــقــار، وهــذه شــوكــة، أنــت تعرف الملعقة والسكين ولكن الشوكة جديدة بالنسبة لـك، يمكنك غرسها في قطعة اللحم ثم تأكلها هكذا. وهـذا عصير برتقال، الناس يأكلون البرتقال لكنهم هنا يعملون منه عصيرًا. وهـذا الفنجان الفارغ لأجل القهوة أو الشاي.

ضحكت رغم خجلي منه وقلت له:

- كيف عرفت أنها المرة الأولى لي في المطار؟

ضحك بسعادة وقال:

- لأنني أيضًا كانت لي مرة أولـى وكـان هناك من ساعدني، لقد شعرت بالخوف مثلك والحرج ولا يمكن أن أخطئ حين أرى أي إنسان يجلس في طيارة لأول مرة، فجميعنا لدينا نفس التصرفات المرتبكة والخائفة.

- أشكرك كثيرًا.

انتهت فترة الطعام، تحدثت قليلًا معه، ثم غرق كل منا بأفكاره، وخيم الهدوء على الطائرة وأغلب الـركـاب غرقوا بنومٍ عميقٍ، فشعرت بالنعاس الشديد، ولم أستيقظ إلا على صوت المضيفة تخبرنا بالوصول إلى باريس.

كامالي

بدأت حياة جديدة مع حماتي، قاموا بتوسعة بيتهم كي نعيش معهم، وبدا تاكي وسيمو سعداء بوجودهم ببيت جدهم، وبرؤية البيت ممتلئًا بالأشخاص طوال الوقت، الزوار وأعمامهم وزوجات أعمامهم وأولادهم، لم يكن حتى لدي وقت للتفكير في تافارا إلا في الليل حين ينام الجميع وتنطفئ الفوانيس، فيعود وجه تافارا ينام بجانبي كأنه لم يغادر أبدًا، أرى بريق عينيه خلال لمعان النجوم في السماء، وأقول له ومن جديد وفي كل يوم بأنني أحبه بعدد نجوم السماء.

وفي الصباح تعود الحركة في البيت من جديد، أذهـب مع حماتي لحلب الأبقار ثـم تنقية الحبوب، وتحضير الطعام وتنظيف البيت، ثـم استقبال نساء القرية والاستماع لقصصهن التي لا تنتهي، أو الـذهـاب لأحـد المشعوذين كي يعالج من يمرض من جاراتنا أو صديقات حماتي؛ حماتي لم تكن امرأة عادية في القرية، كانت مستشارة نساء القرية، كل من لديها مشكلة تأتي لطلب نصيحتها، حتى المرضى منهن يسألن حماتي عن العلاج، لقد كانت بارعة في عـلاج الأرواح والأجـسـاد ولم تكن تحب مشعوذي القرية وتـقـول لـي بـصـوتٍ هـامـسٍ إنهم دجـالـون ولكنها لم تتحدث عنهم بسوء لخوفها من الأرواح الشريرة التي قد يجلبونها للبيت.

وحين كنت أشعر بالشوق لتافارا كانت تعلم على الفور فتقول لي:

- هيا أذهبي للبحيرة وأقضي بعض الوقت هناك، سوف أعتني بالأولاد.

فأذهب راكضةً نحو صديقتي البحيرة أجلس على حافتها، أبكي أحيانًا وأبتسم أحيانًا أخـرى وأنسى تافارا بأحيانٍ كثيرة أيضًا؛ كلما مـرّ أسبوع أو شهر أشعر بأن صورته تبتعد من ذاكـرتـي، وأشعر بألم الفراق يخفت تدريجيًّا في روحـي، وأنتمي أكثر فأكثر لعالم حماتي.

لقد أبهرني عالمها، فهي مختلفة تمامًا عن أمـي المنغلقة على نفسها وعلى بيتها، والتي من النادر أن تستقبل الضيوف، ولا تتحدث كثيرًا، ولا تـزور الجارات إلا نــادرًا، والدتي كانت عالمًا مغلقًا من الصعب على أي إنسان الدخول إليه ولا

أدري إن كـان والـدي الـذي عاشت معه أغلب حياتها استطاع فعلًا الدخول لعالمها الصامت المنغلق والحزين أيضًا.

كنت أعتقد بـأن أغلب نساء القرية مثل والـدتـي، ولكنني وحين عشت مع حماتي أدركـت بأن هناك نمطًا آخر مختلفًا تمامًا عن نمط والدتي، وأن بيت حماتي مفتوح لكل أهـل القرية، وأن عشرات من الأشـخـاص يدخلون كل يـوم ويخرجون من بيتها، يضحكون، يبكون، يشعرون بالألم أو بالسعادة، جميع ما في القرية يصب في بيت حماتي، كأنهم جـداول صغيرة تصب في البحر الكبير الـذي اسمه حماتي؛ حتى زوجها يجلس بجانبها وكأنها جـزء من كيانه، تحتضنه كطفل صغير وتقول له كلمات حنونة كأنه ابن لها لا زوجها.

لقد جعلتني حماتي أنسى وأتجاوز ألم فـراق تافارا، وتعلمت منها كيفية العلاج بالأعشاب، تعلمت منها كيف أفهم معاناة الآخرين وكيف أكـون قريبة من الناس، تعلمت منها كيف يكون العطف على الأولاد؛ حين غـادر تافارا كنت أبكي كثيرًا في الليل وأحيانًا خـلال النهار، ولكن شـدة تعلقي بحماتي وانبهاري بتفاصيل حياتها، جعلني أنسى وبأحيان كثيرة بأنه غير موجود، وكانت تلك سعادة جديدة أكتشفها وأدرك أن هناك مئات الأنـــواع من السعادة في الحياة وأنها لا تقتصر على الـزوج والزوجة أو الأم والأبناء.

شدة تعلقي بحماتي جعلت أمي تشعر بالضيق وربما الغيرة، ولم يكن أحد في القرية يُخفي مشاعره، فحياتنا بسيطة لا تعقيدات فيها، الجميع يتحدث عن مشاعره كأننا أطفال ولا نخجل من الحب ولا نشعر بالحرج من الكره، لا أحد يُخفي غيَّرته، ولا أحد يخجل من حزنه، وهو ما عشقته ولا أزال أعشقه في قريتي البعيدة، حيث كل شيء واضح وبسيط وعكس ما عشته في أوروبا حيث يُخفي الجميع مشاعره، ويحجب أفكاره عن الآخرين، كل شيء معقد ومركب، فكان حنيني لتلك البساطة عميقًا ومؤلمًا لأنني لن أشعر بهذه البساطة مرة أخرى.

قالت لي والدتي:

- أنت تحبين حماتك أكثر مني. لماذا؟

تـرددت بالإجابة ولكن لم أكن تعلمت بعد إخفاء إجابتي مثل ما أفعل في فرنسا، فقلت لها:

- لا، أنـا أحبك أكثر، ولكنني تعلمت منها أشياء أكثر مما تعلمت منك، فهي تقابل الكثير من النساء، وجميع من في القرية يطلبون رأيها، وهي دائمًا مبتسمة ومرحة، وأنت لا تزورين أحدًا وأشعر بأنك حزينة، أجل يا أمي أنت حزينة. لماذا؟

صمتت أمـي وعبثت بالعصا الصغيرة التي كانت معها، ورسمت خطوطًا على الأرض وقالت:

- أجـل، معك حـق، أنـا حزينة، وأمـي كانت مثلي حزينة وصامتة، ولا يمكن أن يكون كل البشر مثل بعضهم البعض، لقد كانت أمي يتيمة ولم تكن تعرف والديها تربّت في القرية مع أسرة اعتنت بها ولكنها لم تشعر بمحبة الأم والأب، لقد ورثتُ هذا الحزن منها.

- ألا يخنقك هـذا الـحـزن؟ لـمـاذا لا تحاولين أن تـزوري الـنـاس وتتحدثي مع الجارات؟

- لا أستطيع، أرغـب بذلك أحيانًا ولكني لـم أعـد أجـد أي شـيء أتـحـدث عنه معهم، عندما يطول أمـد الحزن يصبح جـزءًا من روح الإنـسـان، حتى أنـه لا يستطيع أن يعيش دونه.

- ولكن كيف يحتمل والدي الحياة معك بهذه الطريقة؟

- لأن والـدك مثلي، كان يتيمًا أيضًا لذلك يفهمني دون أن نتكلم، لا نحتاج للكلام، نعيش بتفاهم وكنت دائمًا زوجـةً مطيعةً لـه؛ واليتيم لا يطلب أمـورًا كثيرة، فهو يعلم أنـه سيبقى وحيدًا في هـذه الحياة؛ لذلك يتمسك بكل ما يتم تقديمه إليه ولـو القليل من الحب. معك حق بـأن تحبي حماتك، فأنا أحبها أيضًا وأنـا سعيدة لأنـك تتعلمين منها أشياء كثيرة لا أعرفها، وسعيدة أكثر لأنـك نجوت من الحزن ولم تكوني مثلي، أستطيع أن أعلمك شيئًا واحـدًا فقط وهو أنه إذا هاجمك الحزن قاوميه لا تجعليه يتسلل إلـى نفسك ويستقر بها، حاربيه كعدو شـرس حتى ولو

كان ناعم الملمس، فهو أفعى سامة يعجبك ملمسها ولكن لابد أن تجعلك تذوقين سمها البطيء، افرحي مع الحياة في الصباح وفـي المساء، اضحكي مع أولادك، تحدثي مع الناس، استمتعي بالطعام، باختصار افعلي عكس ما فعلته أمك.

- ما تقولينه حزين يا أمي، أشعر بحزنٍ خانقٍ...

- لا تكوني حزينةً لأجلي، لأنـه حين يطول الحزن يصبح طبيعة في الإنسان، وحين يصبح جــزءًا مـن طبيعة الإنـسـان يتوقف الألــم، تمامًا كسم الأفـعـى حين تأخذين منه جرعة صغيرة بكل يوم ثم يعتاد عليه الجسم، لقد اعتدت على الحزن وأصبح طبيعة بي ولم يعد يؤلمني. أما أنت فقد نجوت منه وأتمنى أن أرى السعادة بوجهك دائمًا.

وكان ذلك الحديث بداية علاقة جديدة مع والدتي، بدأت تفتح الباب إلى عالمها الصامت ببطء شديد، تتحدث عن ذكرياتها، تتحدث عن الأحداث التي مرَّت بها في طفولتها، عن المرض والولادة، عن زواجها بأبي، عن سفرها مع والدي لمدينة بعيدة لا أذكر اسمها، وهكذا بدأت أمي تخرج من عالمها الصامت وتصف لي ذلك العالم بالكلمات، حتى أنها بدأت تستعيد ابتسامتها بل وضحكها أحيانًا، لقد تغيرت والدتي، ووالدي بدا سعيدًا جدًا بذلك التغيير؛ حتى أنها بدأت تلعب مع أولادي كأنها طفلة صغيرة وتقص عليهم القصص التي لم تقصها علي أبدًا في طفولتي، وبعد عدة شهور أصبحت والدتي امرأة أخرى، تضحك وتفرح بحضوري مع الأولاد، وتطلب مني أن أخبرها بكل ما يحصل في القرية، حتى أنها وافقت على زيارة حماتي وبعض الجارات؛ لم أكن أتخيل بأنها ستتغير بتلك الصورة، ولم أكن أتخيل بأنها كانت تخبئ إنسانًا رائعًا بداخلها بل تسجنها بزنزانة الحزن.

كل ذلـك بفضل التأثير الـذي تركته حماتي في نفسي، وربما لو لم أعِـش تلك الفترة الطويلة مـع حماتي لأصبحت نسخة عـن والـدتـي بصمتها وانغلاقها على ذاتها وعلى عالمها الصغير، وكذلك لو لم يسافر تـافـارا لما تعرفت إلـى حماتي بتلك الصورة القريبة جـدًا منها ومن حياتها. لقد علمتني ألا أمر في الحياة كأنني لا أرى شيئًا حولي، علمتني أن أرى وأراقــب وأساعد وأتحدث مع الناس، أن أغير ما أستطيع تغييره، أن أرمـي الحجارة الصغيرة في مياه البحيرة الراكدة، وأن أبتسم

للغريب والقريب، أن يكون كل شخص حولي مهمًا بالنسبة لي، لقد كانت حماتي هي مدرستي الحقيقية، وفهمت لماذا تعلق تافارا بالعلم والكتب لأنه كانت لديه تلك الأم الحكيمة.

في تلك القرية الأفريقية النائية والتي يعتقد الغرب بأنها متخلفة ولا تمت بصلة للحضارة، تعلمت الإنسانية الحقيقية، تعلمت أن أكون جزءًا من العالم حولي، أن أحب وأن أكره بكامل حريتي وإرادتي، ألا أخبئ دموعي ولا أنفرد بضحكي، كانت تلك القرية الصغيرة عالمًا إنسانيًّا متماسك المشاعر، منتميًا للأرض والطبيعة، حتى الحيوانات كانت جزءًا من عائلاتنا وكانت لها أسماء وقصص، حتى الأشجار كانت لها قصص وكنا نتذكر الأحداث التي تقع تحت كل شجرة، والطيور لم تكن تخاف من حضورنا بل تسير حولنا دون خوف لأنها تعلم بأنه لن يصيدها أحد ولن يؤذيها أي من أهل القرية، كل ذلك الانسجام مع الطبيعة والألفة مع الكون افتقدته بشدة حين عشت في أوروبا، ففي هذا العالم المتحضر تقطعت الروابط مع الطبيعة، وحتى البشر روابطهم ضعيفة وعند أي أزمة تتمزق تلك الروابط، وحيث تخاف الطيور من البشر، وتهرب الحيوانات من مجرد رؤيتهم. وها أنا الآن بعيدة عن ذلك العالم الذي كان عالمي، وأولئك الأشخاص الذين كانوا جزءًا من وجودي لم يعودوا موجودين في عالمي، فأكتب كأنني أكتب عن عالم في خيالي لم يكن موجودًا في يوم ما، وينغرز الحزن عميقًا في نفسي رغم وصية والدتي لي بألا أدعه يتسلل إلى روحي كأفعى سامة، ولم تكن أمي تعلم بأنني سأعيش في عالم مليء بأفاعي الحزن وأنني لن أتمكن من الهرب منها لأنها تتسلق الجدران والأبواب، الأرواح والقلوب.

تافارا

كنت أخر من نزل من الطائرة، والخوف يكبر ويكبر إلى أن خنق الأنفاس في صدري، للحظات تمنيت لو أنني لم أغادر قريتي، خصوصًا حين استلم موظف الجوازات جواز سفري ونظر لي نظرة غريبة لم أعرف كيف أصفها، فلم ينظر لي أي إنسان بتلك النظرة في حياتي، ولكنها جعلتني أشعر بالبرد يتسلل إلى أكتافي وظهري، وكأنني ارتكبت خطأ ما لا أعرف ما هو، ثم تلك النظرات الغريبة لبعض الناس الموجودين في المطار، وحين أتذكر الملابس التي كنت أرتديها أدرك الآن سبب تلك النظرات وأستطيع الآن أن أعبر عن تلك النظرات، لقد كانت نظرات احتقار واستنكار كأنهم يقولون ماذا يفعل هذا المخلوق الأسود في باريس؟ من أين أتى هذا المخلوق بملابسه الملونة والقادمة من القرن الماضي، لقد كنت أرتدي سروالًا أحمر اللون واسعًا من الأسفل وضيقًا من الأعلى، وقميصًا واسعًا بمربعات من كل الألوان، ثم هناك شعري الذي كان كتلةً كبيرةً من الخصلات المجعدة المتشابكة، ولحيتي التي كنت أقصها فقط دون أن أحلقها كما يفعل الغربيون. وفكرت بأن ذلك الموظف أشقر اللون بملابسه الأنيقة سوف يضعني في الطائرة التي تعود بي إلى بلدي، ولكنه وبعد دقائق من البحث أمام الجهاز الذي أمامه والذي عرفت فيما بعد بأن اسمه كمبيوتر، ناولني جواز سفري بوجه عابس كأنه يقول لا أهلًا بك.

تناولت جـواز سـفري، ولحقت مسرعًا بالأشخاص الـذيـن كـانـوا معي على متن الطائرة، كي أعـرف أيـن سأذهب وكيف سأتصرف، فظهر ذلـك الشخص الـذي كان يجلس بجانبي من جديد، ناداني من بعيد وحين اقتربت منه قال:

- إلى أين ستذهب هناك؟

- أذهب مع بقية الركاب.

- هـؤلاء لن يخرجوا من المطار، سوف يذهبون إلى صالة الترانزيت، أي الانتظار ليأخذوا طائرة أخرى، أنت لابد أن تذهب من هذا الباب.

- وأنت أين ستذهب؟

- سأذهب لصالة الترانزيت، لابد أن آخذ طائرةً أخرى لأمريكا. أنت اذهب من هنا وسوف تجد نفسك بصالة الحقائب، تأخذ حقيبتك وسوف تتوجه لباب الخروج، سوف تقرأ اسم الباب مكتوب عليه خروج، هل ينتظرك أحد ما؟

- أجل، على ما أعتقد.

- لحسن الحظ أني رأيتك، وإلا كنت ستضيع بهذا المكان الكبير، حسنًا، لابد أن أغادر الآن، أتمنى لك حظًا موفقًا.

تبادلنا التحيات وتركته متجهًا إلى حيث أشار لي، وخلال دقائق وجدت حقيبتي، واتجهت نحو الباب المكتوب عليه خروج، وكنت أشعر بخوفٍ شديدٍ ألا يكون هناك أحد بانتظاري، سرت في الممر الطويل وأنظار كثير من الناس تتجه نحوي، نحو هذا المخلوق الأفريقي بملابسه المزركشة بكل الألوان، حتى أن طفلةً صغيرةً ضحكت وأشّرت بأصبعها تجاهي، فضحكت هي ووالدتها لرؤيتي، لم أهتم لكل ذلك فخوفي كان أكبر من تلك النظرات، وحين نظرت إلى ملابسهم الأنيقة بألوانها قليلة الألوان فهمت سبب نظراتهم، ولم أهتم من جديد بسبب خوفي من الآتي.

ثم تعرّضت لموقف صعب حين وقفت أمام درج يتحرّك وحده، كان لابد أن أنزل على ذلك الدرج، ولم أعرف كيف سأضع رجلي عليه وهو يتحرك إلى الأسف طوال الوقت، وكان مسافرون يقفون ورائي ينتظرون دورهم للنزول بعدي، ولكنني لم أستطع أن أضع رجلي على الدرج، فوقفت بجانب الدرج لا أستطيع النزول، راقبتهم وهم ينزلون بسرعة دون خوف، ولم أعرف كيف سأتصرف وأنزل عن ذلك الدرج اللعين؛ وحين لم يعد هناك أحد ورائي، وضعت الحقيبة أولًا على الدرج كي تنزل قبلي، ثم وضعت رجلي مثل ما رأيتهم يفعلون، ولم يكن ذلك شيئًا سهلًا كما اعتقدت، فبمجرد أن وضعت رجلي على الدرج سحبني ذلك الدرج بقوة للأسفل، ووقعت بقوة على الدرجات الحديدية، وأستمر الدرج بالنزول وأنا منبطح على تلك الدرجات الحديدية إلى أن وصلت إلى نهاية الدرج، ولم ينتهِ الأمر فلم أعرف كيف أنهض لأن الدرج تابع السير تحت ظهري، إلى أن أتى أحدهم ومد يده نحوي

لمساعدتي، نهضت من مكاني وأنـا أشعر بألم شديد في ظهري، ولمحتُ ضحكات بعض المسافرين، تجاهلت نظراتهم بسبب خوفي والآن لـم أهتم بسبب الألـم الـذي شعرت بـه فـي ظـهـري، ثـم إن حقيبتي انكسر قفلها بسبب تدحرجها على الـدرج، فأمسكت بها بكلتا يـدي كي لا تنفتح وتقع ملابسي القليلة منها. لقد كان منظري مضحكًا فعلًا وأصبحت كأنني مخلوق قـادم من كوكب آخـر، وبـدل أن ينظر لي بعض الأشـخـاص أصبح الجميع ينظر لي ولطريقتي في السير؛ لأنني أصبحت أعرج من شدة الألم، ثم تلك الحقيبة شبه المفتوحة.

ثم وصلت لباب يفتح ويغلق دون أن يلمسه أحـد، فخفت من جديد، فكيف سأدخل من هـذا الـبـاب، انتظرت أن يدخل أحـد ما قبلي ولحقت به مسرعًا فمر ذلك الشخص بسهولة ولكن الباب أغلق حين أتى دوري، وكـاد أن يُطبق على يدي، وقعت حقيبتي على الأرض وتناثرت ملابسي بكل ألوانها الزاهية، لملمت ملابسي بسرعة، وسمعت مـن جديد تلك الضحكات، وذهـبـت لذلك الـبـاب اللعين من جـديـد، راقـبـت الـنـاس مـن جديد لأفهم كيف سأتصرف، ولاحـظـت بـأن كـل شخص يقترب من الباب ثم يفتح له الباب، وأنهم لا يدخلون معًا، ففعلت نفس الشيء، وقفت قليلًا ففُتح الباب وركضت مسرعًا إلـى الجهة الأخـرى قبل أن يُغلق الباب، ووقعت الحقيبة مرة أخـرى ولكن هذه المرة استطعت أن ألحق بها قبل أن تتناثر مـلابـسـي، تنفست الـصـعـداء واستجمعت نفسي وحـاولـت السير قـدر الإمـكـان بشكل طبيعي، وعلى الجانب الآخـر من الباب، وقـف كثير من الأشخاص ينتظرون مـن يخرج مـن ذلـك الـبـاب، نظرت حولي ووجــدت صالة ضخمة يوجد بها مئات الأشـخـاص يأتون ويذهبون، شعرت بـالـدوار وأنني أكـاد أن أفقد الـوعـي، فلم يكن هناك أحـد أعـرفـه، ولـم ينادِ أحـد اسمي، وتمنيت فعلًا لو أنني لم أسافر وشعرت بألم ظهري يشتد مع ازديـاد خوفي وتـوتـري؛ وفقت مكاني لا أنظر إلـى أي شيء وكأنني لست مـوجـودًا بذلك المكان، بينما الجميع ينظر لي وإلـى شعري الذي أصبح متناثرًا في كل اتجاه والعرق الذي يتصبّب من جبيني.

ومن بعيد رأيـت لوحةً بيضاء مكتوب عليها أحـرف سـوداء، التوتر جعلني أرى كل شـيء بصورة ضبابية، حتى اسمي لم أستطع أن أقــرأه، لكن كـان هناك شخص ما

يقترب مني وكأنه يعرفني، فلم يكن لأحد أن يخطئ بأنني قـادم من قرية أفريقية نائية. اقترب مني شـاب طويل القامة أبيض البشرة وأسـود الشعر، يحمل لوحةً مكتوب عليها أحـرف اسـمـي، ولكنني لـم أستطع رؤيـة الـحـروف، لقد سيطر علي التوتر والـخـوف لدرجة أنني فقدت الإحـسـاس بما حولي، إلـى أن سمعت أحـدًا ما ينادي اسمي:

- السيد تافارا...

سمعت اسمي ولكنني ولأول مـرة أسمع كلمة سيد معها، فاعتقدت بـأن النداء ليس لي.

اقترب ذلك الشخص أكثر إلى أن وقف أمامي وقال لي:

- هل أنت السيد تافارا...

قلت بصوت متقطع:

- تقصد...تقصد..تافارا.

- أجل، أجل، أنت الشخص الذي حصل على منحة دراسية.

عندها فقط تأكدت بأنه أنا، فقلت له كمن استيقظ من النوم:

- أجـل...أجـل...هـذا أنـا...هـذا أنـا...أخـيـرًا أنـت هنا، لقد اعتقدت بأنه لا يوجد أحد بانتظاري وكنت خائفًا.

ضحك وقال:

- مـن الـواضـح مـدى خوفك هيا لا تقلق لقد وصلت سـوف نذهب الآن. تعال معي.

ركبتُ معه في السيارة، وبـدأت استعيد إحساسي بما حولي، فشعرت بالبرد الشديد الـذي لم أشعر به من قبل في حياتي، قـام ذلـك الشاب بالضغط على زرٍ مـا فـي السيارة فبدأ الـدفء يتسلل إلـى جـسـدي؛ نظرت عبر نـافـذة السيارة إلى السهول الخضراء والـشـوارع الناعمة الـسـوداء، وإلـى المطر الـذي يتساقط بنعومة،

ومـر بجانبنا قطار طويل كنت قد رأيـت صـورة لقطار يشبهه بإحدى الكتب التي قرأتها، ولكنني لم أكـن أعلم بـأن صـوت القطار بهذه الـقـوة. ثم مئات السيارات الحديثة والجميلة، وبعد أن تجاوزنا تلك المساحات الشاسعة الـخـضـراء، بدأنا بدخول مدينة باريس، كان هناك آلاف السيارات تنتظر، فسألته:

- لماذا تنتظر كل هذه السيارات؟

- ابتسم وقال:

- إنها تنتظر أن تفتح الإشـــارة الضوئية باللون الأخضر هل تـرى ذلـك العامود الطويل، توجد إشـارة بثلاثة ألـوان الأحمر أن تتوقف، البرتقالي أن تستعد والأخضر أن تسير، وجميع هذه السيارات تنتظر الإشـارة وممنوع تجاوزها، وهـذه الأزمـة كل يوم في باريس، عليك أن تعتاد على ذلك، فهذه مدينة ضخمة.

- أجل يبدو ذلك.

وسألت نفسي بصمت كيف سأعتاد على الحياة بهذا الكوكب الغريب المليء بالسيارات، والبنايات العالية الغريبة الشكل كأنها علب خشبية طويلة، ثم كل تلك المحلات الضخمة بأضوائها البراقة وبـالأشـيـاء التي تلمع الـمـوجـودة فيها، وهــذه الإشـــارات الضوئية التي لا تنتهي، وتلك الباصات الجديدة اللامعة التي تسير بين السيارات طـوال الـوقـت، والتي لا تشبه أبــدًا الباص الوحيد الـذي يصل قريتي بالمدينة؟. جلست في السيارة صامتًا أنظر إلـى هـذا العالم الغريب، وإلى الـنـاس الـذيـن يـرتـدون ملابس جميلة وأنيقة، والفتيات الجميلات اللاتـي يمشين في الـشـوارع، كل شـيء غريب، وجميل ومخيف لشاب أتـى من قرية بعيدة كأنها في آخر الكون، فكيف سأعيش هنا؟ كيف سأعتاد على كل هذه الضخامة بالأشياء والـشـوارع والسيارات والقطارات، لقد عرفت بذلك اليوم شعور النملة حين تسير في الغابة، لقد كنت نملة أفريقية تسير في غابة أوروبـيـة، لابـد أن تعتاد عليها وان تجد طريقها بها، جلست كفأر صغير خائف ينظر عبر زجـاج النافذة لهذا الـعـالـم الضخم المخيف الـذي يحيط بـي، لـم يكن هـنـاك سـوى بعض الأشـجـار المتناثرة فـي الـشـوارع، ولـم يكن هناك أي حيوانات ولا حتى حـشـرات، لـم يكن

هناك سـوى بنايات عالية قاتمة اللون وسـيـارات وقطار يمر من حين لآخـر بصوته الـذي يجعل القشعريرة تنتابني بقوة ثم هناك البشر، الكثير من البشر من كل الألــوان، البيض والـسـود مثلي ومـن لونهم بين الأبيض والأسـمـر، وكـل تلك النساء اللواتي يرتدين تنانير قصيرةً وأحذيةً مرتفعةً، لا أدري كيف يستطعن المشي بها؛ غرقت بهذا العالم الكبير ونسيت وجـودي للحظات منبهرًا بكل ما يتحرك حولي، بل لم يكن هناك أي شيء ثابت، لا نساء يجلسن أمـام البيوت، ولا بقرات يتجولن بين البيوت، ولا رجـال مسنين يتسامرون بالحديث تحت شجرة مسنة مثلهم، لم يكن هناك فتيات صغيرات يلعبن مع الأغـنـام و بالدمى الصغيرة التي يصنعنها من الأخشاب، فجأةً أصبحت قريتي عالمًا بعيدًا... بعيدٌ كأنه مجرد صور تتقاذفها أفكاري ولكنها لا تستطيع أن تكون صـورةً متكاملةً في ذهني، لقد تشتَّتتْ قريتي في ذهني واكتملت صـورة باريس أمـام ناظري، وبهذه اللحظة فقط أدركـت كم أنا بعيد وأدركت بأنني أبدأ حياةً جديدةً وصعبةً.

كامالي

بعد أن عرفت والدتي الفرح، وفتحت ذلك الباب المغلق لتسمح لنا بالدخول إلى عالمها الصامت، بعد أن رأيت ضحكاتها وعطفها على أولادي، أصابها المرض، توقفت من جديد عن الضحك بسبب الألم الذي كانت تشعر به، ولكنها لم تتوقف عن الابتسام، قالت لي بأنها سوف تبتسم دائمًا كي لا يعود ذلك الحزن من جديد، فهي لن تحتمل عودته مرةً أخرى بعد أن غادرها، بقيت بجانبها لأيام للعناية بها ومعالجتها بالأعشاب التي كانت تصفها لها حماتي، وأحضرت أيضًا بعض الحكماء في القرية أو الذين تقول عنهم حماتي مشعوذين، لم تحب والدتي رؤيتهم وطلبت مني ألا يحضروا مرة أخرى، فرؤيتهم تزيد من مرضها، بقيت أمي مريضةً لعدة شهور، وبدأت حالتها تزداد سوءًا، قالت لي ذات صباح:

- كامالي، قبل ألا استطيع الحديث أو قبل أن أموت، أريد أن أقول لك بأنك جعلتني أعيش أجمل الأيام قبل موتي، لقد كنت سعيدةً معك ومع أولادك، فإن فارقت الحياة الآن أغادرها وأنا سعيدة لأنني قبل موتي عرفت معنى السعادة، حبيبتي ابنتي كامالي، كنت منذ طفولتك جميلة الروح والوجه والآن تزدادين جمالًا وأنت أم وزوجة، سوف أغادر الحياة وأنا مطمئنة بأن هناك أمًّا أخرى تعتني بك وبأولادك بعد رحيلي.

كانت تلك آخر كلماتها، توفيت والدتي في ليلة هادئة تحت ضوء القمر، وفي الصباح تم دفنها، غرق بيتنا بحزنٍ ثقيلٍ لم أشعر به من قبل، كأن كل الحزن الذي كان يرافقها جثم فجأةً على البيت كأنه غادرها بعد الموت واحتل البيت، لم يحتمل والدي فراقها ولم يحتمل كل ذلك الحزن، وبعد أشهر قليلة توفي والدي أيضًا لفراق أمي، لقد عاش يتيمًا وحين فقد المرأة الوحيدة التي انتمى إليها فقد كل رابط له بالحياة وكان لابد أن يلحق بها. دفنّاه بقربها، ورأيت أن هناك بشرًا لا يفترقون لا في الحياة ولا في الموت، وأن الأرواح تلحق بعضها البعض وتفتقد بعضها البعض.

بعد موت أمي وأبي بتلك السرعة شعرت بعمق الفقد لهما، شعرت بوحدة

غريبة، رغـم كوني مـع أولادي ومـع كـل الـنـاس فـي بيت حماتي، ولكن فقد الأب والأم يعني أننا فعلًا أصبحنا في بقعة كبيرة من الوحدة، ذلك الفراغ الـذي يتركونه برحيلهم هو تلك البقعة الكبيرة العميقة من الـفـراغ في أرواحـنـا، ولا يوجد أي مخلوق على الأرض يمكن أن يملأ تلك الحفرة العميقة فـي أرواحـنـا لأنها حجر الأسـاس لوجودنا، يبقى وجودنا قائمًا ولكن هناك فجوة تبقى دائمًا فارغة يُطل منها وجها الأم والأب الغائبين إلى الأبـد. ذلك الحزن الـذي شعرت به لرحيلهما لم يكن حزنًا أعبر عنه بالدموع، بل حـزن أعبر عنه بالصمت، وأن هناك شيئًا كبيرًا رحل مني، أن هناك مكانًا ما لم يعد مـوجـودًا، هناك وجه ما لم أعد أستطيع أن ألمسه، هناك عيون لن أراها مرةً أخرى، وحياة لم تعد موجودةً، ماتت معهم ولن تعود أبدًا.

عـادت الحياة لطبيعتها، وتعايشت مع ذلـك الـفـراغ الـذي تـركـاه، ولـم يتبقَّ لي منهما سـوى الـذكـريـات، تمسكت بها لأنها بقية الـجـذور التي زرعـاهـا في نفسي، وبـدأت أنظر بطريقة مختلفة لأولادي وبأنني جـذور لهما خصوصًا وأن والدهما غير موجود، حتى أنهما لم يعودا يسألان عنه، لأنهما يعلمان بأنه لن يعود مثل بقية الآبـاء، حيث ينتظر الأبناء ساعة عودتهم بقرب البحيرة أو بجانب شجرةٍ ما، ثـم يحتضنونه ويدخلون معًا للبيت. كـان أولادي ينظرون لأولـئـك الأطـفـال الـذي ينتظرون آبـاءهـم وحين يعود الآبـاء يتركون اللعب ويدخلون معهم إلـى البيوت، فيبقى أولادي وحيدين في ساحة القرية إلـى أن يحل الظلام فيعودون إلـى حضني في المساء دون أب، ولا يسألون عن والدهم لأنهم يعرفون بأنه لن يعود.

اعتدت على غياب تـافـارا، واعتاد الأولاد على ذلـك، وكـان الأستاذ باكو بكل أول شهر يذهب للمدينة، ويحضر لـي النقود التي يرسلها تـافـارا مـع رسـالـة صغيرة منه، يقول فيها بأنه بخير وأنــه يشتاق لنا ويكتب كلمات متشابهة بكل رسالة، فتمسك والدته الرسالة وتتذمر لأنه لا يقول شيئًا آخر سوى أنه بخير وأنــه مشتاق لنا، وكنت أكتب رسالةً بكل شهر له أحدثه عن الأولاد وعـن أمـه وكـل ما يـدور في القرية، وهـو لا يكتب عما يحدث معه هناك في تلك المدينة التي اسمها باريس، وحين أخبرته بأن والدته منزعجة لأنه لا يكتب أي شيء عن حياته هناك كتب لها هذه السطور القليلة:

(أمـي، هذه مدينة كبيرة جـدًا، وأنـا أعيش في غرفة صغيرة، أدرس طـوال الوقت، فهناك كثير من الكلمات التي لا أعرفها ولابـد أن أعـرف معناها، لا أذهـب لأي مكان، أحضر الـدروس وأتـنـاول طعامي وأدرس طـوال الـوقـت، لذلك لو كتبت لك عشرات الرسائل لن يكون هناك سـوى الـدراسـة، المحاضرات، الطعام ثم النوم، لا يمكنني عمل شـيء آخـر، الـدراسـة صعبة جـدًا، حين يتغير شـيء ما بحياتي بالطبع سوف أكتب لك، ولكن اعلمي بأني أشتاق لكم كثيرًا.)

هدأت حماتي وقالت:

- أجـل معه حـق، يبدو أن الـدراسـة هناك صعبة جـدًا، أحيانًا أتمنى لو أنـه لم يسافر.

كنت أريد أن أبكي حزنًا لأجله، ولكنني تمالكت نفسي وقلت لها:

- لن يصبح طبيبًا ناجحًا إن لم يـدرس كثيرًا، وأنـت تريدين أن يصبح طبيبًا مشهورًا أيضًا.

- أجـل، أجـل، ولكن لم أتصور بأنه سيتعب لهذه الدرجة كنت أعتقد بأنه سيأخذ بعض الـدروس مثلما تعلمت أنـا كيف أداوي الـنـاس بـالأعـشـاب، ولكن أن يـدرس ليل نهار، هذا لم أكن أتخيله، عمومًا، أرجو أن ينجح وأن يرى ثمرة هذا التعب. هيا بنا نجلس مع ضيوفنا.

وهكذا كانت حماتي تتجنب شعورها بالشوق لابنها أو حتى شعورها بـأي ألم، تـذهـب للجلوس مـع الـنـاس، تتحدث معهم وبلحظات تصبح حياتهم أهـم من حياتها، بلحظات تنسى ألمها الـخـاص وتــذوب مشاعرها مـع مشاعر الآخـريـن، تتواصل معهم إلى أن تكون جـزءًا من وجودهم ومن حياتهم، وفي الليل تنسى كل مشاعر الألــم، وتستلقي بـارتـيـاح بجانب أولادي تقص لهم القصص وتغني لهم تلك الأغنية الوحيدة التي لا تغني غيرها، تمامًا مثلما كانت تفعل مع تافارا وبقية أولادهـــا، حتى أنـا بـدأت أحـب سماع قصصها وسـمـاع تلك الأغنية الحزينة بآخر الليل وبعد يوم مليء بالأحداث والأشخاص.

وأحيانًا أهــرب من كوني أمًّـا تعيش مع عائلة كبيرة، فأذهب للجلوس بقرب شـاطـئ البحيرة، وأتــذكــر حين كنت مـجـرد فـتـاة لا تـوجـد لديها مسؤوليات ولا واجـبـات، فقط فتاة خفيفة تحب الحياة وتستيقظ للذهاب للمدرسة أو اللعب مع صديقاتها، مجرد فتاة في بقعة ما من الأرض دون أحـلام ولا آمـال، دون ألم ولا ذكـريـات، دون مسؤوليات ولا شـوق، تركض مع الـفـراشـات، تبني بيوتًا من الطين والـرمـال، تلعب بدمية خشبية سـوداء وبشعرها ذي الـدوائـر الصغيرة، وأدرك الآن بأنها كانت أجمل أيـام حياتي، وأنها كانت أجمل حتى من تلك السنة السعيدة التي قضيتها مع تافارا فقط أنا وهو في بيتنا الزوجي؛ لو كان بمقدوري استرجاع كل تلك الأيــام بيدي لقبضت عليها دون أن أتركها تتسلل مـن بين أصابعي، لبقيت تلك الفتاة إلـى الأبـد بلا زوج ولا أولاد...لا شـيء سـوى اسمي كامالي، روح تتجول بين الأشـجـار، وجسد لا يـغـادر شاطئ هــذه البحيرة، ونفس لا تـرى مـن الـوجـود سوى صفحة الـمـاء الـرقـراق، والـتـي تنعكس عليها صـورة أغـصـان الأشـجـار التي تحركها نسمات الـهـواء. الأشجار من حولي بقيت كما هي منذ كنت تلك الفتاة، والبحيرة بقيت كما هي والسماء والنجوم، كل شيء حولي لم يتغير، أنا فقط من تغير، كنت أرى العالم من حولي بنظرات الفتاة السعيدة كامالي، والآن أراهــا بعيون الزوجة شبه المهجورة والأم التي تربي أولادهــا بمفردها، فـأرى الغيوم تغطي السماء، وأرى القمر يـتـوارى بخجل خلف تلك الغيوم، حتى النجوم ترحل بعيدًا فيبدو بريقها شاحبًا حزينًا، وبحيرتي لم تعد مياهها زرقـاء صافية، فلقد غطتها الغيوم باللون الـرمـادي الكثيف، والأغـصـان لم تعد تتمايل مع النسمات الخفيفة، يبدو أن كل شــيء غـرق فـي السكون والصمت، كامالي الفتاة السعيدة غــادرت منذ سنوات، وأتت مكانها كامالي أخرى حزينة القلب، وحيدة تفتقد تلك التي رحلت.

كنت أعتقد أنني بـزواجـي من تـافـارا سأكون أسعد الفتيات، وقـد كنت سعيدة معه فعلًا، ولكنني لم أتخيل أبـدًا بأنه سيرحل للدراسة أو لأي شيء آخـر، كنت أريد أن أبقى معه دائمًا ولذلك قبلت الـزواج به، ولم أكن لأتـزوج من أي رجل آخر غيره حتى لو علمت أنه سيسافر، كنت سأتزوجه لأنني بذلك الوقت لم أكن لأعلم مدى الألــم الــذي سيتركه رحـيـل الــزوج الــذي أحـبـه، كنت أسـمـع أحـيـانًـا قصص بعض

النساء اللواتي تركهن أزواجـهـن، وأرى الـدمـوع بعيونهن، ولكنني لـم أكـن أفهم لماذا يشعرن بذلك الألـم، الآن فقط أفهم ذلـك الألـم وأشعر به والأســوأ هو أنني مُجبرة على إخفائه، لا أستطيع أن أبكي ذلك الألـم أمـام أولادي أو حماتي أو نساء القرية، لا أستطيع أن أفعل ما تفعله كل نساء القرية بالحديث عن الـزوج وعن ألم الفراق وعـن المشاكل مع الأولاد، غير مسموح لي لأنـي زوجـة ابـن حكيمة القرية، المرأة التي يستشيرها الجميع، فكيف لي أن أبكي أو أن أشكي ذلك الألـم؟! وكيف لأولادي أن يـروا ذلك الألـم وهم يتألمون بصمت بسبب فـراق أبيهم ولا يشكون ولا يـتـذمـرون؟! فهل سـأكـون أضعف مـن أولادي الأطـفـال؟! لذلك قــررت الصمت وأن أستمر بحياتي كـأن تـافـارا سيعود بـأي لحظة، وأن أتجاهل ذلـك الـصـوت الدفين بأعماقي الذي يقول لي بأنه لن يرجع لهذه القرية ولا لبيته ولا لأهله.

لم أعد أذهـب إلى البحيرة كالسابق، فذهابي هناك كان يبعث الحزن في نفسي لأنه دائمًا ممتزج بذكرياتي حين كنت طفلةً وفتاةً سعيدةً، قـررت أن أعيش واقعي دون العودة إلى الـوراء، قـررت أن أتـرك كامالي الفتاة هناك تجلس بجانب صديقتها البحيرة، وأن أبقى هنا الـزوجـة والأم، وأن أعيش دون ذكـريـات، دون حنين كي أتمكن من الاستمرار في الحياة؛ وألا يرى أولادي الحزن بعيوني، فيكفي الحزن الذي أراه بعيونهم بغياب والدهم، خصوصًا حين يسألونني متى سيعود، ولا أعـرف بماذا أجيب فأقول لهم بأنه لن يتأخر وسوف يحضر هدايا كثيرةً لهم، وأرى أن ذكر الهدايا لم يعد يُدخل أي فرحة في عيونهم، مع الوقت توقفوا عن سؤالي متى سيعود، وربما أدركوا في أعماقهم أنه لن يعود.

تافارا

بمجرد وصولي للمكتب المسؤول عن المنحة، استلموا أوراقي وقاموا بترتيب كل الأمور الخاصة بي، سلموني مبلغًا من النقود، ورافقني الموظف إلى سكن قريب من الجامعة، وأرشدني لكيفية الوصول إلى الجامعة ومواعيد دوام المحاضرات التي تبدأ بعد يومين، وأخبرني بأن هناك طالبًا من أفريقيا يسكن في الغرفة المجاورة لغرفتي، وسوف يمر لزيارتي ويرشدني لبعض الأماكن في باريس.

فتحت باب الغرفة الصغيرة التي تم استئجارها لي، كان يوجد بها سرير وطاولة صغيرة، وقبل أن أفتح حقيبتي وأقـوم بإخراج ملابسي، سمعت طرقات على الباب، وكـان ذلـك الطالب الـذي أخبرني عنه، تحدث معي بالفرنسية فقد كـان يتكلم لغة أفريقية لا أعرفها ولكنني شعرت بالاطمئنان؛ لأنني أخيرًا وجـدت شخصًا ما قادمًا من أفريقيا مثلي. مد يده لمصافحتي ثم ضحك قائلًا:

- اسمي ناجا.

- وأنا تافارا، أنت تدرس هنا، أليس كذلك؟

- أجل أدرس الهندسة المدنية.

وقفت حائرًا أمامه فضحك من جديد وقال لي:

- هناك أشياء كثيرة جديدة عليك حتى في هـذه الغرفة الصغيرة وليس فقط في الخارج.

وبـدأ يشرح لي كيفية استعمال كل شـيء في الغرفة حتى في الحمام، شعرت بالارتياح والضيق بنفس الوقت، وقد فهم مشاعري فقال بمرح:

- حين وصلت لم أكـن أعـرف أشياء كثيرة عن هـذا المجتمع الغربي، وساعدني أحـد الأصـدقـاء بتعلم كيفية الحياة هنا، لذلك أعلمك هـذا لأنـك بعد فترة قصيرة سوف تعتاد على كل شيء، فلا تشعر بالحرج، لقد مررنا جميعًا بهذه المرحلة.

شعرت بالارتياح لسماع كلماته، ثم تابع قائلًا:

- ما رأيك أن نخرج ونرى بعض الأماكن في باريس!

- حسنًا ولكني متعب الآن، سوف آخذ حمامًا وارتاح قليلًا ثم نذهب.

- سوف أعود بعد ساعة.

خرجنا إلى الشارع، وعلى الفور شعرت بالبرد الشديد، كنت ألبس السترة الوحيدة التي أحضرتها معي ولكنها لم تكن كافيةً، لم أشعر بذلك البرد أبدًا في حياتي، فعدت مسرعًا إلى مدخل البناية حيث يوجد شيء من الدفء، لحق بي ناجا ضاحكًا وقال:

- حسنًا، سوف أحضر لك سترةً دافئةً من عندي إلى أن تشتري واحدةً مناسبةً لطقس باريس.

غاب قليلًا وأحضر سترةً ثقيلةً، لبستها وشعرت بالدفء ولكن البرد جمّد وجهي وملامحي حتى أنني كنت أرد عليه بصعوبة. تجولنا في الشوارع، وتفاجأت بمدى اتساعها وبكل تلك البنايات الضخمة والمطاعم والمقاهي المتناثرة في كل مكان، وكذلك الزهور والأشجار، وكل تلك السيارات والبشر الذين يسيرون بسرعة لا ينظر أي منهم للآخر، إلا من حين لآخر كان من ينظر إلينا نظرة خاطفة ثم يمضي بطريقه. قال لي جانا:

- والآن سوف تركب في المترو، فلا تخف، وتذكر كل ما أقوم به.

نزلنا الدرجات المؤدية لقبو كبير أسفل الشارع، وتفاجأت بكل تلك السراديب الضخمة والتي يسير فيها الناس ذاهبين أو عائدين، عشرات من البشر يمرون في دقائق، يقفون هنا وهناك، ثم يحضر ذلك الذي يسمى المترو الذي يشبه القطار الطويل، ينزل منه عشرات ويصعد إليه عشرات، اشترى جانا التذاكر وعلمني كيفية الشراء وكم سأدفع وإلى أين سأذهب في هذه المرة، وأنه سوف يذهب معي بمرات أخرى ليريني مناطق أخرى في باريس إلى أن أتعلم كيف أدبر أموري وحدي.

وقفنا على رصيف المترو حيث يقف رجال ونساء وفتيات وأطفال مع أهلهم،

بشر كثيرون، لو رآهــم أهــل قريتي لتعجبوا من كثرتهم كلهم معًا بهذه اللحظة يقفون بانتظار المترو، وصــل المترو، نــزل منه أعــداد أكبر من الذين يقفون على الرصيف، صعدنا مع الآخـريـن، ووقفنا في المترو، نظرت حولي لكل تلك الوجوه الغريبة، البيضاء والسمراء والــسـوداء، ولاحظت أنــه يوجد أعــداد كبيرة من السود في باريس، سألت ناجا عن السبب فقال لي:

- أجــل، يوجد كثير مــن الأفــارقــة هنا، مــن كــل الــبــلاد الأفريقية، يوجد طــلاب، ويوجد عمال وكذلك أعــداد كبيرة من المهاجرين والمقيمين بصورة غير شرعية بباريس، يسكنون أماكن فقيرة جدًا ويعيشون حياة صعبة.

لاحظت بعض النظرات العدائية لنا، وأخــرى نظرات استغراب، خصوصًا حين تتجه تلك النظرات إلــى بنطالي ذي المربعات الملونة، فقررت أن أنظر فقط عبر زجــاج النافذة، حيث يمر المترو بمحطات أخــرى بعد أن يمر بأنفاق مظلمة فأرى انعكاس وجهي على النافذة، وجه غريب وربما خائف من كل هذا العالم، الــذي لا أمت له بأي صلة سوى صلتي بجانا.

توقف المترو وأخبرني جانا أنه لابد من النزول، نزلنا وصعدنا من جديد الدرج الــذي يــؤدي إلــى السطح حيث شــوارع المدينة، وقفنا وســط شــارع طويل جــدًا وعــريــض، فيه بنايات كبيرة ومـقــاهٍ ومطاعم على الجانبين، ومـحــلات معروض عليها كل أنــواع الملابس والأحــذيــة والعطور، آلاف الأشــيــاء معروضة على اليمين والشمال، نسيت الناس وبــدأت بالنظر بانبهار لهذا العالم الجميل الممتلئ بكل ما يرغب الإنسان بأن يشتريه. ضحك جانا من جديد وقال:

- هــذا شــارع الشانزلزيه أشهر شــارع تجاري في فرنسا، بالطبع لن نستطيع أن نشتري شيئًا من هنا فكل شــيء غــالٍ ونقودنا لا تكفي، كل ما نستطيع فعله هنا هو النظر وشــرب الشاي في أحــد تلك المقاهي، وبعد قليل ســوف آخــذك لتشتري سترةً دافئةً، وملابس تناسب باريس دون مربعات من كل الألوان.

ضحكت حين قال لي ذلك، فقال بسعادة:

- أخيرًا أستطيع رؤيـة أسنانك، فلم أرَ في وجهك سـوى عينين خائفتين، هيا لا تقلق، سوف أساعدك وتعتاد على الحياة هنا، هيا لنشرب الشاي.

جلسنا معًا على الطاولة الصغيرة وطلب ناجا الشاي، وبـدأت أشعر بالارتياح، وأنـظـر لكل مـا حـولـي، فتيات ونـسـاء، رجـال وشـبـاب يتجولون، يشربون القهوة، يشترون الأشـيـاء، الـشـارع لا يخلو ولـو للحظة من الـمـارة، عالم ينبض بالحياة ولم أرَ سـوى نـوع واحـد من الحيوانات منذ وصولي لباريس، الـكـلاب، كثير من الناس يمشون ومعهم كلابهم. كانت تلك لحظات ممتعة أن أجلس بارتياح دون توتر ولا خـوف، وأن أشعر ورغـم البرد بأن حياتي قد بـدأت فعلًا في باريس، وأنني وفي كل دقيقة أقطع شوطًا جديدًا في الاعتياد على الحياة هنا، وبـدت قريتي بعيدةً وكأنها تقع في كوكب آخـر، فلم يكن يوجد شيء يشبه قريتي هنا سوى لون بشرة ناجا الأســود، وبعض الأفـارقـة الـذيـن يـمـرون مـن حين لآخـر والبعض منهم يرتدي ملابس بها كل الألوان كأنه قادم الآن من أفريقيا، فقلت لناجا ببراءة:

- أنظر، هؤلاء يرتدون ملابس بها كل الألوان مثلي!

ضحك ناجا وقال:

- أجل، ولكنها ملابس عصرية، هذه الملابس تعتبر موضةً الآن.

- ماذا تعني موضة؟

- أعني أنها مناسبة للعصر وحديثة وليس مثل بنطالك الـذي يناسب سنوات الستينات أو حتى الخمسينات، أي إنـه بنطال أثـري قد نجد مثله ببعض متاحف الملابس فقط.

ضحكت من جديد ولم أنزعج من كلماته وقلت له:

- ماذا لو رأيت ملابس أهل القرية ماذا ستقول؟

ضحك وقال:

- بعض الأوروبـيـيـن يحبون هـذه الملابس الأفريقية خصوصًا القديمة منها

وستجد بعض المحلات تبيع هـذه الـملابـس، أنـت فـي مدينة فيها كـل شـيء ولا شـيء فيها ممنوع، كـل إنـسـان يستطيع أن يلبس مـا يريد طالما أنـك لا تخالف القانون فأنت تعيش كما تريد.

صمتُّ للحظات أفكر بكلماته أن أعيش كما أريـد، ولأول مـرة أدرك أنني رغبت دائـمًا أن أعيش كما أريـد، حتى في قريتي عشت كما أريـد، اخترت عالم الكتب والـقـراءة رغـم رفـض والـدي لعالمي ولكنني عشت كما أريـد، وأدركـت أيضًا أننا في قريتي عشنا كما نريد، الفرق هو أنه في قريتي لم يكن هناك خيارات كثيرة، ولم يرَ الناس أي تنوع في الحياة فكنا نعيش جميعًا بنمط واحـد دون تغيير، وكـان هذا أيضًا شعورًا بالحرية لأنه لم يكن هناك نمط يتعارض مع ما يريد الجميع أو الفرد؛ أمـا هنا فـأرى بوضوح معنى أن أعيش كما أريـد، مع كل هـذه الأجناس من البشر، مع كل هـذه الألـوان وهـذه الاختلافات بين الناس، مع كل هـذه المحلات والأشياء والكتب والبنايات، كل شـيء يقول لك يمكنك الـذهـاب من هنا أو من هناك، كل شيء يـؤدي إلى عشرات الاتجاهات، لا يوجد نمط واحـد، بل مئات الأنماط وما لك سوى أن تختار نمط اليوم وربما تُبدله في اليوم التالي ولن يسألك أحد لماذا، لقد كان هذا عالمًا كأمواج البحيرة في قريتي، حيث تهب العواصف والأمطار فتختلط مياه البحيرة وتصبح كل قطرة متناثرة في مكان مختلف عن تيار المياه المعتاد، إنها مدينة يختلط بها كـل شـيء، حتى مشاعر الإنـسـان لا تعرف الاسـتـقـرار هنا، ربما حين أعيش فيها وأعـتـاد عليها سـوف أعـرف ذلـك الاستقرار النفسي، ولكنني الآن في بـؤرة الإعـصـار العاطفي، حيث كل شـيء غريب، كل شـيء يتحرك، أسمع أصواتًا ولغاتٍ لا أعرفها، وأرى وجوهًا متنوعةً وغريبةً، أجل أنا بشر مثلهم ولكننا من كواكب مختلفة من عوالم مختلفة سواء في المكان أو في الأرواح.

رافقني ناجا إلـى سـوق الملابس المستعملة، اشتريتُ ما يلزمني، تناولنا فطائر ساخنةً ورجعنا إلى السكن. وفي اليوم التالي ذهبنا للجامعة سيرًا على الأقـدام، فلم يكن سكني بعيدًا عن الجامعة، دلّني على قاعات الـدراسـة الخاصة بي وتعرّفت على مرافق الجامعة، وهكذا كنت مستعدًا لأبدأ حياتي الدراسية بعد يومين.

وبعد يومين، كنت أول من وصل لقاعة المحاضرات، جلست بصمت أرسم شجرةً صغيرةً على دفتري إلى أن يحضر بقية الطلاب، بدأوا بالحضور، منهم من ألقى التحية ومنهم من لم يتكلم أو ينظر إلي، وبعد دقائق حضر الدكتور، طلب معرفة أسمائنا وحين جاء دوري، قلت بخجل:

- تافارا

نظر الجميع إلي حين قلت اسمي الغريب، ابتسم الدكتور وقال:

- من الجيد أن أجد طلابًا من جنسيات مختلفة في محاضراتي، والآن لنبدأ المحاضرة.

كان يتحدث بسرعة كبيرة، وشعرت بأنني لا أفهم الكثير مما يقول، شعرت بالعرق يتصبّب من جبيني وكأنني في ورطة لا أعرف كيف أخرج منها، نظرت حولي وجميع الطلاب يكتبون بسهولة ما يقوله الدكتور، وأنا أكتب بعض الكلمات ثم أتوقف، وشعرت بأنني لن أستطيع متابعة الدراسة بهذه الطريقة، وأن معرفتي للغة غير كافية، كنت أرغب بالبكاء ومغادرة القاعة، ولكنني بقيت مُتسمّرًا في مكاني، وشعرت بخوفٍ شديدٍ أن يسألني الدكتور أي سؤال ولكنه لم يفعل. وحين انتهت المحاضرة، نظرت حولي، لأرى أي وجه فيه شيء من اللطافة، فوقعت نظراتي على فتاة سمراء البشرة وهي الأقرب لونًا لي، توجهت إليها وأنا أشعر بالخجل الشديد، قلت بصوتٍ مرتجفٍ:

- أرج..أرجو المعذرة...هل يمكنني...

نظرت لي باستغراب وقالت:

- أجل، ماذا هناك؟

تمالكت نفسي قليلًا ووضعت يدي على فمي كأنني أرتب كلماتي المتناثرة وقلت لها أخيرًا:

- أنا أجد صعوبة بكتابة ما يقوله الدكتور، أتحدث الفرنسية ولكن الدكتور يتكلم بسرعة، هل يمكنني استعارة أوراقك أصورها ثم أعيدها لك.

ضحكت وقالت:

- أجل فهمت، بالطبع يمكنك ذلك، في نهاية كل محاضرة تأخذ أوراقـي وتصورها وأنتظرك هنا إلى أن تعيدها إلي، بعد فترة سوف تعتاد على سرعة الدكتور.

شعرت بقلبي يقفز من الفرح، التمعت عيناي بالامتنان لها وحَنيتُ رأسـي شكرًا لها، فضحكت من جديد وقالت:

- لا تفعل هـذا، لا أحـد يحني رأسـه لأحـد هنا، وسـأكـون سعيدةً بمساعدتك، اسمي أليس.

- وأنا تافارا

- اسم جميل.

- شكرًا، هل يمكنني أخذ الأوراق الآن.

- أجل بالطبع.

وهـكـذا بـدأت محاضرتي الأولـى فـي الجامعة، وتـوالـت الـمـحـاضـرات وأليس تساعدني بـأن أصـور أوراقـهـا، ثـم بـدأت تصطحبني معها إلـى المكتبة؛ لأعـرف كيف أستعير الكتب أو أن أقـرأ في المكتبة في الفترات التي تفصل المحاضرات عن بعضها.

وبعد المحاضرات كـان يوجد سـاعـات طويلة مـن الـدراسـة لوقت متأخر من الليل، لحفظ المصطلحات الطبية ولكتابة المحاضرات بعد تصويرها، ثم قـراءة الكتب التي أستعيرها من المكتبة أو إعـداد الأبحاث التي يطلبها الدكتور، لم أكن أشعر بالوقت، وحتى التعب كنت أتجاهله لأنني كنت قد صممت على أن أفهم كل ما يقوله الدكتور، وأن أكتب وراءه بالسرعة التي يكتب بها الآخـرون، وبعد ستة أشهر من العمل المتواصل والسهر والـدراسـة دون توقف حتى في فترات الطعام، لـم تكن حياتي سـوى المحاضرات ومقعد الـدراسـة خلف الطاولة الصغيرة في غرفتي، حتى ناجا حين كـان يأتي لنخرج سويًا كنت أعتذر منه وأقـول له لابـد أن أصـل للسرعة التي أريـدهـا، حين أستطيع أن أكتب ما يقوله الدكتور سـوف نخرج،

أما الآن فلن أخرج إلا لشراء احتياجاتي.

وخــلال تلك الأشـهـر لـم أخــرج إلا للجامعة ولـشـراء الـطـعـام وإرســال النقود لكامالي، وكتابة رسالة صغيرة بأنني بخير، ولـم يكن هناك شـيء أكتبه سـوى أنني أدرس وأدرس وأدرس.

كامالي

مرَّت سنتان ولم يحضر تافارا، ولم يتوقف بأي شهر عن إرسال النقود، أصبح عمر ابني الكبير تاكي خمس سنوات وسيمو أربع سنوات، وتوقفوا عن سؤالي عن والدهم، لم يكن هناك سوى رسالة صغيرة أقرأها لهم في نهاية كل شهر، يحضرها الأستاذ باكو مع النقود من المدينة، يخبرني فيها أنه بخير وأنه يدرس كثيرًا ولا يوجد الكثير ليقوله، سوى أنه أصبح أفضل بكثير في الدراسة، وأنه يحب الطب كثيرًا وأنه لا يستطيع القدوم؛ لأن التذكرة غالية جدًا ولا يوجد معه نقود للعودة، وأنه سوف يحاول أن يعود السنة القادمة، ثم يسألني عن تاكي وسيمو ويكتب لوالديه بعض السطور التي أقرأها لهما، يستمعان لكلماته بانتباه ثم يغرقان بالصمت، وتنظر لي حماتي باحثةً عن أثر للدموع في عينيَّ، ولا تجد دموعًا ولا أثر لهما، تجد فقط نظرات ذابلةً لزوجة شابة أصبحت زوجةً أخرى من الزوجات المهجورات في القرية، وكنت أرى الفتيات صديقاتي واللواتي كن أقل جمالًا سعيداتٍ مع أزواجهن، والغيرة التي كن يشعرن بها تجاهي في السابق تحولت لشماتة لا يُخفينها، ولم أكن اهتم بغيرتهن والآن لا أهتم بشماتتهن ولكنني لا أستطيع أن أمنع الألم ولا الحزن أن يسكنا صدري بصمتٍ مُطبق.

أصبحت حياتي واجبات أؤديها لأولادي وأعتني بأسرة تافارا، وتعلمت من حماتي كل ما يمكن أن تعلمني إياه من مساعدة النساء في حياتهن الزوجية، وكذلك كيفية مساعدتهن على الولادة، ومعالجتهن بالأعشاب، لم أعد أذهب للبحيرة كي لا أغرق بحزن عميق، وأردت أن أغرق في حياتي الأسرية، كنت أحيانًا أضطر للذهاب إلى بيتي حيث عشت مع تافارا أجمل سنة في حياتي، أفتح الباب الخشبي الضيق، وأنظر للفراش الذي لا يزال موضوعًا على الأرض، وإلى كتبه وأقلامه، ثم إلى الفانوس الذي كنا نجلس بسعادة تحته في المساء، كل ذلك أصبح ذكرى يعلوها الغبار وتفوح منها رائحة الغياب الشبيه بالموت.

اصطحبت تاكي معي ذات مرة لبيتنا القديم، فوقف وسط البيت وقال:

- أذكر هذا المكان، كنت أنام هنا. لماذا غادرنا هذا البيت؟

- لأن والدك سافر وكان يجب أن نبقى مع أسرة والدك.

ثـم نظر إلـى الكتب الـموجـودة على الأرض وعلى الكرسي الخشبي الصغير، ذهب إليها وبدأ يقلب صفحات بعض الكتب، وقال بحماسة:

- أمي، توجد صور جميلة بهذه الكتب، أريد أن أراها كلها.

فجأةً انتابني الخوف الشديد، هل سـوف يتعلق بالكتب مثل أبيه ويسافر ثم لا يعود، ودون تفكير أخذته من يده وجررته معي خـارج البيت، كان لا يـزال يمسك بأحد تلك الكتب، فنزعتها من يـده وأعدتها للبيت القديم، ومشيت معه صامتة. توقف في وسط الطريق وقال:

- أمي، لماذا لا تريدين أن أرى هذه الصور؟

- لأنها سـوف تجعلك تتغير...لأنها غير مهمة...لأنها...دعنا من هـذا الآن لابد أن نعود للبيت هذه الكتب ليست مهمة. هيا بنا.

كـان لـدي فضول كبير لأعـرف المدينة التي يعيش فيها تـافـارا، فهو لم يتحدث عنها بأي من رسائله فكانت بمخيلتي تشبه مدينةً كبيرةً لا يوجد فيها سوى مدرسة ضخمة اسمها جامعة ومكتبة وغـرف للطلاب، لـم يترك تـافـارا أي صــورة أو أي وصـف لتلك المدينة سـوى أنـه يــدرس هـنـاك، لـم يكن هـنـاك وصـف للناس ولا الأمـاكـن ولا الأشـجـار، فـقـررت أن أطلب مـن الأسـتـاذ باكو أن يحضر لـي كتابًا أو صـورًا عن تلك المدينة التي يــدرس فيها تـافـارا، وحين عـاد في الشهر التالي مع رسالة تافارا المعتادة والنقود، ناولني كتابًا كبيرًا فيه صـور ملونة ومكتوب على الكتاب اسـم «بـاريـس» وأخبرني بأنه لابـد أن يعيد الكتاب في المرة القادمة؛ لأنه استعاره من المكتبة.

نـاولـت الـرسـالـة والـنـقـود لحماتي وأخـــذت الكتاب بسرعة لأتصفحه، جلست تحت إحــدى الأشـجـار بعيدًا عن الجميع، وبــدأت أتصفح ذلـك الكتاب، لأرى صور مدينة فيها آلاف الأشـيــاء، ولـيـس مـدرسـةً ضخمةً ومكتبةً فـقـط، جلست أنظر بانبهار لتلك المحلات والبنايات والـحـدائـق والـسـيـارات ومركبات أخــرى غريبة

الشكل، وأماكن لا يوجد مثلها في قريتي ولـم أرَهـا بـأي كتاب، ورجـال بيض اللون ونـسـاء جميلات لا يشبهن أبـدًا نساء القرية، نساء بيض البشرة بملابس غريبة ولكنها جميلة، بعض الـصـور يتساقط المطر فيها وبعضها الآخـر تشرق الشمس فيها، وهـنـاك أصـنـاف مـن الطعام لا يحلم أي شخص فـي القرية حتى برؤيتها. وحين أغلقت الكتاب شعرت بأن المسافة ما بيني وبين تافارا أصبحت أوسـع وأنه فعلًا لن يعود، فكيف سيعود لقرية لا يوجد فيها سوى بيوت من القش والخشب، تتجول فيها الأغـنـام والأبـقـار، قرية لا يوجد فيها سـوى البحيرة والأشـجـار والتلال البعيدة، ومدرسة قديمة لا يوجد فيها سـوى ثلاثة فصول، وفهمت لماذا لم يكتب لي عن تلك المدينة، بكيت لأول مـرة منذ شهور طويلة وتساقطت دموعي على تلك الصور الجميلة، وكلما رأيـت صـورة أخـرى، أرى تافارا يبتعد أكثر، ثم تذكرت بأنني يجب أن أعيد الكتاب للأستاذ باكو فمسحت دموعي كي لا تترك أثـرًا على الصفحات الناعمة.

وحين عدت نظرت حماتي للكتاب الـذي بيدي وسألتني عنه، أجبتها بأنه كتاب فيه صور عن باريس حيث المدينة التي يعيش بها تافارا، ناولتها الكتاب فجلست هي تنظر إلـى الصور مع والـد زوجـي، قلّبا الصفحات الـصـورةَ بعد الأخـرى، وحين انتهت قالت لي بحزن:

- الآن أفهم لماذا لا يعود، من يعيش بمكان مثل هذا لن يفكر بالعودة...

ثم تداركت نفسها وقالت بارتباك:

- ولكن لا، ابني تافارا سوف يعود وسـوف ترين، هو يـدرس الآن والدراسة صعبة هناك، ولقد أخبرك بأن تذكرة السفر غالية الثمن وأنه قد يعود السنة القادمة.

- أجـل، ربما سيعود، سـوف أحتفظ بالكتاب لأنـه يجب إعـادتـه للأستاذ باكو في المرة القادمة.

وإلـى أن يأتي موعد الأستاذ باكو بنهاية كل شهر حين يأتي لزيارتنا، كنت أنظر إلـى تلك الصور بكل ليلة، لأشعر أنني مع تـافـارا، لأنـه يمكن أن يكون ماشيًا بهذا

الطريق ويمكن أن يكون جالسًا تحت هـذه الشجرة، وجالسًا على المقعد بهذا المقهى. لم أدع الأولاد يـرون الكتاب لأنني لم أكن أريـد أن يتعلق تاكي من جديد بالصور ثم بالكتب، وأيضًا لم أكـن أريدهم أن يشعروا بالحزن لأن والدهم بذلك المكان الجميل وهم هنا يعيشون دونـه، فكان الأفضل لهما أن يعتقدا بأن والدهما يعيش في قرية تشبه قريتهما.

أتى الأستاذ باكو وأخـذ الكتاب، ثم نادته حماتي، جلسا معًا وكانت تعتقد بأنني لا استمع لحديثهما، قالت له:

- أريد أن أسألك بخصوص دراسة تافارا.

- أجل، أسمعك.

- هل فعلًا لا تكفي نقود المنحة ليأتي لزيارتنا؟

- هي لا تكفي ولكن بنهاية كل سنة يتم دفع مبلغ إضافي للمنحة؛ كي يستطيع الطالب شراء أشياء يحتاجها أو إذا أراد زيارة أهله.

- لقد كتب تافارا بأنه لا يوجد معه نقود ليأتي!

صمتَ الأسـتـاذ باكو مـحـاولًا إيـجـاد رد مناسب، ولكن حماتي بذكائها تابعت قائلةً:

- لابد أنه يوجد مصاريف كثيرة عليه دفعها.

شعر بالارتياح وتابع قائلًا:

- أجل بالطبع، خصوصًا في كلية الطب، فالمصاريف كثيرة.

بعد تلك المحادثة القصيرة تغيرت حماتي معي، وأصبحت نظراتها لا تُخفي اللوم الصامت بأنني السبب بعدم رغبة ابنها بالعودة، ثم نظرات نساء القرية لي وأنني أصبحت امـرأة مهجورة، مثل بضعة نسوة أخـريـات رحـل أزواجـهـن ولم يـعـودوا، وفـي قريتنا كـان الناس لا يحبون الجلوس مع من هجرها زوجها، فكانت تلك النظرات هـي الأصـعـب وهـي التي جعلتني أتـوقـف عـن الجلوس مـع النساء

حين يقمن بزيارة حماتي، وأتوقف عن الحديث معهن، أصبحت أقضي كل وقتي بأعمال المنزل أو الحديث مع أولادي، وعـدت من جديد لأزور صديقتي الوحيدة البحيرة لأبتعد عن البيت وعـن القرية، وأتخيل تـافـارا وهـو يتجول بتلك المدينة الساحرة بأضوائها التي حجبت ضوء القمر والنجوم، وأنـدم من جديد لأنني زوجة، ولأنني مرتبطة بـزوج رغم كونه بعيدًا عني، وأنني المسؤولة عن غيابه حتى لو لم يكن لي ذنب بذلك، وأنه لابد من وجود عيب ما بي يجعله لا يعود، وأنني أصبحت من النسوة اللاتي لا يحب أحـد الحديث معهن في القرية، وهكذا جعلني تافارا أكـون أقل من بقية النساء حتى بنظر حماتي التي يعشقها زوجها، ولا يستطيع أن يعيش دونـهـا؛ فهي رغـم محبتها لي كانت تُخفي ذلـك التفكير الصامت بـأن ابنها لم يحبني بما يكفي، وأنـه ربما يتجنب العودة بسببي؛ وحين أصبح ذلـك الشعور ثقيلًا وأصبحت نظراتها لا تخفي ذلـك الـلـوم الصامت، وذلـك الشعور المكتوم بأنني سبب التعاسة لبيتها، قـررت أن أعـود لبيتي القديم مع أولادي ومع البقرتين والأغنام الخمس التي اشتريتهن من المال الذي يرسله تافارا لي.

لم تُصر حماتي على بقائنا معها، فحمل أخوة زوجي أغراضي وأغراض أولادي القليلة وعدت لذلك البيت القديم، نظفته وأزلت الغبار عن كل ما فيه وساعدني تاكي وسيمو بتنظيف البيت، غيَّرت الفراش الذي كان يغطيه بالغبار، ووضعت كتب تافارا في صندوق كبير كي لا يراها الأولاد؛ وخلال ساعات أصبح بيتنا جاهزًا للحياة، فهو لم يكن يتكون سوى من جزأين، جزء للنوم وجزء للطعام، أعددت الطعام وأكلت مع أولادي تحت الشجرة التي تظلل بيتنا، وكان بيتنا الصغير بعيدًا بعض الشيء عن بقية بيوت القرية وقريبًا من البحيرة، وكنت سعيدةً بذلك، وحين حل المساء أشعلت ذلك الفانوس من جديد، ورأيت وجه أولادي يلمع تحت ضوئه الخافت، رويتُ لهم القصص وغنيت لهم بعض الأغنيات إلى أن غرقوا بالنوم، متمددة بقربهم أنظر إلى وجوههم الجميلة والتي تشبه لحدٍّ كبير وجه تافارا، وأتذكر كل لحظة مرَّت بهذا البيت حين كنت سعيدةً مع زوجي، أطفأت الفانوس ولم يتبقَّ سوى تلك النجوم التي كانت تؤنس وحدتي، ولا تجعلني أشعر بأنني الزوجة المهجورة. وتذكرت والدتي التي لامتني في يومٍ ما لأنها اعتقدت بأنني أحب حماتي أكثر من حبي لها، والآن أدرك بان حب الأم لا يعادله أي حب في الوجود، فأمي لم تكن لتتضايق من الحديث معي لأن زوجي لا يريد رؤيتي، كانت لتضمني إلى صدرها وتخفف

من حزني، الآن فقط وبعد أن رحلت أشعر بمدى حاجتي لها وأنني لم ولن أحب أحدًا مثلما أحببتها؛ الآن فقط أفهم سر ذلك الحزن الدفين، وأن الحياة أحيانًا لا تترك لنا خيارًا سوى خيار الصمت والحزن والانكفاء على الذات.

تافارا

أصبحتُ في السنة الرابعة في كلية الطب، ومن الطلاب المتفوقين، أصبح الطلاب الفرنسيون من حولي يطلبون مساعدتي بحل بعض الأسئلة، وأصبحت مساعدًا لبعض الأساتذة في الجامعة، كأن الطب يسري بدمي منذ ولادتي، تأقلمت مع الحياة في فرنسا بشكل كامل، وعرفت كل الشوارع في باريس وكل الأماكن الأثرية والمتاحف، زرت الكنائس وبرج إيفل وكاتدرائية روتردام والشارع اللاتيني، كنت أعشق السير في شوارع باريس القديمة، وأشعر بأنني لست غريبًا عنها وأنني لست أفريقيًّا بل فرنسيًّا بكل قطرة بدمي، عشقت هذه المدينة وعشقت فنجان القهوة في الصباح مع الكرواسان الساخن و سماع الأغاني الفرنسية الكلاسيكية.

وكوني مساعدًا للأساتذة في الجامعة منحني فرصة كسب بعض المال مقابل بعض المحاضرات، التي كنت أقوم بها من حين لآخر بغياب الدكتور، أو مقابل أي خدمات إدارية ممكن أن أؤديها، فأصبحت جزءًا من الجهاز الإداري للجامعة، ونسيت كوني أسود البشرة، فالتفوق يُزيل كل الفروقات ويمحو العنصرية من عيون الآخرين. انتقلت للسكن في أستوديو جميل قريب من الجامعة تسطَعُ فيه الشمس في الصباح ويغرق في الدفء في المساء.

ذلك الارتياح الكبير الذي شعرت به في حياتي، جعلني انتبه لمشاعري التي تجاهلتها منذ وصولي لفرنسا بسبب دراستي، وحين تمكنت من اللغة وتفوقت في الدراسة بدأت أتبادل النظرات مع بعض زميلاتي اللواتي كن يبدين الإعجاب بي، فلقد تغيرت شخصيتي وبدأت ألبس ملابس أنيقة وأقص شعري بصورة عصرية واشتري العطر المفضل لدي، حين أنظر لنفسي في المرآة وأتذكر تافارا الذي أتى منذ أربع سنوات أضحك كثيرًا واشعر بالسعادة لتافارا الوسيم والأنيق والمتفوق.

ثم دخلت جاكلين لحياتي، الشقراء طويلة القامة بعينيها الزرقاوين وبشرتها البيضاء الصافية، وشعرها الأشقر المنسدل على كتفيها كشلال انعكست أشعة

الشمس على كـل قطرة منه، جاكلين كانت الأجـمـل مـن بين كـل فتيات الكلية، مثلما كانت كامالي الأجمل من بين فتيات القرية، ويبدو أن قـدري أن أكـون مع الأجـمـل. وكـان من السهل أن أقـع بحب فتاة بجمال جاكلين المشرقة والمضيئة بكل الأوقــات، لم يستغرق الأمـر الكثير من الوقت حتى أصبحنا معًا، نـدرس معًا ونأكل معًا ونعيش حياةً كحياة أي شخصين متزوجين، ولكن دون زواج، فأنا لم أنسَ أنني متزوج، ورغـم جمال جاكلين لم أرغـب بالزواج بها، فرغم سعادتي السابقة مع كامالي إلا أن الـزواج لم يناسب طبيعتي، كنت سعيدًا معها ولكنني كنت أستطيع بسهولة أن أعيش دونها، لم أرغـب بالعودة للقرية طـوال السنوات الأربـع الماضية، ليس لأنني لا استطيع ماديًّا ولكنني لم أعـد أشعر بالانتماء لكامالي، فحياتي في باريس جعلتني أدرك بأنني لم أعد أرغب بتلك الحياة التي كانت لدي هناك، وأنني ربما لم أكن أحب كامالي بشكل كافٍ وأنه ربما جمالها هو الذي دفعني للزواج بها، كانت تلك دائــرة صعبة أدور فيها طـوال الـوقـت، خصوصًا أنـه لـدي ولــدان هناك، أشـتـاق لهما ولكنني وبنفس الـوقـت لا أحتمل أن يجمعني ذلـك البيت الصغير بكامالي مرةً أخـرى، هناك شيء ما بداخلي انقطع، كأنه حبل طويل يصلني بقريتي، ولكنه موصول من طرف واحد ومقطوع من الطرف الآخر.

ويبدو أن كامالي بذكائها فهمت أنني لا أريـد أن أعـود على الأقـل خـلال الوقت الحالي، فبعد أن كانت ترسل لي الرسائل قبل سنتين توقفت عن إرســال الرسائل، وكـانـت تكتفي باستلام الـنـقـود، أصبحت والـدتـي هـي التي ترسل الـرسـائـل التي يكتبها لها الأستاذ باكو، والرسائل التي أتبادلها مع الأستاذ باكو من حين لآخر.

كنت أعلم بأنني أتصرف بأنانية كبيرة وربما بقسوة، ولكن هذا الشعور بداخلي كـان يوجه تصرفاتي، ولـم أستطيع مجاملة كامالي، كنت أفضل أن تعيش على الذكريات الجميلة التي جمعتنا معًا، إلى أن تتبدل حالتي النفسية التي أشعر بها الآن، ربما قد استرد شوقي لها فيما بعد، ربما أحجز تذكرة فجأةً وأذهــب لرؤيتها ورؤيــة الأولاد ولـكـن الآن لا أستطيع، خصوصًا وأنــا عـاشـق لجاكلين الجميلة، خصوصًا وأنني أصبحت وبجزء كبير من مشاعري وتصرفاتي فرنسيًّا تفوق حتى على أقرانه بيض البشرة، وبدأت طموحاتي تصعد مع صعود درجاتي الدراسية.

أصبحت حياتي عبارة عن الدراسة والتشريح، حفظ المواد والبحث في الكتب، إيجاد الأجوبة لكل سـؤال، معرفة كل ما لا يعرفه الآخـرون، كـان ذلـك الصعود دون توقف ولم أرِد أن أتوقف، أريـد أن أكـون طبيبًا مشهورًا وأن أتخصص في الجراحة، أريـد أن أكـون الأفضل ولأجـل تحقيق ذلك لابد أن أقطع جـزءًا كبيرًا من جـذوري وأن أزرع جــذورًا جـديـدةً في بـاريـس، عبر مظهري وتفوقي ودراسـتــي ليس في الطب فقط بل في التاريخ والحضارة الفرنسية، وأن أتألق بكل اجتماع وبكل مقابلة وكان ذلـك سهلًا بالنسبة لـي، فكل الكتب التي قرأتها في قريتي وكـل تلك المعلومات التي خزنتها في السابق، كان لها فائدة كبيرة سـواء بالمعلومات التي كنت أعرفها أو بطريقة تفكيري، التي خرجت عن النمط المتكرر والمألوف لشاب بسني، ثم هناك جاكلين التي حين تمشي بجانبي ينظر إليها جميع الرجال إعجابًا واستغرابًا بأنها تمسك بيد شاب أفريقي أسـود ويبدو واضحًا أننا عاشقان، فأصبحت جاكلين رصيدًا آخر أصعد به في السُّلم الاجتماعي والأكاديمي، وكلما صعدت بذلك السلم عاطفيًّا ودراسيًّا ابتعدت أكثر عن كامالي، حتى أنني بالكاد أتذكرها إلا في آخر كل شهر، حين أرسـل لها النقود وتلك الرسالة بكلماتها المكررة، ورسـالـة أخـرى لأمي أطمئنها عني وأنني بخير وأنني سوف آتي لزيارتها حين يسمح الوقت بذلك وحين أمتلك ما يكفي من المال.

وجزء آخر من حياتي، كان المشي على ضفة نهر السين، ومشاهدة الناس يجلسون تحت أشعة الشمس، ثم سماع غناء بعض الأشخاص أو عزفهم للموسيقى، وتناول الطعام مع جاكلين بأحد المطاعم المطلة على النهر، ثم نتجول في المساء في شارع الشانزلزيه هذا الشارع الذي كان أول شارع أسير فيه في باريس، حين وصلت أول مرة غريبًا خائفًا تحت وطأة البرد القارس، بالإضافة إلى تلك النقود القليلة التي شربت بها الشاي مع صديقي ناجا، والذي لا يزال صديقي ولكنه لم يعد يخفي غيَّرته الشديدة مني، خصوصًا حين شاهد جاكلين تسير بجانبي وأنا أمسك بيدها، توقف قليلًا ثم ألقى التحية علينا، وبعد ذلك تغير معي ولم نعد نتحدث كالسابق، فأدركت بأنها الغيرة، ولم أهتم بأن أستعيد علاقتي معه، فأهدافي لم يكن من بينها صداقتي معه، كان لدي أهداف أخرى أكثر أهمية، وحين انتقلت لسكني الجديد لم أعد أراه؛ ومع الوقت أدركت أن بعض الأفارقة يجتمعون معًا في حلقات ضيقة، وكأنهم لا يزالون في أفريقيا ومن يخرج عن

تلك الحلقة تتم معاملته كمنبوذ بينهم، وكأنه لا يحق لي أن يكون لي حياة أخرى، ولقد قررت أن أخرج من تلك الحلقة الضيقة وأن أعيش حياة فرنسية لا علاقة لأفريقيا بها، وأن أنسى جذوري في سبيل تحقيق أهدافي.

كامالي

أربع سنوات مرَّت على غياب تافارا، أصبح عمر تاكي ست سنوات وسيمو خمس سنوات، بدأ تاكي بالذهاب إلى المدرسة، وأصبحت أقضى كل الوقت مع سيمو في غياب تاكي، كنت قد نسيت الصندوق حيث وضعت كتب تافارا منذ سنوات، ولكن سيمو جعلني أتذكرها حين فتح ذلك الصندوق وبدأ بإفراغ محتوياته على الأرض؛ جلست بقربه أتصفح تلك الكتب، بعضها بها صور والبعض الآخر دون صور، لم تكن كثيرة العدد ولكنها كانت كافية لكي أنظر إليها وتجذب انتباهي، ومنذ ذلك الوقت، وحين يذهب تاكي للمدرسة، أجلس مع سيمو أقرأ بتلك الكتب، وينظر سيمو للصور أو يضع الكتب فوق بعضها أو ينثرها على الأرض ليلعب بها.

بدأت أتعلق بتلك الكتب وأحب عالمها خصوصًا القصص التي تأخذني بعيدًا حتى من تفكيري بتافارا، وشعرت بالمتعة التي كان يشعر بها تافارا حين يقرأ تلك الكتب، وهكذا أصبحت قراءة تلك الكتب والقصص جزءًا من حياتي؛ ولكنني ورغم سعادتي بالقراءة كان لا يزال ذلك الحزن لغياب تافارا يسكن روحي، فلجأت للأكل لأكبت ذلك الحزن وأخمد أنفاسه في صدري، اكتشفتُ بأن الأكل يخفف الألم بل ويزيله ولكن لفترة قصيرة، ثم يعود ذلك الحزن ليحفر حفرة الجوع في نفسي، فأعود للأكل لأنسى من جديد، ازداد وزني مع الوقت ولم أعد أهتم فلا يوجد زوج لي يقول لي إن كنت جميلة ورشيقة أم لا، كل ما كان يُهمني هو أن أملأ الحفرة الفارغة في نفسي، حفرة الشعور، أن أملأها بالطعام ثم ينتهي ألمها، أصبحت الملابس التي كنت ألبسها في السابق ضيقة واضطررت لتوسيعها، بل توسيعها عدة مرات، فوزني لا يتوقف عن الزيادة ولم أعد أهتم.

كنت لا أزال خائفة من تعلق ابني بالقراءة وأن يصبح مثل والده، لذلك لم أدعه يراني وأنا أقرأ وفكرت بأنني كنت مخطئة بمنعه من الاهتمام بالكتب، وأنه حتى لو سافر مثل والده ولم يعُد لن أحرمه من هذا العالم الجميل، وتذكرت كم أن حماتي فخورة بابنها الذي سيصبح طبيبًا رغم بعده عنها؛ فناديتُ تاكي وفتحت

الصندوق وأخبرته أنه يستطيع تصفح هذه الكتب متى شاء، وأنها كُتب والده كان يقرأها حين كان يعيش معنا؛ ضحك بفرح وكأنه لا يصدق ما يسمع، وبدأ كل يوم بتصفح تلك الكتب والنظر إلى الصور التي فيها، لم يكن يستطيع القراءة بعد، فكنت أقرأ لهما بكل يوم وأجد متعة كبيرة بهذا العالم الضيق الذي لا يوجد فيه سوى أولادي وأنا.

وبعد بضعة أشهر كنت قد انتهيت من قراءة كل الكتب التي كانت في الصندوق، نظرت حولي باحثة عن شيء ما أقرأه، لم يكن يوجد حولي سوى البيت والأشجار ونسيم البحيرة الذي يأتي من بعيد، بدأت الحاجة للقراءة تزداد في نفسي، فقد كانت هي الوسيلة الوحيدة لأنسى نظرات أهل القرية لي ونظرات حماتي، وأن أنسى تافارا أيضًا.

أرسلت بطلب الأستاذ باكو الذي حضر مع تاكي بعد المدرسة، وطلبت منه أن يصطحبنا إلى المكتبة التي في المدينة حيث كان تافارا يستعير الكتب، نظر لي بدهشة فقلت له قبل أن يسأل:

- لقد قرأت الكتب التي كان يقرأها تافارا واستمتعت بقراءتها كثيرًا ولكن لم يعد هناك كتب أخرى وسأشعر بالملل إذا قرأتها مرة أخرى، خصوصًا الروايات والقصص، لذلك طلبت منك ذلك، إذا كنت مشغولًا فلا بأس، سوف أحاول الذهاب وحدي.

- لا،لا، أنا فقط تفاجأت فلا يوجد أي امرأة في القرية تقرأ الكتب، حتى الفتيات في المدرسة لا يقرأن سوى الكتب الدراسية، وينجحن بصعوبة شديدة، كل تفكيرهن يدور حول الزواج وأشياء لا علاقة لها بالقراءة، هذه مفاجأة حقًا.

أجبته ضاحكة:

- هذا يعني أنني سأكون أول امرأة تقرأ بهذه القرية!

- أجل هذا أكيد.

قلت له وأنا أحاول إبعاد نظراتي عنه:

- ولكن ألا تخاف مـن اصطحابي، فأنا امــرأة مهجورة لا يفضل أهــل القرية الحديث معها كثيرًا!

ضحك وقال:

- دعـك من هــذه الفكرة السخيفة، سـوف نذهب معًا بنهاية الأسـبـوع، ولـداك سيأتيان معنا، توجد قصص للأطفال فيها صـور ملونة وجميلة وربـمـا تشترين لهم شيئًا ما من المدينة.

- أشكرك كثيرًا ولن أنسى تعاونك هذا.

ضحك ومضى وهـو يحمل كعادته حقيبته القديمة المليئة بـــالأوراق والأقـلام وبعض الكتب.

نظرت إليه وهو يبتعد وفكرت أن هناك قلَّةً من البشر يستطيعون تغيير حياة الآخـريـن، والأسـتـاذ باكو كـان من تلك الفئة القليلة الـنـادرة، يغيرون حياة الآخرين للأفضل ثم يمضون.

كأنهم لم يفعلوا شيئًا؛ يبدون كالنجوم التي لا ضوء لها في النهار ويضيء نورها فقط فـي عتمة الـذكـريـات، فنورهم يتلاشى حين تمر الحياة ويبتعدون ولكن ذكراهم تبقى نجومًا مضيئة في سماء الذين تغيرت حياتهم.

في الليلة السابقة لذهابنا للمدينة لم أستطع النوم لقد كنت سعيدة بالذهاب للمدينة، ذهبت إليها منذ سنوات لمرتين فقط، لكن هذه المرة مختلفة فهي مع أولادي، وسأذهب حيث كان يذهب تافارا دائمًا لإحضار الكتب، والتمعت عينا تاكي بالتشوق لمعرفته بأننا سنذهب للمدينة غدًا فقفز هو وسيمو فرحًا بتلك الرحلة التي هي الأولى بالنسبة لهما.

وفـي الصباح الباكر، كنا نقف عند موقف الباص الوحيد والقديم مع الأستاذ باكو بانتظار ذلـك الـبـاص الـذي كـان ضجيجه يصل قبله، ركبنا فـي الـبـاص، نظر تاكي وسيمو للباص بانبهار رغم الغبار الـذي يعلوه ويغطي كل نوافذه، لقد كانت تلك المرة الأولـى التي يـرون فيها باصًا في حياتهم، وجلس تاكي بجانب النافذة كي يرى الطريق ولكن زجـاج النافذة كان يعلوه الغبار، فطلب الأستاذ باكو من السائق

التوقف قليلًا حتى ينظف زجـاج النافذة الـذي بقرب تاكي وسيمو، أصبحت النافذة التي يجلسون بقربها هي النافذة الوحيدة النظيفة واللامعة، حيث استطاعا رؤية مناظر الأشـجـار والحيوانات الـنـاس الـذيـن يمشون على الطرقات البعيدة، وقمم الجبال البعيدة التي تلتمع تحت أشعة الشمس، ومـن حين لآخـر كانا يضحكان لسعادتهما الغامرة، خصوصًا حين يمر الباص بتلك الحفر العديدة على الشارع المُعبد بطريقة سيئة، وحين ينتشر الغبار بعد كل حفرة يمر بها الباص.

كنت أجلس بجوار الأسـتـاذ باكو، وانتهزت الفرصة لأسأله سـؤالًا لم أكـن أجرؤ على سؤاله في القرية، ولكن كان لابد أن أسمع إجابته، فهو من ساعد تافارا على الحصول على تلك المنحة ومغادرة القرية، قلت له وأنـا أنظر عبر النافذة المقابلة لي والتي يعلوها الغبار الكثيف:

- أستاذ باكو، لماذا لم يعُد تافارا؟

كـان سؤالي مباشرًا مما جعله يشعر بالحرج، ولـم أكـن لأستطيع أن أسـأل بأي طريقة أخرى، وبعد تردد وصمت قصير قال:

- الحقيقة أنني لا أدري، ربما يجب أن تسأليه بنفسك هذا السؤال.

- سألته وأخبرني أنـه بسبب قلة المال، ولكنني سمعتك تقول لحماتي إنـه يتم دفع مبلغ له كل سنة ليتمكن من زيارة بلده.

سعل قليلًا، ثم أجاب:

- هناك بعض الطلاب الذين يحصلون على منح ويسافرون، منهم من يعودون كل سنة لزيارة أهلهم ومنهم من لا يحب العودة أو تمنعه ظروف ما من العودة، ما أعتقده هو أن تافارا بسبب تفوقه في الـدراسـة هناك لا يريد أن يجازف بالعودة ولا يستطيع الـرجـوع لفرنسا بعد ذلـك، فهناك طـلاب حين رجعوا لم يتمكنوا من العودة لظروفهم العائلية وأحيانًا لمعارك تحصل بين القبائل وبعض القرى، ربما هـذا هو السبب الرئيسي بالنسبة لـه، لقد كتب لي وأخبرني بأنه طموح جـدًا وأنه يريد أن ينتهي من دراسته بـأي صـورة ولا يريد المجازفة بـأي شـيء، وأنـك وأولاده

دائمًا بتفكيره ويعلم بأنه سوف يعود إليكم حين ينتهي من دراسته، عمومًا لم يتبقَّ له سوى عامين وينتهي من دراسة الطب، لقد صبرتِ كثيرًا ولن يكون صعبًا عليك أن تنتظري مزيدًا من الوقت، حين يعود تافارا سيكون له مركز كبير في المجتمع، فليس من السهل الحصول على شهادة الطب من فرنسا، لا تعتقدي أن تافارا يقضي وقته باللهو هناك، دراسة الطب بفرنسا تحتاج لعشرات الساعات من الدراسة ليلًا ونهارًا خصوصًا وأنه لم يكن يتقن اللغة الفرنسية مثل الفرنسيين.

هززت رأسي، واقتنعت بكلامه، ثم أضاف:

- أنت امرأة ذكية، ولا يجب أن تهتمي بما يفكر به أهل القرية، أعتقد أنهم يشعرون بالغيرة منك فلا يوجد في القرية كلها من هو بمكانة تافارا الآن، حتى أنا أبدو أقل منه كثيرًا، لابد أن تشعري بالفخر وأن تخبري أولادك بأن والدهم رجل غير عادي، وأن يشعروا بالاعتزاز لكونهم أولاده.

لأول مرة أشعر بذلك الارتياح النفسي، فكل كلمة قالها كانت صحيحة، ولكنها كلها لم تكن السبب الحقيقي لعدم عودة زوجي، كانت كلمات جيدة وجعلتني أشعر بالفخر لأني زوجة تافارا، كانت تلك المرة الأولى التي استمع بها لكلمات تُعيد شيئًا من ثقتي بنفسي، شعرت بالامتنان العميق للأستاذ باكو رغم معرفته ومعرفتي بأن كل تلك الأجوبة لم تكن السبب الحقيقي. استمرت الرحلة بعد ذلك بصمت يختلط بصوت ضجيج الباص الذي لا يتوقف.

وصل الباص للمدينة، ونظر الأولاد بدهشة شديدة لتلك الشوارع الكبيرة، والمحلات وكثير من الناس يمشون مسرعين، والباعة المتجولين في كل مكان، كل شيء كان يختلف عن قريتهم الهادئة، حتى أنهم أمسكوا بقوة بيدي كأنهم يخافون أن يضيعوا مني وسط كل ذلك الزحام من البشر والمحلات. أوقف الأستاذ باكو سيارة أجرة قديمة ولم تكن السيارة الوحيدة القديمة، فجميع السيارات كانت قديمة تصدر أصواتًا عالية وحين تمر تنبعث منها روائح كريهة، صعدنا إلى السيارة واتجهنا نحو المكتبة وبعد قليل وصلنا لتلك المكتبة التي لطالما حلمت برؤيتها كأنها شيء كبير وعظيم، فوقفنا أمام بناء متواضع له بوابة خشبية كبيرة

معلق فوقها لوحة مكتوب عليها (مكتبة المدينة).

وقفت مع الأولاد أمـام كل تلك الكتب والـرفـوف، وكانت توجد طـاولات صغيرة للأطفال حيث جلس تاكي وسيمو يتصفحون بعض المجلات التي توجد بها صور الحيوانات والمناظر الطبيعية، تجولت فـي المكتبة أبحث عـن الـروايـات فهي الشيء الوحيد الـذي كنت أحـب قـراءتـه، ووجـدت العديد منها وكـان ذلـك مبعثًا لـسـروري، وذهـب الأسـتـاذ باكو لأقسام أخـرى في المكتبة يبحث عن الكتب التي يهتم بها، مكثنا في المكتبة ما يقرب الساعتين، ثم عملت اشتراكًا لي ولـلأولاد واستعرنا بعض الكتب.

وحين خرجنا، تجولنا مع الأسـتـاذ باكو في أسـواق المدينة، ومـررنـا بالمحلات حيث توجد الملابس الملونة والألعاب البلاستيكية التي لا يوجد مثلها في القرية، وكنت أستطيع شـراء العديد مـن تلك الألـعـاب وبعض الـمـلابـس، بفضل النقود التي يرسلها تافارا في كل شهر وأحيانًا كـان يرسل المزيد منها مما جعلنا نعيش حياة مريحة.

ثـم مـررنـا بمطعم صغير حيث جلسنا سـويًـا، تناولنا الخبز مـع قطع اللحم المشوية وعصير المانغا، كنا سـعـداء كـثـيـرًا بتلك الـرحـلـة وكـان الأسـتـاذ باكو لطيف جـدًا مع الأولاد، تناولنا طعامنا وحـان وقـت الرجوع للقرية؛ انتظرنا حضور الـبـاص، وكالعادة حضر ضجيجه قبله، جلس الأولاد بجانبي ولـم يطلبوا الجلوس بقرب النافذة بسبب التعب الـذي كانوا يشعرون بـه، وخـلال دقائق غرقوا بالنوم العميق إلـى أن وصلنا للقرية. نزلنا من الباص وشكرت الأسـتـاذ باكو لاصطحابه لنا وتوجهت لبيتي، وحين وصلت وجدت حماتي تقف بانتظاري، قالت بغضب:

- أين كنت أنت والأولاد؟

أمسكت بيد الأولاد بقوة فـلأول مـرة أراهـا بتلك الـصـورة الغاضبة وقبل أن أرد تابعت قائلة:

- ثم كيف تخرجين مع رجل غير زوجك؟

- وأين زوجي لأخرج معه؟!

- لا تتحدثي بهذا الخبث، أجيبي عن سؤالي!

- لقد ذهبنا إلـى المكتبة التي في المدينة، لم أكـن لأعـرف الطريق لو ذهبت وحـدي، انـظـري، لقد أحضرت الكتب والمجلات لـلأولاد، تاكي يحب الـقـراءة مثل والده...

وحين قلت ذلك هدأت فجأة ونظرت إلى الكتب وقالت:

- هذه كتب لا يستطيع قراءتها الأولاد!

- هذه الكتب لي، لقد بدأت أحب القراءة.

صمتت قليلًا ثم قالت بقلق وبصوت منخفض:

- ألا تخافين أن يدرس تاكي ثم يسافر مثل والده ولا...

قاطعتها قبل أن تُكمل لأن تاكي كان يستمع لحديثنا:

- أريـد أن يكون تاكي مثل والـده، أن يقرأ ويـدرس ويسافر إذا رغـب بذلك، ألا تشعرين بالفخر بسبب دراسة تافارا؟

صمتت ونظرت لي باستغراب:

- أنت فعلًا غريبة كنت تتذمرين في السابق.

- الآن، لا أتذمر، ربما لأنني فهمت لماذا أحبَّ تافارا الكتب. هيا بنا إلى الداخل، تعالي لتناول الطعام معنا.

جلسنا جميعًا نتناول الطعام ولا تـزال حماتي تنظر لي تلك النظرات المتسائلة والمرتابة، فقلت لها دون أن تسأل:

- لا تعتقدي بأني قد أهتم بأي رجل غير زوجـي، أحب تافارا حتى ولو لم يعُد وعاجلًا أم آجـلًا سوف يعود، ولكني أريـد أن أحيا، أريـد أن يكون هناك شيء أعمله غير الانتظار، لقد تعلمت أشياء كثيرة منك ولكني بحاجة لأن أعمل شيئًا لنفسي،

ولست مسؤولة إذا لم يرجع تافارا، يمكنك أن تكتبي له أنه يستطيع أن يعود وأنه يستطيع الانفصال عني إذا كنت أنا السبب بعدم عودته.

عادت للصمت وبعض الخجل يعتري ملامحها، وقالت أخيرًا:

- لن تنزعجي إن كتبت له ذلك؟

- لا لن أنزعج، وإذا رغب بالعودة للقرية دون أن يراني، سوف أذهب لزيارة أصدقاء لأمي في قريتهم إلى أن يغادر القرية أي إنه لن يراني، ويمكنه حتى الزواج مرة أخرى، لقد تعبت من نظراتك التي تلومني وأنني السبب بعدم عودته، أريد أن أعيش بسلام مع أولادي، وسوف أذهب معهم للمدينة من حين لآخر لأجل الكتب، ودون مرافقة الأستاذ باكو حيث إنني أعرف الطريق الآن.

بدا على وجهها الارتياح، وحين أتذكر كيف أن كل شيء في قريتي كان بسيطًا حتى التعبير عن أشد المشاعر قسوة، أشعر بأنني أفضل الحياة بتلك القرية، حيث كل إنسان يقول ما يفكر فيه دون مجاملة ولا نفاق مثلما يحصل في الغرب. وفعلًا كتبت حماتي تلك الرسالة لتافارا وأخبرته بما قلته لها؛ وحين استلمت رده جاءت لزيارتي، وناولتني الرسالة:

- لقد قرأها لي الأستاذ باكو، ولابد أن تقرئيها أنت أيضًا.

كانت رسالة قصيرة كعادته: (لا يا أمي، لم آتٍ لزيارتكم ليس بسبب كامالي فأنا لا أزال أحبها وهي زوجتي، ولكنني في مرحلة مهمة في دراستي حتى في الإجازة الصيفية، لابد أن أتدرب في المستشفى، لا أريد التخرج فقط أريد أن أكون طبيبًا ناجحًا، وأرجو ألا تكتبي لي بهذا الخصوص مرة أخرى، كامالي زوجتي وستبقى دائمًا، وسوف أرى أولادي وأنا طبيب، لا تقلقي سوف أعود، عليك بالصبر فقط.)

وقفت تنتظر إجابة مني، ولكن لم يكن لدي شيء أقوله، ناولتها الرسالة فلم تكن موجهة لي، وسألتها إن كانت ترغب بالأكل معنا، لم يعجبها صمتي، فأخبرتني بأنها لابد أن تعود لبيتها، ومن ملامحها علمت بأنها لم تقتنع بإجابة ابنها وأنني سأبقى دائمًا المسؤولة عن عدم عودته.

وتابعت حياتي مع أولادي والقصص والـروايـات ولـولا تلك القصص والـروايـات لما تمكنت من كتابة هـذه السطور، فكيف لفتاة أفريقية بسيطة تعيش بقرية نائية، أن تعبر عن كل تلك المشاعر التي انتابتها؟ وأن تكتب عن أحـداث كتبت عنها وأخـرى سأكتب عنها؟ تلك الكتب صغيرة الحجم والتي نحملها بيد واحـدة تغير أقــدار البشر، تجعلهم يــرون ذواتــهــم مـن خــلال سـطـورهـا، تجعل عالمهم الصامت يتكلم، وتضفي عليهم المزيد مـن البشرية، وتجعلهم يتواصلون مع ذواتـهـم ومـع الآخـريـن، والأجـمـل من كل هـذا تنقذهم من الغرق في الألــم وعدم القدرة على التعبير، وتحتفل معهم حين يأتي الفرح، تلك الكتب لم تكن مجرد سطور وصفحات بـل حياة عشت بها وأنقذتني مـن هامشية وجــودي، منحتني معنًى مختلفًا للحياة، ورؤيــة مختلفة للأحداث، جعلتني أتجاوز عدائية من حولي، ومنحتني مكانًا ما في الـوجـود كي أتقوقع على ذاتــي، ليس لأغلق أبــواب ونوافذ الوجود، بل لأراقــب الوجود، لأرى الكره والحقد، لأتعرف على الغيرة، لأرى الخبث ثم أرى الحب والجمال والإيـثـار، ولا يمكن رؤيــة كل هـذه التناقضات إلا من ركن بعيد ضيق في وجـودنـا، نغلق على أنفسنا به ولا يكون هناك مساحة للضوء إلا لعيوننا التي تـرى مـن ثقب صغير كـل مـا يـدور حولنا، بذلك الـوقـت فقط نـدرك مـدى اتــسـاع الحياة، مـن أعـمـاق ذلـك الـظـلام نقدر روعــة الـضـوء، مـن ضيق ذلك المكان ننطلق مـع رحـابـة الـكـون وتنشرح صـدورنـا لاتساعه، فلابد مـن الانغلاق والتقوقع في فترة ما من الحياة ليكتمل الفهم ولنصل للتقدير الحقيقي لمعاني الـوجـود، والشيء الوحيد الـذي يتيح هـذا الانغلاق الإرادي هو الـقـراءة، حتى أنني وعبر الـقـراءة استطعت الاستغناء عن وجـود الآخـريـن، وتـجـاوزت الألـم الـذي سببه لي تـافـارا، وحتى لو عـاد زوجــي، لن أستطيع الاستغناء عن عالم الـقـراءة الـذي لن يخذلني مثلما خذلني عالم البشر.

تافارا

أصبحت في السنة السادسة وبعد أشهر قليلة سوف أتخرج في الجامعة، وألتحق مباشرة بعملي في مستشفى الجامعة، حيث عرضوا علي العمل في المستشفى مع التخصص في الجراحة بنفس الوقت، وكان ذلك عرضًا لم أكن لأحلم به في حياتي.

كتبت رسالة لكامالي بأنني لن أستطيع العـودة بعد تخرجي مباشرة، وأنني يجب أن أنتهي من التخصص وبعد ذلـك سـوف أحضر بالتأكيد للقرية، وكـان لابد من ذهابي فعلًا، لقد أصبح عمر تاكي ثماني سنوات وسيمو سبع سنوات، وأريـد فعلًا رؤيتهما، ولكنني يجب أن أثبت جدارتي في عملي وفي مجال تخصصي فهي فرصة لا تتاح لأي شخص بسهولة، ولقد تعبت كثيرًا كي أحصل عليها.

أتى رد كامالي، بـاردًا بأنني أستطيع أن أعمل ما أجده مناسبًا لي. كان هذا حزينًا بعض الشيء فهي لم تفرح لأنني على وشـك التخرج، ولـم تهتم ولكنني لم أكن بوضع نفسي لأهتم بمشاعرها، فأنا في أهم مرحلة في حياتي، ولا أرغـب بالعودة للحياة في قريتي أو حتى في أفريقيا كلها، أريـد أن أتابع دراستي هنا وأحصل على أعلى الـدرجـات العلمية وأن أعيش فـي فرنسا، لقد أصبح لـدي أصـدقـاء وحياة اجتماعية، ولا أشعر بـأي حاجة للعودة هـنـاك، مـا يربطني بقريتي هـي والدتي وكامالي وأولادي، أمـا والدتي فهي فخورة جـدًا بما أنجزته من نجاح، وطلبت من الأستاذ باكو أن يكتب رسالة لي قالت لي من خلالها بأنها تمشي بكل فخر واعتزاز بابنها الدكتور المشهور، لقد أصبحت مشهورًا بنظر والـدتـي قبل أن أحصل على الشهرة الحقيقية، عمومًا أصبحت بالتأكيد مشهورًا في قريتي وهـذا يكفي والدتي. أما بالنسبة لكامالي، فهي جزء من حياتي حتى لو شعرتُ بأنه جزء يبدو بعيدًا أو أنـه ابتعد عن حياتي الواقعية، ولكنها أم أولادي، وهناك أشياء كثيرة تتغير في الحياة عـدا عن حقيقية كـون الإنسان أبًـا ولـه أولاد وزوجـة، ولـن أتخلى عن كامالي لأنها في جزء دفين مني تُشكّل عامل استقرار نفسي لي، ففي الغرب، المرأة حين

يغيب عنها زوجها لمدة طويلة لا تشعر بالالتزام بـأن تبقى معه ولـن تحتمل هذا الغياب، أمـا في بلدي فانتظار الـزوجـة لزوجها ولـو لسنوات شـيء طبيعي، ويبقى الإخــلاص عـامـلًا أساسيًّا فـي العلاقة، لذلك لـم أكـن لأتخلى عـن كامالي، خصوصًا بعد كـل تلك السنوات التي انتظرتني خلالها دون تذمر أو شـكـوى، وكلما طال صمتها ازداد تمسكي بها، وأنني مهما عرفت من النساء لن تأخذ واحــدة أخرى مكانها، ربما لا أحبها كما أحب جاكلين ولكنني أشعر بالأمان بوجودها في حياتي، أكثر مما أشعر به بوجود جاكلين.

وبعد أشهر تخرجت في الجامعة بامتياز، وأقامت جاكلين حفلًا كبيرًا في قاعة كبيرة في الجامعة، حضرها الأسـاتـذة وكثير من الطلاب والأصـدقـاء، رقصنا وتمتعنا لغاية ساعات الصباح الباكر. وحين عدت للبيت برفقتها بعد انتهاء الحفل، وقفت أمامي وقالت:

- والآن وبعد كـل هــذه السنوات ونحن بهذه العلاقة، وقـد تخرجنا مـعًـا، هل سنبقى هكذا؟ ألا تعتقد بأنه يجب أن نرتبط؟

أجبتها بضيق وأنا أشعر بالتعب الشديد بعد السهر لساعاتٍ طويلةٍ:

- جاكلين، هذا ليس الوقت المناسب، أنا متعب وأنت أيضًا.

- حسنًا، لا أريـد الحديث الآن، ولكن يجب أن تفكر بالموضوع وتـرد على سؤالي غدًا.

لم تنتظر طويلًا في الغد، وفي المساء أتت إلى منزلي وجلست تنتظر إجابتي، شعرت بالضجر لذلك الموقف المحرج، فلم أكـن أريـد الــزواج، على الأقـل ليس الآن، ولم أفكر بالزواج مطلقًا في فرنسا، فأجبت محاولًا إيجاد مخرج ما:

- ولكن أنت تعلمين بأنني متزوج ولا أستطيع الـزواج مرة أخـرى، وعندي ولدان بانتظاري.

أجابت بتهكم:

- أجـل وأعلم بأنك لم تـرَ زوجتك منذ قدومك لفرنسا، يعني منذ ست سنوات،

ولا تفكر حتى بالعودة لا السنة القادمة ولا التي بعدها، بل ربما لن تعود أبـدًا، وأنا على علاقة معك منذ أربع سنوات، فماذا بعد؟

- جاكلين، أنـت تعلمين أنني لابـد أن أعمل كثيرًا في السنة القادمة ما بين الجامعة والمستشفى ولن أجد الوقت الكافي للزواج.

- وأنت تعلم بأنني أيضًا سأدرس وأعمل بالمستشفى.

- ولكنني متزوج!

- يمكنك أن تطلق زوجتك وتتزوج؛ فأنت لا تحبها كما قلت لي عدة مرات.

- أجل، لا أحبها ولكنها أم أولادي.

نهضت من مكانها غاضبةً وقالت:

- تـافـارا، لديك فقط شـهـران لتنهي هـذا الـمـوضـوع، يمكنك إجـراء الـطـلاق في سفارة بلدك دون أن تسافر لبلدك، لن تراني خلال شهرين، إذا قمت بذلك وطلبت مني الـزواج اعلم أني موافقة من الآن، وإلا فأنا أريـد أن يكون لي زوج وأسـرة، لن أبقى صديقتك أكثر من هذا.

خرجتْ قبل أن أرد، وشعرت بالارتياح لأنها خرجت، فقد كنت أعلم بأنني لن أتـرك كامالي، ولن أتـزوج في فرنسا، وبكل الأحـوال كنت قد بـدأت أشعر بالملل من جاكلين؛ لأنها أصبحت تلح بطلب الـزواج من فترة لأخـرى، ولكنها هذه المرة وبعد أن تأكدت من مستقبلي المهني وأنني سأبقى في فرنسا طلبت مني قـرارًا نهائيًّا، وكـان هـذا مناسبًا لـي، فلم يكن لـدي الوقت الكافي لها في السنة القادمة، بسبب تخصصي في الجراحة ودراستي المكثفة.

انتظرت جاكلين شهرين، ثم اتصلت بي، فأخبرتها على الهاتف بأنني لا أستطيع ترك زوجتي مهما حصل، لم ترد وأغلقت الهاتف. ولم أرَهـا بعد ذلك لأنها انتقلت لجامعة أخـرى، واخـتـارت الـتـدرب بمستشفى آخـر فـي مدينة بعيدة عـن باريس، وكان ذلك أفضل حل بالنسبة لي ولها.

وهكذا تفرغت للدراسة والعمل بشكل كامل، وأعـتـرف بأنني رجـل على درجة كبيرة مـن الأنـانـيـة، وأنـنـي فـي أغلب علاقاتي لا أرى سـوى مصلحتي الشخصية، ولـم أكـن أعتبر ذلـك عيبًا بـي، فالطموح يستدعي أن يـرى الإنـسـان مصلحته فوق كل اعتبار. ولكنني اكتشفت أنني لا أستطيع التعلق بأي امـرأة، وأن تعلقي الوحيد وشغفي هو الطب، بل كنت أستغرب من بعض الرجال الذين يقعون بحب امـرأة ما ويضحون بكل شيء لأجلها، وأعتبر ذلك سطحية في التفكير، فهناك أشياء أهم في حياة الرجل من النساء. ربما أكون مخطئًا ولكن كانت تلك طبيعتي ولم أقاومها أو أنتقدها عشت بها وتقبلتها، وقـررت أن أخبر أي امـرأة أقابلها بـألا تبني الأحـلام والآمــال، وأنني أرى الحياة وبكل سهولة دون امـرأة أحبها وتحبني، هـذه حقيقتي ولن أغيرها ولن أحـاول مجاملة الآخرين بها، المشكلة هي أنني لم أكن أعـرف أنني أحمل هـذه الطبيعة عندما كنت في القرية شابًا صغيرًا، لم أكـن أفهم نفسي ولا كيف يكتشف الإنـسـان نفسه بصورة تدريجية، ارتبطت بـالـزواج مبكرًا جـدًا دون أن أرى ملامح ذاتـي الحقيقية وأنني إنسان بـارد المشاعر بأعماقي، وأن كل شغفي هو الطب، لذلك كنت أشعر دائـمًـا بالذنب تجاه كامالي، فهي كانت أجمل فتاة في القرية ولو تزوجت شابًا غيري لكانت أسعد معه، ولكنني فهمت متأخرًا هذه الطبيعة الـبـاردة بـي، كنت أشعر بها دون فهمها حين كنت عاشقًا للكتب، والآن فقط أدرك سر ذلك التعلق المبكر بالكتب، لأنني لم أكن أشعر بالحماس للعلاقات الإنسانية، لم أكـن أحـب الكتب لذاتها ولكن لأنها كانت تسحبني لعالم بعيد عن العلاقات الإنسانية، يُشبع فضولي أكثر مما تُشبعه كلمات الناس.

لقد ظلمت كامالي، وفهمت ذلك متأخرًا، لقد أحببت جمالها وعفويتها ودفئها، ولكنني لم أستطع منحها ذلك الـدفء، ليس لأنني لم أكن أريـد ذلك ولكن لأنني لم أكـن لأستطيع ذلـك، بذلت قصارى جهدي في السنة الأولــى لزواجنا؛ لذلك كانت أسعد سنة في حياتنا الزوجية وربما ستكون دائمًا أسعد سنة في حياتي، ولكنني أعتقد حتى لو بقيت في القرية سـوف يكون هناك فجوة بـاردة بيننا ليس بسبب كامالي ولكن بسبب هـذا الـبـرود في مشاعري، الـذي لا أستطيع أن أصفه ولكنه يجعلني دائمًا كأنني أجلس في زاويـة بعيدة عن الآخـريـن، تجعلني حتى لا أشعر

بمعاناتهم إلا بمعاناتهم الجسدية كطبيب، ولكن كعلاقة إنسانية لم أكـن قـادرًا على تحريك تلك المشاعر الجامدة بداخلي، ولكنني وبسبب حياتي في فرنسا طـورت أسلوب حـوار لطيف ودافـئ قدر الإمكان مع الآخرين، لأنه شرط أساسي في ممارسة الطب في الـغـرب، لا يمكن للطبيب هنا أن يمارس الطب دون ابتسامة، دون كلمات لطيفة، تعلمت ذلـك وأتقنته ولكن بداخلي بقي ذلـك البرود متجذرًا في أعماقي؛ واكتشفت بعد سنوات من العمل في الطب، بأن ذلك البرود الداخلي الصامت ساعدني كثيرًا في عملي، لقد خلق حاجزًا نفسيًّا بيني وبين معاناة الناس حين يمرضون ويتألمون ولا استطيع كطبيب مساعدتهم، أو حين يموتون تحت مبضعي خـلال العمليات، وحين أرى طفلًا صغيرًا يلفظ أنفاسه بين يـدي، كان ذلـك الـبـرود يجعلني أتـجـاوز كـل تلك المواقف الإنسانية الصعبة، فـأعـود لبيتي ويجعلني ذلـك البرود أقبل بـأن الموت حقيقية بل الحقيقة الوحيدة في الحياة، وأننا أحيانا لابـد أن نقبل ألـم الآخـريـن دون أن نتألم نحن، وأن هناك من يموت صغيرًا أو شابًا أو عجوزًا.

لا أدري هل الحياة في الغربة شكّلت شخصيتي أم جعلتني أكتشف شخصيتي، ففي قريتي كل الناس يشبهون بعضهم البعض، نفس نمط الحياة، نفس التفكير، نفس الـعـادات والتقاليد بل نفس المعاناة والمشاكل، ونفس الحلول أيضًا، لذلك تمر سنوات طويلة ولا يتغير شـيء في القرية لأنـه لا يوجد أي شخص تغير في القرية، ربما لأنهم يعيشون بتلك النمطية منذ سنوات طويلة فقدوا القدرة على اكتشاف شيء جديد بذواتهم، أو أن الروتين والتقاليد يقتلان الإبداع الذاتي.

أعتقد بأنني اكتشفت نفسي من خلال الحياة في الغرب، وأنـه أيضًا شكّل أشياء كثيرة في شخصيتي، والأكيد هو أنني لو لم أعِـش في فرنسا لمَا تمكنت من فهم نفسي وفهم ما أريـد ومـا لا أريـد. وأسـأل نفسي أحيانًا هل كنت سأرغب بالبقاء في القرية لو لم أحصل على هـذه المنحة؟ بالطبع كنت سأرغب بالبقاء أو كنت سأكون مضطرًا للبقاء، ولكن سـوف يكون هناك جـزء كبير مني لا ينتمي للقرية، جزء يدور ويبحث عن تلك الذرات المفقودة من ذاتي، والذي وجدته في فرنسا.

كامالي

تخرّج تافارا في كلية الطب وأصبح طبيبًا ناجحًا ويعمل بمستشفى في باريس ويتابع الدارسة أيضًا، لقد ملأ الفخر والاعتزاز والدته ووالده وإخوته، وأقاموا حفلًا كبيرًا بهذه المناسبة حتى أن أهل القرية أصبحوا ينادون حماتي بوالدة الطبيب، وشعر أولادي أيضًا بالفخر الكبير، لقد أصبحوا أيضًا أولاد الطبيب، وكتب تافارا برسالته أنه سيعود بعد عام أو أقصى حد بعد عامين، بدت حماتي سعيدة جدًا بهذا الخبر، حتى أنها ولأول مرة منذ سنوات تحتضنني وتقبلني، بقيت جامدة في مكاني، فتراجعت وقالت لي:

- ألست سعيدة بهذه الأخبار وبعودته!

- بلى، أنا سعيدة، أما عن عودته فعندما أراه هنا سوف أعبّر عن سعادتي.

قالت بشيء من الغضب:

- لا يبدو عليك السعادة، وكأنه إنسان لا يخصّك. انظري إلى أولادك إنهم أكثر سعادة منك.

- بالطبع فهو والدهم...

قاطعتني وقالت:

- وأنت زوجته...

لم أتمالك نفسي، لقد صمت لسنين طويلة وهي لا تتركني وشأني فقلت لها بعصبية:

- أجل أنا زوجته، تركني ست سنوات والآن السنة السابعة وربما الثامنة والتاسعة، لم يكن صعبًا النسبة له أن يأتي ولو مرة طوال تلك السنين، إن لم يكن يشتاق لي، ألا يشتاق لرؤية أولاده، حتى أنهم توقفوا عن السؤال عنه.

أجابت بلؤم:

- ربما يجب أن تسألي نفسك لماذا لا يأتي!

صرخت بوجهها:

- هذا يكفي، لقد احتملتك كثيرًا وأخبرتك أن تسأليه أن يطلقني وأجـاب أنه لا يريد، مـاذا تريدين مني؟ اتركيني وشأني، اذهبي من هنا، لا أريـد رؤيتك مرة أخرى، لسنوات وأنـت تعاملين كأنني المسؤولة عن عدم عودته، اذهبي واسأليه لماذا لا يعود، اتركيني وشأني، هيا اذهبي من هنا لقد تعبت من تلميحاتك.

- هل تطردين من بيت ابني؟

- لا أطــردك، ولكنك فـي كـل مـرة تضايقيني ولا تفكري أن هـذا الـوضـع صعب بالنسبة لي أكثر مما هو صعب لـك، أنـت لا ترين نظرات أهـل القرية لي كأنني ارتكبت ذنبًا ما، سوف أخبرك شيئًا آخر إذا حضر تافارا أو إذا لحقت به إلى باريس لن أعيش معه، والأولاد يبقون معي سـواء بقيت هنا أو غــادرت لباريس، أنـا من ربيتهم واعتنيت بهم طوال هذه السنوات، والآن اتركيني وشأني.

- ماذا تقولين؟ هؤلاء أولاد ابني، ولن يسمح لك تافارا أن تأخذيهم!

- لن آخـذهـم، سيبقون معي ويعيشون معي، سـواء هنا أو في فرنسا، فأنا لن أعيش معه إذا رجـع، وإذا ذهبت لفرنسا القانون يمنعه من أخذ أولادي، لقد قرأت هذا في رواية، فالمرأة هناك يحق لها الاحتفاظ بأولادها.

- هذا كلام سخيف، سوف أخبر تافارا به.

- أجل، أفعلي ذلك.

غــادرتْ ولـم ألحق بها، فقد كنت أريـدهـا أن تخرج ولا تعود، لحسن الحظ أن الأولاد لم يستمعوا لحديثنا، وكنت أتركهم يذهبون لزيارتها حين يـريـدون ذلك؛ وانشغلت عني بضيوفها الـذيـن أصبحوا أكثر عــددًا مـن الـسـابـق، فقد أصبحت لها قيمة كبيرة في القرية لأنها والـدة الطبيب الوحيد في القرية، وكنت مرتاحة

لذلك حتى تبتعد عني ولا أرى نظراتها الحادة. ولكنها لم تنسى أن تكتب ما قلته لها لتافارا، فحضر الأستاذ باكو والقلق يبدو على وجهه وهـو يحمل رسالتها، قال لي بحرج:

- لقد كتبت رسـالـةً اليوم من حماتك لتافارا، تخبره بها أنـك سـوف تنفصلين عنه حين يأتي وأنك سوف تحتفظين بالأولاد، هل هذا صحيح؟

- أجـل، هـذا صحيح، لا أريـد أن أكـون زوجته، سـواء عـاد أم لم يعُد، وقـد قرأت في إحدى الروايات أن المرأة في الغرب تحتفظ بالأولاد.

- ولكنك لا تعيشين هناك، أنت هنا...

قاطعته قائلة:

- أقصد أنـه إذا عـاد سـوف أطلب الانفصال عنه، وإذا لم يعد سـوف أذهـب إليه وينتهي هذا الزواج.

- أنصحك بالتروي قليلًا، لقد اقـتـرب موعد عـودتـه، ويمكنني ألا أرسـل هذه الرسالة، ما رأيك؟

- لا، أرجو أن ترسلها، كي يعرف بأنني لم أعد أرغب به زوجًا.

انتظرتْ حماتي ردًا من تافارا ولكنه لم يجُب على تلك الرسالة، حتى أنها شكَّت بـأن يكون الأستاذ باكو لم يرسلها أصـلًا، ولكنها تأكدت من أن الأستاذ باكو أرسلها حين أتـى رد متأخر من تـافـارا، كتب فيها ردًا مقتضبًا:(حين أخضر للقرية سوف أحل هذا الموضوع مع كامالي)، أخبرني الأستاذ باكو بجوابه ولم يكن هناك شيء لأقوله، سوى أنني أنتظر حضوره.

وكما توقعت مرَّت سنتان أخريان ولم يحضر تافارا، أرسل رسالة بأنه أصبح جراحًا وأنه حصل على عمل ممتاز في المستشفى ويستطيع أن يفتح عيادة خاصة به، ولكنه لا يستطيع أن يعود الآن لأنه عمله لا يسمح له حاليًا بذلك وأنه سيعود حتمًا السنة القادمة، وهكذا أصبح عمر تاكي عشر سنوات وسيمو تسع سنوات. لم أعد أذهب لزيارة حماتي ولم أعد أهتم بقراءة رسائل تافارا، أصبحت مشغولة بأعمال المنزل والعناية بالحيوانات وزراعة بعض الأشجار والأعشاب،

ثم الذهاب كل أسبوعين للمدينة لاستعارة الكتب، حتى أنني كنت على وشك الانتهاء من قراءة جميع الروايات التي كانت في المكتبة، كنت أقرأ كل يوم مع أولادي في ساعات المساء تحت الشجرة الكبيرة بعيدًا عن أهل القرية، أصبحت لهم كتبهم الخاصة التي يحبونها، وتعلموا القراءة بشكل جيد.

كانت حياتي تمضي مع الأولاد بهدوء ودون منغصات، رغم الوحدة وشعوري بالأسى لأجل أولادي لأنهم لا يرون والدهم، لم أعد أشعر بالحزن لفراق تافارا، بل لم أعد أفكر بذلك، كل ما أريده هو تربية الأولاد، وأن تمضي حياتي بصمت وهدوء؛ لم أعد أنتظر حضوره ولم أعد أتخيل أنه عائد وأنني أستقبله بأيدٍ مفتوحة، بل ربما لن أستقبله أو على الأقل ليس بأيدٍ مفتوحة، وتأكدت بأنه لا يمكن أن يحيا طوال كل تلك السنوات دون امرأة أخرى، مهما كانت صعوبة دراسته أو انشغاله؛ ثم هناك ذلك الفارق الكبير بيني وبينه، هو الطبيب الذي درس في فرنسا وحصل على شهادات عليا، وأنا، من أنا؟ لست سوى زوجة في قرية أفريقية نائية تقرأ الروايات وتعتني بأغنامها والبقرتين التي تمتلكهن، ثم قطعة الأرض التي تزرعها حول البيت، وأخيرًا أمٌّ أولاده، وربما هذا هو السبب الوحيد الذي منعه من طلب الانفصال عني، وكلما تأخر في العودة، حصل على المزيد من الترفيعات والشهادات، شعرت بأنني أبتعد أكثر فأكثر، حتى أنه لم يعد يجمعني به سوى بقايا ذكريات وولدين، يمكن بأي وقت أن يطلب أن أرسلهما إلى فرنسا.

وحين أفكر بكل تلك الأحداث التي مرت، أو حتى أنها لم تكن أحداثًا، فلم يكن لدي ذكريات مع زوجي، لم يكن هناك حدث سعيد أشاركه به الفرح، لم يكن هناك حزن أواسيه فيه، لم يكن بجانبي في ليالي الوحدة والصمت الثقيل حولي، لم يكن معي حين كنت أرغب بأن أذهب لحفل عروسٍ ما في القرية برفقة زوجي، لم يكن معي لشرب الشاي مع أهل القرية، أصبح هو مجرد ذكرى ووهم، لم يعد له وجود في حياتي.

بعض الرجال في القرية كانوا ينظرون لي بإعجاب، ولكنني لم أكن أريد الإعجاب ولا الحب، فقد جرّبت ذلك الشيء الذي يقولون عنه الحب، وأدركت

أنه وهم كبير، لا أريد أن أعيشه مرة أخرى، ولا أريد أن أعبث بحياتي لكي أنتقم من تجاهله وهجرانه لي، فلم أعد أصلح لأن أحب أي رجل آخـر، لم أعد أثق بأي منهم خصوصًا حين أرى بقية النساء فـي القرية وأسـمـع قصصهن، لقد اخـتـرت بيتي وأولادي والانغلاق عن كل ما يـدور حولي، لم تعد نظرات أهل القرية تؤلمني كما في السابق، فعدد النساء المهجورات يتزايد في القرية، لأن العديد من الشباب والـرجـال بــدأوا يعرفون طريق المدينة ويـسـافـرون لبلاد بعيدة، فأصبحت حالة عادية في القرية ولم يعد احد ينظر إلي باستغراب.

كان يمكن لحياتي تلك أن تستمر كالمعتاد، وأن أنتظر رؤيـة أولادي رجـالًا أفتخر بهم وكـان هذا يكفيني من حياتي، ولكن أتت أحـداث أخـرى غيّرت كل شـيء، حتى مشاعري أصبحت لا قيمة لها أمام تلك الأحداث الكبيرة.

كانت تلك الليلة المظلمة الثقيلة، سمعت طرقات عنيفة على الباب فتحت الباب لأجـد حماتي تقف أمامي بوجه يملؤه الرعب، أخذتني من يـدي بعيدًا عن البيت كيلا يسمعنا الأولاد وقالت:

- كامالي، الحرب الأهلية بـدأت، هناك معارك في كل مكان، نحن بعيدين عنها الآن ولكن لا أعـرف إلى متى، ربما لن يحضروا إلى هنا ولكنني خائفة على الجميع، لابد أن تعودي للحياة معنا لن أتركك هنا مع الأولاد، غـدًا إخـوة تافارا سوف يأتون ليحضروا جميع أغراضكم. لابـد أن تكتبي رسالة لتافارا الليلة، لهذا السبب جئت بسرعة إليك، الأسـتـاذ باكو سـوف يأتي بعد غـد، وسأعطيه الرسالة لابـد أن يعرف بما يحدث هنا، ربما يطلب منكم أن تسافروا إلى فرنسا إذا تطورت الأمور.

- وأنت وإخوته ووالده؟

- الأهم الآن أنت والأولاد، أما نحن فسنرى لاحقًا.

شـعـرت بالخوف الـشـديـد، لـم أعِـش أي حـرب أهلية مـن قـبـل، ولـكـن حماتي أخبرتني عن فظاعة تلك الـحـروب فشعرت بالخوف الشديد، وهــززت رأســي على الفور بالموافقة.

وفي اليوم التالي وخـلال ساعات كنا قد انتقلنا من جديد لبيت حماتي، لم يعد أحـد يأتي لزيارتهم فـي الـمـسـاء، فبمجرد أن تغرب الشمس يذهب كـل شخص لبيته، كـأن أهـل القرية ينتظرون حدثًا خطيرًا، الخوف كـان في كل مكان، وبعض الرجال اشتروا المزيد من الفؤوس والسكاكين والعصي؛ كي يحموا عائلاتهم فلم يكن لديهم المال لشراء الأسلحة، لم يعد طعم الأكـل كالسابق، ولـم أعـد أستطيع الـقـراءة كالسابق، والأولاد شعروا بذلك التوتر، ولـم يكن بالإمكان إخفاء كل ذلك الخوف المنتشر في القرية، والأسـوأ أنـه كـان هناك بعض الشباب الذين يؤيدون تلك الحرب الأهلية، وينظرون لبعض الـرجـال في القرية على أنهم أعـداء، كنت أشعر بأن الخطر يقترب بخطًى بطيئة ولكن أكيدة بكل يوم، بل بكل لحظة.

أرسـل الأستاذ باكو الرسالة وطلبت حماتي أن يرسلها على وجـه السرعة، وأتى رد تـافـارا سريعًا أيـضًـا، أتـى الأسـتـاذ باكو راكـضًـا بعد عودته من المدينة، جلست مع حماتي نستمع لرد تافارا، الرسالة كانت موجهةً للأستاذ باكو وقد كتب فيها:

(أسـتـاذ باكو سـوف تأخذ الأولاد وكامالي عند صديقنا الطبيب ساموني في المدينة، وسـوف يبقون في بيته إلى أن يتم تحضير جـوازات سفرهم، ثم يأتون إلى باريس بأسرع ما يمكن وسـوف أكـون بانتظارهم، لقد أرسلت لك النقود لتذاكرهم، سـوف يتولى الطبيب ساموني ترتيب كـل أمـورهـم هـو وزوجـتـه، لقد أخبرته عن الوضع وهو أرسـل لي معلومات بأن الوضع سيكون خطيرًا؛ أما أمي وإخوتي فيجب أن يـغـادروا القرية بأسرع ما يمكن، وأرسـلـتُ ما يكفي من النقود ليستأجروا بيتًا في المدينة إلـى أن تهدأ الأمـور، وسـوف أرسـل لهم كل ما يلزمهم. أريـد أن تشتري مسدسًا صغيرًا من المدينة لـوالـدي ليحمي عائلتنا، أنـت تعرف أيـن يمكن شراء المسدس.

اقـرأ هذه الرسالة بحضورهم كي يحضِّروا أنفسهم للمغادرة، حسب المعلومات التي وصلتني سوف تمتد الحرب الأهلية لتشمل كل القرى، فقط المدينة لن يكون بها اقتتال لعدم وجـود قبائل، وإذا امتد الخطر للمدينة سـوف أطلب من الدكتور مساعدة أمي وأبي للسفر والحضور لباريس.)

انتهت الرسالة ونظرنا بخوف لبعضنا البعض، قال لنا الأستاذ باكو:

- خـلال يومين يجب أن تحضّروا أنفسكم للمغادرة، لن أتـرك القرية إلا حين أطمئن بأنكم غـادرتـم، سـوف أشـتـري المسدس الـيـوم مـن المدينة وأعـلّـم زوجـك كيفية استعماله، أنـت تعرفين أن أهـل القرية لا يملكون الـمـال لـشـراء أسلحة، ولكن ربما المسدس سيحميكم إلى أن تهربوا من هنا.

لم يكن هناك أي شـيء يمكن قوله، غـادر بصمت وبخطواتٍ سريعةٍ، ونهضتُ مع حماتي دون كلام لنحضّر أغراضنا للرحيل.

عـاد الأسـتـاذ باكو سريعًا فـي المساء، وخـرج هـو ووالـد زوجـي، ليعلمه كيف يستعمل المسدس، سمعنا الطلقات من بعيد، خـرج أهـل القرية فزعين يعتقدون أن المسلحين قد عـادوا ولكن حماتي أخبرتهم بأنه يتدرب على استعمال المسدس لحماية القرية، فـعـادوا وهـم يشعرون بشيء مـن الاطمئنان، قالت لـي حماتي بصوتٍ هامسٍ وحزينٍ:

- المساكين لا يعلمون أنـه مجرد سـلاح صغير لن يحميهم جميعهم من أولئك المجرمين.

كنا نعتقد بأنه سيكون لدينا يـومـان كـي نجهز أنفسنا، ولكن الأمــور تطورت بشكلٍ مخيفٍ، ففي سـاعـات الصباح الباكر، عـلا الـصـراخ وخـرج الـرجـال للقتال بعد هجوم أشخاص مسلحين بالأسلحة والسكاكين والـفـؤوس على القرية، دوّى الصراخ بكل مكان، وخـرج والـد تافارا وإخوته للدفاع عن القرية وطلبوا منا عدم مغادرة البيت، احتضنت الأولاد ومكثت حماتي وزوجـات إخـوة تافارا وأولادهــم في زاويــة من البيت، سمعنا أصـوات طلقات النار والسكاكين والـصـراخ، كنت الأقـرب من النافذة الصغيرة التي تطل على الساحة الخارجية، وقفت لدقائق أنظر عبر النافذة وأرى ما يـدور في الخارج، أطلق والـد تافارا النار على عدد من المسلحين وقتل عــددًا منهم، ثـار غضب المسلحين وبــدأوا بقتل كل من يرونه في طريقهم

لأنهم لم يتوقعوا أن يكون أحد من القرية لديه سلاح، خرج جميع رجال القرية واشتبكوا معهم بالسكاكين والفؤوس، وقام بقية المسلحون بإطلاق النار على الجميع، علا الصراخ ورأيت العديد من الجثث والجرحى في كل مكان، لم أعد أرى إخوة تافارا ولا والدهم، فالدماء والجثث اختلطت ببعضها البعض، صرخت من هول ما رأيت، فنهضت حماتي وأغلقت فمي وقالت:

- اصمتي، إذا سمعوك سوف يدخلون ويقتلوننا جميعًا، أجلسي ولا تتحركي.

وعدنا نجلس جميعًا بصمت في زاوية معتمة من البيت إلى أن خفتت الأصوات، ولكن علا صوت واحد خشن وغاضب:

- سنعود وننتقم لزعيمنا ومن قُتلوا من مسلحينا، سوف نقتلكم جميعًا ولو ذهبتم لأقصى الأرض، سوف ترون.

وحين حل الصمت الثقيل عدا عن صراخ النساء والأطفال وتأوه الجرحى، خرجنا لنرى ما قد حصل؛ نظرت حماتي بين الجثث، فصرخت بصوتٍ مرتفعٍ:

- زوجي...زوجي...

كان والد تافارا ممددًا والطلقات في رأسه والسكاكين قطّعت جسده، ظهر أخو تافارا الصغير غابينو والدماء تغطي ملابسه ووجهه:

- لقد قتل أبي ثلاثة منهم، وأخي قتل زعيمهم ومسلحًا آخر مهمًّا لديهم، سوف يعودون للانتقام، سوف ينتقمون حتى من الأطفال، لم يتوقعوا أن يكون هناك من معه مسدس في القرية، لولا إطلاق أبي للنار لقتلوا كل من في القرية، لقد أسرعوا بالرحيل خوفًا من أن يكون هناك مسلحون آخرون.

سألته حماتي وهي تبكي وتصرخ:

- أين أخوك الكبير جامي؟ أين جامي؟

- لقد هرب منهم، ولا أعتقد أنه سينجو، لقد لحقه العديد منهم، لقد أخذ مسدس أبي ولكن لا أعتقد أنه سيكون معه طلقات تكفي، سيقتلونه، كانوا يريدون

قتلي ولكني مثلت بأنني ميت خصوصًا وأن ملابسي مغطاة بالدماء.

عــادت حماتي للصراخ وضــرب يديها ووجهها وانحنت لتلمس وجه زوجها وتقبله غير مكترثة بالدماء، سحبها غابينو من بين الجثث وقال لها:

- اهدئي أمــي، لابد أن تهدئي، لقد مات العديد من الناس، لابد أن أساعد أهل القرية بدفن القتلى، وحين ننتهي من ذلـك لابـد أن نهرب جميعًا، ســوف يعودون لينتقموا منا، فهم يعرفوننا ويعرفون تـافـارا، قالوا لي حتى أخـوك الـذي في باريس سنقتله، أصبح هدفهم الآن الانتقام من عائلتنا.

كانت الجثث بكل مكان والجرحى ينزفون، بــدأت النسوة بـالـصـراخ، فنهضت حماتي وقالت لهن:

- الصراخ لن يفيد، هيا لنساعد الجرحى.

بــدأ الجميع يركضون بكل اتـجـاه لعلاج الجرحى ولـدفـن الموتى، أو للهروب بسرعة من القرية قبل أن يعودوا.

أتى الأستاذ باكو راكضًا:

- كامالي أحضري الأولاد، لابد أن آخذهم الآن للمدينة.

- ولكن يجب أن أذهب معهم.

- لا يمكنك الـذهـاب معهم، هناك من يعرفونك من شباب القرية الـذي خانوا قريتهم وتحالفوا مع المجرمين، ولكنهم لن يتعرفوا على الأولاد، ســوف أقــول لهم إنهم أولادي، يوجد الآن ثأر بينهم وبين عائلتكم، لقد قالوا بأنهم سيقتلونكم جميعًا حتى النساء والأطـفـال، لقد قتل والــد تافارا ثلاثة منهم ثم قتلوه، وقتل أخو زوجك غابينو زعيمهم وشابًا آخر مهمًّا لديهم، هيا بسرعة أحضري الأولاد.

- ومتى ألحق بهم؟

- بمجرد أن يهدأ الطريق ويـغـادروا الشوارع المؤدية للقرية سوف أرافقك إلى

بيت الدكتور في المدينة وتسافرين معهم لباريس، هـذا عنوان الدكتور ساموني في المدينة، احتفظي به، إذا حصل لنا مكروه على الطريق سوف يكون على علم بذلك، هيا بسرعة...

- سوف أحضر ملابسهم...

- لا، لا، دون ملابس ولا أغراض، أحضريهم بسرعة فقط.

خـرج الأولاد بسرعة ونـظـرات الـرعـب تبدو واضـحـةً فـي عيونهم، وحين عرفوا بأنهم سيذهبون دوني بدأوا بالبكاء والصراخ، قلت لهم محاولة تهدئتهم وأنا أبكي:

- اذهـبـوا مع الأسـتـاذ باكو، سـوف ألحق بكم خـلال أيــام، لا تبكوا وإلا سيشكُّ المجرمون بكم وقد يقتلونكم، يجب أن تبقوا هادئين وإن سألكم أي شخص قولوا إن الأسـتـاذ باكو هو والـدكـم، وفـي الباص ناموا طـوال الـوقـت، حتى ولـو لم تكونوا نائمين، مثّلوا أنكم نائمون كي لا يسألكم أحد أي سؤال، هيا بسرعة...بسرعة...

وقفت أنظر إليهم وهـم يمشون بسرعة بجانب الأسـتـاذ باكو، لم أتوقف عن البكاء، وشعور غريب يراودني بأنني لن أراهـم مرة أخـرى، كنت أريـد أن ألحق بهم، وإن قُتلوا أن أكـون معهم فركضت بعض الخطوات لألحق بهم، ولكن أحـد إخوة تافارا وقف أمامي وقال بنبرة آمرة:

- ابقي هنا، إذا ذهبت معهم سوف تكونين السبب بقتلهم، أمنعك من اللحاق بهم.

- ولكنهم أولادي...

- أجـل، ولكن هم في خطر معك، وسـوف تلحقين بهم كوني عاقلة واهدئي، اذهبي وسـاعـدي أمـي في تحضير أغراضنا للرحيل لابـد أن نغادر الليلة، قبل أن يعودوا، لقد أخبروني بأن آخر باص سوف يأتي للقرية في المساء، وربما لن يأتي باص مرة أخـرى لهذه القرية، فالخطر على الطرقات كبير جـدًا، أي إنه سيكون آخر باص، لابد من الانتهاء من كل شيء قبل المساء.

تافارا

رسالة والدتي جعلتني أشعر بالقلق، كامالي تغيرت كثيرًا وأخبرتني أمي بأنها تقرأ كتب تؤثر على تفكيرها، وأنها قرأت أنه في الغرب المرأة تحتفظ بالأولاد، لم أكن أفكر بالأولاد بقلق من قبل، ولكنني الآن لابد أن أفكر بهم وأنني يمكن أن أفقدهم إذا أصرّت كامالي على الانفصال وأن يبقوا معها في أفريقيا؛ وبدأت أفكر بأن أسافر بشكل جدي لكي ينتهي هذا الخلاف وتبقى كامالي زوجتي ولا أفقد أولادي، فأنا لا أريد امرأة أخرى زوجة لي، لن أشعر بالأمان الذي أشعر به مع كامالي حتى لو كنت بعيدًا عنها؛ ولكن إصرارها على الطلاق والتغيير الذي حصل بتفكيرها جعلني أشعر بالقلق، فحتى لو حصل الانفصال أريد أن يبقى أولادي معي، وكنت سأذهب ليحضروا معي جميعهم ونعيش في باريس؛ لكن ماذا لو أصرّت على الطلاق؟ ماذا لو أتت لباريس وطلبت الطلاق؟ لن أتمكن من الاحتفاظ بالأولاد. لم أفكر بالموضوع كثيرًا وطمأنت نفسي بأنني سوف أصلح الوضع حين أسافر لرؤيتها.

كنت أعيش قصة حب جديدة مع سيلفيا الشقراء الجميلة، والتي كانت محط أنظار الجميع في المستشفى، حيث إنها تعمل ممرضة في القسم الذي أعمل به، ويبدو أنني أحب الشقراوات وربما هذا شيء طبيعي، فكل إنسان ينجذب إلى نقيضه، ولكن سيلفيا بجمالها وثقتها بنفسها، جعلتني أشعر أنه من الممكن أن أتزوج بها، ولكن ما قالته كامالي عن الأولاد جعلني أصرف النظر عن التفكير بالزواج بها، على الأقل إلى أن أضمن بأن يبقى الأولاد معي.

ولكن الأحداث التي توالت في القرية ورسائل الأستاذ باكو والدكتور ساموني، قلبت كل الترتيبات في حياتي، وأصبح حضور الأولاد وكامالي أولوية بالنسبة لي. تحدثت مع سيلفيا عن الوضع وأننا لن نستطيع أن تقابل كالسابق حين تحضر زوجتي والأولاد، وكنت قد أخبرتها برغبة زوجتي بالانفصال وأخذ الأولاد فقالت بنظرة ثاقبة:

- ألا تخشى أن تحضر وتطلب حضانة الأولاد، وربما لن تستطيع رؤيتهم،

القانون هنا سوف يكون لصالحها خصوصًا وأنك حصلت على الجنسية الفرنسية، وسوف يعاملونك مثل أي رجل فرنسي، ولا تنسى أنك هجرتها لسنواتٍ طويلةٍ.

لم أنَم في تلك الليلة وكان لابد من التفكير بهذا الموضوع بشكل جدي وأن أدرسه بعناية، لا أريد أن تأتي إلى هنا وتسبب لي مشاكل سوف تؤثر على سمعتي ومكانتي، ولن أتخلى عن أولادي مهما كان الثمن، لقد قامت بتربيتهم لسنوات طويلة، ولكني أنفقت عليهم طوال تلك السنوات.

كل تلك الأخبار والأحداث المتسارعة جعلتني أشعر بالتشويش في حياتي، ثم ذلك التوتر الشديد بخصوص حضور كامالي وما يقد يحصل من مشاكل جعلني لا أركز في العمل، فأخذت إجازة لأسبوعين خصوصًا وأن أولادي سيصلون خلال يومين لباريس؛ ومما زاد من توتري رسالة الأستاذ باكو التي كتبها بصورة مستعجلة في بيت الدكتور ساموني، حين أحضر أولادي لبيته، كتب فيها جملة جعلتني أشعر بالقشعريرة من الخوف:

(دكتور تافارا، أصبح هناك ثأر لهم عند عائلتك، والدك قتل ثلاثة منهم، وأخوك غابينو قتل زعيمهم وشابًا آخر، أقسموا أنهم سينتقمون منكم حتى منك أنت، يعرفون أنك تعيش في باريس، يريدون قتل كل أفراد العائلة، لابد أن تكون حذرًا وتأخذ التدابير اللازمة لتحمي نفسك وأولادك، فيوجد أشخاص تابعون لهم يعيشون في بعض البلاد الأوروبية ومنها فرنسا.)

وقفت في المطار أنتظر وصول أولادي، كامالي ليست معهم، لقد تأخر وصولها لبيت الدكتور ساموني؛ لأن جميع الطرق أصبحت مقطوعة بين القرية والمدينة، ولا أعرف بعد ما حصل معها.

على الأقل استطاع الأستاذ باكو أن يحضرهم إلى منزل الدكتور ساموني، وأخبر تلك العصابات بأنهم أولاده، كانوا شبابًا صغار السن ومن خارج قريتنا ولم يتعرفوا عليهم، وخلال يومين قام الدكتور بعمل جوازات سفر لهم معتمدًا على علاقاته في المدينة، وإرسالهم دون تأخير لباريس.

وقفت متشوقًا لرؤيتهم، وشعور بالقلق ينتابني خصوصًا وأن والدتهم ليست معهم، وبــدأت أفكر بالترتيبات التي يجب عملها حتى قبل رؤيتهم. فُتح الباب الــذي يخرج منه الـقـادمـون، ورأيــت صبيين ترافقهما مضيفة حملت لوحة كُتب عليها اسماهما، ركضت باتجاهها وأبــرزت لها هويتي بأنني والدهما، احتضنتهما لمدة طويلة، وشعرت بأنهم يشعران بالخجل مني كأني غريب، كانا طويلا القامة، عيونهما واسـعـة وجميلة مثل عـيـون كـامـالـي، وبقية ملامحهما تشبهني، نفس الجاذبية والـبـشـرة اللامعة والأسـنـان المصفوفة بشكل جميل وناصعة البياض، لقد كانا وسيمين بشكل كبير، سعادة عميقة غمرتني لكونهما معي، وفخر أيضًا بأنني أسير مع أولادي، شعور لم يـراودنـي من قبل، وفـي تلك اللحظة فقط قررت ألا أفترق عن أولادي أبـدًا وأنهم لابد أن يبقوا معي، لأنني لن أتخلى عن هذا الشعور أبـدًا، لن أراهم يرحلون عني أبدًا ولن أتركهم مرة أخرى، إنه شعور لا يمكن أن تصفه الكلمات، وكـأن وجـودًا آخر لي أراه يمشي بجواري، محبة عميقة تغمر كل ذرة في كياني تجاههما، اعتقد لو أنني ذهبت للقرية خلال دراستي وشعرت بهذا الشعور، ربما لم أكن لأعود لباريس لشدة حبي لهما.

جلسنا معًا فـي مطعم صغير فـي المطار نشرب الـشـاي ونـأكـل بعض الفطائر قال تاكي بخجل:

- أبي...

ثم صمت، كأنه غير معتاد على قول تلك الكلمة، فشعرت بأنه يجب كسر ذلك الحاجز ما بيننا، قلت لهما:

- أعـرف بأنكما تلومانني لأني غبت كل تلك السنوات، ولكنني لم أسافر لسبب تافه أو لمتعة ما، لقد درسـت كثيرًا حتى حصلت على شهادة الطب، وكـان يجب أن أتــدرب خـلال فترة الصيف التي كـان يذهب بها بقية الطلاب بعطلة، كنت أخشى أن أعـود للقرية فيحصل أي شـيء سيئ يمنعني من متابعة دراسـتـي، وكنت واثقًا من عناية والدتكما بكما، وحرصت على تلبية جميع احتياجاتكم؛ الآن نحن معًا ولـن نفترق مـرة أخـرى، فلا داعـي لهذا الخجل، وسـوف نتعرف على بعضنا البعض

بصورة تدريجية، إلى أن تشعروا بالانتماء لوالدكم وأنكما بأمان هنا.

بدا الارتياح على وجهيهما، وتابع تاكي:

- أبـي، أيـن أمـي؟ لماذا لم نجدها معك؟ أخبرنا الدكتور ساموني أنها ستكون معك.

- لم تحضر بعد، وأخبركم بذلك حتى لا تشعروا بالتوتر والقلق، لقد قُطعت الطرق بين المدينة والقرية؛ لذلك لم تتمكن والدتكم من الحضور في اليوم التالي مثلما كـان مخططًا مع الأستاذ باكو، عمومًا لا تقلقوا، سـوف تأتي، أنـا على اتصال مع الدكتور ساموني، والأسـتـاذ باكو لن يتركها قبل أن يتأكد من وصولها لمنزل الدكتور ساموني ثم أن تأتي إلى هنا.

بدأ سيمو بالبكاء وقال:

- أخـاف أن يكون قـد حصل شـيء لأمـي...أنـا مشتاق لها، لـم نفترق عنها من قبل...

أخفى تاكي دموعه لأنه الأخ الكبير، وقال بصوتٍ مخنوقٍ:

- أبـي، لقد سمعتهم يقولون بأنهم سيقتلون كل عائلتنا حتى النساء والأطفال، أخاف أنهم قد...

ازداد بكاء سيمو، فقاطعت تاكي قائلًا:

- لا داعـي لهذا الخوف، قلت لكم بـأن الأستاذ باكو سـوف يُخرجهم من القرية فهو يعرف كل مخارجها، ويوجد لدي أصدقاء في المدينة سوف يساعدونها.

وقال سيمو دون أن يتوقف عن البكاء:

- لقد قتلوا جدي، ماذا عن جدتي وأعمامي؟ هل قتلوهم؟

- سيمو، أنـت الآن شـاب صغير لا يصح أن تبكي في مكان عـام والناس ينظرون إلينا، لو أنهم قُتلوا لعرفت بذلك، لقد أرسلت لهم نقودًا ليغادروا القرية ويذهبوا للمدينة لمكانٍ آمـنٍ، لا تقلق، لقد رتبت كل شـيء. والآن يجب أن نتحدث عن شيء

آخـر. أول شيء يجب القيام به بالنسبة لكما هو أخذ دروس باللغة الفرنسية؛ كي تلتحقوا بالمدرسة وتتابعوا دراستكم.

استمر الحديث معهم لبعض الوقت، ثم غادرنا باتجاه المنزل، وخـلال الطريق ساد الصمت لأنني كنت أفكر طـوال الوقت بكيفية ترتيب أمورهم وبأننا في خطر حتى فـي بـاريـس، فتلك العصابات لـن تترك ثـأرهـا، خصوصًا ذلـك الزعيم الكبير الـذي قتله أخـي، وكنت أعلم بـأن تلك العصابات لا تترك ثأرها أبـدًا حتى ولـو كان ذلـك في بلد بعيد، سـوف يلاحقونني ويلاحقون أسرتي، وكنت أشعر بالقلق طوال الوقت بأنه هناك احتمالًا أن تكون كامالي وأمـي وحتى كل أفـراد أسرتي قد قُتلوا، لقد قتل أحـد إخوتي اثنين منهم عـدا عن زعيمهم، وكنت أعلم بـأن الثأر سيكون فظيعًا. فكان لابد من أخذ جميع الاحتياطات وأن أفكر جيدًا كيف سأتصرف.

وصلنا للبيت، وقـف الأولاد بوسط البيت مندهشين من كل شـيء، من الأضـواء والأثـــاث ومــن شكل المطبخ والحمام ومــن غرفة نومهم وأسرتهم الجميلة، حتى أنهم لم يتحركوا من مكانهم وعـادوا للنظر لي كأنني غريب من جديد؛ فضحكت وقلت لهم:

- لقد كنت مثلكم حين وصلت لباريس، كـل شـيء كـان غريبًا حتى الحمام، سوف تعتادون على كل شـيء، هذه هي حياتكم الجديدة ولن تعودوا للقرية، غدا سوف نذهب لشراء ملابس جديدة لكم وكل ما يلزمكم، وخـلال أيـام سوف تبدأون بدراسة اللغة الفرنسية، هيا الآن سـوف أعلمكم كيف تأخذون حمامًا أو «دوش» كما يقول الفرنسيون.

بعد الحمام لبس كل منهما قميصًا من قمصاني، ورافقتهما لسريرهما، لقد كانت لحظات رائعة أن أراهـمـا معًا في بيتي وأتـحـدث معهما قبل الـنـوم، سعادة لم أعرفها من قبل وتمسكت بها لأنها رائعة جميلة ونـــادرة. تـمـدّدت في سريري وشـعـرت بالخوف مـن أن يهاجمنا أحـد فـي بيتي بباريس، لـم أعـد أشعر بـالأمـان، ثـم هناك مـوضـوع كامالي وأنـهـا تريد الانفصال وأخـذ الأولاد ليعيشوا معها، لم أعد أدري إن كنت أتمنى عودتها أم لا، فحتى لو قُتلتْ هناك، سوف يبقى الخوف

موجودًا في باريس من أن يقتلوني ويقتلوا الأولاد، لم أستطع النوم في تلك الليلة، وكـان لابد من الحديث مع سيلفيا، فلم يكن بمقدوري إيجاد أي حل، لأول مرة منذ وصولي لباريس أشعر بهذا الخوف الذي لم أشعر به من قبل.

وفي الصباح، تناولنا الإفطار، ثم خرجنا للتسوق، وقـررت أن أنسى خوفي وقلقي معهما ليستمتعا بوصولهما إلـى بـاريـس، كما أن من يريد الانتقام سـوف يحتاج للمزيد من الوقت ولـن يكون بليلة وضحاها. كنت أريـد أن أستمتع برؤية تلك الدهشة التي شعرت بها حين وصلت لباريس في عيونهما، كنت أريـد أن أستعيد مشاعر الضياع والانبهار التي شعرت بها عبر نظراتهما البراقة واللامعة، بتأثير غرابة كل ما يحيط بهما، كلما سـرت معهما بين المحلات الكبيرة الممتلئة بكل أشـكـال الملابس والأشـيـاء والأثـاث والأطـعـمـة، أمسكا بقوة بيدي كأنهما يخافا الضياع، وأمسكت أنـا أيضًا بقوة بيديهما؛ ليشعرا بأنني معهما ولـن أتركهما أبـدًا. قضينا اليوم كله بالتسوق وشـراء كل ما يلزمهما وكل ما أحبا شـراءه، ثم جلسنا بأحد المطاعم لنتناول العشاء معًا، قال سيمو ضاحكًا:

- أبي، باريس جميلة جدًا، أنا سعيد لأني معك هنا، هذا مكان رائع.

ابتسم تاكي وقال:

- أجـل، هذا رائـع، لن يصدق أصدقائي في القرية أنني في مكان كهذا، وأتمنى أن تحضر أمي سريعًا لنكون جميعنا معًا.

وخـلال أيـام التحقا بمعهد لدراسة اللغة الفرنسية، وكنت أتابع باستمرار أخبار كامالي وأهلي، دون وصـول أي أخبار عنهم، بدأ القلق الشديد ينتابني بأن يكونوا قـد قُتلوا فـعـلًا، ولكنني أخفيت قلقي عـن الأولاد وأخبرتهم بـأن والدتهم سوف تعود قريبًا.

كامالي

تغيّر كل شيء في القرية، لم يعد هناك أمان ولا سكينة، لم يعد أحد يجلس أمام منزله لشرب الشاي، وتوقف الناس عن زيارة بعضهم البعض، كل رجل في القرية حمل سكينًا أو فأسًا ليحمي بيته وعائلته، وأصبحت مجموعة من الشباب تحرس القرية في الليل والنهار ولإخبار أهل القرية إذا حضر أحد لمهاجمتهم؛ أخبار الجرائم والقتل في القرى أصبحت تأتي في كل يوم، امتدت الحرب الأهلية أو حرب العصابات تلك لتشمل جميع القرى في منطقتنا، فقط المدينة لم يصلوا إليها بعد، ولا يعرف أحد إلى أين ستمتد تلك المعارك.

سألت حماتي:

- هل يمكن لهذه المعارك أن تنتهي، أنتِ عشت هذا الوضع من قبل؟

أجابت وهي تهز رأسها بأسى:

- لا تنتهي قبل أن يموت الآلاف ويتهجّر الناس من قراهم وبيوتهم ويتم سلب ونهب كل شيء، إنها شيء فظيع لا يمكن وصفه، أفضل شيء كان إرسال الأولاد إلى أبيهم.

قلت بحزن:

- أجل، ولا أدري إن كنت سأراهم مرة أخرى.

- ستسافرين قريبًا وتلحقي بهم.

- لماذا لا يهرب أهل القرية لمكان آخر؟

- وأين سيذهبون، سوف يلحقون بهم، أو يقتلونهم على الطرقات، أنت لا تعرفين بعد ضراوة هذه المعارك؛ ثم هناك اغتصاب النساء، الرجال يخافون من الرحيل كي لا يتم اغتصاب النساء في الطرقات، في القرية يستطيعون أن يحموا أنفسهم وربما لا يأتون مرة أخرى.

- ولكن لماذا كل هذا القتال؟

- هناك من يريد أن يستولي على القيادة بين القبائل، وإذا نجحوا يذهبون للمدينة ويقتلون رجـال الحكومة ويستولون على الحكم، وهناك من يقتل للثأر أو للسرقة وهناك من يقتل لأنه يحب القتل، الأسباب كثيرة، ولكن حين يبدأ هذا الصراع لا أحد يعلم متى سينتهي.

كانت أحـاديـث أهـل القرية قصيرة، عـبـارة عـن عـدة جمل مقتضبة، فالخوف سيطر على العقول والبيوت، كان الجميع بانتظار الهجوم التالي. الفتيات والنساء الشابات كن يشعرن بالخوف الشديد؛ لأنهن كن يعلمن أنه بعد قتل الرجال سوف يغتصبون النساء، فوضعت كـل امــرأة بجانبها سكينًا لتحمي نفسها، والأطـفـال كـانـوا يلعبون ثـم يركضون لبيوتهم حين يسمعون أي صـوت، أو يـرون أي خيال لرجل ما يأتي من مدخل القرية؛ والأسـوأ من النهار كان الليل، فالرعب يكون أثقل والساعات أبطأ وكـل حركة في الخارج تقول لنا لقد أتـوا، لم يكن ينام في القرية سـوى الأطفال أو الرجال المتعبين من الحراسة في اليوم السابق، فينامون ساعة ويستيقظون لـسـاعـات، وخـلال تلك الأحـــداث لـم تصلني أي أخـبـار عـن الأولاد، حتى الأستاذ باكو لم يـأتِ لزيارتنا بعد أن غـادر مع الأولاد، والخوف الشديد بدأ ينهشني، وشـعـور غامض ومخيف يقول لـي إن شيئًا مـا حـدث معهم وإنـنـي لن أراهــم مرة أخـرى، ولكنني كنت أطـرد ذلك الشعور وأردد في نفسي: (سـوف أراهــم، سوف أراهــم، لابد أن أراهــم، لابد أنهم أحياء وإلا كنا سنعرف إذا كانوا قد قُتلوا). وكنت أتفقد كل يـوم الورقة الصغيرة التي كتب عليها الأستاذ باكو عنوان الدكتور ساموني، لقد خبأتها في صدري كي لا تضيع أو يجدها أحد ويمزقها.

وفـي إحـدى تلك الليالي الصعبة أتـى صديق للأستاذ باكو وقـال مـحـاولًا إخفاء دموعه:

- لقد قُتل الأستاذ باكو...

نهضت من مكاني بسرعة خاطفة وقلت له بلهفة:

- أين قُتل؟ هل قُتل وهو ذاهب للمدينة أو وهو عائد منها؟

- لا نـدري، وجـده أحـد رجـال القرية مُلقًى على الأرض مقتولًا وكتبوا بجانبه على الأرض، سوف يأتي الدور عليكم جميعًا.

بدأت بالصراخ والبكاء:

- أولادي، أيـن أولادي؟ هل وجدتم جثثهم بالقرب منه؟ أخبرني، لا تخف لن أفقد عقلي، لكن أخبرني الحقيقة...

- لا...لا لم نجد أحدًا غيره مقتولًا.

أمسكت بي حماتي محاولة تهدئتي وقالت:

- ربما أوصلهم لبيت الدكتور وفـي طريق العودة قتلوه، اهدئي، سـوف نذهب للمدينة غدًا، أريد أن نترك القرية الليلة، أخبرني، هل سيأتي الباص هذا المساء؟

- أجـل، يوجد بـاص صغير سيمر هـذا المساء ولـن يأتي بـاص غيره، لقد جمع الأهـالـي بعض الـمـال ليأتي ويـأخـذهـم عبر الـطـرقـات الـتـي لا يـوجـد بها رجـال العصابات، لابد أن تدفعوا المزيد من المال...

- سندفع كل شـيء، هيا يا كامالي سـوف نحضّر أغراضنا بسرعة، لن نبقى هنا، كل العائلة سوف تغادر وسـوف تعرفين كل شيء عن الأولاد، لا أريـد أن يموت بقية أولادي أيضًا، يكفي أنني فقدت والدهم ولا نعرف مصير ابني جامي.

بدأنا بجمع الأغـراض وتحضير أنفسنا للمغادرة، وحملنا أمتعتنا القليلة وسرنا جميعًا باتجاه المكان الـذي سيقف عنده الـبـاص، ولكن فجأة من حيث لا نـدري، بـدأت أعـداد كبيرة من الرجال غريبي الشكل يهجمون على القرية، صرخنا وتركنا كل ما في أيدينا من أمتعة، دخلوا إلى القرية وبـدأوا بقتل أي شخص يرونه أمامهم الـرجـال والـنـسـاء والأطـفـال، ركـض إخــوة تـافـارا ليحضروا السكاكين والـفـؤوس، وركـضـت مـع حماتي لنختبئ خلف بعض الأشـجـار إلــى أن نجد فـرصـة للهرب، توجهت مجموعة كبيرة من أولئك الرجال مباشرة إلى منزل تافارا، وهناك رأيناهم يقتلون كل من في البيت، كتمت حماتي صرخاتها، ووضعت يدها على فمي كي لا

أصـرخ، ولكن عيناها كانت تكاد تخرج من مقلتيهما؛ رعبًا وقهرًا لأجل أولادهـا الذين رأتهم يُذبحون أمامها، لم أعد أحتمل الوقوف على قدمي، كنت أريد الصراخ ولكنها صفعتني على وجهي وقالت:

- إن صرخت سـوف يأتون ويغتصبوننا، حتى أنـا الكبيرة في السن لن يترددوا باغتصابي تحقيرا لنا ثم يذبحوننا، اخرسـي، والآن لابـد أن تسيري ورائــي، هناك طريق يقودنا إلـى خـارج القرية، لابـد أن نستغل انشغالهم بالقتال، خـلال ساعة سـوف يقتلون الجميع، ثـم يبحثون عـن النساء والأطـفـال، هيا الحقي بـي، دون صوت ولا صراخ...

مشت أمامي بخطى حـذرة بين الأشـجـار، وكانت تعرف كل مكان في القرية، وتعرف جميع الطرق المحيطة بقريتنا والتي تصلنا بالقرى الأخـرى وبالمدينة، سـرت وراءهــا وأنـا أبكي ولكن صامتة وواضعة يـدي على صـدري كي لا أفقد عنوان الدكتور، آخر شخص يخبرني أين أولادي.

بعد أن تجاوزنا الأشجار، بدأنا نسير بين الأشـواك في تلال جافة مليئة بالأحجار الصغيرة، فقالت لي إننا هنا لابد أن نسرع لأنه لا يوجد أشجار نختبئ بينها، أسرعنا بالخطى ولا نـزال نسمع صـوت الـفـؤوس والسكاكين وصـرخـات الـرجـال والنساء والأطـفـال، كـان هناك أشخاص آخـرون يهربون مثلنا، منهم من استطاع أن يبتعد ومنهم من لحقوا به وقتلوه، كنا قد ابتعدنا مسافة لا بأس بها.

كـان لابـد لنا من الجري وتسلق بعض التلال، وأن نحذر من الأفاعي والثعابين المنتشرة بكل مكان، حذرتني حماتي من أفعى بنية اللون تختبئ بين أوراق الشجر، فلدغة واحـدة منها تكفي لموتي على الفور، ثم تلك الطيور العملاقة التي تحلق فوقنا من حين لآخـر، ثم وصلنا إلى غابة كبيرة ممتلئة بالأشجار الضخمة والعالية، والأرض الطينية المغطاة بالأعشاب الخضراء، وخـلال دقائق بـدأ المطر بالتساقط ولكن الخوف منعنا من الشعور بالبلل والـبـرد، تابعنا السير عبر التلال الخضراء والأشـجـار الكثيفة، وبــدأت تـراودنـي أحـلام اليقظة لشدة التعب، وكـان يجب أن أركـز نظراتي على كـل مـا يتحرك مـن حولي خـوفًـا مـن الأفـاعـي، فـبـدأت بالمشي

بكل الاتجاهات، لاحظت حماتي تشتتي فأمسكت بيدي وأجبرتني على المشي بالقرب منها.

وخلال سيرنا وجدت حماتي ثعبانًا أخضر اللون معلقًا على إحدى الأشجار، قامت بلف بعض أوراق الشجر الجافة على عصًا وجدتها على الأرض، واقتربت قليلًا من الثعبان ثم اصطادته بلف تلك الأوراق الجافة مع العصا حول رقبته، صرخت حين وجدتها تحمله وهو مقيد بين تلك الأغصان الجافة، فضحكت وقالت:

- لا تخافي، هذا النوع ليس سامًّا، سوف نشويه بعد قليل، مذاق لحمه لذيذ سوف ترين.

وضعته في كيس قماش كانت تحمله معها وأغلقت الكيس كي لا يهرب وتابعنا السير.

وصلنا إلى نهر ضخم فيه تيارات قوية، وكان هذا النهر يفصلنا عن الضفة الأخرى، ولم يكن من الممكن أن نتجاوزه سباحةً فلم نكن نعرف السباحة، وحتى لو عرفنا السباحة أخبرتني حماتي أن العديد من الأشخاص غرقوا في هذا النهر؛ بسبب التيارات القوية رغم معرفتهم للسباحة، ثم تأكلهم التماسيح النهرية ولا يجد أحد جثثهم. وقفتْ حائرة ثم قالت لي:

- يوجد عادةً هنا قوارب صغيرة تنقلنا إلى الضفة الأخرى، ولكن لا أحد هنا وقد بدأت الشمس بالغروب لابد من جمع الأخشاب وأن نقضي الليل هنا، اذهبي لجمع بعض الأخشاب بهذا الاتجاه وأنا من الاتجاه الآخر لا تبتعدي عن هنا.

أحضرت حماتي حجرين لتشعل النار، وجلسنا معًا حول النار ووضعت حماتي الثعبان في جذع شجرة فارغة من الداخل ثم وضعت الجذع فوق النار؛ نظرت إلى النهر الذي يمتد إلى ما لا نهاية، وتحيط به الأشجار الضخمة شديدة الخضرة من كل اتجاه، الغيوم البعيدة أصبحت صفراء اللون مع غروب الشمس، وتلألأت أشعتها على صفحة المياه، وفي نهاية الأفق تتشابك الغيوم الصفراء مع مياه النهر وكأنها كيان واحد. فاحت رائحة اللحم المشوي، وأخرجت حماتي

الثعبان من الجذع المحترق وبدأنا بالأكل، لقد كانت أشهى وجبة أكلتها في حياتي بعد يومٍ كاملٍ من الجوع والتعب.

وضعنا بعض أوراق الأشجار على الأرض، كانت الغابة شديدة السواد والنهر أشد سوادًا، لم يكن ينير ذلك الظلام سوى ضوء القمر الذي يظهر حينًا ثم يختفي بحينٍ آخر خلف الغيوم، كانت هناك أصوات لحشرات صغيرة وطيور ليلية، ثم صوت أمواج النهر الصغيرة التي تتدافع بسبب التيارات القوية، وخلال دقائق نمنا لشدة التعب رغم الخوف من كل ما يحيط بنا، وفي الصباح الباكر استيقظت حماتي قبلي؛ لتبحث إن كان أحد تلك القوارب قد وصل إلى الشاطئ، لساعاتٍ طويلةٍ لم يصل أحد، وبدأنا نشعر بالقلق، فربما لن يصل أحد، وحينها سنضطر للرجوع أو قد يجدوننا ويقتلوننا، جلسنا صامتتين نراقب أي حركة تأتي من طرف النهر، وأخيرًا وبعد طول انتظار أتى قارب طويل ونحيف، نادته حماتي وطلبت منه أن يُقلّنا إلى الضفة الأخرى فقال لنا إنه لن يفعل ذلك مجانًا، بحثت عن شيء ما في صدرها وأعطته بعض النقود، قال لنا:

- جيد، سوف آخذكما إلى الضفة الأخرى ولكن يجب الانتظار إلى أن ينخفض النهر ويصبح التيار أضعف.

وبعد أن هدأ التيار صعدنا إلى القارب القديم وجلسنا على أرضيته الخشبية وطلب منا التمسك بحواف القارب؛ لأن التيارات قد تحملنا بعيدًا أو يمكن أن تقلب القارب، شعرت بالخوف الشديد فنهضت من مكاني وقلت لحماتي:

- لا أريد تجاوز هذا النهر أريد أن أعود.

صرخت بوجهي وقالت:

- اصمتي واجلسي، إن لم تذهبي معي سوف يتم اغتصابك وقتلك...

عدتُ للجلوس وتشبثت بحواف ذلك القارب القديم، وتخيلت نفسي أغرق ثم تأكل جثتي تلك التماسيح، شعرت بالهلع بذلك القارب الذي تتقاذفه أمواج صغيرة ولكنها عنيفة، بدأ النهر بالتسارع وبدأ بسحب القارب لمجرى النهر،

وأصبح القارب يبتعد بالتدريج، ثم جذف صاحب القارب ببراعة إلى أن أعاد سيطرته عليه، قطعنا نصف الطريق وقلبي يرتجف من الخوف، وتلك التيارات لا تتوقف عن أخذ القارب يمينًا وشمالًا، إلى أن وصلنا أخيرًا إلى الضفة الأخرى من النهر، قفزت من ذلك القارب كأنني أقفز من مركبة الموت، وجلست على الأرض لأستعيد أنفاسي، التي تقطعت لشدة الرعب الذي اعتراني طوال تلك الرحلة القصيرة، ولكنها كانت رحلة بين الموت والحياة.

أخرجت حماتي منديلًا أسود وقالت لي أن أضعه على رأسي وأخفي وجهي، وأن أصطنع المرض حين أمشي، وأخرجت من جيبها صبغة حمراء لطخت بها يداي وقدماي ووجهي، وفعلت نفس الشيء لنفسها وأخبرتني بأنهم لن يرغبوا باغتصاب امرأتين مريضتين بمرضٍ مُعدٍ، ثم بحثت عن عصا لي وعصا لها نتوكأ عليها ونمشي بصعوبة كأننا مرضى. سرنا لساعتين بين التلال والأشجار إلى أن قابلنا ثلاثة رجال من أولئك المسلحين، وحين اقتربوا همست لي بألا أتحدث وأن أسير منحنية الظهر، وقفوا أمامنا وقالوا لنا:

- إلى أين؟

أجابتهم بصوت امرأة كبيرة بالسن ومريضة:

- نحن مصابتان بمرضٍ معدٍ، ونريد الذهاب للمدينة للعلاج، وأخرجت يدها وطلبت مني مد يدي ليروها، فأشاحوا بوجههم عنا وقالوا:

- أفٍ لكما، هيا اذهبا من هنا، إن رأيناكما مرة أخرى سنقتلكما.

همست لي بألا أركض وإلا سوف يشكون بأمرنا، وأن أسير كما رأونا نسير من قبل، وبعد عدة دقائق لم نعد نراهم، فتابعنا السير بسرعة قبل حلول الظلام. شعرت بالجوع الشديد ولم يكن هناك ما نأكله، قالت حماتي:

- سوف نستريح بين هذه الأشجار، سوف يحل الظلام قريبًا ومن الخطر أن نمشي بالليل، سوف ننتظر الفجر، والآن سوف أبحث عن بعض أوراق الشجر التي تصلح للأكل، وأنت ابحثي عن بعض الأخشاب الجافة، لابد أن نوقد النار

في الليل وإلا فقد تهاجمنا الذئاب.

خــلال ســاعــة كــانــت قــد أحــضــرت بــعــض الأوراق الــخــضــراء، وجــلــبــت بعض الأخشاب الجافة، لقد كانت خبيرة بكل شــيء، تعرف الطرق وتعرف ما يؤكل من النباتات وما لا يؤكل، وحين خيّم الظلام وجلسنا حول النار نأكل تلك الأوراق ذات الطعم الغريب سألتها:

- أين تعلمت كل هذه الأشياء؟

- لقد ربَّاني رجل لديه هذه الخبرة، وكان يصطحبني معه في كل رحلاته عبر التلال والجبال ويعلمني كل شيء، كان يقول لي: أنت يتيمة واليتيم لابد أن يعرف أكثر من غيره لأنه وحيد في الحياة، لابد أن يساعد نفسه وأن يعرف أكثر من الآخرين؛ لقد علمني أن أحيا دون الآخرين، لذلك أعرف كل هذه الطرقات وكل ما فيها من أعشاب وأشجار وثمار، حين يبزغ الفجر على التلال القريبة من هنا توجد أشجار محملة بالفواكه والثمار، أتمنى أن تمر هذه الليلة على خير، دعي هذه العصا بجانبك إذا هاجمنا ذئب أو أي شخص. سوف أنام ساعتين وأنت تحرسينني، ثم تنامين أنت وأحرسك إلى أن يطلع النهار.

جلست بجانبها وشعرت بالبرد الشديد فاقتربت من النار التي أشعلتها ملتمسة بعضًا من الــدفء، وكنت أنظر طــوال الوقت حولي باحثةً عن عيون تلتمع بالظلام أو خيال شبحٍ ما، شعرت بالدفء بجانب النار ولكن الخوف جعلني أشعر بالتجمد في عروقي.

وفــجــأة شــعــرت بــشــيء يتحرك بجانبي فصرخت بــصــوتٍ مــرتــفــعٍ، استيقظت حماتي وهــي تحمل العصا بسرعة فائقة، وحين نظرت لما يتحرك بجانبي كانت أفعى صغيرة، لــم تشعر بالخوف وأمسكتها مــن رأســهــا ثــم قتلتها وطلبت مني بغضب ألا أصــرخ بتلك الطريقة، فهناك مــن يتتبع آثــار الــصــوت وليس الأقــدام فقط، وعــادت للنوم كأنه لــم يحدث شــيء، نظرت إليها باستغراب شــديــد، فهي تحمل قلب أســد وجسد امــرأة نحيل، لقد أثــارت دهشتي وإعجابي بنفس الوقت، ثم عــدت للنظر حولي بخوف من كل حركة أو ضــوءٍ خاطفٍ. وبعد حوالي ساعتين أيقظتها كما طلبت مني، وكــان دوري أن أنــام وهي تحرسني، تمددت على الأعشاب

الجافة ولم أشعر بقسوة الأرض ولا رطوبتها؛ فالتعب جعلني أنـام مباشرة دون أي تفكير. وبعد وقـتٍ قصيرٍ سمعت حركة تصدر من حماتي فتحت عيناي فوجدتها تمسك بقطعة خشب كبيرة مشتعلة، وتـدور بها حـول المكان، وحين سألتها ماذا هناك قالت، إنـه ذئـب، وهـو يقترب منا، نهضت بسرعة من مكاني أمسك العصا التي كانت بجانبي، وبدأت أبكي من الخوف، نهرتني وقالت:

- اخـرسـي، هـذا ليس وقـت البكاء، لابـد أن تكوني هـادئـة، لابـد أن تبقى النار مشتعلة إلى أن يأتي النهار...

- أشعر بالعطش الشديد، ألا يوجد ماء هنا؟

- لا، اصبري، غدًا سوف نسير باتجاه منطقة فيها ينابيع مياه.

لم نعُد للنوم وبقينا طـوال الليل نضع الأخشاب فـوق النار، أشعلنا نـارًا كبيرة جعلت الذئب يبقى بعيدًا، ولكنه كـان لا يـزال واقفًا تلتمع عيناه انتظارًا لانطفاء الـنـار. بقيت النار مشتعلة إلـى أن سطعت الشمس، وغـادر الذئب ولكنه لم يكن بعيدًا، قالت لي حماتي إن بقينا ليلة أخـرى فسوف يأتي بقية القطيع ويهاجموننا، لأنهم يكونون جماعات، وكـان لابد من السير بسرعة لقطع تلك المنطقة الموحشة، سرنا حوالي ثـلاث سـاعـات، وقالت لي إنـه يوجد كهف في التل المقابل لنا، وإنه يجب أن نجمع من جديد الأخـشـاب وبعض ثمار الأشـجـار، ونحتمي بالكهف حين يحل الليل، بدأنا بجمع بعض الثمار، والأخـشـاب الجافة، ثم ذهبنا لذلك الكهف بأعلى الجبل، أشعلتْ النار كالليلة السابقة، قالت إننا يمكن أن ننام قليلًا، وإننا قد ابتعدنا عن منطقة الـذئـاب، ولكن لابـد أن تبقى إحـدانـا مستيقظة في الليل. نامت وجلست بجانبها، أنظر بخوفٍ حولي، لم يكن هناك أي صـوت سـوى صوت احـتـراق الأخـشـاب وصـوت الـشـرارات المتطايرة مـن حين لآخـر، فاغتنمت فرصة نومها لأبكي حزنًا على كل ما بنا ولشوقي وخوفي على أولادي.

مـرت تلك الليلة بسلام، وفـي الصباح الباكر كـان يجب أن نتابع المسير، قلت لها بتردد:

- هل أنت متأكدة بأن هذه الطرق تؤدي للمدينة؟

نظرت لي وقالت:

- ألم أخبرك أن ذلك الرجل الذي ربَّاني علمني كل شيء، أم هل يجب أن أكون رجلًا كي تصدقيني؟!

- أجل، أجل، ولكنني مع التعب نسيت أشياء كثيرة، كم يومًا بقي لنا لنصل؟

- تبقى يومان لنصل، لذلك يجب أن نرتاح جيدًا وأن نجمع الثمار كلما وجدنا منها شيئًا، لحسن الحظ أنه توجد ينابيع مياه كثيرة بهذه المنطقة.

بدأنا بجمع بعض الثمار، ثم طلبت مني أن أبحث عن ريش على الأرض ولو ريشة واحدة، أخذنا الثمار التي جمعناها وتابعنا المسير مع البحث عن أي ريشة قد نجدها على الأرض، لم أسألها لماذا تريد الريش؛ لأنها كانت عابسة الوجه فخفت من غضبها مني، وبعد السير لمدة طويلة وجدت ريشة ثم واحدة أخرى على مسافة منها، أخذت الريشتين وربطتهما بإحدى خصال شعرها، ثم أخرجت بعض الخرزات من جيبها وربطتها مع الريش، ودهنت وجهها من جديد بتلك الصبغة الحمراء ثم أضافت فوق الصبغة بعض التراب من الأرض، ووضعت منه على شعرها، أصبح منظرها غريبًا ومخيفًا وقبل أن أسأل قالت لي:

- الآن أصبحت مشعوذة وأنت خادمتي، من يراني سوف يخاف مني، وأنت سوف تضعين الوشاح الأسود وتغطين به وجهك، سوف نمر بمنطقة خطيرة يوجد بها العديد من القرى والقبائل المتناحرة، هنا بدأت كل تلك المعارك التي امتدت بكل مكان، سوف نمشي بطريق بعيد عن طرق القرى الرئيسية، ولكن إذا صادفَنا أحد فأنا المشعوذة، لا تناديني حماتي، وسوف أناديك بالحمقاء، ضعي الآن الوشاح الأسود على رأسك وغطي وجهك، أنت جميلة وأخاف أن يغتصبك الرجال إذا قابلَنا أحد منهم أو حتى مجموعة منهم، فحتى مجموعة كبيرة منهم مستعدة لاغتصاب فتاة واحدة، ولكنهم لن يقتربوا من مشعوذة، فهنا الجميع يخاف من المشعوذين ويعتقدون أن لديهم قوى خارقة، سوف تمشين مثلي

منحنية الظهر وتعرجين، مفهوم؟

كانت تقول لي الأوامــر كأنها ليست حماتي، بل امــرأة تمرّست بتلك العلوم الغريبة، ولـم أكـن أتخيل أن حماتي تمتلك كل هـذا القدر من المعرفة، أصبحت أكثر طاعةً وتقديرًا لها، لقد اكتشفت الآن كم هي امـرأة نـادرة. سرت خلفها منحنية الظهر وأعــرج تمامًا مثلما تفعل وهــي من حين لآخـر تقول لي بصوتٍ خشنٍ هيا أيتها الحمقاء.

ومثلما توقّعت، ظهرت مجموعة من الرجال المسلحين ووقفوا أمامنا دون أن يتكلموا، قالت لهم حماتي بجرأة:

- لماذا تقفون أمامنا، ألا ترون بأني امرأة كبيرة بالسن وهذه خادمتي.

- إلى أين تذهبان أنت وهي؟

- أنا مشعوذة كما تـرى، أبحث بين الجبال عن الأعشاب والأرواح، هل تريد أن أحضر لك بعض تلك الأرواح الشريرة؟

تراجع قليلًا إلى الوراء، ولكن شابًا آخر تقدم وقال لها:

- لماذا خادمتك تخفي وجهها، من أين أتيتم؟

- خادمتي مريضة بمرض جلدي ووجهها مـشـوّه، إذا لمستها ستنتقل العدوى إليك، انظر إلــى يــداي، الحمقاء نقلت الـعـدوى لي وأنــا أبحث عن أعشاب تـداوي هذا المرض اللعين.

- من أين أتيتم؟

- نحن لا نسكن في قـرى، بل في كهف بين الجبال، اذهــب لذلك الكهف على التلة المقابلة، سوف ترى آثـار حياتنا هناك، لقد أطفأنا النار هناك منذ قليل، هيا دعونا نذهب، يداي تؤلماني ووجهها محترق من تلك التقرحات.

تراجع الآخر للخلف وقال لنا:

- هيا اذهبا، ولا تمرا بطريق القرية كي لا تنقلا العدوى للناس هناك، هيا.

قالت له بضعفٍ مُفتعلٍ:

- هل نجد معكم بعض الطعام والماء؟

نـظـروا لبعضهم البعض بـانـزعـاج، وقـامـا بوضع بعض الخبز على الأرض كـي لا يلمسوا يديها، وقربة مملوءة بالماء، وقال رئيسهم:

- هيا بنا، ابتعدوا عنهما.

ضحكت حماتي وهي تراهم يبتعدون خائفين منها وقالت لي:

- هيا نأكل ونتابع الطريق قبل أن يحل الـظـلام، سـوف تستمرين بوضع هذا الوشاح الأسـود إلـى أن نصل للمدينة، وسـوف أبقى المشعوذة إلـى أن نصل هناك أيتها الحمقاء.

ضحكنا معًا ونحن نتناول الخبز، وكـان أشهى خبز تناولته في حياتي بعد جوع استمر لأيام.

وحـلَّ الليل سريعًا وكنت أكثر ما أخشاه هو الليل، وعدنا لجمع الأخشاب لنوقد النار خوفًا من الـذئـاب، جلسنا حـول النار نتحدث قليلًا قبل أن تنام واحـدة منا وتستيقظ الأخـرى، نامت حماتي وبقيت قـرب النار، العصا بيد وقربة الماء باليد الأخـرى، أنظر حولي بكل ثانية وألتفت عند كل حركة أو ومضة ضـوء، فجأةً رأيت شيئًا مـا يتحرك خلف الأشـجـار، خفت أن أصـرخ فتغضب حماتي، فأيقظتها من نومها دون أن أصرخ، قلت لها وأنا مرتعبة:

- هناك أحد ما خلف الأشجار...

نهضت من مكانها وقالت لي:

- قلت لك غطّي رأسك ووجهك.

جلستْ متربعةً بجانب الـنـار والعصا بيدها بانتظار مـا سيظهر مـن خلف الأشـجـار، وأخـيـرًا أتـى شـاب يحمل فأسًا بيده، اقترب منا وهـو ينظر إلينا بعدائية شديدة كأنه يعرفنا ويريد قتلنا، التصقت بحماتي التي بـدت متماسكة، ونظرت

إليه نظرات حــادة، وبــدأت بعمل حركات المشعوذين بيديها وبنفخها في النار، حين اقترب ورأى ما تفعل، توقف قليلًا ثم اقترب بهدوء وقال:

- ماذا تفعلان هنا؟ أنت...أنت مشعوذة؟

- أجـل أنـا مشعوذة، أبحث عن الأعشاب والأرواح، هل أنـت روح شريرة أم من أنت؟

- لست روحًـا شريرة، أنـا من حـراس هـذه القرية، مـاذا تفعلان هنا، الأوامــر في القرية أن أقتل كل شخص غريب سواء رجل أم امرأة حتى لو كان طفلًا.

التصقت بحماتي أكثر، فقالت لي بصوتٍ خشنٍ:

- ما بك أيتها الحمقاء ابتعدي، ألا يكفي أنـك نقلت لي عـدوى مرضك، اجلسي بعيدةً عني.

ثم عادت للنظر إليه وقالت:

- هل ستقتل مشعوذة؟ أنت تعلم ما سيحصل معك إذا قتلتني.

صمت ولم يرد، تابعت قائلة:

- لا نريد دخـول قريتك، سوف نمضي الليلة هنا ونغادر في الصباح الباكر، نريد البحث عن الأعـشـاب في الجبال البعيدة هناك، بعيدًا عن قريتك، وكما تـرى أنا امــرأة كبيرة وهــي خادمتي وهــي مريضة، لا مصلحة لك بقتلنا سـوى جلب الحظ السيئ إن قمت بقتلي.

صمت قليلًا ثم قال:

- هل تقرأين الطالع؟

شعرت بالارتياح قليلًا، فأجابته حماتي:

- وهل تتركنا وشأننا إذا قرأت لك الطالع؟

- أجل، وأعطيك بعض الطعام.

- حسنًا، اجلس أمامي.

تربّع أمامها، وبــدأت برسم أشكال على الـرمـال، ثم بحثت عن بعض الحجارة الصغيرة، وبــدأت بصفها على الـرمـال، قالت له ما تـرى عبر الرمال والأحـجـار، نظر إليها بانبهار مصدقًا لكل ما تقول، كان يهز رأسه عند كل كلمة تقولها بأنها صحيحة، ثم سألها:

- هل سأعيش أم سيقتلونني؟

صمتت عند ذلك السؤال، ثم قالت:

- الحجارة لا تقول لي هـذا، تقول لي فقط عن الحب والحياة والمال، أما الموت فهي تصمت ربما لأنه موت ولا توجد به حياة، هذه الرمال والحجارة تتحدث عن الحياة لا عن الموت. ولكن يمكنني أن أجيبك دون قراءة الطالع.

نظر إليها بفضول أكبر من السابق، وقالت:

- إن بقيت مع تلك الجماعات تهجم على القرى وتقتل الأبـريـاء فمن المؤكد أنـك ستُقتل، ولكن فكر مـاذا ستفعل، هل تريد أن تقتل المزيد من الناس؟ أم أن تعيش بسلام في أي مكان على هذه الأرض؟

بدا عليه التفكير ثم قال:

- هل تأتين معي للقرية لتقرأي الطالع لزعيم القبيلة؟

- هـذه الـمـرة لا أستطيع، عندما أعـود مـن طريقي بجمع الأعـشـاب سـوف أمر بقريتكم وأقـرأ الطالع لـه، خادمتي هـذه تتألم بسبب التقرحات بوجهها، ولابـد أن أجـد العلاج لها سريعًا، كما إنني مصابة بنفس المرض وأخـاف أن تنتقل العدوى لزعيم قبيلتكم، حين أشفى وتشفى خادمتي سوف آتي لزيارتكم، ولا تنساني.

- لن أنساك، سوف أنتظر عودتك. خذي هذا الطعام والماء.

أعطاها صرّة صغيرة مملوءة بالخبز وقربة ماء كبيرة، ثم قال لنا:

- والآن يمكنكم النوم، سوف أحرسكم إلى الصباح.

- لا...لا داعــي، فأنا لا أنــام في الليل، أنــام في النهار فقط، اذهــب أنــت واحــرس قريتك إذا احتجنا لشيء سوف نبحث عنك ونطلب مساعدتك.

- حسنًا، اسمي مورو.

وبعد أن ذهب، قلت لحماتي باستغراب:

- وهل تعرفين فعلًا قراءة الطالع؟

- أجل، ولكنني لا أحب ذلك؛ لأن القدر قد يتغير ومن الحماقة أن ينتظر الإنسان أحــداث حياته من خــلال قــراءة الطالع، هــذا يجعل الناس حمقى ينظرون للغيب عبر الرسوم والخطوط.

- لماذا لم تقبلي أن يحرسنا، كان يمكننا أن نرتاح قليلا!

- أنــت الآن حمقاء فعلًا، هل تريدين أن تنامي ورجــل غريب بجانبنا؟! ثم ماذا لو نمت وسقط الــوشــاح عن وجهك ورأي كم أنــت جميلة، لن يأتي الصباح دون أن يحضر عشرات الرجال لاغتصابك، والآن هيا نامي وسوف أستمر بالحراسة.

نمت ولــم توقظني طــوال الليل، لقد بقيت مستيقظة وكأنها تعد النجوم طوال الليل، وحين أطل الصباح أيقظتني وقالت:

- هيا بسرعة، يجب أن نذهب، أخشى أن يحضر زعيم القبيلة ليقرأ الطالع، ولن أستطيع الكذب على زعيم القبيلة، سوف يعرف من لهجتنا من أي قرية أتينا، لأن الكبار في السن فقط يعرفون الفرق بين لهجات القرى ومن أين أتينا. هيا بسرعة.

انطلقنا مسرعتين بــاتــجــاه الــجــبــال، وخـــلال ســاعــة أو ساعتين اختفينا بين الأشــجــار والــصــخــور، وبـــدأت قــدمــاي تــؤلــمــانــي، وأصــبــحــت ركــبــة حماتي تؤلمها للمسافة الطويلة التي مشيناها، وبعد ساعتين بــدأت بعض الــدمــاء تسيل من قدمي، فالحذاء الــذي ألبسه لم يحتمل كل ذلك المسير، ولحسن الحظ أن حماتي كانت تلبس دائمًا أحذية خشنة وسميكة فقالت لي:

- كنت أنصحك دائــمًــا ألا تشتري تلك الأحــذيــة الملونة والخفيفة، ولكنك لم

تسمعي كلامي، اصبري قليلًا، نحن قريبتان من المدينة، هـذه آخـر ليلة ننام فيها في الجبل، غدًا صباحًا نسير لساعتين ونصل لبيت الدكتور، احتملي قليلًا.

كانت تلك آخـر ليلة ننام فيها بالعراء ولكنها كانت ليلة مرعبة، كانت تصلنا أصــوات ولكنها لـم تكن أصــوات الـذئـاب بـل الضباع، ثـم الحشرات كانت تنتشر في كل مكان، أشعلنا النار وبقينا مستيقظتين طـوال الليل لشدة الخوف، منعتني حماتي من الحديث كي لا يسمعنا أي شخص، وبقينا ملتصقتين ببعضنا البعض نستمع لصوت الضباع ونـدعـو ألّا يهاجمونا. وفـجـأة صرخت حماتي مـن الألـم، نظرت إليها بخوف فقالت وهي تئِن:

- أعتقد أن عقربًا ما قرصني، انظري حولي، لا أستطيع التركيز.

نظرتُ حولها وفعلًا كـان هناك عقرب أسـود كبير كـان يمشي بجانبها، نهضت بسرعة وقتلته بالعصا التي كانت معي، وضعت رأسها في حجري وقلت لها وأنا أبكي:

- ألا يوجد معك ترياق لسم العقرب؟

- لا، كنت قد وضعته مع أمتعتنا، ولكن حين هربنا لم أتمكن من العودة للبيت لأخـذه، اسمعي يا كامالي، سـوف أمـوت بعد وقـت قصير، سـوف تسيرين غـدًا بهذا الاتـجـاه، لا تذهبي يمينًا ولا يـسـارًا، سـوف تمشين ساعتين فقط، وتجدين شارعًا كبيرًا، هناك تكونين قـد وصلت لبداية المدينة وتسألين أي شخص عـن عنوان الدكتور، الجميع يعرفونه هناك...

بدأ صوتها يتقطع ولونها يتغير وجسدها يرتعش:

- قولي لتافارا إنني أحبه كثيرًا...

ازداد الألم وبدأت أنفاسها تتحشرج، ثم قالت:

- وأنــت أيـضــا..أنــت أيـضًـا كنت أحــبــك...اســمــعــي...إذا مـت اختبئي خلف الأشجار، ودعـي الضباع تأكل جثتي، إذا اقتربوا ويبدو أنهم كثيرون...كثيرو العدد... تسلقي إحـدى تلك الأشـجـار... حــذاري...حــذاري أن تركضي، سـوف يلحقون بـك...

أستطيع سماع أصـواتـهـم...أصـواتـهـم تقترب...هيا...هيا...بسرعة...تسلقي تلك الـشـجـرة...لا تـصـدري أي صـوت...فـي الـصـبـاح...فـي الصباح سـوف يختفون...ثم تنزلين من الشجرة وتركضين...تركضين باتجاه...المدينة.

قلت باكيةً:

- لا أستطيع أن أتركك...

قالت بصعوبة بالغة:

- قلت لك...قلت لك إنني سأموت بكل...بكل الأحـوال...اذهــبــي...لا تكوني... حمقاء. بسرعة..

تركتها مسرعة وتسلقت أعلى شجرة فـي تلك البقعة النائية، وخـلال دقائق، كانت قـد لفظت أنفاسها الأخـيـرة، وبعد دقـائـق قليلة أخـرى، أتـت مجموعة من الضباع، حامت حـول جثتها، مـرة ومرتين، ثم بـدأت بنهشها وأكـل لحمها، نظرت إليها مـن فـوق الشجرة وكتمت أنفاسي وأنـا أبـكـي، محاولةً ألّا أصـدر أي صوت حتى لا تنتبه لوجودي، كانت الدماء تغطي أفواهها، كانوا يقطعون جثتها بأنيابهم الـحـادة، وكـان المنظر فظيعًا، ولـولا تمسكي بأغصان الشجرة لسقطت على الأرض مُغمًى علي من ذلـك المنظر الفظيع، لقد كـان القتل بالسكين أو السيف أهون من رؤيـة نهش جثتها بتلك الطريقة، وهـي بطريقة أو بأخرى افتدتني عوضًا عن نفسها وحمتني طـوال تلك الرحلة، فلو لـم يلدغها ذلـك العقرب، لنهش الضباع جسدي وجسدها.

بقيت مستيقظة فـوق تلك الشجرة إلـى أن بـدأت خيوط الفجر تتسلل عبر أغصان الأشـجـار، وكانت الضباع قد أكلت كل جثتها حتى العظام فتتتها بأنيابها، فلم يبقَ مـن جسدها سـوى الـدمـاء المتناثرة بكل مـكـان، وريـشـة مـن الريشتين اللتين ربطت بهما شعرها. وبعد أن انتهت الضباع من التهامها، غـادرت جميعها واختفت خلف الأشجار، بقيت ساعة أخـرى في مكاني إلى أن تأكدت بأنه لم يبقَ أحد منها هناك.

نزلت عن الشجرة، وأخـذت الريشة التي بقيت على الأرض، والتي كانت كل ما تبقى منها، وحـذاءهـا الخشن، اضـطـررت لنزع حذائي الـذي تمزق، وأن ألبس حـذاءهـا بعد أن تقرّحت قـدمـاي، وانطلقت راكـضـةً بكل قوتي في الاتـجـاه الذي أخبرتني عنه، كـان من المستحيل أن أبقى في ذلـك المكان ليلة أخـرى، فهذا كان يعني موتي المحقق، وهـو مـوت فظيع وبشع، تابعت الركض طـوال ساعتين دون توقف، رغم الدماء التي تسيل من قدميَّ ورغـم الألـم والجوع والعطش، كان يجب أن أغادر هذا الجبل الرهيب المليء بالضباع العقارب والحشرات.

وبعد حوالي ساعتين كما أخبرتني، وجـدت نفسي على الطريق الواسع، ساعتئذٍ فقط بـدأت أمشي بـهـدوء، حين رأيـت بعض الـسـيـارات، وبعض الـمـارة، تذكرت فجأة عـنـوان الدكتور ساموني، فـمـددت يـدي برعب خـوفًـا مـن أن أكـون فقدته، فوجدته بمكانه؛ أشـرت لإحـدى السيارات التي تقل الـمـارة، توقفت السيارة وكان من فيها ينظرون لي باستغراب فمنظري كان مخيفًا، أعطيته العنوان دون أن أقول أي كلمة. نظرت عبر نافذة السيارة، لم يكن هناك قتال ولا مسلحون، ولكنني سمعت أحد الركاب يقول:

- لقد مر بعض المسلحين من هنا بالأمس، يبدو أنهم يتفحصون المكان.

قال السائق:

- أرجو ألا يدخلوا المدينة، فالجميع خائفون مما سيحصل.

سـاد الصمت من جديد، كانت رائحتي كريهة وكنت أرى ذلـك بعيون الركاب الذين حاولوا الابتعاد عني قدر الإمكان. وصلت السيارة لعنوان الدكتور، نزلت من السيارة وفتح الركاب الأبـواب والنوافذ بعد نزولي، ولـم أهتم، المهم أنني وصلت على قيد الحياة.

تافارا

أرسل لي الدكتور ساموني رسالةً مستعجلةً، يخبرني فيها بأن كامالي سوف تصل بعد أسبوعين، وأنها بحاجة لرعاية صحية لأنها سارت لمدة أربعة أيام بين الجبال، وأنه سوف يغادر المدينة بعد ثلاثة أسابيع فالوضع أصبح خطيرًا، وأنني يجب أن آخذ الحيطة والحذر في باريس. لم يكتب شيئًا عن أمي وأبي وإخوتي ولا عن الأستاذ باكو.

ازداد قلقي لحضور كامالي، وكان قرار أخذ إجازة من عملي قرارًا صائبًا، شعرت بالتوتر الشديد، وبعد أن اصطحبت الأولاد صباحًا لمعهد اللغة، ذهبت لبيت سيلفيا، لقد كنت بحاجة للحديث معها، فأفكاري مشوشة ولم أعد أستطيع أن أرى بوضوح ما الذي يجب القيام به.

قالت سيلفيا حين رأتني وهي تبتسم:

- من يراك بهذه الحالة لا يصدق بأنك سعيد لحضور أولادك، هل أنت حقًا سعيد لحضورهم؟

جلست بثقل على الأريكة، لم ابتسم وقلت لها:

- أجل، سعادة داخلية وقلق عميق.

- سوف أحضر القهوة ونتحدث، أنت بوضع سيئ فعلًا.

عادت بعد قليل وناولتني فنجان القهوة وجلست بجانبي، قلت قبل أن تتكلم:

- سيلفيا، هناك وضع صعب، من ناحية كامالي سوف تصل بعد أسبوعين، ثم هناك مشكلة الثأر مني ومن أولادي، أخاف أن يهاجمنا أي شخص ويقتلنا، لقد أقسموا على الانتقام لأن والدي قتل أشخاصًا منهم وأخي قتل أحد زعمائهم، لأول مرة أشعر بالخوف في باريس، يوجد أشخاص يعرفونهم هنا وينفذون أي أوامر دون أن يتركوا أي آثار وراءهم، إنهم مسلحون أو مقاتلون وكذلك عصابات لها أفراد تابعون لها بكل مكان.

صمتت وأخذت ملامحها تعبيرًا جديًّا يمتزج بالخوف:

- لا تخافي، لن أعرّضك للخطر، عمومًا لن تأتي لمنزلي بعد الآن، عمومًا أنت لن تستطيعي الحضور بسبب كامالي، أمـا الأولاد فسوف تتعرفين عليهم لاحقًا، لا مشكلة بذلك.

قالت ونظرة الذكاء المعتادة تلتمع بعينيها:

- لماذا لا تطلب تغيير اسمك واسـم أولادك وكذلك كامالي حين تأتي، هم لا يعرفون شكلك ولكن يعرفون اسمك، ويمكنك الانتقال للعمل في مدينة مرسيليا أو أي مدينة في الجنوب بعيدة عن باريس.

نظرت إليها بإعجاب وبدهشة وقلت:

- أنت بمنتهى الذكاء، لم أفكر بذلك.

- ولكن يجب أن تختار أسماء فرنسية.

- أجل، بالطبع، سوف أفعل ذلك.

أضافت وهي تهز رأسها:

- تبقى مشكلة زوجتك...فكيف ستتصرف معها إن أصرّت على الانفصال؟

شربت قهوتي ببطء وقلت لها ببرود:

- لقد فكّرت بذلك جيـدًا، لـن تـرى الأولاد، سـوف أقـول لها بأنهم قتلوا خلال ذهابهم للمدينة مع الأستاذ باكو.

نظرت لي بدهشة شديدة وقالت:

- مـاذا تقول! هل نسيت أن الدكتور ساموني الـذي ساعد الأولاد بالحضور إلى هنا ويساعدها الآن!

- أجل، سوف أخبرها بأنه لم يشأ أن يقول لها أنهم قُتلوا بسبب وضعها الصحي؛ لأنها كانت مريضة، وأنه فضل أن أخبرها أنا بنفسي بعد أن ترتاح في باريس.

بدا على وجهها الاستغراب وشيء من الخوف:

- ولكن، كيف تحرم الأولاد من والدتهم؟

- لا أحرمهم منها، حين أتأكد من أنه لا يوجد ما يهدد حياتهم، وأنها لن تطلب الانفصال سـوف أقـول لها الحقيقة، ويـعـودون للعيش معي ومعها، أمـا الآن فلا أحتمل أن يحصل أي خطر على الأولاد، أو أن تطلب الطلاق وترفض أن يعيشوا معي.

- ولكنك سوف تغير أسماءهم!

- لن يكفي تغيير أسمائهم، طالما أنهم يعيشون معي سـوف يبقون بخطر، أنا معروف في باريس، ولا أريـد أن أعيش بمدينة غير باريس، سوف أغير المستشفى التي أعمل فيها وأغـيـر عنواني والأسـمـاء، على الأقـل أضمن الحياة بـأمـان لبضع سـنـوات، هـؤلاء الأشـخـاص لا ينسون الـثـأر أبــدًا ولـو بعد عـشـرات الـسـنـوات، ولن أضع أولادي تحت هذا التهديد.

- ولكن والدتهم لن تحتمل هذا...

- لا يهمني، صحيح أنها امـرأة أفريقية بسيطة ولكنها صعبة الـمـراس وعنيدة، ولن ترضى أبــدًا بأن يكون أولادهــا بعيدين عنها خصوصًا وهي تعتبر بأنها هي من ربتهم وهي أحق بأن يكونوا معها، وهذا سبب ثانٍ يدفعني لأن أنفذ ما فكرت به.

- ولكن، أين سيعيش الأولاد، وماذا ستخبرهم عن والدتهم؟

- سـوف أخبرهم بأنها قُتلت بعد هروبها مـن الـقـريـة، أمـا أيــن سيعيشون؟، فسوف يلتحقون بمدرسة داخلية ويحصلون على تعليم ممتاز.

أشاحت بوجهها وقالت ببرود:

- ولكن هـذا ليس سهلًا بالنسبة لهما، أنـت تحرمهما من والدتهما ولـن يعيشوا معك.

- هـذا أسهل من أن يتم قتلهما، أو أن تأخذهما كامالي ليعيشا معها وأصبح

مجرد زائر في حياتهما، سوف يقضون عطلة نهاية كل أسبوع معي.

- ولكن زوجتك سوف تكون في البيت، كيف ستقضيها معهما؟

- سوف أستأجر بيتًا صغيرًا أجتمع فيه مع الأولاد في نهاية الأسبوع ويمكنك الانضمام إلينا متى تشائين، وسوف أخبر كامالي بأنني أعمل في المستشفى أو بزيارة أحد المرضى.

نظرت لي نظرة متأملة وقالت:

- أنت فكرت بكل التفاصيل، كأنك تُجري عملية جراحية دقيقة.

ضحكت وأجبتها:

- أجل، الجراحة علمتني كيف أتقن استعمال المبضع وأكون دقيقًا بكل التفاصيل، هذا أكيد، ثم هناك الحدس الأفريقي الذي أحمله بدمي، وإحساسي الدقيق بالخطر.

تناولت قهوتها ببطء وقالت مبتسمة:

- لماذا تستأجر بيتًا آخر، يمكنك إحضارهم هنا في نهاية كل أسبوع، أنت تعلم بأنني أسافر لزيارة والدتي في مرسيليا في أغلب أوقات العطل، وأحيانًا كثيرة بنهاية الأسبوع لأني أعشق البحر وأحب دفء الجنوب، يمكنك الحضور معهم إلى هنا، لن يكون أحد هنا، وحتى لو اجتمعنا هنا سوف يكون ذلك ممتعًا بالنسبة لي، ويمكننا الذهاب معًا لمرسيليا في بعض الأوقات. ما رأيك؟

فكرت قليلًا ثم قلت لها:

- ولكن ألن يكون هذا مزعجًا بالنسبة لك؟

ضحكت وقالت:

- لا أبدًا، على العكس، أنت تعلم بأنني كنت الطفلة الوحيدة لأمي، وأبي تركنا منذ كنت صغيرة، حتى أنني لا أعرفه تربيت دون إخوة، فقط أنا وأمي، كنت دائمًا أشعر بالحزن والغيرة حين أرى العائلات مجتمعة معًا تضحك وتأكل أو حين يلعب

الآباء مع الأبناء، لذلك أحب فكرة وجودهما هنا وأنت أيضًا.

- ولكن كان بإمكانك الزواج وتأسيس عائلة خاصة بك!

- ربما، ولكني لا أحب فكرة الزواج، فتَرْكُ أبي لأمي وما أراه من فشل الزواج لصديقات لي جعلني لا أحب هذه الفكرة، ولا أريد الإنجاب، أريد أن أكرّس وقتي للعمل وأنت تعلم بأنه لا يوجد ما يكفي من الوقت لدي. لذلك سوف نتقابل جميعنا هنا ونكون تلك العائلة التي كنت أحلم بها.

وضعت يدي حول كتفيها واحتضنتها قائلًا:

- أنت رائعة، وهذه فكرة جيدة فعلًا. لابد أن تتعرفي عليهما، هيا معي سنذهب الآن لإحضارهما من معهد اللغة ثم نتناول طعام الغداء معًا.

وقفت بجانبي بانتظار خروجهما من المعهد، خرجا معًا، يمشيان بهدوء وينظران بعيون لامعة لكل ما حولهما بدهشة وبسعادة، طويلا القامة وجميلا المظهر، قالت لي وهي تبتسم:

- كم هما وسيمان، وعيونهما رائعة الجمال.

ضحكت وشعرت بالفخر وقلت لها:

- الآن تفهمين لماذا لن أجازف بأن أخسرهما.

- أعتقد ذلك.

قدمتهما لسيلفيا، تاكي وسيمو، وجلسنا لتناول الطعام، قالت سيلفيا وطلبت عدم ترجمة سؤالها:

- ما الأسماء التي ستختارها لهما؟

- لن أختار الأسماء بل أنت من سيختارها.

ضحكت بمرح وقالت:

- أجل، أوافق، فهما غاية في الروعة سيكون اسمهما رولاند وميشيل، ما رأيك؟

- واسمي، هل نسيت اسمي؟

- أنت فرانسوا.

نظر تاكي وسيمو لنا ونحن نتحدث بالفرنسية وقبل أن يشعرا بالضيق قلت لهما:

- تاكي، سيمو، كنت أتحدث مع سيلفي أننا يجب أن نغير أسماءكما، واسمي أيضًا.

نظرا إلينا باستغراب وقال تاكي:

- لماذا؟ أنا أحب اسمي واسم سيمو.

لم أرغب بإثارة الخوف لديهما، فقلت بلطافة شديدة:

- أنتم الآن تعيشون في فرنسا، ومن الأفضل أن تكون أسماؤكما أسماء فرنسية، سوف تندمجون بشكل أفضل في المجتمع.

قال سيمو ببراءة:

- ولكن هل غيَّرت اسمك حين وصلت هنا؟

- لا، لم يكن لـدي الوقت، أمـا الآن فسوف نغير أسماءنا جميعًا بنفس الوقت، تاكي سيكون اسمك رولاند، وأنت يا سيمو ميشيل.

قال تاكي بتذمر:

- لا أحب هذا الاسم.

ضحك سيمو وقال:

- أنا أحب اسم ميشيل، أفضل من سيمو، فاسمي يبدو كأنه اسم قطة صغيرة.

ضحكنا جميعًا واقتربت سيلفيا مني وقالت هامسة:

- معك حق، لا يمكن التفريط أبدًا بهما، إنهما أكثر من رائعين.

وفـي المساء بعد عودتنا للبيت جلست معهما وكـان لابـد من مواجهة اللحظة

الصعبة وإخبارهما بـأن والدتهما قُتلت، جلسنا معًا على الكنبة الكبيرة، وقلت لهما بصوتٍ حزينٍ:

- تاكي، سيمو، هناك خبر سيئ لابد أن تعرفاه.

تغيرت ملامح وجههما وقالا بنفس الوقت:

- أمي!

أجبت بحزن أكبر وقلت:

- أجل، لقد قتلها أولئك المجرمون، وقتلوا أغلب أهل القرية وأحرقوا البيوت...

لم أتابع كلامي بسبب بكائهما الشديد وندائهما:

- أمي...أمي...

كأنها تقف خلف البـاب وينتظران قـدومهـا، وضعا رأسهما على صــدري ولم يتوقفا عن البكاء، وشعرت بالألم الشديد لأجلهما ولكن كـان لابـد من عمل ذلك، لابـد من حمايتهما، وألا يكون هناك مكان للمشاعر، كـان لابـد لمبضع الـجـراح أن يذهب عميقًا في الجرح المفتوح لأنقذ حياتهما.

وفـي اليوم التالي طلبت من سيلفيا الحضور، لأنهما كانا بحالة بكاء وحـزن لا أستطيع أن أفعل لهما شيئًا، أتت سيلفيا بسرعة وقالت وترجمت لهما كلماتها:

- أعـرف أنه ليس من السهل فقدُ الأم، لقد فقدتُ أبي وأنـا صغيرة، ولكن أحيانًا الحياة تكون هكذا، يموت الأب أو الأم ولكن الحياة تستمر، وأنتما شابان صغيران والمستقبل أمامكما، لقد مـات نـاس كثر في قريتكما وأنتما استطعتما النجاة. ما رأيكما أن نذهب لمدينة الملاهي؟

نظرا إليها من بين الدموع وقالا:

- ما هي مدينة الملاهي؟

- إنها مكان ضخم فيه ألعاب كثيرة اسمها مدينة ديزني لاند للألعاب.

قال تاكي باكيًا:

- لا أريد الذهاب.

وقال سيمو وهو يمسح دموعه:

- هل نذهب الآن؟

- أجل على الفور، وأنت يا تاكي لن تلعب ستجلس مع والدك وأنا ألعب مع سيمو.

صمت قليلًا ثم هز رأسه بالموافقة. وحين دخلوا للمدينة نظروا لكل تلك الألعاب والأشكال والأطفال الذي يركضون ويركبون على تلك الماكينات الضخمة، وتلك الماكينات التي تدور والتي تتقلب في الهواء، نسى تاكي تردده، وركض وراء سيمو ليركبوا بالألعاب الواحدة تلو الأخرى، نظرت إلى سيلفيا بامتنان، قالت وهي تضحك:

- كانت أمي كلما شعرت بالحزن تأخذني على الفور لمدينة الملاهي فأنسى حزني، مرحبا بك بعالم الأطفال.

وفي المساء عدنا للبيت وكانا متعبين، فناما على الفور، جلست للحديث مع سيلفيا وقلت لها:

- سوف تصل كامالي بعد أسبوعين، ولم أخبر الأولاد بعد بأنهم سيذهبون للمدرسة الداخلية بعد شهر، سوف يكون ذلك صعبًا عليهم بعد أن قلت لهم أن والدتهم ماتت. هل بإمكانهم البقاء في بيتك لمدة إلى أن يلتحقوا بمدرستهم، ثم يكون لدي ما يكفي من الوقت لإخبارهم بعد تجاوز أزمة موت والدتهم.

- أجل، بالطبع، سوف أعتني بهما، وهما يستطيعان الاعتماد على نفسيهما خلال فترة غيابي في المستشفى. لا تقلق، متى شئت أحضرهم لهنا وأحضر أغراضهم.

بقيتُ مع الأولاد ليومين في البيت إلى أن هدأوا قليلًا، وبدأوا بتقبل فكرة موت

والدتهم، رغم استيقاظهم في الليل ينادون والدتهم ويبكون، فأجلس معهم بغرفة النوم أخفف عنهم وأتحدث معهم إلى أن يعودوا للنوم من جديد، كانت فترة صعبة جـدًا وكـان يجب أن ألغي أي شعور بالذنب بسبب الألـم الـذي سببته لهم، ولكنني كنت أحميهم من خطر يهدد حياتهم، وكنت أدرك بأنه الحل الأفضل لمستقبلهم، فسوف يتعلمون بمدرسة جيدة ويتقنون عدة لغات ويكون لهم مستقبل ممتاز.

في النهار كنت أستطيع أن أجعلهما ينسيان والدتهما، فنخرج سويًا للتسوق، ولأمـاكـن الألـعـاب، نتمشى فـي الحديقة العامة ترافقنا سيلفيا، ولكن الليل كان صعبًا جـدًا، لأنهم يفتقدون والدتهم قبل الـنـوم، لقد كانوا معتادين على سماع القصص التي تقرأها لهم والأغاني التي كانت تغنيها لهم.

قبل وصـول كامالي ببضعة أيـام أخبرتهم بأننا يجب أن ننتقل للعيش لمدة شهر في بيت سيلفيا، لأنني أبحث عن بيت جديد ولابـد من تـرك البيت الحالي لأنـه لم يعد مناسبًا لنا، توقعت ألا تعجبهم فكرة الـذهـاب لبيت سيلفيا، ولكن تفاجأت بأنهما أحبا الفكرة ورغبا بالذهاب لبيت سيلفيا، وكـان ذلك مبعث ارتياح بالنسبة لي. جمعنا الأغراض المتعلقة بهما وقبل أن نغادر البيت قال تاكي فجأة:

- أبي، أنت لم تحضر أغراضك؟

شعرت بالارتباك فلقد نسيت ذلك وقلت له:

- ســوف أبـقـى هـنـاك لبعض الـوقـت، هـنـاك أمــور يجب أن أحلها مـع صاحب البيت ثم آتي لبيت سيلفيا.

استقبلتهم سيلفيا بـسـعـادة، وقـد جهزت غرفة نـوم جميلة لهما بها ألعاب ورســومــات جميلة على الـحـائـط، وشـراشــف قطنية ناعمة ومـلـونـة لأسـرّتـهـم، ووضعت قـطـارًا طويلًا في غرفة النوم كي يلعبوا بـه، بـدت السعادة واضحة على وجهيهما لدى رؤيـة غرفة النوم الجميلة، وجلسا على الفور يلعبان بالقطار الخشبي الملون. أخبرت سيلفيا أنهم قد يستيقظون في الليل وربما يبكون، قالت بهدوء:

- لا تقلق، لقد أحـضـرت ضـوءً جميلًا سـوف يجعلهم ينسون، وهـنـاك قصص

ملونة وفيها رسـومـات رائـعـة، وكذلك وضعت صندوق موسيقى صغيرًا لكل منهما يستمعان إليه قبل النوم.

- أنت رائعة فعلًا، لا أدري ماذا كنت سأفعل دون مساعدتك.

ضحكت وقالت:

- هيا، أريد أن أراهما وهما يلعبان بالقطار.

وفي اليوم التالي اتصلت بي سيلفيا في الصباح:

- سـوف تكون سعيدًا بهذه الأخـبـار، استيقظوا في الليل، ثم أشعلت لهم ذلك الـضـوء الـذي يعكس صـور نجوم لامعة على سقف الـغـرفـة، ثـم أمسك كـل منهم بصندوق الموسيقى الـخـاص بـه، ونـظـروا باستغراب لتلك الدمية الصغيرة التي ترقص على نغمات الموسيقى، وخـلال قليل من الوقت ناما بهدوء ولـم يستيقظا إلـى أن أشرقت الشمس، ونحن الآن نتناول طعام الإفـطـار سـوف أرافقهما لمعهد اللغة ثم أذهب للمستشفى، هل انتهت الإجازة التي طلبتها؟

- أشكرك كثيرًا يا سيلفيا، إجازتي تنتهي بعد يومين، وهـذا جيد لأنتهي من بقية الإجراءات التي لابد من القيام بها، سنلتقي ظهرًا نتناول الغداء معًا. إلى اللقاء.

وهـكـذا استطاعت سيلفيا أن تخفف عـن الأولاد صدمة مـوت والدتهما، وأن تجعلهما يعيشان حياة أطفال فرنسيين عادية وممتعة، مما سمح لي بالانتهاء من جميع التحضيرات قبل وصـول كامالي. انتقلت لشقة جديدة قريبة من المستشفى الـذي كنت أعمل به، وبـدأت بـإجـراءات تغيير الأسماء التي كانت ستأخذ بعضًا من الـوقـت. ووصلتني رسـالـة مـن الدكتور ساموني يخبرني بها بمقتل الأسـتـاذ باكو، فأرسلت له على وجـه السرعة بـأن لا يخبر أحـدًا أن الأولاد وصلوا إلـى باريس، وأن يقول أنـه لا يعرف عنهم شيئًا، وشرحت له الأسـبـاب التي تدفعني لذلك، أجابني بتلغراف مستعجل بكلمات قليلة: (معك حق فالوضع أصبح خطيرًا، ولم يبقَ أحد في القرية، القرية أصبحت مهجورة وتـم حـرق البيوت التي فيها، وللأسف تم قتل إخوتك غابينو وجامي ووالــدك، أمـا والـدتـك فلا أعـرف عنها شيئًا، قتلوا الجميع،

كامالي كانت بحالة صعبة، أغلب الـوقـت غائبة عـن الـوعـي، ولحسن الحظ لم يكن هناك مجال للحديث عن الأولاد أو عن أي شـيء آخـر بسبب الحالة السيئة التي كانت فيها، سـوف تصل بعد يومين كما أخبرتك سابقًا وأنـت تخبرها بشأن الأولاد، سوف أغـادر مع زوجتي لأمريكا بعد بضعة أيـام وأكـرر القول لك بأن تحذر، مع تحياتي).

وفـي الموعد المحدد، وقفت من جديد في المطار أنتظر كامالي، كنت أشعر بالتوتر الشديد كأنني أقابل شخصًا لم أعرفه من قبل، زوجـة لم أرَهـا منذ عشر سـنـوات، اختلطت كـل المشاعر بداخلي وكـل الـذكـريـات، وازداد تشوش أفكاري بأنها سوف تسأل عن الأولاد وكان يجب أن أحضّر الكلام الذي سأقوله لها.

كامالي

مكثتُ في بيت الطبيب ساموني لأسبوعين، أصابتني حمى شديدة، لم أكن أستطيع النوم في الليل بسبب الكوابيس التي كنت أراها، رجال مقتولون وجرحى والدماء تغطي كل شيء، ثم حماتي التي نهشتها الضباع، وأولادي ثم تافارا، كل الصور اختلطت ببعضها وامتزجت مع وجوه مخيفة وخوفٍ رهيب. بقيت زوجة الدكتور ساموني تعتني بي إلى أن تحسنت حالتي وبدأت باسترجاع عافيتي، وخفّت تلك الكوابيس لكنها لم تذهب بشكل كامل. وبعد تسعة أيام من المرض والحمى، وحين تحسّنت حالتي أخبرني الدكتور ساموني بأن جواز سفري جاهز، ولابد من أن نذهب لاستلامه، ثم سنحصل على الفيزا لفرنسا بسرعة بسبب الوضع الأمني، ولأن الدكتور ساموني لديه علاقات جيدة مع السفارة، تفهموا الوضع وأنني لابد أن ألحق بزوجي وأولادي بأسرع ما يمكن، ثم أسافر خلال خمسة أيام فالوضع يتدهور وسوف يغادر هو وزوجته بعدي لأمريكا، ولن يعودا إلى أفريقيا، ثم سألته عن الأولاد حين أصبحت استطيع الحديث، فقال لي إن تافارا سوف يخبرني بكل شيء حين أصل لباريس، استغربت من إجابته ولكني لم أستطع متابعة السؤال فقد غير الموضوع على الفور، وفهمت أنه لا يريد الحديث عن ذلك وانتابني ذلك الشعور السيئ من جديد، ولكنني كتمت مخاوفي ورغبتي بالإلحاح بالسؤال؛ فهما ليسا صديقين لي وكنت أرغب بمغادرة منزلهما بأسرع وقت لما سببته لهما من إرباك، بسبب وضعي الصحي الذي استمر لعدة أيام، فصمت انتظارًا لوصولي إلى باريس لأعرف كل شيء من تافارا.

وقـف الدكتور ساموني وزوجته في المطار لتوديعي، سلمت أمتعتي وتوجهت لختم الجواز كما قال لي، ثم لوّحت لهما من بعيد وكانت تلك آخر مرة أراهما فيها، وسـرت بين المسافرين وتابعت الإجـراءات التي قالاها لي بدقة. بعد تناول الطعام في الطائرة، شعرت بنعاسٍ شديدٍ، لم أكن أشعر بالتشوق لرؤية تافارا، كل ما كنت أريـده هو رؤيـة أولادي، حتى أنني لم أهتم لوجودي في الطائرة لأول مـرة، لم يكن هناك أي شيء يثير حماسي أو اهتمامي سوى رؤيـة أولادي، ولـولا أنهم في باريس لما سافرت، ولفضلت البقاء في قريتي حتى ولو أدى ذلك لموتي.

غرقت في نـومٍ عميقٍ، ولـم انتبه لوصول الطائرة، أيقظتني السيدة التي كانت تجلس بقربي، نهضت مـن مكاني وأخــذت حقيبتي الصغيرة، وســرت خلف بقية المسافرين المغادرين للطائرة، واتبعت كل التفاصيل التي علمني إياها الدكتور ساموني، إلـى أن وصلت إلـى نقطة في المطار لم أعـد أعـرف أيـن سأذهب، وقفت أشعر بالضياع وبــدأت بالبكاء كطفلة صغيرة، انتبهت لي موظفة ما تجلس خلف إحــدى تلك الـطـاولات الكثيرة المنتشرة في المطار، توجهت نحوي، لم أعـرف ماذا أقـول لها، فناولتها تذكرتي، ابتسمت وطلبت مني اللحاق بها، بقيت معي إلـى أن وجـدت حقيبتي وتم ختم جـواز سفري، مشيت خلفها وأدركـت أنني فعلًا في فرنسا، وبــدأت أنتبه لما يـدور حولي، كأنني كنت في غفوة طويلة رغـم كوني مستيقظة، الآن فقط بـدأت أنتبه للمكان الـذي وجـدت نفسي فيه، رأيـت تلك الأعـداد الضخمة من البشر من كل الأشكال والألــوان يسيرون بهدوء أو يركضون، يجلسون يتناولون الطعام، أو يتسوقون بتلك المحلات الفخمة المليئة بـالأضـواء، ثـم ذلـك الصوت الـذي يأتي من مكانٍ ما صوت امـرأة تتكلم ولا أفهم ما تقول، ولكني أسمع صوتها في كل مكان، عالم غريب لا أفهم منه شيئًا ولكنه جـذاب ويخطف البصر والتفكير، لبعض الوقت نسيت أولادي وتـافـارا وكـل شــيء، كنت أنظر لهذا العالم الغريب الساحر وأمشي وراءهــا بصمتٍ مُطبقٍ، لقد رأيـت بعض الصور لباريس ولكن ما أراه الآن شــيء آخـر يختلف عن الصور، حتى الرائحة تبدو منعشة، ففي بعض الأماكن توجد رائحة القهوة، وبأماكن أخـرى رائحة الطعام، ثم رائحة العطور والمحلات المليئة بملابس جميلة ويبدو أنها غالية الثمن تخطف الأبصار وتجعل أي إنسان يرغب بشرائها.

اقتربنا من ذلك الباب الزجاجي الضخم، ووقفت أمامي مبتسمة، أشـارت لي بأن أخـرج من ذلك الباب الزجاجي، لم أكن أعـرف كيف أشكرها وبـأي كلمات فابتسمت وأشــرت لها بيدي، وتوجهت نحو ذلـك الـبـاب، وقبل أن أصـل فُتح أمامي بطريقة سحرية، فركضت مسرعة قبل أن يُغلق ولا أستطيع الـمـرور، حين أصبحت على الـطـرف الآخـر مـن الـبـاب تنفست الـصـعـداء، وضعت حقيبتي على الأرض ونظرت حولي باحثة عن تافارا. بالطبع لن يكون هناك أحد بانتظاري سوى تافارا وإذا لم

أجـده هـذا يعني أنني ضائعة في بـاريـس؛ حملت حقيبتي بعيدًا عن المسافرين الذين يمرون عبر ذلـك الباب الضخم. وقفت عند زاويــة ما قريبة من ذلـك الباب، أبحث من جديد عن وجـه أفريقي أســود، مر العديد من تلك الوجوه لكن لم يكن بينهم تـافـارا، شعرت بالخوف، وحبست الـدمـوع بعيوني، فربما لن يحضر مثلما لم يحضر لعشر سنوات من قبل، ربما أخـذ الأولاد ولا يريدني أن أكـون معهم... ربما...ربما.

وفـي خضم تلك الربما، ودمـوعـي التي لم أعـد استطيع حبسها، شممت رائحة زكية كأنها رائحة زهــور أو عطر ما لم أشمه من قبل، نظرت خلفي لأرى من أين أتـت تلك الرائحة الفواحة، لقد كـان تـافـارا، يقف خلفي ويتأملني، وقفت بـدوري دون أن أتحرك من مكاني أنظر إليه وأرى التغيير الكبير الذي طرأ عليه، لو لم يقف خلفي وينظر لي بتلك الطريقة وكـان مـارًا بمكانٍ ما لم أكن لأعرفه، لقد قص شعره بطريقة جميلة ووجـهـه أصبح أكثر نعومةً ولمعانًا، ثيابه أنيقة وجميلة ويبدو أنها غالية الثمن، ورائـحـة العطر تلك التي كانت تفوح منه، رجـل وسيم جميل تحلم كل امـرأة أن تكون زوجته، لقد كنت زوجته ولكنني لم أشعر بأنني حقًا تلك الزوجة، لم أقترب منه وشعرت بالخجل بسبب مظهره مقارنة مع ملابسي الملونة والرخيصة وشـعـرى الملفوف خلف رأســي دون عناية، ثـم تلك الـهـالات الـسـوداء حول عيوني، والدموع التي ملأتها، وحقيبتي رخيصة الثمن والتي لم يكن بها سوى بعض الملابس. كل ما بيننا كـان يفصلنا عن بعض مسافات طويلة، لم أجـرؤ حتى على الاقـتـراب منه، لم أجـرؤ على مد يـدي لمصافحته، وقفت هناك غريبة وفقيرة وبعيدة عنه أشد البعد، ومما زاد الوضع سـوءًا هو نظرته تلك التي تحمل شيئًا من النفور أو الاستغراب كأنه يرى مخلوقًا آتيًا من كوكبٍ غريبٍ، وبعد لحظات تدارك نفسه وقال وهو يبتسم وأسنانه الجميلة البيضاء تزيد من وسامته وجاذبيته:

- كامالي، أهلًا وسهلًا في باريس. أنت جميلة كالعادة.

كنت أريــد أن أقــول له إنــه يكذب ولكني صمتُّ ومــددت يـدي لمصافحته، لم يصافحني بل مد ذراعيه لاحتضاني وقال:

- الزوج لا يصافح زوجته بعد كل هذا الغياب بل يحضنها ويقبلها.

قلت بحرج شديد وهو يقبلني:

- أجل، أجل بالتأكيد.

سألته على الفور:

- أين الأولاد؟

حمل حقيبتي وقـال بلطافة، سوف أخبرك بعد قليل سوف نذهب لشرب القهوة معًا ثم نذهب للبيت بسيارتي. هيا بنا.

جلسنا في إحـدى تلك المقاهي الجميلة بطاولاتها الأنيقة، والكراسي الفضية اللامعة، وتلك الأضـواء المعلقة على السقف التي تجعل كـل شـيء يبدو مشرقًا ومليئًا بالنضارة والحيوية، كـان تـافـارا تحت تلك الأضـواء يبدو أجمل رجـل رأيته في حياتي، حتى النساء حين كنا نمشي كـنَّ ينظرن إليه، وكلما رأيـت إعجابهن به شعرت بابتعادي أكثر عنه.

جلسنا نشرب القهوة، لقد كانت قهوة مـرة ليست مثل القهوة التي أحضرها في البيت، لكنني كنت بحاجة لشربها لأستجمع تشتتي النفسي والعاطفي، لم ألفظ كلمة واحدة وعدت لسؤاله:

- أين الأولاد؟

ابتسم وتعبير مصطنع من اللوم يبدو على وجهه:

- ألا تسألين عني قبل الأولاد؟ ألست سعيدة برؤيتي؟!

أجبت بارتباك واضح:

- بلى، بلى سعيدة أكيد، كيف أنت، كيف عملك؟

- أنـا بخير وعملي ممتاز، أصبحت مسؤول قسم الجراحة في مستشفى كبير في باريس، الحياة أعطتني فرصة كبيرة فعلًا.

أجبرت نفسي على الابتسام، وشعور بالقلق يراودني بسبب الأولاد لأنه لم يحضرهم معه فقلت له من جديد:

- هذا جيد فعلًا، والآن أين الأولاد؟ لماذا لم يحضروا معك لاستقبالي؟

- كامالي، هناك موضوع يتعلق بالأولاد سوف نتحدث عنه في البيت.

شعرت بشكل أكبر بالتوتر والقلق وكدت أصرخ ولكنني تماسكت وقلت له بتوتر:

- لقد كنت مريضة لتسعة أيام، لا أريد أن أفقد أعصابي هنا، ماذا حصل مع الأولاد؟

- كامالي، هنا لا صراخ ولا عصبية، الجميع هنا يحلون أمورهم بهدوء كما ترين من حولك، انتظري إلى أن نعود للبيت.

- لن أنتظر إن لم تخبرني سوف أصرخ ولن يهمني أي أحد.

تناول مفاتيحه التي كانت على المائدة وقال لي:

- حسنًا، على الأقل لنذهب للحديث في السيارة، لا أريد أن ينظر لنا الناس أكثر، فأنت تلفتين نظرهم بملامحك المرتعبة هذه ورغبتك بالصراخ. هيا بنا.

لم أسِر بجانبه، وسرت خلفه، لم أكن أريد أن أمشي بجانبه فالنفور منه جعلني أكره حتى رؤية ظله يجاور ظلي، سرت خلفه بصمت والقلق ينهش قلبي، إلى أن وصلنا إلى السيارة الفخمة التي كانت تقف في مكانٍ ما خارج المطار، فتح لي الباب، وجلسنا معًا في السيارة بعد أن أغلق النوافذ، نظر لعيوني مباشرة وقال:

- كامالي، الأولاد لم يصلوا لباريس، لقد قُتلوا على الطريق مع الأستاذ باكو، لم يجدوا جثثهم لأنهم قتلوا في مكان بعيد عن المكان الذي قتل فيه الأستاذ باكو.

نظرت إليه للحظات كأنه يتحدث مع شخص آخر، أو كأنه يقول إن من قُتل أشخاص لا أعرفهم، وحين بدأت أدرك ما يقول وأستوعبه، بدأت بالصراخ ولطم وجهي وصرخت بوجهه قائلة:

- لماذا لم تخبرني من قبل، لماذا لم يخبرني أحد، لماذا لم يقُل لي ذلك الدكتور ساموني. لماذا؟

وبدأت بالبكاء والتشنج وأنا جالسة بجواره في السيارة، قال لي محاولًا تهدئتي:

- الأستـاذ ساموني لـم يخبرك لأنـك كنت مريضة، وطلب مني أن أخبـرك أنا فذلك صعب عليه.

لم أتوقف عن البكاء ثم صرخت بوجهه:

- أنت السبب لو أنك لم تتركنا طوال تلك السنوات، أنت السبب..

- لـمـاذا أنـا الـسـبـب، كنت سأحضر فـي هـذا الصيف لاصطحابكم، المعارك والانـقـلاب هما السبب ولست أنـا، ثـم إنهم أولادي أيـضًـا ولقد انـهـرت وتألمت لمقتلهما، لقد بكيت ليالي طويلة وأخـذت مهدئات لفترة طويلة لأتـجـاوز مأساة فقدهما، أرجوك لا تجعلي الأمور أصعب بالنسبة لي.

تناولي هـذه الحبة سـوف تجعلك تهدئين قليلًا ونتحدث فـي البيت، أصبح الناس ينظرون لنا، سـوف يتصلون بالشرطة معتقدين أنني أفعل شيئًا سيئًا لك، هنا ليس مثل أفريقيا، هنا أي أحد يرى شيئًا غير طبيعي يتصل بالشرطة.

لم أكن أهتم بما يقوله وتابعت صراخي وبكائي، لم يتكلم بعدها وأسرع بمغادرة المكان بسبب نـظـرات الـنـاس، سـارت الـسـيـارة بنا بسرعة كبيرة، أمسكت تلك الحبة البيضاء التي أعطاها لي ووضعتها بفمي وكـان قد أحضر زجاجة فيها ماء كأنه كـان يعرف ما سيحصل، شربت تلك الحبة وخـلال دقائق ذهبت بنومٍ عميقٍ. أيقظني حين وصلنا لبناية مـا، ولا أزال أشعر بالنعاس الشديد، مشيت بصعوبة إلـى أن وصلنا للبيت، فتح الـبـاب وقـادنـي إلـى غرفة نـوم كبيرة، استلقيت على الفراش وعدت للنوم من جديد، دون أن أدري أين أنا ولا أنظر لشيء مما حولي.

تافارا

لمحت كامالي من بعيد تخرج من بوابة القادمين، لم أذهب مسرعًا للقائها، كنت بحاجة لرؤيتها من بعيد لأرى أي إنسان أصبحت، هل هي نفس كامالي التي أحببتها منذ سنوات؟ أم امرأة أخرى تغيرت قليلًا أو كثيرًا؟ تفاجأت بالتغيير الذي طرأ عليها، لم تعد تلك الفتاة الرشيقة التي أحببتها فيما مضى أصبحت ممتلئة الجسم، متعبة الوجه، وملابسها بسيطة مليئة بالدوائر الملونة، أما شعرها فمربوط للخلف دون عناية، كانت الصدمة كبيرة بالنسبة لي، اختفيت خلف أحد الأعمدة في المطار لأراقبها من جديد، وأستطيع استيعاب الصدمة دون أن ترى ملامح وجهي المتفاجئة لرؤيتها بتلك الصورة؛ مكثت بضع دقائق أنظر إليها وهي تقف بزاوية قريبة من الباب الذي خرجت منه، بدت هادئة في البداية ثم تغيرت ملامحها، لم تعد تستطيع أن تخفي القلق والتوتر وربما الخوف الذي انتابها، لم أستطع بعدُ الذهاب لمقابلتها، كنت بحاجة للمزيد من الدقائق لأتمالك نفسي وأحضّر كلماتي، فها هي زوجتي ولكنها إنسان غريب تمامًا عني، ولا أحب حتى مظهرها. وبعد مراقبتي لها لبضع دقائق، بدأت بالبكاء والنظر حولها كطفلة تائهة وبقية المسافرين ينظرون إليها، مشيت مسرعًا باتجاهها، وقفت قليلًا خلفها أرتب الكلمات وأحاول تهدئة مشاعري المضطربة، ثم ناديتها:

- كامالي..

التفتت بسرعة كأن هناك من أتى لإنقاذها، ولحسن الحظ لم تسرع لتلقي بنفسها بين ذراعي، وقفت دون أن تتحرك نحوي، أعتقد أنها شعرت أيضًا أنني غريب عنها، تقدمت نحوها، فمدت يدها لمصافحتي، أجبرت نفسي على الاقتراب منها واحتضانها وتقبيلها، لقد كانت أكثر صدقًا مني بمشاعرها، فلم تحتضني ولم تقبلني، وقفت جامدة والبرود يعتريها، سألتني على الفور عن الأولاد؛ أجلت الإجابة إلى حين العودة للبيت، جلسنا لشرب القهوة وأصرت على المعرفة أين الأولاد، لم أرغب بإخبارها بأنهم قُتلوا أو بالأحرى بأن أكذب عليها بأنهم قُتلوا في المطار، لم أكن أريد أن تتصرف بصورة غير متوقعة أمام المسافرين، ولكنها

أصـرت على أن تعرف وفكرت أنه من الأفضل أن أقـول هنا، على الأقـل ربما ستشعر بالحرج من إظهار مشاعرها أمـام الـنـاس؛ ولكن توقعي لم يكن بمحله لقد بدأت بالبكاء والـصـراخ، ذهبنا بسرعة للسيارة وأعطيتها حبة مهدئة كنت قد أحضرتها معي احتياطًا لأي ظـرف طـارئ. وخـلال ساعة كنا في البيت، ساعدتها في الذهاب لغرفة النوم، ولم تستيقظ سوى في صباح اليوم التالي.

نهضت مـن السرير وتوجهت إلـى الصالة وكـانـت بحالة فظيعة مـن الحزن والغضب والتعب، وقالت لي:

- كيف قتلوهم؟ من أخبرك؟

- مجموعة من المسلحين قتلوهم، أخبرني الدكتور ساموني، وطلبت منه ألا يخبرك كما قلت لك إلى أن تحضري لباريس.

جلست على الأريكة المقابلة لي، وغرقت بصمتٍ ثقيلٍ وهي تنظر عبر النافذة، ثم قالت:

- والآن، كيف سأعيش دون أولادي؟ لماذا جعلتني آتي إلى هنا، كان من الأفضل لي أن أموت هناك معهم!

- لا تقولي هذا، أنت تعلمين أنني أحبك وأنت زوجتي، ولم أكن لأتركك هناك...

قاطعتني قائلة:

- أنـت لا تحبني، مـن يحب إنسانًا لا يتركه عشر سـنـوات، أنـت تحب نفسك فقط، حتى أولادك لم تستطع أن تحبهم، تجاهلت وجـودهـم لسنوات وجعلتني امرأة مهجورة بين أهل القرية، فلا تتحدث عن الحب.

نظرت إليها بتأمل، لم تتغير فقط بشكلها بل حتى أن روحها تغيرت، لم أتوقع ذلـك الجواب منها، الـبـراءة التي كانت تسكن روحها اختفت، البساطة التي كانت ممتزجة بشخصيتها تـلاشـت، تلك الابتسامة الصافية الهادئة لـم يعد لها وجـود، وشعرت للحظات أنـه كـان من الأفضل لو أنها لم تحضر إلـى هنا، وأنني أمـام عبء ثقيل لا أدري كيف أتعامل معه، فهذه المرأة غريبة عني، وهي تحمل حقدًا دفينًا

تجاهي؛ والأســوأ هو أنني لا أشعر بـأي تأنيب ضمير، بل اقتنعت أكثر بـأن إخفاء وجـود أولادي عنها كان قـرارًا حكيمًا، فلو بقوا مع أُمٍّ تكرهني بهذه الطريقة وتحقد عليّ لكرهوني هم بـدورهـم، لذلك قـررت أن أمضي بالتمثيل إلـى آخـر مرحلة من مراحل هذا الموقف الصعب، جلست بجانبها وأمسكت يدها وقلت بحنان:

- كامالي، زوجتي العزيزة، أنت هنا وأنـا سعيد بحضورك، لقد قتل جميع إخوتي وأبــي، هـذا ليس شيئًا سهلًا بالنسبة لـي، ولـدي عمل صعب جـدًا يأخذ الكثير من طاقتي ووقتي، وأمي لا أدري أين هي، لا أدري هل هي ميتة أم على قيد الحياة؟.

نظرت لي بحزن عميق وقالت:

- جميعهم ماتوا، حتى أمـك، هربت معها عبر الجبال، لدغها عقرب، ثم هجمت عليها الضباع ونهشت جثتها.

وحين أخبرتني بذلك نهضت من مكاني، وشعرت بحجم المأساة التي عاشتها، وبالألم الحاد الـذي انتابني لسماع ذلـك، وضعت رأســي بين يـدي وبكيت دون أن أستطيع أن أسيطر على نفسي، فأمي كانت أغلى إنسان في حياتي، وكـان لدي ولـو بارقة أمـل أن تكون على قيد الحياة، كما أن موتها كـان فظيعًا، جلست باكيًا دون أن أنظر لكامالي أو أتحدث معها، وهي لم تتحرك من مكانها لتجلس بجانبي وتخفف من ألمي، لقد كان لديها ما يكفي من الوجع والألــم، فدموعها لم تتوقف منذ البارحة؛ غـرق البيت بالحزن والصمت، كـان هناك عـزاء طويل للقلب وللروح. وبعد يومين، كان لابد أن أعود لعملي، قلت لكامالي:

- كامالي، هذا واقعنا الآن، لقد فقدنا أعز الناس في حياتنا، ولم يبقَ لي سوى أنت ولم يبقَ لك سواي، فلنبدأ حياة جديدة معًا، وربما تنجبين أطفالًا آخرين.

قالت وهي تمسح دموعها:

- أجل أعتقد ذلك، فليس لي أحد سواك الآن.

شعرت بالارتياح قليلًا لجوابها وأمسكت يدها قائلًا:

- يجب أن أذهـب للعمل، عملي يستغرق وقتًا طويلًا حتى المساء، ولكني اليوم

سـوف أعـود بعد أربـع ساعات لنخرج سويًا ونشتري كل ما يلزمك وتشاهدي هذه المدينة الجميلة.

هزت رأسها موافقة، ثم تابعت:

- بعد يومين، بعد أن ترتاحي جيدًا سـوف تبدئين دروس اللغة الفرنسية، لا يمكن أن تعيشي هنا دون أن تتعلميها، يوجد لي أصدقاء أجتمع معهم بمناسبات عديدة، فيجب أن تتكلمي الفرنسية لأنهم سيرغبون بالتعرف إليك.

وقفت أمامي وهـزت رأسها بالموافقة دون أن تتكلم، وكانت نظراتها بعيدة وكأنها تنظر لعالم غريب لا تمت له بصلة، كنت أعلم بأنها سـوف تعيش وتتكلم وتأكل، ولكن روحها هناك مع أولادهـا، وكـان يجب أن أخمد مشاعر تأنيب الضمير، لقد تأكدت بأنها لو أتت ووجدتهم هنا ما كانت لتقبل أن تعيش معي، ولكنها الآن مضطرة لذلك، وضعفها هـذا يناسبني إلـى أن تعتاد على الحياة هنا، ويتحولون تدريجيًا لذكرى حتى ولو كانت مؤلمة، فستصبح ذكـرى بعيدة لا تمت للواقع بصلة وهو ما كنت أريده، ألا يبقى لها روابط مع الواقع فيما يتعلق بهم.

سـارت بجانبي في شـوارع باريس وبين المحلات الفخمة والـسـيـارات اللامعة، وحين مر القطار مسرعًا أمسكت فجأة بيدي لشدة خوفها منه، وقالت لي:

- إنها مدينة جميلة، لكن مخيفة، توجد أشياء كثيرة، محلات وبنايات وسيارات وكـل شـيء جديد ولامـع ولكني أشعر بالخوف، ثم هناك كثير من الناس ينظرون لي بطريقة لا أحبها.

- أجـل، هـذا طبيعي، شكلك غريب بالنسبة لهم، حين نشتري الآن الملابس لك، سوف يتغير مظهرك وتصبحين امرأة سوداء في باريس.

كنت أريدها أن تبتسم حين قلت لها تلك الجملة الأخيرة، ولكنها قالت بحزن:

- هذه جملة حزينة...

- لماذا؟

- لأنني لم أنظر لنفسي أنني سـوداء حين كنت في بلدي، كان الجميع لهم نفس لوني لم نكن نقول هذا أسود، أما الآن فأنا سوداء وأنت أسود...

- أنا الآن فرنسي...

- ولكنك أسود، أم هل نسيت ذلك؟!

- كامالي، النجاح هنا يلغي اللون، لا ينظر لي زملائي بالعمل بأنني أسـود، حتى أنني أفضل منهم بل أنـا مدير القسم، لذلك نسيت أنني أسـود الـلـون، وأنـت بعد فترة ستنسين ذلك.

- ولكنني لا أمتلك شيئًا لأتفوق عليهم بـه، أو لأنجح حتى بـه، الشيء الوحيد الذي كنت أتقنه هو كوني أمًّا والآن فقدته...

عـادت للبكاء في الـشـارع، فصحبتها لأحـد المحلات التجارية الكبيرة لتنسى من جديد، أو لتجعلها تلك الأشـيـاء الجذابة تنسى ولـو لبعض الـوقـت. بـدأت باختيار الملابس وقياسها، واشـتـرت أشـيـاء كثيرة أعجبتها، وفـعـلًا نسيت أولادهـــا خلال التسوق؛ عدنا للبيت ومعنا أكـيـاس كثيرة، وبــدأت بترتيبها فـي الـخـزانـة، وكانت سعيدة بتلك المشتريات: ثم جلسنا لتناول العشاء، فقلت لها:

- الآن يـا كامالي، يجب أن تحاولي النسيان، أو على الأقــل أن تبدئي حياة جديدة هنا، لا يمكن للحياة أن تعود إلـى الــوراء. بعد غد سـوف تبدئين دروس اللغة وتتعرفين على نـاس جـدد بحياتك، وسـوف نذهب مـن حين لآخـر لنشتري الأشياء التي تحبينها، ما رأيك؟

ولأول مرة منذ وصولها ابتسمت وقالت:

- أجل، هذا جيد. أظن أنني مستعدة لذلك.

وبعد أن التحقت بمعهد اللغة، وبــدأت تعتاد على دروسـهـا اليومية، ذهبت لبيت سيلفيا لأرى الأولاد لأنني لم أرَهــم منذ وصـول كامالي، استقبلوني بشوقٍ كبير، وكنت قد أخبرتهم أنني سأسافر لبضعة أيـام. وحدثوني أنهم استمتعوا كثيرًا بالبقاء مع سيلفيا وأنهم ذهبوا مرة أخـرى لمدينة الملاهي. وكـان لابد من إخبارهم

بأنهم خـلال أسبوعين سيذهبون لمدرسة داخلية، وطلبت مـن سيلفيا أن تكون معنا حتى تخفف من وقع المفاجأة، قلت لهما:

- تـاكـي، سيمو، أنتم تعلمون أنني كنت فـي إجـازة لذلك كنت طـوال الوقت معكم، ولكنني الآن عدت للعمل وأعمل حتى ساعة متأخرة من الليل، ولا يمكنكم أن تبقوا وحدكم في البيت، كما أن سيلفيا لديها عمل ولـن تستطيع الاعتناء بكم طوال الوقت، لذلك رأيت أن أفضل حل هو أن تلتحقوا بمدرسة داخلية.

قال تاكي براءة:

- وما هي هذه المدرسة الداخلية؟ نحن نذهب للمعهد لندرس الفرنسي!

- فـي هـذه المدرسة أيـضًـا ستدرسون الفرنسي وتـدرسـون لغات أخــرى، سوف يكون مستواكم التعليمي عاليًا جـدًا، وسـوف نقضي نهاية الأسـبـوع جميعنا معًا وربما نسافر لمرسيليا بنهاية الأسبوع وهي مدينة بجانب البحر.

صمت الأولاد قليلًا وعلامات عدم الارتياح بادية عليهما، ثم قال تاكي:

- لا أريـد أن نبتعد عنك، لقد كنت غائبًا عنا لسنوات في السابق والآن أيضًا لن نراك، ثم أمي أيضًا ماتت، لم أعد أحب هذه المدينة.

وبدأ سيمو بالبكاء، فاحتضنته سيلفيا وقالت:

- الآن والدكم موجود وأنا أيضًا ولن يتركَكم وسوف نجتمع نهاية كل أسبوع وفي الإجــازات أيضًا، هنا يوجد العديد من الإجــازات، لابـد أن تفكروا بمستقبلكم أيضًا، سـوف تحصلون على تعليم ممتاز وتكونون مثل والـدكـم طبيبًا ناجحًا ومشهورًا. أليس كذلك!

هز رأسه تاكي وقال:

- أجل.

ولكي يتبدل جو المكان الذي أصبح ثقيلًا وخانقًا، قلت:

- هيا الآن، سنذهب جميعًا للسينما، هـذه أول مـرة سترون فيها هـذه السينما،

سوف تعجبكم كثيرًا.

خرجنا جميعًا ووصلنا لصالة السينما، وكانت لا تـزال وجوههما حزينة، ولكن حين جلسا وبـدأت المشاهد تتوالى على الشاشة الكبيرة امتلأ وجهاهما بالدهشة والانبهار ونسيا موضوع المدرسة الداخلية، حتى حين انتهى الفيلم وذهبنا للعشاء بقيا يتحدثان طـوال الوقت عن السينما وأنهما يريدان الذهاب إليها دائمًا، فقلت لهما:

- إذا تابعتما دروسكما في المدرسة وأخبرتني المدرسة أنكما مجتهدان، سوف نأتي بنهاية كل أسبوع نحضر فيلمًا معًا، صفَّقا بوقتٍ واحدٍ لفرحتهما بذلك. وخلال يومين كنا نقف في مكتب مديرة المدرسة التي استقبلتنا بلطف وترحيب، كانا حزينين لمغادرتي ولكن المديرة أخذتهما من يديهما وسرنا معًا بجولة في المدرسة، نظرا بإعجاب لكل تلك الصالات الكبيرة ثم المسبح الضخم وصالات الرياضة والمطعم، حيث شاهدوا بقية الطلاب يأكلون، وشعرت أنني أستطيع الانسحاب الآن وهم ينظرون بفضول وإعجاب لكل ما حولهم، أخبرتهم أنني لابد أن أعود لعملي وأنهم سيتابعون جولتهم مع المديرة وأنني سأمر لآخذهم بنهاية الأسبوع. وهكذا شعرت أن حياتي بدأت تأخذ طريقًا طبيعيًا، وأن تلك الأزمات التي مررت بها بدأت تهدأ وأنني يمكن أن أنَّظم حياتي من جديد مع كامالي.

كامالي

بدأت حياتي في باريس، أستيقظ في الصباح وأرى الغيوم الرمادية الكثيفة تحجب الشمس، الأشجار فقدت أوراقها بسبب البرد، الشوارع شبه خالية لا يمر بها سوى عدد قليل من الناس، الهدوء يجثم ثقيلًا على النفس والروح، خارج النافذة أرى البرد يغلف كل شيء، لا صورة له لكنه يلتف حول كل شيء الناس والأبنية والشوارع والأنفاس والقلوب، كل شيء يبدو صامتًا خلف نافذتي، أرى طيف وجهي ينعكس على زجاج النافذة، وأرى عيونًا تشعر بالغربة والحنين القاتل لأرض بعيدة وشمس مشرقة، أرى شوقي لأولادي يكاد يفتت قلبي، ثم أشعر بالفراغ يملأ قلبي وكأنني لا أتنفس ولا أشعر بأي نبض للحياة، قلبي يخفق لكن دون حياة وأشعر بأنفاسي باردة جامدة كأنها تحمل كل الوجوم الذي يحمله قلبي وتتنفسه مشاعري.

في كل صباح لابـد أن أنهض وأذهــب إلـى معهد اللغة، ينقلني تـافـارا معه إلى هـنـاك ثـم يـذهـب لعمله فـي المستشفى، نجلس مـعًـا فـي الصباح نـأكـل الخبز الفرنسي والمربى والـزبـدة وفنجان القهوة الكبير، لا حديث يـدور بيننا، فلم يعد هناك ما يمكن أن يُـقـال، وهـو لم يعد يستطيع تمثيل الـزوج العاشق، مثّل ذلك الــدور قليلًا حين وصلت وحين أخبرني بموت أولادي كـي يخفف عني الصدمة الفظيعة، وبعد بضعة أسابيع، وقع كل منا في بئر من الصمت، وأدرك كل منا أنه لم يعد هناك ما يجمعنا ببعضنا البعض سوى لون بشرتنا السوداء.

قـال لي بـالأمـس، بأنه بصدد تغيير اسمه ليصبح فرانسوا وليس تـافـارا، نظرت إليه بدهشة شديدة، وقبل أن أسـأل لماذا قـال لي إنـه يخاف من انتقام أي شخص من المسلحين، الذين هـددوا بقتل جميع أفـراد عائلته، وأنـه يوجد أشخاص تابعون لهم في عدة أماكن في أوروبـا ومن ضمن تلك الـدول فرنسا، وأنه توجد أعـداد كبيرة من السود في باريس بشكل خاص وهو ما لاحظته فعلًا، ثم قال لي بجدية:

- وأنــتِ أيضًا يجب أن يتم تغيير اسمك، لقد انتظرت حضورك لأقـول لك ذلك، أنــت تعلمين بأنني حصلت على الجنسية الفرنسية، وســوف أقــدم لــك معاملة

الحصول على الجنسية بصفتك زوجتي وسوف نغير اسمك...

قلت له بغضب كأنه سوف يسرق شيئًا ما مني:

- كلا، لن أغير اسمي، أفضل أن يقتلوني، ولكني لن أغير اسمي، ثم أنا امرأة ولن يهتم أحد بي.

- لا تكوني عنيدة، هذا أمان بالنسبة لك، سوف نغيره على الورق والجميع سينادونك بكامالي.

- لا، لقد فقدت كل ما يربطني بوطني ولن أفقد اسمي كذلك، هل فهمت لن أغيره.

هزّ رأسه بالموافقة واعتقدت أنه اقتنع بكلامي، عاد بعد عدة أسابيع وجعلني أرى جواز سفره الفرنسي، لقد أصبح اسمه فرانسوا؛ لم أعرف بماذا أجيبه. قال لي ببرود ودون النظر لي:

- كامالي، قدمت معاملة جواز سفر فرنسي لك، باسم جديد لست مضطرة لاستعماله، ولكني لن أجازف بحياتي لأجل اسمي أو اسمك، صدور جواز سفر باسمك سوف يأخذ بعض الوقت، لكنه سيكون باسم دومينيك.

نهضت من مكاني صارخة:

- بأي حق تفعل هذا؟ بأي حق تنتزع مني اسمي؟ ألا يكفي ما سلبته مني طوال تلك السنوات، ألا يكفيك التعاسة التي عشت بها بسببك، ثم موت أولادي والآن تجردني من اسمي الذي أحبه كثيرًا، لا يحق لك هذا، سوف أذهب لتلك الدائرة التي تعمل الجواز، لا أدري ما اسمها ولكني سوف أسأل مدرسة اللغة الفرنسية عنها، سوف أطلب منهم ألا يفعلوا ذلك...

بقي جالسًا بهدوء وانتظر إلى أن انتهيت من كلامي وقال لي:

- اسمعي، خلال تلك السنوات التي عشتها بتعاسة كنت أنا من يلبي جميع احتياجاتك، وأنت لا تعلمين كم تعبت لأصل إلى ما أنا عليه اليوم، زوجك أصبح من أفضل الجراحين بفرنسا،

وتتحدثين عن تعاسة سخيفة مرَّت وانتهت، أما الأولاد فلا ذنب لي بموتهم، لست أنا من قتلهم، ولا تنسي أنني فقدت أيضًا جميع أفراد عائلتي ولكنني لا أريد أن أبكي طوال الوقت، بالنسبة للاسم، إذا أردت لن أغير الاسم، لكن سوف أحجز لك تذكرة اليوم وتعودين خلال هذا الأسبوع إلى القرية وتتابعين حياتك هناك، وننفصل قبل أن تغادري هذا البيت، لن أعرض حياتي للخطر بسبب اسمك، لقد غيَّرت اسمي ولم أنظر ورائي، هل هذا واضح، فكري جيدًا وسوف تخبريني بقرارك هذا المساء عند عودتي من العمل.

لم أذهــب لمعهد اللغة، وبقيت في البيت أبكي وأفـكـر، ثم لبست المعطف الـذي اشتراه لي وخرجت أسير في الـشـوارع، كان الناس ينظرون لي باستهجان، لم يكن شعري مصففًا بعناية، وعيوني حمراء بسبب البكاء، وخطواتي تبدو بشكل واضـح خطوات امــرأة آتية من قريةٍ مـا، ووجهي يحمل ملامح المأساة التي أشعر بها وإضـافـةً لكل ذلـك لوني أسـود؛ لا أحـب هـذه الـشـوارع ولا أحـب هـذا المكان، ونظراتهم أيضًا لم تكن تحبني، كل ما حولي كـان ينفر مني وينظر لي شـزرًا حتى الأشـجـار والــشــوارع. وجــدت حديقة كبيرة بجانب الـبـيـت، فجلست على أحد المقاعد المتناثرة بكل مكان، وبــدأت بالبكاء غير عابئة بالناس من حولي الذي يمرون وينظرون لي دون تعاطف بل بنفور كأنهم يقولون لي: أنـت...مـاذا تفعلين هنا؟ ما الذي أتى بك إلى هنا؟

مكثت لساعاتٍ طويلةٍ في البرد، ثم بدأ المطر بالتساقط، بللت قطرات المطر شـعـري ومـلابـسـي، خيم الـظـلام على الـمـكـان، شـعـرت بـالـخـوف والـبـرد الشديد، فنهضت من مكاني لأعــود للبيت، لأعــود لمكان لا أحبه ولكنني كنت قد أخذت قراري، وحين وصلت كان تافارا بانتظاري، قال لي حين رآني:

- ما هــذا؟ أيــن كنت؟ ولـمـاذا خرجت تمشين تحت المطر، أنـت مبللة، سوف تمرضين بسبب البرد الذي تعرضت له، اذهبي غيري ملابسك ثم نتحدث.

غيرت ملابس وجلست أمامه متعبة وأشعر بالحمى تسري في جسدي، قلت له قبل أن يسألني:

- معك حـق، لم يعد لي أي مكان أذهــب إليه، لقد حرقوا جميع بيوت القرية،

ولا يوجد أحـد يعيش هـنـاك، ولا أعـرف أحــدًا هـنـاك، الآن أصبحت حبيسة هذا المكان، ولا بد أن أحيا حسب ما تـراه أنـت، يمكنك تغير اسمي ولكن في البيت لا تناديني إلا بكامالي.

جلس بارتياح على الأريكة وقال لي:

- هذا قرار حكيم، ويوجد خبر آخر، بعد عدة أيام سوف أعمل في مستشفى آخر وبمعاش ممتاز، وربما سوف أفتح عيادة خاصة بي بعد فترة، سوف ننتقل للعيش فـي منزل أفضل مـن هـذا قريب مـن المستشفى، وأنـت خـلال هـذا الـوقـت يجب أن تتابعي دروس الفرنسية، لا أريـد أن تتعرفي على أصدقائي و أنـت لا تعرفين الحديث بالفرنسية فهم من أرقى طبقة في المدينة.

أدركـت بأنني لن يكون لي خيار سوى تنفيذ أوامـره وأنني سجينته وسجينة هذا البيت، أو أي بيت سـوف أذهـب إليه، فغربتي أصبحت سجني، وأنني دونـه سوف أضيع في هذه الحياة، قلت بنبرة مستسلمة:

- أجل بالطبع.

وبعد عـدة أيـام انتقلنا للبيت الجديد، كـان بيتًا أجمل من البيت السابق، له حديقة صغيرة وقريب من الـشـارع الرئيسي حيث يمكنني رؤيـة مـرور السيارات والقطار ويمكنني السير على الأقـدام لشراء احتياجات البيت لوجود عـدة محلات تجارية وبعض المقاهي الصغيرة، مما جعله أقـل وحشةً من البيت القديم، كما وأنـه يوجد فيه غرفتا نـوم بـدلًا من غرفة واحـدة حيث كنت أضطر للنوم بجانب تافارا في ذلك البيت، أما بهذا البيت فيمكنني أن أنـام بغرفة منفصلة عنه وهو ما كـان يبدو مناسبًا له أيـضًـا، الصالون كبير وفيه نوافذ واسعة تطل على الحديقة، وتوجد شرفة صغيرة تسلقت عليها الـزهـور والنباتات، ومطبخ كبير وأنـيـق، لقد أحببت هذا البيت وخفف عني بعضًا من الألم الذي كنت أشعر به.

قال لي تافارا حين رتبنا البيت ونقلنا جميع أغراضنا:

- هذا البيت أعجبني وأعتقد أنه مريح بالنسبة لك، أليس كذلك!

- أجل إنه أجمل من البيت السابق.

- كما وأنني سجلتك في معهد للغة قريب من هنا سوف تمشين إليه كل صباح ولست بحاجة لأن أوصلك سوف تستمتعين بالمشي قليلًا في الصباح وعند عودتك من المعهد. سوف نذهب الآن معًا لكي تعرفي الطريق، لن يكون صعبًا عليك.

خرجنا معًا، ولأول مرة منذ وصلت أنظر فعلًا للشوارع وأتأمل الحياة من حولي، البيوت مرتبة والشوارع نظيفة، وهناك زهور وأشجار كبيرة بأغلب البيوت، والسيارات تمر بهدوء دون ضجيج، وتوجد محلات للخضار والفواكه، وللملابس، سرنا بذلك الشارع التجاري الطويل حيث المقاهي والمطاعم والواجهات البراقة والأنيقة، طلبت منه أن نجلس لشرب الشاي بإحدى تلك المقاهي؛ جلسنا معًا في المقهى الدافئ، حيث توجد طاولات خشبية قديمة وكراسي صغيرة، وعلى الجدران كانت لوحات لباريس معلقة بكل مكان، ثم صوت الموسيقى لأغاني فرنسية أعجبتني كثيرًا، استمتعت بالجلوس بذلك المقهى وبالدفء اللذيذ الذي انبعث من كل زاوية من المكان.طلب تافارا الشاي وشيئًا آخر لم أفهم ما هو، أحضر النادل الشاي، ونوعًا من الخبز الساخن لم أعرف ما هو، قلت لتافارا:

- ما هذا؟ هل هو خبز فرنسي؟

- لا، هذا اسمه كرواسون، يمكنك القول إنه خبز ولكن يصنعونه مع الزبدة.

بدأت بأكل الكرواسون وكان ساخنًا ولذيذًا، قلت لتافارا:

- هذا أطيب خبز آكله بحياتي، أعتقد أنني سوف آتي إلى هنا كثيرًا.

ضحك وقال:

- سوف تحبين باريس، أنت فقط تحتاجين لبعض الوقت.

نظرت إليه مباشرة وقلت له:

- تافارا، أنت تستطيع أن ترسلني غدًا لأفريقيا وتعيش حياتك هنا، لماذا

تتمسك بي؟

حرّك السكر في فنجان الشاي، وقال دون أن ينظر لي:

- لأنـك ما تبقى لي من أهلي، من وطني، أنـت جـزء من ذاتــي، لو ذهبت سوف أشعر بأنني لست نفسي، وأن هناك فراغًا مخيفًا لا يمكن ملؤه.

أجبته بانفعال حاولت أن أخفيه:

- هذا ليس حبًّا أليس كذلك؟

- لن أكذب عليك، أجل هذا ليس حبًّا، إنه شعور بالأمان معك.

- أنت لم تعد تحبني؟

نظر لي دون مواربة وقال:

- وأنــت هل لا تزالين تحبينني؟ أنـت تعلمين وأنـا أعلم بـأن ما بيننا الآن ليس حبًّا، ربما يعود ذلك الحب ولكنه الآن احتياج، أنت تحتاجين لي وأنا أحتاج لك.

نظرت عبر النافذة ولـم أمنع دمـوعـي، لأنني ورغـم كل الجفاء ما بيننا لا أزال أحبه وأنني أخنق ذلـك الحب كي لا يـزداد ألمي لأنني أعلم بأنه لم يعد يحبني كالسابق، وربما لن يحبني أبـدًا كالسابق، ولكنه جالس أمامي بوسامته ونجاحه وثقته بنفسه واهتمامه بـي، بكل ما تتمناه أي امــرأة، عـدا عن قلبه الـذي ليس لي وربما لن يكون أبدًا.

تجاهل دمـوعـي وحين انتهينا مـن الأكــل وشــرب الـشــاي، طلب مني أن نغادر لنذهب للمعهد؛ خـلال سيرنا باتجاه المعهد، شعرت بأنه يبتعد عني بعض الشيء خـلال سيرنا، نظرت إلـى وجهه ورأيــت ملامحه المتضايقة بعض الـشــيء، خصوصًا حين ينظر لي المارة بفضول، فأنا أحمل ملامح امــرأة أفريقية قروية رغـم ملابسي التي اشتراها لــي، وخطواتي لا تــزال بطيئة رغـم محاولتي السير حسب السرعة التي يسير بها، وأدركــت فجأة سبب تضايقه، إنــه يخجل مني، يخجل مـن هذه الأفريقية القروية التي تحتاج لمسافات من التدريب لأكـون كما يريد هو وربما

لن أنجح بذلك، ثم واصلت السير متجاهلة ذلـك الشعور وقلت لنفسي لابـد أنني مخطئة، ربما لأنـه تأخر عن عمله يبدو منزعجًا وقبل أن أتابع تسلسل أفكاري المشوش وصلنا للمعهد، ذلك المبنى الكبير من عدة طوابق وعـدة فصول دراسية، تعرفت على المديرة التي رحبت بـي أشـد ترحيب، ليس لأجلي بـل لأجـل زوجـي الـجـراح المعروف، ودلتني على الفصل حيث سأبدأ الــدروس في الغد، وتعرفت على معلمتي التي تحدثت معي بلطف شديد وهـي تنظر لزوجي من حين لآخر. وببداية دروس اللغة بذلك المعهد بدأت حياتي الفعلية في باريس.

تافارا

كنت بحاجة لمكانٍ ما أجلس فيه وحدي بعد كل تلك الأحداث المتتالية، ووجود كامالي في حياتي، كان يوجد مكان أحبه كثيرًا في باريس أذهب إليه من حين لآخر، حيث أرى باريس أمام ناظري بكل بناياتها وشوارعها وأبراجها وجمالها أيضًا، ذلك المكان هو أعلى هضبة مونمارتر، مشيت عبر الشوارع القديمة وبين المقاهي والبيوت والحدائق الأنيقة، والتي تبدو كلوحة فنية أتجول بين معالمها، وصلت لأعلى الهضبة وجلست على مكان هادئ بعيد عن صخب السياح، لقد عشقت هذه المدينة التي أصبحت وطني، ولن أفكر بالعودة إلى بلدي لأن فرنسا أصبحت فعلًا هي وطني؛ لم أتمكن أو لم أمتلك الوقت الكافي للتفكير بأمي وأن أشعر بالحزن العميق لموتها وموت أبي وإخوتي، مر كل شيء سريعًا وبأحداث متتابعة أرهقتني وجعلتني أنسى أن أقدم العزاء لنفسي، وبهذه الساعات القليلة التي أجلسها وحدي في هذا المكان الذي أجد فيه الراحة والسكينة، أستطيع أن أقدم العزاء لنفسي، أسمح لعيوني بأن تذرف بعض الدموع بذكرى أهلي، خصوصًا أمي، تذكرت وجهها اللامع تحت ضوء الفانوس الخافت وهي تقص علينا القصة تلو الأخرى، ثم تلك الأغنية الحزينة التي تغنيها بعد تلك القصص المشوقة، نغفو على صوتها الناعم وعلى كلمات أغنيتها التي انطبعت في روحي كأنها جزء من أمومة أمي، من حنانها، من ذكائها وحبها للمعرفة، من عطائها للجميع بلا حدود ولا أسئلة، من تشجيعها لي وكان ذلك التشجيع الوحيد الذي تلقيته عدا عن الأستاذ باكو، حتى الأستاذ باكو قتلوه، لم يبقَ من القرية سوى كامالي، لذلك لا أستطيع الاستغناء عنها، لأنها أول من أحببت، وهي بيتي هناك، وهي أهلي وهي الذاكرة الوحيدة الحية في حياتي، ثم تتسلل كلمات أمي إلى روحي أسمعها بصمت وتحلق تلك الكلمات فوق باريس، التي تنظر لي بلامبالاة، مدينة لشدة جمالها لم يعد يعنيها من يأتي ومن يرحل، وتتابع أغنيتي السفر عبر الريح من أفريقيا إلى باريس:

حين تنام لا تغلق الباب

فربما تأتي الشمس تحمل إليك الغد

حين تنام لا تغلق النافذة

فربما تأتي الريح تحمل إليك ذكرى الأمس

وحين يأتون لاقتلاع حياتك من الجذور

لابد أن تغلق الباب

لأن الغد لا يأتي معهم

ولأنهم يدفنون ذكرى الأمس

لابد أن تعيش قبل أن يأتي الموت

لابد أن تفرح قبل أن يرفض قلبك الفرح

لابد أن تمشي مع خيوط الشمس إلى الأرض البعيدة

لابد أن تزرع البذور في الأرض البعيدة

لتكون لك حياة بعيدًا عن أرض الموت...

ولأول مرة أفهم وبشكل واضح كلمات أغنية والدتي، الآن فقط أفهم لماذا كانت تريدني أن أسافر، كانت تعلم أنه سوف يحصل شيء ما في قريتنا مثلما حصل في قريتها حين كانت طفلة، الآن أعلم بأنني لم أغلق الباب ولا النافذة، وأعلم بأنني مشيت مع خيوط الشمس وزرعت البذور في الأرض البعيدة، لتكون لي حياة بعيدًا عن أرض الموت، الآن يا أمي فقط وبعد كل تلك السنوات التي باعدت ما بيني وبينك أفهم كلماتك، وأفهم لماذا لم تُلحي علي بالعودة، كنت تشعرين بأنه هذا ما سيحصل، كنت تريدين أن أبتعد، لم تكن تلك أغنية ولكنها كانت وصية، لقد نفذت وصيتك بحذافيرها دون أن أدري ودون أن أفهم، الآن فقط أفهم، وأشعر أنك كنت معي ولا تزالين معي، وأنك لو كنت على قيد الحياة لفعلت ما فعلته بإخفاء أولادي وحمايتهم بعيدًا عن أرض الموت، وبعيدًا عن من يقتلون الغد ويدفنون ذكرى الأمس.

ثم بدأت بالتفكير بكاملي وبشعوري بأنني في مأزق صعب بوجودها في حياتي، فانا لا أكن لها أي شعور سوى الشعور بالواجب، وربما الحاجة للأمان لأنها رغم

كل شيء تبقى زوجتي ولا أريـد الـزواج مرة أخـرى، لقد أدركـت بأن الـزواج لا يناسب شخصيتي المستقلة ولا يشكل أي جـاذب لـي، وربما ما يجعلني أستطيع الاستمرار بالحياة مع كامالي هو أنها لم تطلب مني أن أعبر عن أي شعور تجاهها، ولم تلُمني لأنني لم أعد أحبها، ولا تحاول حتى النوم بجانبي، فبمجرد أن انتقلنا للبيت الجديد، وضعت أغراضها فـي غرفة منفصلة عـن أغـراضـي، لقد فاجأتني بذلك التصرف، وجعلتني أدرك أن كرامة المرأة لا ترتبط بثقافتها، فهي امـرأة قروية بسيطة رغم تلك الكتب التي قرأتها ولكنها شـديـدة التمسك بكرامتها، حتى أنها لـم تحاول ولو لمرة واحـدة أن تمسك يـدي؛ وهو ما جعلني أتذكر تلك الفتاة الجميلة بجانب البحيرة التي كانت تبكي لأنها لا تريد الـزواج، وأدرك أن ما بداخل كامالي شيء ما مستقل عن علاقة الــزواج، وأن هـذا الشيء رغـم زواجـهـا بي وإنجابها للأطفال لم يتغير، فهي بقيت كحيوان أفريقي يجمح للحرية مهما كان الثمن، وأعلم أنها رغم طاعتها العمياء لي إلا أنها تضمر تمردًا لابد وأن يثور يومًا ما، لم يكن هذا سبب قلقي؛ لأنها إلى أن تتمكن من التمرد سوف تحتاج لوقتٍ طويلٍ.

ما يقلقني هو أنني أرى حزنها العميق لأجل الأولاد وأحاول خنق الشعور بتأنيب الضمير، وأخمد ذلك الصوت بخوفي على أولادي وأننا فعلًا قد نكون بخطر في أي لحظة، لذلك غيَّرت الأسماء ونقلت مكان عملي وسكني، ولكن هناك سبب آخر لا أجرؤ على البوح به حتى لنفسي ولكنني أعلم أنه موجود ولا يفارقني، أشعر بالخجل من كامالي، فهي أصبحت بدينة وتمشي ببطء، تأكل كثيرًا ولا تهتم بمظهرها، حين أمشى معها أرى الناس ينظرون إليها باستغراب وأحيانًا بعنصرية شديدة، ولشدة شعوري بالحرج والخجل منها قررت ألا أسير معها في الشوارع، وأن تكون الأماكن الذي نذهب إليها هي أماكن شراء حاجيات البيت وتناول الشاي في ذلك المقهى البعيد عن أنظار الناس، سوف يكون كل تحركي معها بالسيارة. ولم أكن لأرغب أن يشعر أولادي بهذا الخجل من والدتهم، ولم تكن لتستطيع مساعدتهم في دروسهم، فأنا أريد أن يكون أولادي فرنسيين بطباعهم وثقافتهم ومستوى تعليمهم، ووجود كامالي بحياتهم لم يكن ليؤدي لهذه النتيجة، بل قد يؤدي لأسوأ النتائج بحنينها الدائم لتلك القرية، ولعالم غير متحضر تصر على أن تتذكره في كل دقيقة، لذلك صمت صوت تأنيب الضمير تمامًا، وأدركت بأن قراري كان صائبًا من جميع الوجوه.

بقيت لساعات أتأمل باريس التي تمتد أمام ناظري، ونسمات باردة تلفح وجهي، وأستمع لكلمات السياح من كل لغات العالم، يلتقطون الصور لباريس، يمسكون بأيدي بعضهم البعض، يضحكون، كل ما حولي كان ينبض بحياة رائعة ممتلئة بالألوان والأشكال وجمال الأماكن والبشر. وحين ازدادت برودة الجو سرت باتجاه المقاهي القديمة حيث توجد المقاعد الخشبية ورائحة القهوة والطعام تفوح من الطرقات الحجرية الناعمة، وعلى الطرف الآخر، هناك صوت الموسيقى التي يعزفها بعض الشباب والفتيات ليحصلوا على بعض المال من المارة، وهناك من يرقص أو يرسم، في كل زاوية كانت هناك حياة، حياة خاصة بمن يحياها وحياة يمنحها للآخرين بحيويته وعزفه للموسيقى أو الرقص على أنغام الموسيقى، حياة تمنحها المخابز الصغيرة برائحة الخبز الساخن الممتزجة مع القهوة، وحياة تحتفظ بها تلك المخابز عبر عشرات السنين، لا تغير مكانها ولا اسمها ولا طريقة صنعها للخبز.

وصلت متأخرًا للبيت، وكانت كامالي تجلس تتناول الطعام، لم تسألني أين كنت، سألتني فقط إن كنت أريد تناول الطعام، أجبتها بأنني قد أكلت في عملي في المستشفى، لم أكن أرغب بأن أخبرها بتفاصيل ما أقوم به كي لا تقول لي لماذا لا تصطحبني لهذه الأماكن؟ قالت ببرودها المعتاد:

- هل تريد فنجانًا من الشاي؟

- أجل.

أحضرت الشاي وجلست على الكنبة المواجهة لي، فلاحظت كم أن وزنها يزداد، قلت لها بنبرة حاولت أن أجعلها لطيفة قدر الإمكان:

- كامالي، ألا تلاحظين أن وزنك قد ازداد، هذا ليس جيدًا لصحتك.

نظرت لي بلامبالاة وقالت:

- الحلويات هنا لذيذة جدًا والخبز كذلك ولا أستطيع مقاومتها.

- أجل ولكن هل لاحظت رشاقة الفرنسيات، فهن يأكلن هذه الحلويات ولكنهن

يحافظن على وزنهن.

- أنا لست فرنسية...

- ما هذا الجواب، كيف...

قاطعتني قائلة:

- كيف ستمشي معي وأنا بهذه البدانة، الحل هو ألا نمشي معًا.

أجبتها بانزعاج:

- توجد مراكز رياضة هنا، ويمكنك أيضًا أن تمشي كل يوم...

- حسنًا سوف أمشي، عموما لماذا تهتم بمظهري، أنت تعيش حياتك وأنا أعيش حياتي، ولست مضطرًا لاصطحابي لأي مكان.

- توقفي عن هذا، أنا طبيب وأعلم أن هذا الوزن الزائد مضر لصحتك.

- حسنًا، حسنًا، سوف أحاول أن أمشي كل يوم.

- ما رأيك أن تشتركي بنادٍ رياضي؟

- لا أريد، فيكفي معهد اللغة الآن، ربما بعد أن أنتهي من معهد اللغة سوف أشترك بنادٍ ما كما تقول.

- جيد، أخبريني كيف تسير الأمور بمعهد اللغة؟

شربت الشاي ثم قالت:

- بشكل جيد، يهتمون بي كثيرًا بالطبع لأني زوجتك، وأدرس كل يوم، أريد أن أتعلم هذه اللغة، لن أستطيع أن أفهم ما يدور حولي دون أن أتعلمها، كما أنني اشتقت للقراءة.

شعرت بالسرور لكلماتها وقلت لها بحماسة:

- توجد هنا مكتبات ضخمة فيها آلاف الكتب، حين تعرفين الفرنسية سوف تقرأين كتبًا رائعة فعلًا وربما تدرسين شيئًا ما يثير اهتمامك.

- أجل، هذا سيكون جيدًا.

وهـكـذا كانت تنتهي محادثاتنا، دون مشاعر ودون حميمية كأننا أصدقاء قدماء ولكن لم يكن هناك أي موضوع جديد يتحدثون عنه، وكـان يوجد طوال الوقت طيف الأولاد ما بيني وبينها، هي بفقدانها لهم وحزنها الشديد لأجلهم، وأنـا باشتياقي لهم ومحاولة تجاهل حزنها الـذي لا ينتهي لفراقهم، فكنت أعود متأخرًا للبيت متعمدًا، آكـل ثم أذهـب للنوم وفـي الصباح أذهـب لعملي، أمـا في نهاية الأسبوع فكنت أقضيها مع تاكي وسيمو وسيلفيا.

بعد بضعة أشهر أصبح اسمي بشكل رسمي فـرانـسـوا وتـاكـي رولانـــد وسيمو ميشيل، تغيير اسـم كامالي كـان سيحتاج المزيد من الوقت، ذهبت لمنزل سيلفيا بنهاية الأسبوع أحمل الزهور وقالب جاتو كبيرًا، قلت لهم:

- من اليوم أصبح اسمي فرانسوا بشكل رسمي وأنـت رولانـد وأنـت ميشيل، لقد أخبرت المدرسة بذلك وأعطيتهم جميع الوثائق الـلازمـة منذ الآن لابـد أن تنادوا بعضكم البعض بهذه الأسـمـاء، مـن يـنـادي بغير هـذه الأسـمـاء لـن يحصل على ما يريد. لم يبدوا فرحين بذلك ولكنني تجاهلت حزنهم الـذي حاولوا إخفاءه وقلت بمرح:

- هيا لنأكل الجاتو احتفالًا بهذه المناسبة، ثم سنذهب للسينما.

عادت الفرحة لوجوههم لحبهم للسينما وقال سيلفيا ضاحكة:

- فكرة جيدة فرانسوا.

نظر إليها الأولاد باستغراب فقالت لهم:

- مثلما قـال والدكم أصبح اسمه فرانسوا ولابـد أن نناديه بذلك واحتفالا بهذا سوف نذهب جميعنا إلى مرسيليا بنهاية الأسبوع القادم.

شعرا بالفرح لأنهما سيسافران لأول مرة خـارج باريس، وبدأنا بأكل الجاتو بجو من المرح وقلت لسيلفيا إنهم إذا لم يـنـادوا بعضهم البعض بهذه الأسـمـاء سوف نلغي الرحلة، فقالوا بصوتٍ واحدٍ:

- لا، سوف نتذكر أسماءنا الجديدة.

وحين عدت للبيت، كانت كامالي تأكل كالعادة، فقلت لها مبتسمًا:

- أصبح اسمي فرانسوا، وأرجو أن تناديني بهذا الاسم.

نظرت لي عابسة وقالت:

- لن تكون إلا تافارا بالنسبة لي.

ضربت بيدي على الطاولة وقلت لها:

- اسمعي، لن أحتمل المزيد بهذه الطريقة، لم أغير اسمي وأرتب لكل شيء ثم تُفسدي حياتي وحياتك، نحن لسنا بأمان إلا إذا غيرنا هذه الأسماء وناديتني فقط بهذا الاسم، وإلا سأضطر فعلًا إلى بدء حياة جديدة بعيدة عنك وأنت تنظرين ما تفعلي بحياتك، هل هذا واضح.

توقفت عن الأكل وهزت رأسها ونظراتها متجهة إلى النافذة وقالت:

- حسنًا يا فرانسوا.

- هذا أفضل، سوف أطلب منهم في معهد اللغة أن يهتموا بتدريس كيفية لفظ الحروف، فلهجتك الأفريقية قوية جدًا خصوصا حين تقولين اسم فرانسوا. والآن أنا متعب أريد أن أنام، شيء آخر، عطلة نهاية الأسبوع القادمة سوف أذهب خارج باريس لمؤتمر طبي، سوف أغيب ليومين. أعتقد أنك اعتدت على المكان، ويوجد ما يكفي من المال إذا احتجت لأي شيء، وتتصلين بي إذا حصل أي شيء طارئ.

- حسنًا يا فرانسوا.

كامالي

المطر يتساقط بغزارة، لابد أن استيقظ لأذهب لمعهد اللغة، البيت دافئ ولكني أشعر بالبرد القارص الذي يلف كل زوايا المدينة، برد يؤلمني، ينغرس بكل جزء من جسدي، لست معتادة عليه لم أعرفه من قبل، شيء غريب عن روحي وجسدي، أحيانًا أرغب بألا أنهض من سريري، أن أبقى تحت الأغطية الدافئة إلى أن أموت، لا أريد النهوض، لا أريد أن أشعر بهذا البرد يلفح وجهي ويجمد عيوني حين أخرج من البيت، أريد أن أعود لقريتي، أريد أن أعود لبيتي المصنوع من القش والخشب، أريد أن أحتضن أولادي ولا أغادر أبدًا؛ ولكن بيتي وأولادي وقريتي ليسوا سوى حلم بعيد وذكرى أتشبث بها لأبقى على قيد الحياة، واقعي الآن هو هذا المطر وهذا البرد الذي لا ينتهي، وزوجي الذي لا يحبني، بل يخجل مني ولكني لا أستطيع الانفصال عنه، فأين سأذهب؟ لو كنت في قريتي كنت سأبني بيتًا صغيرًا لي خلال بضعة أيام أسكنه وأنفصل عن زوجي بسهولة، أزرع أرضًا صغيرة وأعتني بحيواناتي وأعيش حياة هادئة دافئة تحت الشمس وبجانب صديقتي البحيرة، ولكن الآن لا أعرف من أنا ولا من سأكون، وليس لدي أي ذكرى أو رائحة ملابس لأولادي، لم يبقَ سوى تلك الذكريات التي تدور مئات المرات في كل يوم في عقلي.

سمعت صوت تافارا يناديني لاستيقظ لتناول الفطور والذهاب للمعهد، لابد أن أنهض وإلا سوف يقول لي بعض الكلمات الجارحة بأنه لا يحق لي عدم الذهاب، نهضت مسرعة وحضرت نفسي للخروج، تناولت إفطاري بصمت، قال لي:

- هل أوصلك للمعهد فالمطر يتساقط بغزارة في الخارج؟

- لا، أحب أن أسير تحت المطر، أم نسيت ذلك؟!

صمت للحظات ثم قال:

- المطر هنا مختلف، فهو بارد ويهطل غزيرًا طوال الوقت.

- أنا أحبه هكذا، لا عليك، أذهب لعملك وأنا سوف أذهب ماشية، لدى تلك الشمسية التي اشتريتها لي، ثم إن المعهد ليس ببعيد.

راقبته وهـو يحضر نفسه للخروج ورائحة عطره تملأ أنفاسي، وفكرت بأنه لابد أن يكون هناك أحد ما بحياته، لابد أن هناك امـرأة ما يحبها وتحبه، فرجل مثله لا يمكن أن يبقى دون عشيقة، ثم فكرت بأنه من غير المجدي التفكير بذلك، فلا يجمعني به سـوى هـذا السقف حيث إنني لا أستطيع أن أذهـب تحت سقف بيتٍ آخر، لم يعد بيننا سوى احتياجي المادي له واحتياجه النفسي لي.

المطر يتساقط بـغـزارة، أحببت الشعور بثقل قطرات المطر على الأرض وعلى الشمسية الكبيرة التي أحملها، كـان الناس يسيرون مسرعين أو يركضون، وكنت أمشي بهدوء فما بقي لي من ذكرياتي هو هـذا المطر الـذي يجعلني أشعر بأنني أعـود من جديد، أنني لا أزال كامالي التي تحيا عبر أحـلام اليقظة الـورديـة، ولكن المطر هنا بـارد وقـاسٍ ويجعلني أشعر بالمزيد من الـوحـدة، ويجعلني أشعر بقوة أكبر أنني لن أعـود أبـدًا لقريتي، وأن ذلـك العالم أصبح مجرد أحـلام تنتابني خلال نومي وصحوي.

وصلت للمعهد، وحذائي مبلل، ومعطفي أطرافه كذلك مبللة، لم أهتم ببرودة قدماي، وجلست بانتظار بقية الطلاب؛ كـان الفصل مكونًا من حوالي خمسة عشر طالبًا وطـالـبـة، مـن جنسيات مختلفة بعضهم مـن الـيـابـان وباكستان، والنرويج والسويد وسويسرا، وتركيا، وبريطانيا، ومصر، بـلاد لم أكـن أعـرف عنها شيئًا ولا أعـرف حتى أسماءها، أحضرت المدرسة خريطة كبيرة وضعتها أمامنا لتشرح لنا من أين أتى كل طالب من الطلاب، وكـان لابد من حفظ أسماء تلك البلدان، وحين أتى دوري لأقـول من أي بلد أتيت، صمت وتذكرت تحذير تافارا لي بألا أقـول لأحد من أي بلد أتيت، فقلت بخجل:

- من أفريقيا.

ضحكت المدرسة وقالت:

- أجل ولكن من أي بلد.

لم أعرف بماذا أجيبها، شعرت بالحرج ثم بحثت عن كلمات تنقذني من الموقف

الصعب فقلت:

- من الصعب لفظ اسـم بلدي حين أسـأل زوجـي كيف ألفظه بالفرنسي سوف أخبرك من أي بلد.

- حسنًا.

وحين عدت للبيت في المساء أخبرت تافارا بما حصل، فقال لي:

- ما فعلته جيد، لا يجب أن تخبري أحـدًا من أي بلد نحن، قولي لهم إننا من السنغال، فهذا البلد من السهل قول اسمه وبعيد عن بلدنا.

وقفت المعلمة من جديد أمـام تلك الخريطة لتتأكد أننا حفظنا اسـم البلاد، ولم تنسَ أن تسألني:

- هيا يا كامالي، من أي بلد أنت؟

- من السنغال.

- أخيـرًا عرفنا من أيـن بلد أتـت كامالي، هـذا بلد جميل، يقع بهذه الجهة من الخريطة...

وتابعت الحديث عـن الـبلاد وعـن أوصـافـهـا وموقعها، أصبحت مـن السنغال ولست من هناك ولكن هنا يسألون طـوال الوقت من أيـن أنـت؟ لذلك كـان الاسم الجديد مريحًا بالنسبة لي ويريحني من فضول الآخرين.

بـدأت أحـب الـذهـاب للمعهد، رغـم البرد الـقـارص في الصباح، وأستمتع بكتابة الكلمات الجديدة، وأتخيل أنني بعد عـدة أشهر سـوف أستطيع قـراءة الـروايـات والقصص التي أحبها. ولكنني ورغمًا عني تشرد أفكاري بأحيان كثيرة في الفصل، تأتي صـور تاكي وسيمو وأتذكرهم وهـم يلعبون، أحـاول منع دموعي كي لا يلاحظ ذلـك بقية الـطـلاب، فأنظر إلـى أقلامي وأوراقـي إلـى أن تتراجع تلك الـدمـوع التي تهاجمني من وقت لآخر.

كنا فـي ذلـك الفصل مـن بـلاد مختلفة وكنت أكبرهم سـنًـا، فجميعهم شباب

يدرسون الفرنسية ليتابعوا تعليمهم في فرنسا أو يعودوا لبلادهم لتعليمها للطلاب هنـاك، وكـان كـل طـالـب لـه شخصية مختلفة عـن الآخـريـن، كـان هـذا الاخـتـلاف يضيف جـوًّا مـن الـمـرح فـي الفصل، فكل منهم لـه رد فعل مختلف بكل موقف، ولـه إجابة مختلفة حسب جنسيته وثقافته، وكانت تلك تجربة ممتعة جعلتني أحب الذهاب للمعهد، وبطريق العودة من المعهد كنت أذهـب إلى ذلك المقهى الصغير، أشـرب الـشـاي وآكـل الـكـرواسـون الساخن ثـم أعـود للبيت. وحين أعـود للبيت أعـد الطعام الـذي آكله أغلب الوقت بمفردي لأن تافارا لا يعود إلا متأخرًا في المساء، وأحيانًا كثيرة يأكل في المستشفى ولا يأكل في البيت. فكنت أقضي معظم وقتي بعد الانتهاء من مراجعة الـدروس أمـام ذلك الجهاز الأسـود الكبير الذي يُسمى التلفاز، أشاهد الأغـانـي، أو بعض الأفـلام التي أفهم بعض الكلمات منها، أو أشاهد برامج عن الحيوانات في أفريقيا، فأشعر ولـو لدقائق بأنني هناك؛ اعتدت على الصمت الـذي يحيط بي، وذلـك الفراغ الـذي كنت أعيشه ساعدني على التقدم سريعًا بـدراسـة اللغة، وكنت أريـد أن أدرسـهـا لأنني اشتقت للكتب. وخـلال اليوم كنت أنشغل بتنظيف البيت أو تحضير دروسـي وتحضير الطعام، ولكن في الليل تعود صـور تاكي وسيمو ولا أستطيع النوم إلا بعد ساعات من التقلب في فراشي، كنت أبكي في السابق كل ليلة وأذهـب للمعهد بعيون حمراء منتفخة، وتنظر لي المدرسة بقلق، لم تقل لي شيئًا ولكن تافارا عاد بأحد الأيام وقال لي:

- لقد اتصلت بـي مـدرسـة اللغة الفرنسية وأخبرتني بأنك تأتين بحالة سيئة للمعهد وأن عيونك تكون حمراء ومتعبة، مـاذا بعد يا كامالي! أعـرف أنك تبكين كل ليلة وأسمعك أحيانًا، ولكني تعبت من كل هذا الحزن، هذا يكفي فمنذ شهور وأنت تبكين في النهار وفي الليل، إلى متى؟ هل تريدين الحياة أم الموت؟

صمتُّ ولم أعرف بماذا أرد فتابع قائلًا:

- إن كنت تريدين الحياة فانظري حولك، أنت في مدينة من أجمل مدن العالم، تعيشين حياة مريحة، فقدنا أولادنـا ولكننا لم نفقد حياتنا، كما أخبرتك في السابق أنـا أيضًا فقدت كل أهلي، ولكن لابـد أن أعيش؛ إذا تابعت هـذا البكاء ليلًا ونهارًا

سوف تمرضين كوني متأكدة من ذلك.

ثم إن هـذا يزعجني ويزعج المدرسة والـطـلاب معك في الفصل، الجميع يرى أنك حزينة وأنـك كنت تبكين في الليل، توقفي عن هـذا، لا أريـد أن تتصل بي مرة أخرى.

لم أجد كلمات أقولها، وشعرت أنه لم ينزعج من اتصال المعلمة فقط، بل إنه ينزعج من حزني، فقلت له دون تفكير:

- لماذا أشعر أنك غير حزين لموت أولادك؟

نظر لي باستغراب شديد، تم قال بارتباك:

- مـاذا؟! ماذا تقولين؟! هل يجب أن أبكي أمامك كي تعرفي مدى حزني، أسمعي كامالي، أنا جراح وفي كل يوم أواجـه الموت، هناك من يتم إجـراء عملية له ويشفى ويخرج سعيدًا من المستشفى وهناك من يموت تحت العملية ولا أستطيع إنقاذه، لقد اعتدت على الموت لأنـي أراه دائمًا في المستشفى سـواء من المرضى الذين أعالجهم أو مـن مرضى لأطـبـاء آخـريـن، لقد اعـتـدت على رؤيـة الـمـوت، واعتدت على سماع أن هناك من مـات، ولا تتوقعي أن أجلس بجانبك وأبكي، الحزن شيء خـاص بكل إنـسـان لا يتوجب عليه مشاركته مـع الآخـريـن، حتى مـع أقـرب الناس لنا، أرجـو أن يكون هـذا واضحًا لـك، لا أزال أسير في طريق مهني طويل وأريـد أن أكـون الأفضل، وحزنك هـذا وأجوبتك هـذه لا تساعدني بهذا الطريق. أخبرتك عدة مـرات أنني لأصل لهذا المستوى درسـت كثيرًا وعملت ليلًا ونـهـارًا، حتى موت أهلي وأولادي لم يجعلني أتراجع عن طموحي، فإما أن تكوني معي وتتابعي دراستك أو تتغير حياتنا معًا، ويمكنني أن أجد لك بيتًا صغيرًا تعيشين فيه وحـدك، أرسـل لك مصروفك الشهري ولكن نعيش منفصلين، ما رأيك؟

أجبت بغضب:

- أنت تهددني بكل مرة، هذا يكفي!

- أنا لا أهـددك الآن، لقد وصل بك الأمـر باتهامي بعدم الحزن لأجل أولادي، ماذا

تبقى لديك لتلوميني عليه وأنـا أفعل كل شـيء لتعيشي حياة طبيعية وهـادئـة، أنا الآن أعطيك الخيار، أن تعيشي حسب ظـروفـي وتتابعي دراسـتـك وحياتك معي دون ضغوط نفسية ترهقني، أو أن أستأجر لك بيتًا صغيرًا تعيشين فيه وحدك مع أحـزانـك وأرسـل لك مخصصًا شهريًّا دون أن نتحدث معًا ودون أن تزعجيني بهذه التعليقات الجارحة.

للحظة شعرت بالرعب من فكرة أن أعيش وحـدي بهذه المدينة الضخمة دون أن أراه، ودون أن يكون بجانبي ولو في ساعات المساء المتأخر، وحتى لو أرسـل لي النقود كل شهر، فسوف تكون حياة مخيفة لشدة الوحدة، ثم أنني لن أحتمل عدم رؤيته أو حتى أن أشم عطره بكل صباح، فقلت له دون تردد:

- تافارا

قاطعني بعصبية:

- فرانسوا...

- أجـل، أجـل، فـرانـسـوا، سـوف أتأقلم مـع ظـروفـك، لا أريـد أن أعيش وحـدي وأعتذر منك لما قلته، لن أبكي بعد الآن.

تافارا

في عطلة نهاية كل أسبوع كنت أصطحب رولاند وميشيل، فلم يعد هناك وجود لاسميهما تاكي وسيمو، وأصبحا يناديان بعضهما البعض بهذه الأسماء الفرنسية، وقد ساعدت المدرسة في ذلك فلا ينادونهما إلا بهذين الاسمين، كنت أصحبهما كما هو متفق عليه لبيت سيلفيا حيث نقضي النهار معًا، فنذهب لمدينة الألعاب أو للسينما أو للتسوق، ثم أتركهما في الليل وأعود في الصباح لنقضي يوم الأحد معًا، نذهب للحدائق أو نسافر في السيارة إلى قرى قريبة من باريس، حيث نمشي بين الأشجار ونأكل في مطاعم ريفية بعيدًا عن صخب المدينة.

وكنت قد أخبرت كامالي بأنني أداوم أغلب عطل نهاية الأسبوع، كانت تعلم بأني أكذب ولكنها لم تقل شيئًا ولم أهتم بمراعاة مشاعرها، فقد وصلنا لاتفاق أننا نعيش دون مشاعر رومانسية وأننا نعيش معًا بدافع الاحتياج.

اقترحت سيلفيا أن نذهب بالقطار السريع إلى مرسيليا لزيارة والدتها، وأن يرى الأولاد البحر فهم لم يشاهدوه من قبل إلا من خلال بعض الصور، ذهبنا لمحطة القطارات الضخمة وصعدنا إلى القطار السريع، كانت السعادة بادية على وجه رولاند وميشيل، فهي أول مرة يركبون فيها في قطار سريع منذ وصولهم لباريس، جلسنا في القطار وأتى نادل يجر أمامه عربة عليها المشروبات والسندوتشات والحلويات، شربنا الشاي معًا وتناولنا الفطائر اللذيذة، وشعرت بسعادة كبيرة وأنا أمسك بيد سيلفيا وأنظر لأولادي أمامي الذي يزدادون وسامةً وبهاءً، خصوصًا وأنهم بدأوا يتكلمون الفرنسية بشكل ممتاز وبلهجة باريسية ناعمة، كانت تلك سعادة كبيرة أن أرى أن ما خططت له قد نجح، وأنني كنت على صواب بكل ما قمت به.

وبعد ساعة من الوقت بدأنا جميعًا نشعر بالنعاس على وقع صوت القطار الذي يسير سريعًا، وبصورة ناعمة على القضبان الحديدية، وأمام تلك المناظر الطبيعية الخلابة، التي تتخللها مناظر لبيوت صغيرة في قرى تقع في الريف

في وسط الحقول الخضراء، سقوفها من القرميد الأحمر وتزين نوافذها الزهور من جميع الألوان، ثم تمتد أمام نظرنا السماء الزرقاء الصافية، لتحيط بكل تلك المناظر في الأفق البعيد، شعرت بحبٍ عميقٍ لفرنسا ولجمالها الساحر، كان ينظر الأولاد عبر النافذة بحبورٍ كبيرٍ لما يرونه من مناظر طبيعية ساحرة، ومن تنوع ما بين المساحات الخضراء الشاسعة وما بين الغابات الخضراء بأشجارها الكثيفة، ثم بعض المدن الصغيرة ببيوتها الصغيرة أو الطرقات الشاسعة التي تمتد إلى ما لا نهاية. غرق كل منا بالنوم وأيقظتنا سيلفيا لتخبرنا بأننا قد وصلنا، حملنا حقائبنا الصغيرة ونزلنا من القطار، لننزل في محطة القطارات الضخمة في مرسيليا ثاني أكبر مدينة في فرنسا بعد باريس، وحين رأيت محطة القطارات ثم الشوارع التي مشينا فيها أدركت كم أنها مدينة ضخمة، تضم جميع الأجناس والأعراق من جميع العالم.

مشينا بين الشوارع القديمة والبيوت ذات الطراز الشرقي القديم بحجارتها البيضاء، ثم اتجهنا نحو مرفأ المدينة حيث تصطف مئات القوارب بألوانها الزاهية، البيضاء والحمراء والزرقاء والتي تلمع تحت أشعة الشمس؛ نظر رولاند وميشيل بانبهار إلى البحر، مع بعض الخوف فهي أول مرة يرون فيها البحر، سألني رولاند بقلق:

- أبي، إنه يشبه البحيرة التي في قريتنا ولكنه أكبر بكثير، وهو مخيف بعض الشيء، لن أفكر أبدًا أن أسبح فيه، أبي ألا ترتفع مياه البحر وتغطي الرصيف؟

ضحكت وقلت له:

- أحيانًا ترتفع الأمواج حين يكون هناك عواصف، ولكن لا تغرق المدينة، وبعد أربعة أشهر حين يأتي الصيف سوف تكون قد تعلمت السباحة ونسبح معًا في البحر.

قال ميشيل:

- لن أسبح فيه أبدًا.

ضحكت وقلت:

- حين تجرب السباحة فيه سوف ترغب بذلك دائمًا.

أخذتنا سيلفيا إلـى مطعم يطل على البحر؛ لنأكل السمك الطازج ونـرى البحر عبر الزجاج الكبير الـذي يفصلنا عن المياه، كـان شعورًا رائعًا أن نجلس معًا نأكل السمك المشوي والخبز الفرنسي الساخن والسلطة مـع الـخـل، ونشاهد البحر عبر النافذة كأننا نجلس فوق المياه الزرقاء.

وبعد أن تناولنا الطعام، ذهبنا لمنزل والـدة سيلفيا الذي يقع في إحدى الشوارع الهادئة، كانت تعلم بمجيئنا وأعـدت لنا قالبًا شهيًّا من الجاتو، جلسنا جميعًا في الحديقة الصغيرة نشرب الشاي ونأكل الجاتو الشهي، نظرت والــدة سيلفيا إلى الأولاد وقالت وهي تبتسم:

- يا لهم من أولاد وسيمين، كما أنهم يتكلمون الفرنسية بصورة جيدة جـدًا، أذكياء أيضًا.

شعرت بالفخر وهــي تتحدث عنهم ثـم تتبادل الحديث معهم عـن المدرسة وعـن باريس، وبعد وقـت قصير، خرجنا جميعًا بسيارتها لمناطق قريبة من البحر حيث جلسنا على الصخور، وكانت والــدة سيلفيا تحب اصطياد السمك، أحضرت صنارتها وجلست على كـرسـي صغير أحـضـرتـه معها، تنتظر حـضـور أي سمكة لاصطيادها، أحـب الأولاد ذلـك كثيرًا وطلبوا منها أن تعلمهم الصيد، وبــدأت تشرح لهم كيفية الصيد فجلسوا بجوارها على الصخور كل منهما يمسك الصنارة محاولًا الصيد كما علمتهما.

أمسكت بيد سيلفيا ومشينا على الصخور نتبادل الحديث وجلسنا قليلًا نتأمل بداية غروب الشمس، قالت لي فجأة:

- ماذا تفعل زوجتك حين لا تكون معها في عطلة نهاية الأسبوع؟

شعرت بالضيق لسؤالها ولكن كان يجب أن أجيب:

- تــدرس اللغة الفرنسية، تنظف البيت وبــدأت بتعلم الطبخ الفرنسي وهي

تحب التلفاز أيـضًـا، أعــرف لـمـاذا تسأليني هــذا الــسـؤال، اسمعي سيلفيا، لقد تفاهمت معها، فـلا مشاعر لــدي تجاهها وهــي كذلك لا مشاعر لديها تجاهي، نحن نعيش كـأصـدقـاء أتــوا مـن مكان مشترك ولا نستطيع الانـفـصـال على الأقـل في الوقت الحاضر.

- هل تجاوزت أزمة فقدان الأولاد؟

- لـم تتجاوزها ولــن تتجاوزها، ولكن اشترطت عليها ألا تبكي طــوال الوقت، وألا تذهب للمدرسة بعيون حمراء.

- أنت تبدو قاسيًا عليها بعض الشيء!

أجبتها بعصبية:

- سيلفيا، أنت تعلمين لماذا قمت بكل هذا، وتعلمين كذلك أنني لم أعد أحبها، كان بإمكاني أن أطلب منها العودة من حيث أتت ولكن لم يبقَ لها أحد هناك، وهي فهمت ذلـك ولا أستطيع أن أفعل لها شيئًا آخــر، هي تتعلم الفرنسية الآن وربما تــدرس شيئًا ما لاحقا وتعمل، وحين تعتمد على نفسها بالتأكيد سوف أنفصل عنها ولكن الآن لا أستطيع. هلا أغلقنا هــذا الموضوع، لا أريــد الحديث عنها خصوصًا بيوم جميل مثل هذا.

نهضا وسرنا باتجاه الأولاد الذين استطاعوا صيد سمكة صغيرة، وكـانـوا بغاية السعادة كأنهم اصـطـادوا حوتًا كبيرًا، ضحكنا جميعًا وجلسنا معًا نراقب غروب الشمس، ثم نهضنا لنعود لبيت والــدة سيلفيا لنقضي الليلة هناك. وحين عدنا أعــدت لنا والدتها طعامًا فرنسيًّا شهيًّا من الخضروات والفطائر الساخنة، أكلنا معًا وجلسنا نتحدث قليلًا إلى أن شعر كل منا بالتعب.

وفــي الصباح استيقظنا على رائحة القهوة والكرواسون الساخن، جلسنا جميعًا لتناول الفطور مع الزبدة الشهية التي تشتريها والــدة سيلفيا من بعض المزارعين، الذين يصنعونها بطريقة تقليدية، وأيـضًـا أنــواع عديدة من الأجـبـان محلية الصنع ومـربـى الـتـوت الــذي تصنعه والدتها بنفسها؛ قضينا وقـتًـا جميلًا معًا فـي تناول

الفطور بـدفء المطبخ وبرائحة الطعام الممتزجة برائحة القهوة؛ ثم خرجنا من جديد لنتجول في شـوارع مرسيليا الضخمة ونتسوق في المحلات التي لا تنتهي، وأخـيـرًا جلسنا في أحـد المقاهي المكتظة بالشباب من كل الجنسيات والأعـراق، وراقـبـنـا مئات الأشـخـاص الـذيـن يتجولون خـارج المقهى، يضحكون ويتحدثون، شعرت بالفرق الكبير بين باريس ومرسيليا، ففي باريس الجميع يسيرون بسرعة عابسي الـوجـوه حتى لا ينظرون لبعضهم البعض، أمـا هنا فيمشون باسترخاء، يضحكون يتحدثون، يجلسون على حافة الـشـارع يشربون القهوة أو يدخنون السجائر، كل شيء هنا يسير بوتيرة البحر المسترسلة بالهدوء والاسترخاء.

وبعد بضعة ساعات عدنا لبيت والـدة سيلفيا، وكـان لابـد من المغادرة والعودة إلـى باريس، ووعدناها بـزيـارات أخـرى وأخبرها الأولاد بأنهم سـوف يحضرون المرة القادمة، وكـل منهما معه صنارته الخاصة به ليصيدوا معًا. وهكذا وخـلال بضع ساعات وصلنا لباريس بعد يومين رائعين بعيدًا عن جدية باريس وسرعة نبض الحياة فيها.

أوصـلـت الأولاد للمدرسة، وتابعت طريقي إلـى البيت، حيث وجـدت كامالي كالعادة تشاهد التلفاز، سألتني إن كنت أريـد أن آكـل ولـم تسألني أي شـيء آخر، فقلت لها إنني متعب وذهبت مباشرة للفراش، وبقيت هي تشاهد التلفاز أو تهرب من الحديث معي، عبر تلك الشاشة التي لا تتوقف عن الحديث ولا عن الحركة.

كامالي

أصعب الأيام عطلة نهاية الأسبوع خصوصًا الأحد، فالمحلات مغلقة والمقهى الذي أحب الذهاب إليه مغلق، والصمت يجثم تقيلًا على البيوت والشوارع والنفوس، وأغلب الشوارع في الصباح تكون فارغة من المارة، تافارا ينام أحيانًا خارج المنزل بحجة عمله، وحين يكون في البيت يستيقظ مبكرًا ليذهب من جديد، لا أدري أين ولكن بالتأكيد ليس للعمل، لا أسأله ولم أعد أهتم، إذا قلت أي شيء سيقول لي إذا لم يعجبك تستطيعين العودة غدًا على أول طائرة والبقية أحفظها جيدًا، لذلك قررت أن أعيش مع صمتي وذكرياتي مع أولادي.

أقف خلف النافذة، يتساقط المطر بغزارة الشتاء بـاردًا جـدًا بباريس، ووحدتي تزيد من شعوري بالبرد رغـم التدفئة الموجودة في البيت، أفكر بتاكي وسيمو، وأقـول لنفسي كما قلت لها آلاف المرات من قبل، لماذا أنـا؟ لماذا ليست أمًّـا أخرى من فقدت أولادهـا؟ لماذا فقدت كل شـيء؟ أهلي وقريتي وأولادي وزوجـي؟! لماذا قامت تلك الحرب اللعينة، لأجـل السلطة ولأجـل المال ولكنها أبـدًا ليست لأجل البشر البسطاء مثلي من فقدوا كل شـيء، أفكر كل يـوم عشرات المرات كيف لي بتهدئة هـذا الألـم الـذي ينغرس بصدري، ألـم فـراق أولادي، كيف لي أن أعتاد على أنهم ماتوا، كيف لي أن أوقـف وجهيهما اللذين يرافقانني في كل لحظة، وسماع أصواتهما وهما يناديانى، لا شـيء معي من أثرهم ولا حتى خصلة شعر، كـأن كل جـذوري اقتلعت هناك وبقي هـذا الغصن الـجـاف مرميًّا فـي أحـد بيوت باريس، وحيدًا جافًا ومشوهًا.

تذكرت أنني كنت أشعر بالراحة حين أزور قبر أمـي كأنني أراهـا، ولكن أولادي لا قبر لهما، ولا أعـرف أيـن دفنا، قبرهما موجود في روحـي فقط لذلك لا أستطيع الفكاك من الحزن لأجلهما ولأجـل نفسي، لا يغادرني الحزن ولا الذكرى لأنهما لم يُدفنا، لأنه لا قبر لهما، فهما في لا مكان وفي كل مكان.

تافارا يعتقد أنني أفكر به وأنني لا أزال أهتم به، ولا يعلم ولا أريد أن يعلم أنني

ومنذ اللحظة التي تجاهل بها دموعي بذلك المقهى بسبب حبي لـه، مـات ذلك الشعور، ولـم يعد ما أكنُّه له حبًّا بل احتياجًا ولا شـيء غيره، ولأن شعوري تجاهه مـات لقسوته ولـغـروره الشديد، أشعر بحرية كبيرة، أشعر بالشفاء منه. هو لم يرَ الإبـادة التي حصلت في القرية، لم يرَ الجثث الملقاة بكل مكان، لم يرَ السكاكين المغروزة في الـصـدور، ولا طلقات النار التي اخترقت الــرؤوس، لم يـرَ جثة والدته تنهشها الـضـبـاع، ربما لـو رأى كـل ذلـك لاستيقظت إنسانيته، وأدرك أن الحياة ليست مـركـزًا مـرمـوقًـا فـي مستشفى مـعـروف، ولأدرك أن الحياة ليست شهادة عليا تفاخر بها، وأن هناك وجهًا آخر للحياة بشعًا لدرجة أننا نشعر بأننا أقـزام أمام بشاعته، وأننا لا نريد من الحياة سـوى الأمـان تحت شجرة ما أو في كهف مـا، هو لم يعرف كل ذلـك، ويعتقد أنـه حين يعالج المرضى أو حين يموت المرضى فإن الموت يتحول لشيء عـادي، لا يعرف بـأن الموت على سرير المرض رفاهية، وأن الموت في فترات الإبـادة هو الوجه الإجرامي للإنسانية، وأنـه وجه مخيف لا يمكن نسيانه أبدًا.

لـم أخـبـره بأنني أرى كوابيس بسبب مـا رأيـتـه مـن قبل، وأنـنـي بأحيان كثيرة أستيقظ في منتصف الليل خائفة وأرتـجـف، حين تعاودني صـور تلك الجثث من الأطـفـال والنساء والـرجـال، أخـاف أن يغضب ويـقـول لـي توقفي عـن هـذا يكفي اجـتـرار الـذكـريـات، أنـت فـي مدينة مـن أجمل مـدن العالم وبقية تلك الكلمات، أجـل هي مدينة جميلة ولكنني لا أمتلك الـقـدرة بعد على تـذوق جمالها، الحزن الـذي بداخلي يجعلني أرى العالم من حولي ضيقًا حزينًا وشحيحًا بالحب والأمـل، ذكرى أولادي تجعلني أشعر بأنه لا وجود حقيقيًّا لي وأنني مجرد طيف يتجول بهذا البيت ويمشي بتلك الـشـوارع في الـخـارج، مجرد امـرأة سـوداء تسير وحيدة في شـوارع باريس لا يربطها بالمكان أي رابـط روحـي أو نفسي، لا يربطها به أي ذكرى ولا حنين، هنا تحولت إلى مخلوق يعيش لأنه لا يموت.

تلك الفترات التي أقضيها وحـدي خصوصًا بنهاية الأسـبـوع تجعل الحزن يشتد ويعتصر روحــي، فخلال الأسـبـوع أذهــب للمعهد وأنسى بعضًا من حزني، ولكنني في عطلة نهاية الأسـبـوع أقـف بمواجهة هـذا الـحـزن، أو بـالأحـرى يتحداني ويقف

أمامي بكل خطوة وبكل فكرة، وكـان يجب أن أجد طريقة ما لأستعيد توازني لكيلا أصبح مجنونة لشدة هذه الكآبة، التي تربض فوق كل مساحات نفسي.

وتلك الطريقة لم أجدها، ولكنها وجدتني، إنها نيفين الفتاة التركية التي تجلس بجانبي في الفصل، والتي تبتسم دائـمًـا، وتقترب مني لتسألني طـوال الوقت إن كنت أحتاج لمساعدة، وتسألني إن كنت أحضرت الطعام خـلال فترة الاستراحة، وكـأن القدر أرسلها لي لأخـرج من تلك الحالة الصعبة والتي تركني بها تافارا دون أقل قدر من التعاطف. كنت أرد على أسئلة نيفين على قدر الكلمات التي أعرفها بالفرنسية، وإذا لم أعـرف الإجـابـة أرسـم لها إجابتي وهـي ترسم سؤالها، أصبحنا صديقات دون أن نتكلم لغة مشتركة، نعرف فقط بعض الجمل بالفرنسية التي نتعلمها كل يـوم، ولكننا كنا صديقات حتى دون كلمات ورغـم فـارق السن بيننا، بـدأت أشعر بالأمان معها، وأنـه يوجد شخص ما يهتم بي، وأصبحنا نأخذ الاستراحة معًا، ونذهب للتسوق معًا بعد الانتهاء من الــدروس. وأحيانًا نتمشى معًا ونذهب لشرب القهوة دون أن نتحدث كثيرًا ولكننا كنا نرسم كثيرًا. وهـكـذا أصبح لي صديقة فـي فرنسا اسمها نيفين، أخرجتني مـن ذلـك الـحـزن الدفين ولـو لبعض الوقت حين أكـون خـارج البيت وكنت سعيدة بذلك الـدفء الإنساني الـذي كنت أفتقده بشده.

ووجــدت طريقة أخـرى لتجاوز ذكرياتي المؤلمة وهــي عبر الــدراســة، أصبحت أهتم فعلًا بـأن أدرس لأن هـذا يجعلني أنسى وكذلك يجعلني أستطيع الحديث مع نيفين، لقد كانت أفضل مني باللغة الفرنسية لأنني لم أكـن أهتم بالسابق وكـان يعتريني الشرود بأغلب الوقت في الفصل، ولكن بعد صداقتنا بـدأت أهتم بـالـدراسـة، أريـد أن أتحدث معها، أريـد أن أعـرف كل شـيء عنها وأن أخبرها عن أولادي وعـن ذكرياتي، أحتاج لمن أتحدث معه عن نفسه وعني، أحتاج لأي رابط إنساني يجعلني أشعر بأنني فعلًا على قيد الحياة.

مـر الشتاء، وبــدأت فعلًا أتكلم الفرنسية وأستطيع أن أعبر عـن أشـيـاء كثيرة حولي، وبـدأت آخـذ درسًـا إضافيًّا لتحسين لهجتي كما طلب تافارا ذلـك من مديرة

المعهد، وبـدأت أشعر بشيء من الفرح والإنـجـاز لأنني أتكلم الفرنسية، وخلال بضعة أشـهـر سـوف أتمكن مـن قـراءة الـروايـات والـقـصـص. أصبحت أستطيع الحديث مع نيفين، وأفهم ما تقوله لـي، ومـا تخبرني به عن بلدها الجميل الذي اسمه تركيا، أحضرت لي صـورًا لأرى جمال بلدها، وحين سألتني عن بلدي قلت لها من جديد إنـه السنغال، ولكن ليس لـدي صـور، وأخبرتها أنـه كـان عندي ولـدان وأنهما قُتلا، ورأيـت عينيها تدمعان لشدة رقـة قلبها، فبكيت لأول مـرة أمـام أحد ما دون أن أشعر بالخوف أو الـحـرج، بكيت كثيرًا وبكت معي ولـم نهتم بنظرات الأشـخـاص الموجودين فـي المقهى، لـم تقُل لـي توقفي عـن البكاء، بـل قالت لي بـأن أبكي إلـى أن أشعر بالارتياح، فبكيت كأنني لأول مـرة أسمع خبر موتهما، فلم يشاركني أحد عزاء فقدهما من قبل، وضعت نيفين يدها على كتفي دون أن تتكلم، وتركتني أبكي. وبعد أن تعبت من البكاء، قلت لها:

- أشكرك يا نيفين.

أجابت باستغراب:

- لماذا؟

- لأنني منذ موت أولادي لم يشاركني أحد حزني.

قالت بتساؤل:

- ولكن أليس زوجك معك؟

- هو معي وليس معي.

- كيف ذلك؟

- لا أستطيع أن أشـرح ذلـك الآن، ربما حين أتكلم الفرنسية أفضل سـوف أشرح لك.

أصبح عندي صديقة في باريس، وصديقتي هذه غيَّرت حياتي، وجعلتني أتوقف عن البكاء خلف النافذة في كل يوم أحد، لأننا أصبحنا نتقابل في كل يوم أحد ندرس معًا ونذهب لأحد

المطاعم نتناول الغداء معًا، نتمشى قليلًا قرب نهر السين ثم نعود سويًّا، ولم تكن تسكن بعيدًا عن بيتي لأنها اختارت سكنًا قريبًا من المعهد. وهكذا غيَّرت نيفين حياتي، وأعادت لي إنسانيتي من جديد، وأدركت أن إهمال البشر أقسى من قتلهم، فالموت يُنهي الحياة، أما الإهمال فيشوّه الحياة، يجعلنا أقل من كل شيء حولنا، ينزع إنسانيتنا ويجعلنا نشعر بأنه لا قيمة لنا كبشر.

تافارا

أتى الربيع، وبدأت باريس تكتسي بثوب الأزهار الملونة وأشعة الشمس الدافئة، وبدأت الطيور تغرد من جديد في الصباح، وأوراق خضراء يافعة تزين الأشجار وترتعش أمام النسمات الخفيفة التي تهب بنعومة على الشجر؛ استيقظت مبكرًا في هذا اليوم الجميل لأستمتع بالجلوس في الحديقة وأشرب قهوتي قبل الذهاب للعمل؛ وجدت كامالي تجلس قبلي في الحديقة تقرأ بعض الأوراق وتكتب بعض واجباتها؛ بعد عدة أشهر من دراسة اللغة أصبحت تتكلم بشكل جيد، وإلى أن يأتي الصيف سوف تتكلم بشكل ممتاز، لم أكن أتوقع أن تحقق هذا التقدم بهذه الصورة، لقد فاجأتني بذلك وشعرت بالارتياح أيضًا؛ فأنا أريدها أن تجد لنفسها عالمًا خاصًّا بها لا يرتبط بي، واللغة عامل أساسي بهذا الانفصال النفسي والمعنوي.

نزلت إلى الحديقة لأشـرب القهوة التي أعدتها كامالي، جلست بجانبها وسألتها مـاذا تقرأ، أخبرتني كما توقعت أنها تكتب واجبات عليها، وأنها تتحضر لامتحان بعد يومين، ثم قالت لي مبتسمة:

- أصبح لدي صديقة.

ضحكت وقلت لها:

- هذا جيد، من هي هذه الصديقة؟

- اسمها نيفين، تجلس بجانبي في الفصل.

صمت قليلًا ثم قلت لها:

- أليس مـن الأفضـل أن تجدي صديقة فرنسية لتتدربي على الحديث بشكل أسرع على اللغة؟

اختفت الابتسامة عن وجهها وقالت:

- هل تعتقد أن أي فرنسية سـوف تحب أن تكون صديقة لامـرأة سـوداء مثلي لا تتحدث اللغة بشكل جيد؟!

تأففت من إجابتها وقلت:

- بالطبع يوجد، يكفي أن تبتسمي للناس وتكوني لطيفة، يمكنك التعرف على صديقة ما في الحديقة أو المقهى أو حتى محل البقالة، أنت طوال الوقت تقولين لنفسك أنك امرأة سوداء، أنت سلبية التفكير تجاه نفسك.

قالت ببرود:

- ألم تلاحظ نظرات الناس لي حين مشيت معك مرة أو مرتين؟! إنها نفس النظرات لي حين أكون وحدي بل أسوأ، أشعر أنهم يريدون طردي حتى من الشارع، لابد أنك رأيت هذه النظرات قبل أن تصبح طبيبًا، أليس كذلك؟

- لم أكن أمشي وأشاهد كيف ينظر إلي الناس، لم يكن يهمني سوى دراستي. وما هي جنسية صديقتك هذه؟

- إنها تركية الجنسية.

لم أكمل قهوتي وقلت لها قبل أن أنهض:

- ألم تستطيعي أن تتعرفي على جنسية أفضل، أوروبية أو أمريكية، جنسية ثقافتها قريبة من الثقافة الفرنسية؟!

أجابتني دون أن تنظر لي:

- نيفين الوحيدة التي اهتمت بي، والآن يجب أن أتابع الدراسة.

خرجت من المنزل والغضب يعتريني، فهي تثير أعصابي، وأشعر أنها لا تريد أن تبذل أي جهد لتندمج مع المجتمع الفرنسي، وما زاد من توتري هو أنني أتلقى العديد من الدعوات للعشاء أو للكوكتيل وتكون الدعوة لي ولزوجتي، فأخبرهم أنها لا تتكلم الفرنسية بعد، فأذهب وحدي، في البداية كان الأمر عاديًا ولكن بعد مضي عدة أشهر ولا أزال لا أصحبها معي بدأ الأمر يثير الريبة، وبدأت نظرات بعض الأطباء خصوصًا الذين لا تربطني علاقة جيدة معهم تلاحقني حين أقف دون زوجتي وسط تلك المناسبات التي يعتبرونها مهمة.

كنت أراقب كامالي من شهر لآخر، هل هي جاهزة لأقدمها لذلك الوسط الراقي والـذي ينتقد أي تفاصيل، هل طريقة حديثها ستكون لائقة؟ هل طريقة مشيها وحركاتها ستكون مناسبة؟ هـل يمكنها استقبال الضيوف وإعـداد الطعام لهم بشكل لائـق؟ وكانت جميع الأجوبة بأنها ليست جاهزة لكل هـذا، فلا تـزال تمشي بطريقتها الـقـرويـة البطيئة مـع وزنـهـا الـزائـد، ولا تـزال لهجتها للفرنسية ثقيلة رغـم جهد المعلمة معها بنطق الـحـروف، ولا تـزال لا تتقن الأطباق الفرنسية رغم محاولاتها الدائمة لـذلـك، رغـم أن هـذا الموضوع ليس مهمًّا مقارنة مـع نجاحي كجراح، ولكنه بدأ يشكل أزمـة نفسية بالنسبة لي، وبـدأت أفكر بأنني لو استطعت لانفصلت عنها وتـزوجـت سيلفيا لينتهي هـذا الـصـراع الثقافي الـذي أجـده أمامي في عمق حياتي وبيتي؛ لقد تجاوزت كل العقبات التي حالت بيني وبين اندماجي بالمجتمع الفرنسي، حتى اسمي أصبح فرنسيًّا، حتى لهجتي أصبحت ممتازة، وطريقة مشيتي أصبحت كطريقة الفرنسيين في المشي، ولكنني وفـي ما يتعلق بكامالي أصبحت عـاجـزًا بشكل كبير؛ فهي ورغـم بذلها كل جهد لتعلم الفرنسية، وأنها تتكلمها بما يكفي لتتعرف على أصدقائي وعلى محيطي المهني، إلا أنها لا تزال امـرأة أفريقية بكل تفاصيلها، لا يزال جزء كبير منها يرفض التأقلم مع المجتمع الفرنسي. لذلك أخبرتهم حين يطلبون مقابلتها أنها لا تـزال تجد صعوبة بالتأقلم مع الحياة هنا، وأن ذلك يؤثر على نفسيتها كثيرًا، لم أخبرهم بأن لدي ولدين وأنهما في مدرسة داخلية، الوحيدة التي تعرف عن أولادي هي سيلفيا واتفقت معها بألا تخبر أحدًا عنهما.

كـان إخـفـاء مـوضـوع الأولاد شـيء ثقيل بالنسبة لـي، فلم أكـن أدري إلـى متى سأستطيع إخفاء وجودهما في حياتي، وهـل ستعرف كامالي يومًا ما بذلك وإن عـرفـت هـل ستسامحني لأنـي فعلت ذلـك لأجـل حمايتهما. كنت بحاجة لرؤية سيلفيا فـي ذلـك الـصـبـاح، طلبت منها أن تطلب إجــازة وأن نقضي الـيـوم معًا؛ لأنني كنت بحالة نفسية سيئة. تقابلنا في الحي اللاتيني ومشينا بين المقاهي والمطاعم حيث تفوح رائحة القهوة ورائحة الطعام من جنسيات متعددة، جلسنا أخيرًا في مقهى صغير بقرب النافذة التي تطل على الشارع حيث نرى المارة ونشعر

بحيوية الطريق بعيدًا عن ضجيج المدينة والسيارات.

قالت وهي تبتسم:

- ماذا هناك تبدو بحالة سيئة؟!

شربت بعضًا من القهوة وأجبتها بصوتٍ متعبٍ:

- أحيانًا أفكر ماذا لو عرفت كامالي أني كذبت عليها بشأن الأولاد وماذا لو عرف زملائي بالعمل أنني أخفيتهم عن والدتهم، ولم أخبرهم أن والدتهم في باريس، ماذا لو عرفوا بأني كذبت على أولادي أيضًا؟!

- أنت لديك سبب وجيه لإخفائهم، فهم في خطر، حتى أنت اضطررت لتغيير اسمك واسمهم.

- أجل، ولكن هل يكفي هذا؟

- كفرنسية هذا كافٍ بالنسبة لي فكيف ستعيشون بأسمائكم الحقيقية وتشعرون بالخوف طوال الوقت؟. اسمع فرانسوا، يجب أن تتجاهل هذه الأفكار، أولادك الآن في المدرسة وقد تأقلموا مع الوضع ويتحدثون الفرنسية بشكل ممتاز، وسوف يكون لهم مستقبل جيد هنا، وبعد عدة سنوات سيلتحقون بالجامعة، لقد فعلت ما هو صواب، لا يمكنك التفكير بهذه الصورة وإلا سيؤثر ذلك على عملك، ولكني أعتقد أن هناك سببًا آخر يُقلقك...

نظرت إليها باستغراب وقلت:

- ما هو؟

نظرت قليلًا عبر النافذة ثم نظرت لي بشكل مباشر وقالت:

- أنت لم ترغب بأن يعيش الأولاد مع والدتهم، لم ترغب بأن يحملوا الثقافة الإفريقية، رغبت بأن يكونوا فرنسيين حتى بمشاعرهم، وكان الدافع الأمني مبررًا جيدًا لك وهو سبب مهم أيضًا، ولكنه لم يكن السبب الوحيد.

صمتُّ قليلًا، وقلت لها دون مواربة:

- أنت ذكية، وهذا صحيح، تخيلي لو أنهما يعيشان الآن مع والدتهما، لم يكونا ليتحدثا الفرنسية كما يتحدثانها الآن، لن يتعلما أسلوب حياة الفرنسيين وطريقة تفكيرهم، سوف يكونان أفارقة يعيشان في باريس، وأنت ترين حتى عبر هذا الشارع كم أفريقيًّا يمر ويبدو أنه بحالة سيئة ولا يمتلك قوت يومه، يهربون من بلادهم ويجيئون هنا دون دراسة أو مؤهلات علمية، ويعيشون مختبئين أغلب الوقت لعدم وجود أوراق إقامة ولا يحق لهم الإقامة هنا، حتى من يذهب منهم للمدرسة هناك من لا يحبون الدراسة ويجدون أنفسهم في مجموعات أصدقاء السوء أو التسلية، حيث لا هدف لهم في الحياة، بالطبع هناك من يدرس وينجح ولكني لم أرغب بأن يدرس أولادي وينجحوا فقط أريد أن يكونوا فرنسيين في الهوية والثقافة وطريقة التفكير، أشتاق لهما كثيرًا وأتمنى لو أنني أراهما كل يوم حين أعود إلى البيت، ولكنني حرمت نفسي منهما ولو جزئيًّا لأجل مصلحتهما، اكتفيت برؤيتهما بنهاية الأسبوع لأجل مستقبلهم، أنت لا تعرفين ماذا يعني أن تأتي من بلد أفريقي ليس به أي من مقومات الحضارة والمدنية، ربما لو عشت في القرية التي كنت أعيش بها لفهمت ذلك، لقد كنا نعيش في بدائية الحياة، ولو مرَّت سنوات طويلة لن يتغير أي شيء على نظام تلك الحياة، ولا أريد ولا بأي صورة من الصور أن يعيش ولداي تلك الحياة مرة أخرى، ولو استطعت لنزعت الذكرى التي في عقليهما عنها كي يعيشا واقعهم الأوروبي الحاضر بكل حواسهم وقدراتهم العقلية.

أمسكت بفنجان القهوة ونظرت إليه كأنها ترى صورتها منعكسة على سطح القهوة الداكنة وقالت دون أن تبتسم:

- لم أكن أريد إخبارك، ولكن رولاند وميشيل حين يكونان لوحدهما لا يناديان بعضهما إلا باسم تاكي وسيمو، لقد أخبرتني بذلك المشرفة على قسم النوم في المدرسة، فقط حين يأتي موعد النوم تسمعهما يتحدثان بلغتهما الإفريقية ويناديان بعضهما البعض بأسمائهما الأفريقية.

شعرت بالدماء تفور بعروقي وقلت لها بعصبية:

- لماذا لم تخبريني بذلك؟ متى علمت بهذا؟

- اهدأ، لقد علمت فقط منذ يومين، ولم يكن لدي الوقت الكافي لإخبارك، طلبت مني المشرفة أن أخبرك بذلك، ثم هل سوف تنهرهما؟! هذا لن يجدي

نفعًا، لابد أن تكون هادئًا حين تتحدث معهما.

لم أستطع الانتظار وطلبت منها أن نذهب للمدرسة، نهضنا من المقهى وسرت مسرعًا بين الطرقات وهـي تسير بجانبي محاولة اللحاق بي إلـى أن وصلت إلى سـيارتـي، وخـلال وقـتٍ قصيرٍ كنت أجـلـس مـع رولانـد وميشيل وسيلفيا تجلس صامتة بجانبي، قلت لهما بهدوء:

- ألـم أطلب منكما ألا تناديا بعضكما البعض إلا باسم رولانـد وميشيل، ألم أطلب منكما ألا تتحدثا إلا بالفرنسية مع بعض!

صمتا، وبدا الخوف واضحًا بعيونهما، قال ميشيل بصوتٍ حزينٍ:

- حين نـنـادي بعضنا البعض بأسمائنا نتذكر أمـي ونشعر أننا قريبان منها، خصوصًا فـي الليل، نتذكر حين كانت تحكي لنا القصص، ويحكي لـي تـاكـي... عفوًا رولاند القصص بلغتنا الأفريقية فنشعر أن أمي معنا...

قال رولاند والدموع تلتمع بعينيه:

- نحن نشتاق لها، لم نخبرك بذلك، ولكننا نشتاق لها، وحين نتذكرها نشعر بالحزن والرغبة بالبكاء، أحيانًا يبكي ميشيل فأحاول تهدئته بأن أحكي له القصص التي كانت تحكيها والدتي لنا، حتى أنه يراها أحيانًا في أحلامه...

قلت له منزعجًا:

- ماذا؟! ماذا رأيت في أحلامك؟

قال ميشيل محاولًا خنق دموعه:

- أراها أحيانًا تبكي وتحتضنني وتحضن تاكي...

- قلت لك لا تقول تاكي، قل رولاند...

- آسف، رولاند...أبي هل لديك صورة لأمي؟

سـاد الصمت، ولـم أعـرف بماذا أرد، فقالت سيلفيا لتنقذني كعادتها من تلك المواقف الصعبة:

- هذا طبيعي أن يرى الأطفال والدتهم في الحلم بعد موتها، وسـوف تتجاوزون هذه الأزمة شيئًا فشيئًا...

قاطعها رولاند سائلًا من جديد:

- أبي، هل لديك صورة لأمي؟

قلت بغضب:

- ألـم تتعلم ألا تقاطع مـن يتكلم معك خصوصًا حين يكون أكبر منك سنًا، أسمعا، أنتما في مدرسة ممتازة، وتعيشان في فرنسا حـاولا أن تنسيا تلك القرية البعيدة والتي لم تعد موجودة أصـلًا، والدتكما ماتت ولا نستطيع عمل شـيء، سوف أبحث عن صـورة لها وأحضرها معي في المرة القادمة، ولكن يجب أن تعداني بأن تتوقفا عن مناداة بعضكما البعض بتلك الأسماء القديمة، وأعدكما بأننا سنذهب برحلة في القارب بنهاية الأسبوع.

لم تعد تلك الرحلات ولا السينما تثير اهتمامهما، أصبحت الرحلات شيئًا عاديًّا والسينما شيئًا مـكـررًا، حتى مدينة الملاهي أصبحت كـأي شـيء آخـر في حياتهما، هزّا رأسيهما، قبلتهما وعادا لدروسهما، قالت سيلفيا بعد أن غادرا:

- يبدو أن الانبهار بالأشياء الجديدة بـدأ يخفت لديهما، لابـد من البحث عن أشياء أخرى تثير اهتمامها ليستطيعا النسيان.

هززت رأسي بيأس وقلت:

- لقد تعبت من لعبة الانبهار هذه، أحيانا أتمنى لو أبقى في البيت طوال نهاية الأسبوع ولا أذهــب لأي مكان، ولكني يجب أن آخذهما لأماكن جديدة كي ينسيا تلك الذكريات المحفورة في عقليهما، لقد تعبت فعلًا.

أمسكت يدي وقالت:

- هيا، توقف عن هـذه الكآبة، سـوف نجد شيئًا مثيرًا للاهتمام لهما في البيت بعطلة نهاية هـذا الأسـبـوع، هيا سـوف نشتري بعض الألعاب الجديدة، مثلًا نحضر

لعبة ليغو كبيرة يُركِّبانها لمدة ساعات وأنت ترتاح قليلًا، ما رأيك!

- أجل، فكرة جيدة، وسأشتري لهما بعض السيارات الحديثة أيضًا، هيا بنا.

وفي عطلة نهاية الأسبوع، وقفا أمـام تلك الألعاب بألوانها الزاهية وتلك القطع الصغيرة من الليغو، التي لابـد من تركيبها لتأخذ شكلًا مثيرًا للاهتمام، قطار أو بيت أو عمارة مـا، جلسا على الأرض وبـدءا بتركيب تلك القطع بسعادة واهتمام لساعات طويلة كما توقعت سيلفيا، ثم لعبا بالسيارات الحديثة التي اشتريتها لهما، كانا يشعران بالسعادة بتلك الألـعـاب الجديدة، وقمت بتحضير الطعام مع سيلفيا، قضيا عطلة نهاية الأسـبـوع بهدوء في المنزل وفـي نهاية يـوم الأحـد وقبل أن أرافقهما من جديد للمدرسة قال لي رولاند:

- أبي، هل وجدت صورة لأمي؟

لم أعد أدري هل أشعر بالغضب أم باليأس، ولكنني فضلت الهدوء وقلت له:

- لقد كنت مشغولًا جـدًا هـذا الأسـبـوع، سـوف أبحث إن كـان يوجد صـورة لها في الأيام القادمة.

وحين عـدت بالسيارة باتجاه منزلي، أدركـت أنني أطلب منهما شيئًا مستحيلًا، فكيف سينسيان والدتهما؟ وهل نسيت أنا الرجل الكبير والدتي؟ كيف سأجعلهما ينسيان؟ لم يكن هناك مجال للنسيان ولكن كان هناك مجال لتجاهل الذكرى، وهو ما قررت أن أقوم به، أن أتجاهل كل ذكرياتهما القادمة من هناك إلى أن يتوقفا تمامًا عـن الحديث عنها ثـم تتلاشى مـن ذاكرتهما؛ لذلك أخبرتهما فـي عطلة الأسبوع التالي أنني لم أجد صـورة لها، وأننا في قريتنا لم يكن يوجد كاميرات تصوير، علا الـحـزن وجهيهما، ولكني تجاهلت ذلـك الـحـزن، وبـدأت الحديث عـن أمـور أخـرى وقـررت أن أغير موضوع الحديث عن والدتهما أو عن القرية بكل مناسبة إلـى أن توقفا عـن ذكرهما، وأصبحت المواضيع المشتركة بيننا هـي مـا لها علاقة فقط بفرنسا، أما حين يسألاني عن تلك الذكريات البعيدة أقـول لهما إنني نسيت الكثير منها ويتحول الـكـلام لموضوع آخـر إلـى أن تلاشت تلك الـذكـريـات مـن أحاديثي

معهما.

كامالي

أصبح اسمي دومينيك، أحضر تافارا جواز سفري الجديد باسم دومينيك، شعرت بقشعريرة تسرى في جسدي، شعرت أنني فعلًا ابتعدت عن موطني وجذوري، وأن ذكرياتي ليست سوى صور مبعثرة في زاوية ما من عقلي، وأنني كلما عشت يومًا آخر في باريس ابتعدت عن ذلك المكان الذي كان وطني، وكلما مشيت في شوارع باريس بدأت روابط أخرى تنمو في قلبي تجاه هذا المكان، روابط غير متجذرة في نفسي ولكنها تبقى روابط تجعلني أحب هذا المكان أو ذاك، تجعلني أجلس بقرب نهر السين في المساء أراقب المياه التي تنساب بغزارة وبهدوء عبر الشوارع والقرى، وأرى على صفحة المياه ظل الأشجار التي تنعكس صورتها على صفحة المياه، ثم تلك القوارب الصغيرة التي تمر بهدوء دون صوت سوى صوت المجاذيف التي تدفع القوارب إلى الأمام أو الخلف، وأراقب البجع الأبيض الذي يطفو بهدوء ودعة على سطح الماء، دائمًا الزوجان معًا من النادر أن يسبح البجع بصورة منفردة، ينسجان معًا قصة حب بيضاء طاهرة على صفحة الماء، حب يستمر طوال حياتهما بصمت ولكن بعمق الوجود وصدق الوفاء.

حين أجلس بقرب النهر وأرى سعادة البجع مع بعضهما البعض لا أستطيع منع نفسي من التفكير، إلى متى سوف أبقى وحيدة؟ لقد بقيت لسنوات وحيدة في قريتي دون زوجي ولكن كان معي أولادي، والآن زوجي معي ولكنه ليس لي، وأولادي ماتوا، وحين أرى البجع يطفو على سطح الماء مع أولاده الصغار، أذرف دموعًا صغيرة وأتذكر سعادتي التي كانت مع أولادي، وكيف أنهم أصبحوا مجرد ذكرى تطفو في خيالي ولا أستطيع أن ألتقط منها لمسة أو قبلة منهما. أراقب ذلك البجع وعائلته الصغيرة لساعات إلى أن يختفي بعيدًا خلف جسرٍ ما أو يبتعد إلى أن يختفي عن الأنظار، وأصبحتْ مراقبة ذلك البجع من أجمل الأشياء التي أحب القيام بها كلما تسنى لي الوقت لذلك.

لم أحب اسم دومينيك، ولكنني يجب أن أقبله لأنني سوف أعيش به من الآن فصاعدًا، ففي المعهد طلب منهم تافارا أن ينادونني باسمي الجديد، ونظر لي الطلاب باستغراب بعد

أن أصبحت المعلمة تناديني بذلك الاسم، لم أشعر بالحاجة لتبرير ذلك لهم، وبعد أيام اعتادوا عليه، ولكن نيفين أصرت على أن تعرف لماذا غيَّرت اسمي، جلسنا معًا في استراحة الغذاء نأكل الفطائر ونشرب الشاي، قالت لي:

- كامالي، لماذا أصبح اسمك دومينيك؟ أحب اسم كامالي أكثر.

تـرددت في الإجـابـة، وتـذكـرت تحذير تـافـارا لـي، ولكنني شعرت بالثقة بنيفين، وكنت بحاجة لأن أثـق بأحدٍ ما أن أخبره كل شـيء عني، نظرت إلـى نيفين مطولًا وقلت لها:

- بعد بضعة أشهر سوف أتكلم بشكل ممتاز الفرنسية وسوف أخبرك بكل شيء، توجد أشياء صعبة مرَّت بحياتي، لا أدري إن كنت ستحتملين ما سأخبرك به.

قالت وابتسامتها لا تفارق ثغرها كالعادة:

- لابـد أن تدرسي جيدًا من الآن، لأنني سأحتمل ما ستقولين ولكن لن أحتمل الأخطاء اللغوية.

ضحكنا معًا وتابعنا تناول الطعام إلى أن حان موعد الـدرس التالي. بـدأت أشارك في الحديث داخـل الفصل وأجيب عن أسئلة المدرسة، وأرغــب بفهم ومعرفة كل كلمة، كنت أريـد أن يأتي الصيف وأكـون حصلت على مستوى ممتاز من اللغة؛ لقد شـاهـدت المكتبة الكبيرة فـي المعهد، وتأملت الـعـدد الكبير مـن الـروايـات والـقـصـص، وقــرأت بعض الصفحات منها، كـانـت سـعـادتـي كبيرة حين فهمت العديد من الكلمات، لقد بـدأت فعلًا أعـرف اللغة الفرنسية، وصممت أنني في الصيف سـوف أجلس قـرب نهر السين اقـرأ الكتب التي أحبها، وأفهم كل الكلام الـذي يقوله الناس حولي، وأقـرأ كل اللوحات التي توجد في الـشـوارع، جعلني تعلم اللغة الفرنسية أدرك أن اللغة ليست فقط كلماتٍ وحديثًا، بل حياةً جديدةً تنمو في عروقنا، نبضًا جـديـدًا يخفق في قلوبنا، جسرًا يجعلنا نتجاوز الألــم، وطريقًا جـديـدًا نكتشف به ذواتـنـا من جديد، وهكذا بـدأت أتعرف على نفسي عبر لغة جديدة، وأرصـد تلك التغيرات الخفية التي تُحدثها هـذه اللغة في روحــي، فبعض الحروف تبدو ناعمة جميلة كأنها نسمة صيف عذبة، وبعضها يبدو صعبًا وقاسيًا

كأنها حـجـارة على الطريق، وحين تجتمع كـل تلك الـحـروف مـع بعضها البعض وأتحدث بها، أرى إنسانًا جديدًا تتكلم، أرى كامالي أخـرى أو ربما دومينيك التي وُلــدت بسن الثلاثين عــامًــا، قبل أن أتعلم الفرنسية كنت أشعر بأنني أصبحت عجوزًا لا تستطيع أن تقوم بعمل أي شـيء خصوصًا بعد مـوت أولادي، ولكني بعد تعلم الفرنسية، بــدأت أستعيد علاقتي مع نفسي، بــدأت أشعر بأنني لا أزال أحيا لذلك أحببت هــذه اللغة وصممت على دراستها بجدية، وهــذه المرة ليس لأرضي تافارا ولكن لإرضاء ذاتي فقط.

لم أعد أقضي عطلة نهاية الأسبوع وحـدي في البيت، أصبحت أخـرج مع نيفين، أخذتني لأماكن كثيرة في باريس، وعلمتني كيف أركـب المترو وأعـرف النزول عند كل محطة، واصطحبتني لرؤية جميع الأمـاكـن السياحية في بـاريـس، تعرفت على أماكن عديدة وكيفية الـوصـول إليها، تـافـارا لم يصطحبني لأي من تلك الأماكن، ولـم أكـن أتـصـور أن بـاريـس بهذا الجمال، لقد تـذكـرت الـصـور التي شاهدتها عن باريس في كتابٍ ما حين كنت في القرية، ولكن ما رأيته يختلف تمامًا عن الصور، خصوصًا حين وقفت مع نيفين ننظر إلى باريس من برج إيفيل، في البداية شعرت بالخوف الشديد ولـم أرغـب بدخول ذلـك المصعد الحديدي ولكن ضحكات نيفين وتشجيعها لي جعلني أتجرأ وأصعد إلى ذلك الارتفاع الشاهق، لأرى هذه المدينة الساحرة تمتد بلا نهاية أمـام ناظري، البنايات القديمة، الشوارع الواسعة والضيقة، الأشجار ونهر السين الــذي يمر بكل أنحاء المدينة، والهواء المنعش الــذي أشعر به يلامس وجهي ونيفين التي لا تتوقف عن الابتسام، قلت لها مبتسمة:

- شـكـرًا نيفين، لأول مـرة أشعر بالسعادة منذ وصـولـي لباريس، والفضل لك أشكرك من كل قلبي.

ضحكت وقالت:

- كـان يجب أن ألتقط بعض الصور لك كيف كنت كئيبة وحزينة في السابق، كنت أعتقد أن عمرك بـحـدود الخمسين، لـم أتخيل أنــك فقط فـي الثلاثين من عمرك.

- لحسن الحظ أنك لم تلتقطي لي صورًا.

- ما رأيك أن نذهب الأسبوع القادم لمتحف اللوفر؟

- لم أذهب من قبل لأي متحف، رأيت بعض الصور التي وزعتها علينا المعلمة ولكني لم أرَ من قبل متحفًا.

- حسنًا، سوف ترين العديد من الصور والتماثيل...لا أستطيع أن أشرح لك سوف نذهب معًا وترين بنفسك وتعرفين ما هو المتحف فعلًا.

عدت إلى البيت بساعة متأخرة بعد أن تناولت طعام العشاء مع نيفين وكان تافارا في البيت ينتظرني، قال لي بمجرد أن دخلت للبيت:

- أين كنت؟ لقد تأخرت كثيرًا وقلقت عليك.

استغربت من اهتمامه، فأجبته بلامبالاة:

- كنت مع نيفين، ذهبنا بجولة في المدينة.

- كان بإمكانك أن تخبريني أنك ستتأخرين!

- منذ متى تهتم إن تأخرت أم لا؟!

- لا أهتم، ولكن أنت تعرفين الوضع الذي نعيش فيه وأننا يجب أن نكون على حذر، فالخطر لم يزُل بشكل كامل.

- ولكنك غيَّرت العنوان والأسماء فلماذا تقلق؟

- رغم كل هذا لابد من إخباري حين تتأخرين وأين تذهبين.

- وأنت لم لا تخبرني، حتى أنك أحيانًا لا تنام في البيت.

أجاب بغضب وقال:

- وضعي يختلف، أنا معروف هنا، ويكفي أن تتصلي بالمستشفى فتجديني هناك أو يخبروك ماذا تفعلين بحال وجود أي ظرف خطير أو طارئ أما أنت مع هذه الفتاة الأجنبية لساعة متأخرة فهذا ليس جيدًا لي ولا لك.

لم أرغـب بمتابعة الحديث، فقلت له إنه على حق، وأنني متعبة أريـد أن أذهب للنوم، وكنت أعـرف أنـه لم ينتظرني شوقًا لـي، بل لأنـه يشعر بالقلق على أمنه الـخـاص وأن يحصل شـيء ما لـه وليس لـي، لذلك لـم أهـتـم، وكنت أريـد أن أكـون وحـدي لأسترجع تفاصيل هـذا الـيـوم الجميل الـذي قضيته مـع نيفين. لقد بـدأت أتعلم كيف أعيش حياتي دون أن أنتظر من زوجـي أن يكون شريكًا فيها، أو كان يجب أن أتعلم حياة جديدة يكون هو فيها ولكنه ليس جـزءًا منها، كـان يجب أن أحيا رغم احتقاره لي ورغم الذكريات ورغم الوحدة.

تافارا

اتصلت بي مديرة المدرسة، شعرت بالانزعاج لاتصالها، فصوتها كان يوحي بوجود مشكلة ما، توجهت في اليوم التالي حسب الموعد لمقابلتها؛ وبعد التحية جلسنا معًا لأعرف ما هدف تلك المقابلة، قالت لي برصانتها المعتادة:

- توجد مشكلة مع ميشيل...

ساد الصمت قليلًا ثم تابعت:

- في الفترة الأخيرة يبدو شاردًا طوال الوقت، لم يعد يشارك في الفصل، وأحيانًا يستيقظ في الليل باكيًا، لقد تحدثت معه المشرفة التربوية لتعرف سبب هذا التغيير.

عادت للصمت فقلت بضيق:

- أجل، تابعي أرجوكِ...

- حين تحدثت معه المشرفة التربوية، لم يخبرها بشيء، ظل صامتًا لا يرد على أسئلتها، فقامت بسؤال شقيقه رولاند، لقد كانت الإجابة عند رولاند، أخبرها أنك طلبت منهما ألا يتحدثا بلغتهما الأفريقية وألا يناديا بعضهما البعض بأسمائهما القديمة، وألا يحكي له رولاند القصص كما كانت تفعل والدتهما حين كانت على قيد الحياة.

صمتُّ ولم أعد أعرف بماذا أجيب، فتابعت قائلة:

- سوف تحضر الآن المشرفة التربوية لأنها تعرف تفاصيل هذا الموضوع، وأتمنى أن تصلا لحل لهذه المشكلة بصورة تناسب مصلحة الأولاد.

تركت الغرفة وبعد دقائق أتت المشرفة التربوية، جلست أمامي وقالت على الفور:

- لن آخذ الكثير من وقتك، نحن نعلم أنك مشغول ولكن الموضوع مهم.

- أجل، أرجو أن تتابعي الحديث.

- أعتقد أن المديرة أخبرتك عن المشكلة التي نواجهها مع ميشيل، وبصفتي مشرفة تربوية ومسؤولة عـن الصحة النفسية لطلاب الـمـدرسـة، أعتقد أنـه من الـضـروري أن يستمر أولادك بمناداة بعضهما البعض بأسمائهما الأفريقية، على الأقــل قبل خلودهما للنوم، وأن يستمر رولانــد بسرد القصص لميشيل، هناك تعلق قـوي بذكرياتهما مع والدتهما، وأحيانًا نحن الكبار نعتقد أنـه حين يضحك الأطفال أو يلعبون أنهم ينسون تلك الذكريات أو أن ذكـرى الأم الميتة سوى تزول مع الأيـام ومـع الأحــداث الأمـاكـن الجديدة، لكن الأطـفـال ليسوا مثلنا نحن الكبار، هم يتعلقون بتلك الذكريات وتصاحبهم طـوال حياتهم، خصوصًا ذكـرى الأم وكل ما يتعلق بها. ولقد أخبرني رولانـد أنهم حتى لا يمتلكون صـورة لها، لقد فقدوا كل شـيء حسي يذكرهم بها فلم يبقَ سـوى تلك القصص ولغتهم الأم وأسمائهم التي كانت تناديهم بها.

شعرت بالانزعاج لأنني ولأول مرة أكـون بموقف لا سيطرة لي به أو عليه، قلت لها على مضض:

- ولكن أنـت تعرفين الوضع الأمني الـذي نعيش به وأخبرتكم عما حصل قبل أن يحضروا لفرنسا وأنني اضطررت لتغيير أسمائنا كي لا يتعرف علينا أحـد، نحن لا نزال بدائرة الخطر وهناك أناس يريدون الثأر حتى ولو بعد سنوات.

- أجل أعلم كل هـذا، ولكنا الآن أمـام مشكلة حقيقة، إذا تجاهلنا معاناة ميشيل بشكل خـاص فسوف يؤثر ذلـك على أدائــه العلمي وكذلك على صحته الجسدية، هذا موضوع غاية في الأهمية، ثم أن أولادك في مدرسة داخلية ولن يتعرف عليهم أحـد غريب، ولـن يـنـادوا بعضهم البعض بأسمائهم الأصلية أو يتحدثوا بلغتهم إلا قبل الـنـوم، فهذا يُعيد لميشيل تـوازنـه النفسي ولـرولانـد أيـضًـا، فهو تأثر أيضًا بما حـدث لأخيه وعلاماته الدراسية هـذا الشهر ليست جيدة. أنصحك بـان تُبدي بعض المرونة على الأقـل إلـى أن يكبرا قليلًا ويتجاوزا أزمـة فقد الأم، فهما على ما يبدو

لا يـريـدان الحديث عنها أمامك لأنهما يعتقدان أنـك تنزعج من ذلـك لأنـه يسبب الحزن لك وهذا ما قاله لي رولاند.

قلت لها بعصبية:

- ولكن، لا أفهم فهما يعيشان حياة جميلة ويحصلان على كل ما يريدانه ماذا أستطيع أن أفعل أكثر...

قالت بنبرة جادة ومحذرة:

- سـيـدي، إن لـم تسمح لهما بشيء مـن حرية التصرف مـع مشاعرهما، سوف تـكـون النتيجة سيئة ســواء على تحصيلهما العلمي أو على صحتهما النفسية والجسدية، وأعـتـذر منك فـإن لـم تبدِ تجاوبًا معنا لـن نستطيع أن تقدم العون لهما. وسنطلب منك نقلهما من المدرسة لأننا لا نعلم مـاذا ستكون نتيجة هذا الضغط النفسي عليهما. ثم هناك شـيء مهم، هـذا التعلق العاطفي سـوف يخف بشكل تدريجي وحين يصلون لسن المراهقة بعد سنة أو سنتين سـوف يخجلان مـن أن يقصوا القصص فـي الليل ويـبـدأون بالشعور بأنهم يكبرون وتـبـدأ أشياء أخـرى تستحوذ على مشاعرهم وتفكيرهم، فهذه الحالة مؤقتة ولا تستمر لوقتٍ طويلٍ لكن لو تجاهلناها حاليًا سيكون لها نتائج سلبية في المستقبل.

صمتُّ قليلًا، ولـم يعد هناك أي مخرج سـوى الموافقة على كلامها، فلم أكن أريـد نقلهما لمدرسة أخـرى، ولـم يكن لـدي الوقت لآتـي للمدرسة من حين لآخر لمشكلة ما متعلقة بهما، فقلت لها:

- حسنًا، كما تشائين.

- سـوف أدعهما يأتيان الآن وتخبرهما أنـه يمكنهما التصرف كالسابق قبل النوم، على أن يناديا بعضهما البعض خلال دوام المدرسة باسميهما الفرنسيين.

خرجت من الغرفة وعادت بصحبتهما وقالت وهي تبتسم:

- لقد أتـى والدكما للزيارة اليوم والاطمئنان عليكما، سـوف أترككم معًا بعض الوقت وأعود بعد قليل.

نظرت إليهما، كانا قد تغيرا فعلًا، وجه ميشيل حزين وذابـل، أما رولانـد فنظراته مشتتة ومـرتـبـك، وأدركــت بتلك اللحظة خـطـورة الـوضـع خصوصًا وأنــني طبيب، فقلت لهما:

- حسنًا، لقد فكرت بموضوع الأسـمـاء، أعتقد أنـه يمكنكما أن تناديا بعضكما قبل النوم باسم تاكي وسيمو وأنــت يا رولانــد تحكي القصص من جديد لميشيل وتغني له كذلك، أما خلال دوام المدرسة فأنتما رولاند وميشيل، ما رأيكما؟

نظر لي ميشيل بريبة وقال:

- أبي، هل أنت متأكد؟!

- أجل، متأكد، ولكن اسميكما في المدرسة ومع الناس رولاند وميشيل.

وأقترب منه رولاند واحتضنه وقال له:

- اليوم سوف أحكي لك قصة جديدة وطويلة.

رأيـت ذلك الفرح القديم الـذي كنت أشعر به حين كانت أمي تحكي لي القصص وتغني لـي، وشعرت كم أنهما يفتقدان والدتهما، ولكنني لم أكـن لأستطيع عمل شـيء أو تغيير أي شـيء، ولـم أكـن أريـد أن تتحكم مشاعري بقراراتي، احتضنتهما وأخبرتهما بأننا سنذهب في رحلة لمدينة لاروشــل قـرب المحيط الأطلنطي في الأسـبـوع الـقـادم؛ عــادت الفرحة مـن جـديـد لوجهيهما وشـعـرا بالحماسة لرؤية المحيط لأول مـرة في حياتهما، قبلتهما وغــادرت مسرعًا قبل أن يلاحظا الانفعال الشديد الذي بدا واضحًا على وجهي.

كــان مبضعي يستطيع ترميم جـروح كبيرة وخطيرة، عميقة سطحية ولكنه لن يستطيع أبــدًا ترميم جـروح المشاعر، لـن يستطيع أن يجعلهما ينسيا والدتهما أو ذكرياتهما، لـن يستطيع مبضعي أن يقص ذلـك الـجـزء مـن ذاكرتهما ليعيشا كفرنسيين دون أي جــذور قديمة وجـافـة، لـن يستطيع مبضعي أن يعيد ربط الشرايين التي كـانـت تحمل الـحـب لكامالي، لـن أستطيع أن أقـص ذلـك الجزء من ذاكـرتـي الـذي تحتله والـدتـي بكل ما كـان فيها من حياة، لم أستطع أن أقتلع

مفاصل في عقلي ترسّخت فيها ذكرياتي القديمة مع الأستاذ باكو، ومع مدرستي وكتبي القديمة التي تركتها هناك والتي احترقت مع كل البيوت؛ فحتى لو أردت أن أستعيد كل تلك الذكريات، لن أشعر سوى بالأسى والألم، لأنها جميعها، كلها احترقت، تلاشت، ولم يبقَ سوى ألم الرحيل والموت والاقتلاع؛ لذلك قررت أن أنسى وبكل قوتي، قررت ألا أنظر للماضي وبكل إرادتي، ولكني لم أستطيع أن أفرض النسيان على أولادي ولا على كامالي.

أُجبر نفسي على النسيان ولكنني لا أستطيع، ولن أستطيع أن أجبرهم على النسيان، فأقف بينهما بين الذكرى والنسيان، وأشعر أنني أكثر ضياعًا منهم، لأنهم وجدوا أنفسهم في الذكرى، أما أنا فضائع في تلك الذكرى؛ أسير بشوارع باريس وحيدًا، أمشي كرجل أفريقي أسود اللون وأنسى أو أتناسى أنني الجراح البارع، أرى نظرات الناس التي لا ترحب بهذا الرجل الأسود ولكنهم لو عرفوا أنني جراح ماهر سوف ينسون لوني ويبتسمون لي؛ وأنا أعيش متجاهلًا للون بشرتي السوداء، أعيش ببشرة بيضاء اسمها النجاح؛ ولكني اليوم أسير بخطوات بطيئة وأنسى أنني جراح، أتذكر فقط أنني غريب قادم من قارة بعيدة وأنه لا جذور لي هنا، وأن أولادي يتشبثون بجذورهم لدرجة الحزن القاتل، بينما أنا أرمي بجذوري بعيدًا، كنت أعتقد أنني أرميها بعيدًا لأنني لا أفتخر بها، ولكنني اليوم أكتشف أنني كنت أرميها بعيدًا كي لا يحتلني الحزن القاتل، كي لا يجرفني ذلك الحزن لدرجة عدم القدرة على العمل؛ وهكذا وفي كل خطوة على هذا الشارع بمربعاته المتراصة والناعمة أسمع خطوات حذائي باهظ الثمن، وأعلم لأنني لأحيا لابد أن أنسى حتى ولو لم ينسَ من حولي، هم يهربون من النسيان، وأنا ألقى بنفسي في أحضان النسيان، وجميعنا نريد أن نحيا سواء عبر الذكرى أم عبر النسيان.

كامالي

أتى الصيف، أصبحت أتكلم اللغة الفرنسية بشكل جيد وأعبّر عن كل ما أريد وأفهم كل ما أسمع، أقرأ اللوحات في الشوارع، وفي المحلات، أعرف أسماء جميع الأشياء في المتجر والشوارع التي أمشي بها، وأصبحت أعرف باريس بشكل جيد، كل شيء تغير بعد أن عرفت اللغة، حتى أنني أصبحت أشعر بأنني جزء من هذه المدينة، خصوصًا حين أذهب لشرب قهوتي في الصباح في ذلك المقهى الذي أحب قرب البيت، وحين بدأت أتحدث مع صاحبة المقهى وأفهم ما تقوله لي، وحين آخذ المترو من محطة لأخرى وأعرف اتجاهاته وأين يجب أن أنزل أو أصعد، بالطبع لن أكون باريسية أبدًا ولكنني بدأت اشعر أنني أنتمي لهذا المكان، لقد ولدت مرتين، مرة في قريتي ومرة في باريس، لا أتذكر كل مراحل طفولتي، ولكنني أتذكر كل لحظات ولادتي في باريس، من اللحظة الأولى التي كنت أركب بها بالسيارة بجانب تافارا، وأشاهد هذه المدينة الضخمة والتي كنت ضائعة بين شوارعها وأهلها، ثم تلك الشوارع الضيقة التي كنت أسير بها لأذهب لمعهد اللغة في فصل الخريف، حيث تتجمع الأوراق الصفراء تحت أقدامي في الشوارع تعلن عن اقتراب فصل الشتاء، ومع كل ما يحمله الخريف من حزن الفراق، فراق الأوراق عن أشجارها، فراق الشمس عن الأرض باحتجابها خلف الغيوم الرمادية، فراقي عن وطني وعن أولادي؛ ثم يأتي الشتاء وأسير للمعهد تحت المطر أو زخات الثلج، التي لم أكن رأيتها من قبل في حياتي، وقفت طويلًا منبهرة بهذه القطع الخفيفة البيضاء التي تتساقط من السماء، ثم تتراكم على الشوارع والأرصفة وأسقف البيوت، مثلما كنت أحب السير تحت المطر في قريتي، أحببت السير تحت ندف الثلج، ذلك يجعلني أشعر بالقرب الحقيقي من الحياة دون أن يفصلني ما بين وبين أصل الأشياء أي حاجز، دون أن يفصلني عما ترسله السماء أي سقف أو شجرة أو جسر، فقط أنا والسماء وندف الثلج أو قطرات المطر.

والآن يأتي الصيف، وتلبس باريس أزهى ثيابها وأجملها بكل الألوان والأشكال، تغني مع من يغنّون في الشوارع أو من يغنّون في الأوبرا، ترقص مع من يرقصون في الشوارع أو في المسارح الفخمة، ترقص مع الصغار والكبار، ثم ترسم اللوحات مع رسامي حي مونمارتر، تحمل الفرشاة الخاصة بها وتلون لوحاتها كما تشاء

لكل البشر، مـن كـل الجنسيات والـعـروق، وبين أولـئـك الرسامين لـم أكـن أشعر أنني أفريقية أو باريسية، وأنني لا أحمل أي جنسية ما على وجـه الأرض، مجرد عاشقة لتلك اللوحات المتنوعة والتي يمكن رؤيتها بكل مكان، لوحات للطبيعة، لوحات للبشر، لوحات للألم والـفـرح، لوحات من جميع أنـواع الفنون، كنت أتمنى لـو أنني أعـرف الـرسـم؛ لجلست معهم أرســم وأعـيـش بهذه المنطقة مـن باريس دون أن أعـود للبيت حيث أسكن مع تافارا، دون أن أراه وأرى نظراته المنتقدة لي لدرجة الاحتقار؛ ولكنني وحين أخـرج للتجول في باريس أنسى كل شـيء عنه ولا أحـب أن أتذكره أو تذكر كلماته، أعـود لأكـون كامالي الطفلة الأفريقية التي كانت تعشق الحياة وتعشق حريتها، التي كانت تحب أن تمشي لمسافات طويلة دون أن يقول لها أحـد ما أيـن كنت أو متى ستعودين؟ وللغرابة أشعر أنني استرجعت تلك الطفلة الحرة هنا في بـاريـس، وأصبحت أحـب خـروج تـافـارا لعمله وعودته المتأخرة، ولا يهمني مـاذا يفعل أو مع من يقضي وقته، فأنا أعـرف الآن أين أذهب وأحب الأماكن التي أذهب إليها.

كـل تلك الأمـاكـن لـم أكـن أعرفها لـولا نيفين، لقد كانت نيفين الشمس التي أشرقت على حياتي،

أتت نيفين لزيارتي في ذلك اليوم الصيفي الرائع وقالت لي:

- هيا بنا، سنذهب لغابة بولونيا، سوف تحبين ذلك المكان.

ودون تردد، غيَّرت ملابسي وخرجت معها نضحك ونتحدث إلى أن وصلنا لتلك الغابة رائعة الجمال، حيث الأشجار الخضراء العالية والتي تتخللها طرقات يسير بها الذين يتجولون في الحديقة، حيث العشب الأخضر الذي غطى كل بقعة من الأرض، ثم نهر السين الذي يمر عبر الحديقة، ووقفت مندهشة أمام البحيرة التي توجد وسط الحديقة، قلت لنيفين بسعادة:

- هـذه البحيرة تشبه البحيرة التي في قريتي، أريـد أن نجلس هنا عند حافة البحيرة.

قالت نيفين:

- لا لن نجلس، نأخذ قاربًا صغيرًا ونذهب بجولة في البحيرة.

- حقًا، هل نستطيع ذلك.

- أجل، هل تعرفين التجديف؟

- لا، لكن سأتعلم سريعًا.

ركبنا ذلك القارب الأبيض الطويل والجميل، وعلمتني نيفين التجديف خلال دقائق وبدأت رحلتنا الصغيرة في البحيرة الجميلة، قلت لنيفين:

- أين تعلمت كل هذه الأشياء في باريس؟

- حين وصلت إلى هنا كان لدي صديقات من تركيا يدرسن هنا منذ سنوات، تعرفت على باريس من خلال جولاتي معهن، قضينا أوقاتًا رائعةً معًا.

- وأين هنّ الآن؟

- لقد عُدنَ لتركيا، أنهين الدراسة ورجعنَ لتركيا.

نظرت إليها بقلق وسألتها:

- هذا يعني أنك سترجعين أيضًا؟

- أجل بالطبع، ولكن لا تقلقي، ليس الآن، لا يزال عندي أشياء يجب دراستها.

شعرت بالارتياح وعدت للتجديف والنظر حولي لذلك الجمال الرائع بكل تفاصيل تلك الحديقة وهدوئها النقي وهوائها المنعش، وحين انتهينا من التجديف عدنا للشاطئ وتمددنا على العشب الأخضر تحت أشعة الشمس، قالت لي نيفين:

- لقد وعدتني أن تخبريني كل شيء عنك حين تتحدثين الفرنسية بشكل جيد، وأنت الآن تتكلمين بطريقة ممتازة، هيا أخبريني بكل شيء.

قلت لها وأنا أشعر بالنعاس تحت دفء الشمس التي ذكرتني بدفء قريتي:

- ليس الآن يا نيفين، لا أريد أن أتذكر أشياء حزينة الآن، عندما أكون حزينة

سوف أخبرك بكل شيء الآن أنا سعيدة ولا أريد أن أتذكر أي شيء.

ضحكت نيفين وقالت:

- أنت مضحكة يا كامالي أم أناديك دومينيك!

- أنت فقط يمكنك أن تناديني كامالي...

قضينا النهار بأكمله في تلك الغابة الرائعة، سرنا لمدة طويلة بين الأشجار الكبيرة المـزروعـة على طرفي الطريق، كانت نيفين تمشي بخطوات أسـرع من خطواتي، وتضطر أحيانًا للتوقف لأتمكن من اللحاق بها، فقالت لي وهي تتأملني:

- كامالي، هناك شيء ما يجب أن تقومي به...

نظرت إليها باستغراب:

- ما هو؟

- أنـت بدينة بعض الشيء وخطواتك بطيئة، يجب أن تتخلصي من هـذا الـوزن الـزائـد وتسيري مثلي بخطوات سريعة، ألـم تلاحظي أن الجميع يسيرون بسرعة بباريس ما عداك أنت؟.

ضحكت وقلت لها:

- هذا لأنني لست من باريس.

- هـذا لأنـك تأكلين كثيرًا وتتحركين قليلًا. هـذا الأسـبـوع سـوف تبدئين بعمل تمرينات رياضية وتقللي من الأكـل، أنت طويلة وجميلة وإذا أنقصت وزنـك سوف تكونين غاية في الجمال.

- ماذا؟ أنا جميلة! ألم تنظري للنساء الأوروبيات وجمالهن...

- ذلـك جمال أوروبـــي، أنـت جمالك أفريقي ويجب أن تفخري بذلك، أم أنك تخجلين من كونك امرأة سوداء.

صمت ولم أضحك، فقالت بصراحتها المعتادة:

- أجـل أنـت تخجلين مـن كونك سـوداء ولكنك لا تعلمين أن عـددًا كبيرًا من عارضات الأزياء في العالم هن صاحبات بشرة سوداء.

- هل يمكننا تغيير هذا الموضوع!

- لا، أريـد أن أعـرف لماذا لا تهتمين بمظهرك؟ هل أنت لا تحبين ذلك أم زوجك لا يريد ذلك؟

- زوجي لا يهتم بي ولا بمظهري، أنا لست موجودة بالنسبة له.

وقفت أمامي ووضعت يدها على كتفي وقالت:

- لقد فهمت الآن، كنت أشـعـر بـأنـك غير سعيدة بـزواجـك، لكن يـا كامالي اهتمامك بنفسك ليس لأجله بل لأجلك ولأجـل صحتك، أنـت إن لم تفقدي بعضًا من وزنك سوف تواجهين مشاكل بصحتك، ألا ترين أنك تمشين بثقل وببطء.

- أجل، هذا صحيح.

- إذا لنبدأ مـن الـغـد، أن تقللي كمية الأكـل، وتمارسي التمارين الرياضية، وبإمكاننا أن نأتي هنا للسير أو الركض في نهاية كل أسبوع، ما رأيك؟

- هذه فكرة جيدة.

وحين عـدت للبيت كنت أشعر بالتعب وبسعادة كبيرة لقضاء يـوم جميل في مكان يشبه قريتي، لم يكن تـافـارا في البيت وقـد كنت أحـرص على أن أعـود قبل عودته؛ كي لا أسمع أي انتقادات منه؛ فأذهب للنوم قبل أن يدخل للبيت، وحتى إن لم أكـن نائمة أصطنع النوم لأنني لم أكـن أرغـب برؤيته أو الحديث معه، لم نعد نجتمع سـوى أيـام السبت في الصباح نتناول الإفـطـار معًا، يسألني عن بعض الأشياء وأجيبه على قدر سؤاله، لم أكن أخبره أين أذهـب مع نيفين وأنني أصبحت أعـرف باريس بصورة جيدة جـدًا، كنت أعـرف بأنه لن يهتم ولم أكن أريـد أن أشاركه أي شيء في حياتي، وحين نتحدث بأشياء عابرة يقول لي بكل مرة إن لغتي بتحسن مستمر، ثم يقول لي أن أفكر مـاذا سأفعل حين أنتهي من دروس اللغة، وإن كنت أريـد أن أدرس شيئًا ما، لم أفكر بذلك ولكن كان لابد من التفكير بهذا الموضوع،

ومـاذا سوف أفعل بعد انتهاء دروس اللغة؟. وحين ينتهي من طعام الفطور يغادر كعادته ولا يعود إلا في مساء يـوم الأحـد، وأصبح هـذا النظام مناسبًا لي ولـه، ولم يعد أحد منا يصطدم مع الآخر أو يجادله، أصبح لدي حياتي ولديه حياته.

تافارا

بقيتُ على اتصال مع المدرسة لأطمئن على وضع رولاند وميشيل، وأخبروني بأنهما عادا بالتدريج لاندماجهم السابق في الفصول الدراسية، ولمشاركتهما داخل الفصل وأنهما بتحسن مستمر، شعرت بالارتياح وكنت بحاجة لهذا الهدوء لأستطيع التركيز بشكل أفضل في عملي. لاحظت التغيير الذي طرأ على كامالي، أصحبت تهتم بدراسة اللغة الفرنسية، وتعتني بصورة أفضل من السابق بمظهرها رغم عدم توقفها عن الأكل بنهمٍ خصوصًا الحلويات، وتخرج مع صديقتها التركية من وقت لآخر، حتى أنها لم تعد تجلس تنتظرني ونظرات الأسى لا تفارق عينيها، بل أصبحت أعود للبيت فأجدها في أغلب الوقت نائمة، وتكتب لي ورقة أن الطعام في الثلاجة ويمكنني أن أسخنه في الفرن الكهربائي؛ كان هذا الوضع مناسب تمامًا لي، حتى أنني وبأحيان كثيرة أصبحت أشعر بأنني أسكن وحدي، خصوصًا حين تغادر البيت قبلي وتذهب للمعهد وأستيقظ فلا أجدها، لم أكن أتخيل أنها ستجد حياة لنفسها بعيدًا عني، لقد تقبّلت فكرة تغيير اسمها وأصبحت تقول للجميع بأن اسمها دومينيك، حتى أنني استغربت ذلك ولكنني تذكرت ميلها للاستقلالية حتى قبل زواجنا، حين كانت ترفض الزواج ولم ترضَ أن تتزوج إلا حين تقدمت لها أنا، لقد استعادت تلك الاستقلالية ولم تعد بحاجة عاطفية لي، هذا الواقع الجديد كان مريحًا لي ولكنه وبجزء خفي مني كان يزعجني، هذا يعني أنها ربما بعد فترة من الوقت سوف تطلب الانفصال وأن تعيش حياة مستقلة بنفسها، فهل سأتقبل أن تغادر حياتي دون عودة؟ لقد كنت أشعر دائمًا أنها جزء مني وأنني أمتلك هذا الجزء، شيء ما بداخلي كان يجعلني أشعر بالأمان حين أعلم بأنني سأعود وأجدها في البيت، وأنها حتى حين تخرج سوف تعود بعد وقت طويل أو قصير ولكنها ستعود حتمًا، فماذا لو قررت ألا تعود؟ ماذا لو قررت أن تتركني؟ لم يكن ذلك الشعور حبًّا لها، ولكن هي تمثل الأمن الوحيد في حياتي، فرغم أصدقائي في باريس وعملي وولديَّ وسيلفيا إلا أن كامالي شيء آخر، كأنها عامود أساس في بنائي النفسي حتى سيلفيا رغم حبها لي ومساعدتها لي بمواقف كثيرة، لم أكن أحمل لها ذلك الشعور بالانتماء القوي الذي يصل لحد عدم القلق لشيء بجانبها، فقط كامالي من كانت تستطيع منحي ذلك الشعور، فهي وطني في غربتي.

وصلت للمستشفى متأخرًا بسبب أفكاري تلك التي كانت تحتل كل مشاعري، وجدت نفسي أمام مدير المستشفى الذي ابتسم وقال لي:

- أنت تعلم بأنني سوف أتقاعد بعد شهر من الآن، وسـوف أقيم حفلة في بيتي أدعـو لها جميع الـزمـلاء في المستشفى وزوجـاتـهـم، وبالطبع زوجتك سـوف تكون ضمن المدعوين.

قلت له بحرج:

- أجل، ولكن أنت تعلم أنها...

ضحك وقال:

- أجـل، أنها لم تتأقلم مع الوضع...أنها متعبة، لن يكون هناك أي أعـذار، لابد أن تحضر معك الجميع يـريـدون التعرف إليها، ثم أعتقد أنها تتحدث الفرنسية ولو بضع كلمات فهي هنا منذ ما يقارب السنة أو أكثر قليلًا.

- أجل، هي تتحدث بشكل جيد الآن.

- إذًا لا عذر لك، سوف تجد بطاقة الدعوة على مكتبك.

- أشكرك كثيرًا.

غـادرت مسرعًا باتجاه مكتبي، ورأيـت بطاقة الدعوة، لم أعـرف كيف أتهرب من تلك الـدعـوة، دخلت سيلفيا لمكتبي تخبرني بأنني يجب أن أحضّر نفسي للعملية التالية خلال نصف ساعة، ناولتها بطاقة الدعوة وقالت:

- أجل، لقد وجه دعوة لنا جميعًا، ماذا في ذلك؟

- يريدني أن أحضر زوجتي.

هزّت رأسها وقالت:

- أعتقد أنـه حـان الـوقـت لتقدمها للناس، لا يمكنك إخفاؤها أكثر مـن هـذا، والجميع يعلم بأنها كانت تأخذ دروس لغة فرنسية.

- أجل، ولكن...

- فرانسوا، لابـد أن تعترف بوجودها في حياتك، فهي زوجتك وتتعامل مع هذا الواقع على الأقـل أمـام الناس، وإلا سيعتبرون أنه يوجد شيء غير عـادي بعلاقتكما وهذا ليس جيدًا بالنسبة لك، في هذا المجتمع إما أن تكون متزوجًا وملتزمًا بزواجك أو أن تكون لك صديقة دائمة، أما العلاقة التي بها إنكار لوجود الزوجة فالمجتمع هنا ينتقدها بشدة، لذلك عليك تقديمها إليهم خصوصًا وأنني سمعت بعضهم يقول إنك تخجل من تقديمها لنا.

أجبتها بغضب مكتوم:

- ماذا؟ من يقول هذا؟

- ليس مهمًّا من يقوله ولكن الجميع يفكر نوعًا ما بهذه الطريقة، لو أنك مُطلّق لفهموا ذلك بسهولة ولكنك متزوج وتخفي زوجتك، فلماذا؟ هكذا يفكرون.

رميت البطاقة على طاولة المكتب بعصبية وقلت:

- حسنًا، حسنًا، سوف تأتي معي، والآن هيا بنا لابد أن أبدل ملابسي.

حين عدت في المساء، وجدت كامالي مستيقظة، فقلت لها على الفور:

- دومينيك، نحن مدعوان لحفلة بعد شهر من الآن، سـوف تتعرفين على زملاء وأصدقاء لي في المستشفى، وهم يريدون التعرف عليك، حاولي أن تتحدثي أكثر بالفرنسية وأن تختاري مـاذا سترتدين في تلك المناسبة، مدير المستشفى سوف يتقاعد لذلك سيقيم تلك الحفلة.

نظرت إلي باستغراب وقالت:

- وهل سأحتاج لشهر لأحضّر نفسي لهذا الحفل؟

تأففت منها وقلت:

- لا، ولكن إلى أن يأتي موعد تلك الحفلة لابد أن تحسّني من طريقة مشيتك، وأن تتكلمي بسرعة أكبر، وأن تعتني بشعرك، أشياء تتقنها السيدات هنا، يمكنك

الذهاب لكوافير.

- ماذا؟ كوافير؟

- أجـل، أنـت رأيـت عـدة مـرات صـالـون النساء اسمه كوافير، لابـد أنـك درسـت هذا الاسم في المعهد.

- أجل بالطبع، لكن لم أفكر أبدًا بالذهاب إلى هناك.

- سـوف تذهبين يـوم الحفلة وتجعلينهم يصففون شعرك ويعتنون بمكياجك كأي سيدة باريسية.

لم ترُدّ وعادت لتناول الطعام، فقلت بعصبية:

- ألا تتوقفين عن الأكـل، انظري لنفسك لقد أصبحت بدينة، لقد أخبرتك من قبل أنك يجب أن تفقدي بعضًا من وزنك، توقفي عن أكل هذه الحلويات.

توقفت عن الأكـل، ولـم تـرُد على كلماتي، نهضت من مكانها بصمت وتوجهت لغرفتها، سمعت صوت بكائها الـذي كانت تحاول أن تكتمه كي لا أسمعه، لم أهتم بأن ألحق بها وأقـول لها بعض الكلمات اللطيفة لأخفف عنها، أصبحت أنزعج فعلًا من وزنها الـذي يزيد تدريجيًّا من شهر لآخـر، دخلت لغرفتي وأغلقت الباب بعنف كي تعرف أنني غاضب ولن أتساهل بموضوع ازدياد وزنها بعد الآن.

وفـي الصباح استيقظت ولـم أجـدهـا، ولـم تكن قـد أعـدت القهوة كعادتها، فالمطبخ بـارد وكأنها خرجت منذ ساعات وليس قبل نصف ساعة، لم أفكر كثيرًا بـالأمـر، أعـددت القهوة وتـنـاولـت قطعة مـن الخبز الساخن مـع الـزبـدة، وبـدأت أتصفح الجريدة قبل أن أحـضّـر نفسي للخروج، لقد اعـتـدت على عـدم وجودها في الصباح وكنت أشعر بالسعادة لأنني غـدًا سـوف أرى رولانـد وميشيل، وسوف نذهب معًا برحلة لمدينة لاروشل ونقضي النهار على شاطئ المحيط الأطلنطي.

فـي صـبـاح الـيـوم الـتـالـي وبـوقـت مبكر ذهـبـت لاصـطـحـاب رولانـــد وميشيل وسيلفيا، وانطلقنا باتجاه مدينة لاروشـل بسيارتي، وصلنا بعد عدة ساعات توجهنا مباشرة للفندق حيث سنقضي الليلة، ووضعنا حقائبنا لنتمكن مـن السير في

شـوارع المدينة، توجهنا إلـى ميناء المدينة حيث توجد عشرات المراكب البيضاء والـقـوارب السريعة تصطف على الميناء، ومقابلها توجد المقاهي والمطاعم، جلسنا نتناول الطعام في إحـدى المطاعم ونشاهد المحيط تحت أشعة الشمس في يـوم صيفي رائـع، ثم بدأنا المسير عبر شـوارع المدينة القديمة والتاريخية بمربعاتها الملساء الناعمة.

وصلنا بعد ذلـك إلـى شاطئ المحيط، وقـف رولانـد وميشيل ينظران بانبهار إلـى المحيط ومـدى اتساعه، لم تكن أمواجه عالية مثل البحر، ولكن كانت مياهه شاسعة المسافات، وأخبرتهم عـن المد والـجـزر، وأنـه فـي سـاعـات المساء سوف يكون هناك جزر بسبب تأثير القمر وسوف تنسحب هذه المياه إلى داخل المحيط. تمددت على رمـال الشاطئ الدافئة وذهبت سيلفيا مع الأولاد لتسبح معهما على مسافة قريبة، حيث إنهما تعلما السباحة في المدرسة. قضينا وقتًا رائعًا بين مياه المحيط والتمدد على الـرمـال تحت أشعة الشمس، ثم ذهبنا لتناول الطعام في أحد المطاعم التي تقدم وجبة السمك المشوي الطازج.

وعند غـروب الشمس عدنا للشاطئ لنرى تراجع مياه المحيط بسبب الجزر، سرنا بأقدام حافية إلى مسافة عدة أمتار داخـل المحيط ثم رفض ميشيل أن يتابع السير خوفًا من الماء أن يعود مسرعًا، لم يكن الماء ليعود مسرعًا ولكنه شعر بالخوف مـن لـزوجـة الأرض وأنـنـا نبتعد عـن الأرض الصلبة، فرجعنا إلـى الشاطئ لنراقب معًا مـدى انسحاب الـمـاء إلـى أعـمـاق المحيط، وحين حـل الـظـلام عدنا للفندق بعد يوم رائع قضيناه تحت أشعة الشمس.

وفـي الـصـبـاح جلسنا نـتـنـاول الـفـطـور الفرنسي الشهي مـع عصير البرتقال الطبيعي، وبعد الانتهاء من الفطور ذهبنا بجولة حول المدينة والمناطق الطبيعية المحيطة بها، والجزر الصغيرة المنتشرة حولها، تتوزع ما بين المسطحات المائية الخضراء والمياه الصافية، ثم الممرات التي يمشي عليها المارة الواقعة بين هذه المناطق الواسعة، والتي تبدو كأنها قطع خضراء تتخللها المياه من جميع الجهات؛ قضينا وقتًا ممتعًا معًا وتناولنا الطعام على شاطئ المحيط، وبعد عـدة ساعات

كـان لابـد من العودة لباريس. خـلال الرحلة استمعنا للموسيقى الفرنسية الهادئة، لم يقاوم الـولـدان النوم بعد تلك الرحلة الصيفية المنعشة، فناما إلـى أن وصلنا لباريس وأوصلتهما للمدرسة، ثـم أوصـلـت سيلفيا لبيتها وتوجهت للبيت وكنت أشعر بالتعب الشديد.

كـان البيت غـارقًا في الـظـلام، حتى أنني اعتقدت أن كامالي ربما ليست في البيت، ذهبت لغرفتها لأتأكد من وجـودهـا، كانت بغرفتها نائمة، وكـان ذلـك أفضل لأتمكن من النوم على الفور.

كامالي

مرَّ ذلك الشهر وأتى موعد الحفلة، لم أرغب بالذهاب ولكن كان لابد من ذلك، لم أذهب للكوافير كما قال لي، ولكن جعلت نيفين تصفف شعري بصورة لائقة، واشتريت معها فستانًا أسود بسيطًا كي أخفي وزني الزائد. نظر لي تافارا ولم يتكلم ولكن نظراته كانت تقول بأنه لا يحب مظهري، ولا يحب لوني ولا يحب لهجتي الأفريقية، ينفر من كل شيء يتعلق بي سوى كوني زوجته ولابد أن أبقى زوجته، لأنه لو تزوج امرأة فرنسية لن تقبل أن يعاملها مثل ما يعاملني، لن تصمت حين يعود متأخرًا في الليل، لن تصمت حين يقضي كل عطل نهاية الأسبوع خارج البيت، لا تقبل بلامبالاته وكأنني لست إنسانًا أعيش معه، وكان يعلم بحاجتي المادية له وأنني غريبة بهذه البلد رغم أنني أصبحت أعرف اللغة. توقفت عن التفكير ولحقت به لنذهب لتلك الحفلة التي تمنيت أن تنتهي بسرعة.

دخلنا لبيت مدير المستشفى، فيلا راقية واسعة تحيطها حديقة تفوح منها رائحة الزهور، ورائحة العشب الأخضر النضرة، ثم دخلنا لصالون الفيلا الكبير حيث كان يوجد العديد من النساء والرجال، أغلبهم أطباء أو ممرضون ولكنهم جميعًا زملاء في المستشفى حيث يعمل تافارا كما قدمهم لي، جميعهم كانوا ينظرون إلي بفضول كبير، وبعضهم أدار ظهره حتى قبل أن أقترب منه، قال لي تافارا بصوت منخفض:

- كوني مُتحفّظة، ليس كل من بالصالة صديق لي، هناك من لا يحبوني ولن يرحبوا بك، لذلك اجعلي أجوبتك مختصره قدر الإمكان.

كنت أريد أن أقول له إنني لا أريد الحديث مع أي منهم ولكني فضلت الصمت وأن أسير بجانبه؛ لأتعرف على صاحب الحفل مدير المستشفى الذي كان بالغ اللطافة، وحين رآني قال مبتسمًا بترحيب:

- أخيرًا، تعرفنا إلى زوجتك، أهلا بك في بيتي.

- أشكرك كثيرًا لدعوتي، أنا سعيدة بالحضور.

ضحك قائلًا:

- هـذا جيد دكتور فرانسوا ها هي تتحدث الفرنسية وبلهجة جيدة جـدًا، هيا لتتعرفي على زوجتي فهي كانت تريد أن تقابلك منذ وصولك لباريس، لأنها تحب الثقافة الأفريقية وتحب أيضًا الملابس الأفريقية.

سـرت خلفه باتجاه امــرأة فـي العقد الخامس مـن عمرها، تلبس فستانًا فيه ألــوان كثيرة وتضع بعض الحلي الخشبية التي تشبه الأســاور التي كنت ألبسها في قريتي، كانت شقراء طويلة القامة، شعرها قصير، وتـرتـدي حلقًا يلمع بشدة تحت أضـواء الصالة، لفت نظري ذلـك الحلق، كنت أرغـب بلمسه لأعـرف من أي معدن مصنوع، لقد كـان جميلًا جـدًا خصوصًا مع شعرها القصير، فبدت غاية في الجمال؛ قالت على الفور حين رأتني:

- أنت دومينيك، أهـلًا بك في بيتي، لقد كنت أريـد أن أقابلك منذ فترة وأخيرًا أنت هنا.

- أجل أشكرك كثيرًا مدام...

- لا، لا تقولي مـدام، أسمي كوليت وكما ترين أحب كل شيء قـادم من أفريقيا، لقد سافرت لعدة دول هناك وأحضرت بعض التماثيل الأفريقية، وبعض اللوحات سوف ترينها بعد قليل، والآن هيا لتتعرفي على بعض ضيوفي.

ذهبنا باتجاه مجموعة من النساء كن يقفن على الشرفة المطلة على الحديقة، قالت لهن بترحيب:

- أعرفكن على دومينيك، زوجة الدكتور فرانسوا.

بعضهن نظرن لي دون ابتسام، وبعضهن ابتسمن لكن دون أي فضول للحديث معي، كـان مظهري لا يـزال يوحي بأنني قادمة حديثًا من قريتي الأفريقية، طريقة المشي لـم تتغير، فستاني بسيط لـدرجـة أنـه لـم يكن سـوى قماش أسـود تمت خياطته على وجـه السرعة، شعري لـم يبقَ منظمًا مثلما صففته لـي نيفين، لم يكن هناك أي شيء بي يثير فضولهن أو حتى ترحيبهن، وحين قدمتني لهن كوليت

أخبرتني أنهن طبيبات في المستشفى وأنه توجد واحدة فقط ممرضة اسمها سيلفيا، وهي الوحيدة التي اقتربت مني بفضول لتتحدث معي، كانت أيضًا شقراء ممشوقة القوام، عيناها خضراء غاية في الجمال، وابتسامتها رائعة بأسنانها البيضاء اللامعة، نظرت إليها بإعجاب لقد كانت شابة جميلة ولطيفة أيضًا، سألتني بدماثة وبابتسامة ساحرة:

- كيف تجدين باريس، هل أعجبتك؟

شعرت بالارتباك، ولكن كان لابد أن أجد الكلمات التي كدت أنساها لشدة شعوري بالخجل، وبقية النساء ينظرن لي بانتظار ما سأقوله باللغة الفرنسية، ساد الصمت لأنهن كن يُـرِدنَ فعلًا سماعي وأنا أتحدث الفرنسية، أو أنهن لم يكن مصدقات بأنني قد أتحدث الفرنسية، استجمعت شجاعتي وقلت لها:

- باريس رائعة، أحبها كثيرًا.

- هل ذهبت لأماكن معينة؟

- أجل، الأماكن التي يذهب إليها الجميع برج أيفل والحدائق ومتحف اللوفر... أماكن من هذا القبيل.

نظرت بقية السيدات لبعضهن البعض كأنهن يقلن حقًا هي تتحدث الفرنسية، قالت لي إحداهن بنبرة خبيثة:

- ولكن الفرق كبير بين قرية في أفريقيا وباريس الأوروبية، أليس كذلك!

نظرت إليها وقلت بهدوء:

- أجل الفرق كبير، ولكني أحب قريتي الأفريقية.

ضحكت وقالت:

- أجل، القرى لها مذاق خاص بأي مكان خصوصًا بعيدًا عن ضوضاء المدينة، حدثينا عن قريتك تلك...

لم أرغب بالحديث معها، فنظرت حولي باحثة عن تافارا، وكان يراقبني من

وقت لآخر، وحين رأى نظراتي المنزعجة، اقترب وقال لي مبتسمًا:

- هـذا جيد، لقد تعرفت إلـى أهـم الطبيبات فـي المستشفى، وهـذه سيلفيا الممرضة التي تساعدني.

وبـصـورة لا شعورية اقتربت منه سيلفيا وهــي تبتسم، وشعرت على الفور بأن علاقتهما تتجاوز حـدود العمل، قلت له على الفور بأنهم سألوني عن قريتي التي كنت أعيش بها، وقلت له:

- أعتقد أنـك تستطيع أن تخبرهم عـن قريتنا بـصـورة أفضل مني فأنا أتكلم الفرنسية ولكن ليس بطلاقتك.

بدا عليه الانزعاج ولكنه تدارك الموقف وقال ببساطة مصطنعة:

- هــي قـريـة وسـط الـتـلال الـخـضـراء، فيها بحيرة كبيرة وبـيـوت مـن القش والخشب، وبعض الحيوانات، يمكنكن أن تحضرن أي فيلم وثائقي عن أي قرية في أفريقيا وسـوف تشبه قريتنا، والآن دومينيك يجب أن تتعرفي إلـى صديق آخر لي، هلا سمحتم لنا...

اعتذر منهن، وقال لي بحنق:

- لماذا طلبت مني الحديث عن ذلك؟

- لأنني لم أجد الكلمات المناسبة.

- أنت تعرفين بأنني لا أحب الحديث عن أفريقيا.

- لم أكن أعرف كيف أتخلص من تلك السيدة اللئيمة.

- هذا ما توقعته، أن تُحرجيني.

تابع وهو يبتسم كأنه يتحدث معي حديثًا عاديًّا قائلًا:

- والآن رُدِّي فقط على قدر السؤال.

وقـف أمامي رجـل شعره أسـود يتخلل شعره بعض الشيب مما زاد من جاذبيته،

قال لي تافارا:

- هذا الدكتور فيفنت...من أفضل الأطباء الذين أعمل معهم.

مدّ يده لمصافحتي وابتسم ابتسامة هادئة ورزينة، لم يكن يتكلم كثيرًا، قال لي:

- أهلًا بك، أتمنى أن تكون إقامتك بباريس مريحة.

- أجل، إنها مريحة.

- هذا جيد.

ثم تابع حديثه مع تافارا، نظرت إلى الناحية الأخرى من الصالة، فوجدت الضيوف يذهبون للجهة الأخرى حيث توجد مائدة كبيرة عليها أنواع كثيرة من الطعام، ذهبت بدوري، وملأت الصحن بأنواع شهية من تلك المأكولات، ثم جلست أتناول الطعام بهدوء متجاهلة نظرات تافارا لي، لقد كانت أنواع الطعام شهية ولذيذة لم آكل مثلها في حياتي، وعدت مرة أخرى لأملأ صحني من جديد بأنواع أخرى من الحلويات، كنت أشعر بنظرات أغلب الحضور تتجه نحوي ولم أكن مهتمة بذلك، فأنا سأبقى امرأة سوداء قادمة من أفريقيا، ما يجعلهم يتحدثون معي هو زوجي وليس أنا، لم أكن شيئًا يُذكر بالنسبة لهم، لذلك جلست بمكان بعيد أتناول الطعام بهدوء؛ وحين انتهيت من الطعام، جلست أنظر لمن حولي، لملابسهم الأنيقة ورائحة عطورهم التي ملأت المكان، وتلك الحقائب اللامعة التي تحملها النساء، وأحذيتهن العالية غاية في الجمال، ولكن كنت أعلم بأنني لن أستطيع ارتداء حذاء مثل تلك الأحذية العالية الناعمة، ثم التقت نظراتي بنظرات الممرضة التي اسمها سيلفيا والتي كانت تراقبني باهتمام، أشحت بوجهي عنها، اقتربت مدام كوليت مني وهي تضحك:

- دومينيك، هيا سوف أجعلك تشاهدين مجموعتي الفنية من أفريقيا، هيا بنا.

سرت خلفها بين غرف البيت الفخم والأنيق، إلى أن وصلنا لصالة أخرى أصغر من الصالة الرئيسية، وقفت وسط تلك الصالة أنظر باندهاش لكل تلك

اللوحات القادمة من أفريقيا، نساء يشبهنني ويشبهن أمي وحماتي، وصـور لبعض المشعوذين، ثم تماثيل خشبية سـوداء وبنية اللون لحيوانات ولأشـخـاص أفارقة، وتلك الأقنعة الكبيرة المعلقة على الحائط، ثـم قسم آخـر فـي الصالة وضعت عليه كل تلك الحلي الأفريقية الخشبية الملونة أو الـسـوداء اللون، أسـاور وقلائد وخـواتـم من جميع الأشـكـال والألـوان، شعرت بالضياع بتلك الصالة، فأنا لا أمتلك في بيتي أي شيء يذكرني بأفريقيا، وهـذه المرأة الفرنسية جعلت جـزءًا من بيتها كأنها قـادم من أفريقيا، حتى رائحة الصالة كانت تفوح منها رائحة تشبه رائحة قريتي، وضعت يـدي على رأسـي وشـعـرت بـالـدوار، وخشيت أن أقـع على الأرض، انتبهت لي وأمسكتني من يدي لأجلس على كرسي قريب مني، وقالت بعطف:

- دومينيك، ما بك؟ هل أنادي زوجك؟

- لا، لا، أنا بخير، فقد تذكرت أشياء كثيرة، كانت مفاجأة كبيرة بالنسبة لي أن أرى هذا المكان.

- يبدو أنها مفاجأة غير سارة.

- لا على العكس، ولكنها مشاعري التي تشوّشت لأنني تذكرت كل شـيء فجأة كأنني عدت للوراء بلحظات.

ابتسمت وقالت:

- أفهم ذلـك، أنـت لم تتوقعي هـذا، أنـا أحـب هـذه الثقافة، وكلما سنحت لي الفرصة أذهـب لأفريقيا وأشـتـري أشـيـاء مـن هـنـاك، ربما يكون لـدي متحف في المستقبل.

- هذا رائع، هذه مفاجأة جميلة.

وبعد دقائق شعرت بتحسن ونهضت لأنظر لكل لوحة ولكل تمثال، راغبةً بأن أشعر وبكل كياني بأنني لا أزال هناك بعيدًا عن تافارا وبعيدًا عن باريس. أمسكت كوليت بلوحة جميلة مرسوم عليها فتاة أفريقية تحمل سلة من القش وقالت لي:

- دومينيك هذه هدية لك، أعتقد أنك كنت جميلة مثل هذه الفتاة.

نظرت إليها وكـدت أقـول لها والآن أنـا لست جميلة! ولكنني تمالكت نفسي وكتمت حزني واصطنعت ابتسامة وقلت لها:

- أجل، كنت جميلة مثلها، أشكرك كثيرًا على الهدية.

وقبل أن أرد وقف تافارا على الباب مستأذنًا بالدخول، وحين دخل قال لي:

- لقد أتيت هنا عـدة مـرات وكنت أحـب رؤيـة هـذه التحف كلما زرت كوليت وزوجها.

قلت له بعفوية:

- لماذا لم تخبرني عن هذا المكان الرائع؟

رد بحرج وقال:

- عزيزتي، لم يكن هناك مناسبة للحديث عن ذلـك، أنـت تعرفين أنني مشغول باستمرار، والآن لابـد أن نغادر لقد تأخر الـوقـت. هيا دعـي هـذه اللوحة مكانها ولنذهب.

ضحكت كوليت وقالت:

- هذه اللوحة لم يعد مكانها هنا، إنها هدية لدومينيك، وأحـب أن تأتي زوجتك لزيارتي سواء بصحبتك أم وحدها إن كان لديها الوقت لذلك.

شكرتها بحرارة وغادرنا المكان بعد أن ودعنا الجميع، وفي السيارة لم يتوقف عن انتقادي قائلًا:

- لم تتوقفي عن الأكـل، الجميع كـان ينظر إليك ومنهم من تهكم على تصرفك هــذا، مـلأت الصحن مرتين ولـم تشبعي، ثـم أحرجتني أمامهن بـأن أتـحـدث عن القرية، مـاذا كنت تعتقدين أنني سأقول عن قرية ما بآخر العالم، كنت محقًا حين شعرت بالقلق لاصطحابك، ولـولا أن مـدام كوليت أخذتك بعيدًا عن بقية الضيوف لتشاهدي تلك التحف لا أدري أي موقف كنت ستضعينني فيه.

صمت قليلًا، ولم يتوقف عن كلماته الجارحة:

- انـظـري لنفسك، أصبحت بدينة، ولا تتوقفين عـن الأكــل، لـم تحاولي تغيير طريقة مشيتك أو تحسين مظهرك، حتى شعرك كأنك آتية بـالأمـس مـن القرية، هذه آخر مرة نذهب فيها لمناسبة هل هذا واضح؟

لم أتمالك نفسي فصرخت وقلت له:

- لم أطلب منك الحضور، أنـت من أصـر على حضوري وهـذا يكفي، لن أتغير، أنا أفريقية همجية ولن أتغير هل تفهم، إن لم أعجبك فعلًا تستطيع أن تحجز لي وأعـود غدًا حتى لو قتلوني في المطار، هذا يكفي، ألا تتعب من التهجم علي، لماذا لا تتركني وشأني؟.

بـدأت بالبكاء، وتوقف عن الكلام إلـى أن وصلنا للبيت، دخلت مباشرة لغرفتي ولـشـدة غضبي مزقت ذلـك الفستان الأســود الـذي كنت ألبسه وارتـديـت ملابس الـنـوم، جلست على حافة السرير أبكي كحيوانٍ أسيرٍ لا يستطيع الـفـرار ولا يريد البقاء في قفصه، ثم دخل إلى غرفتي وقال محاولًا أن يبدو لطيفًا:

- كامالي، لقد بالغت أعلم ذلك، لكن يجب أن تبذلي بعض الجهد للتأقلم...

قال كلمات كثيرة، لم أعد أسمع منها شيئًا، وفي اليوم التالي لم أذهـب للمعهد، بقيت في غرفتي أنظر لتلك للوحة وإلـى نظرات تلك الفتاة السوداء التي تشبهني حين كنت جميلة، وأنظر إلى المرآة فأجد امـرأة من يراها يعتقد أنها في الخمسين مـن عمرها، وأغــرق فـي صمت المكان وصمت قلبي وصمت تلك اللوحة التي أمامي.

تافارا

كانت تلك الحفلة أسوأ مناسبة حصلت لي منذ وصولي لباريس، لم أشعر بالحرج مثلما شعرت به في تلك الحفلة، خصوصًا حين جلست كامالي تأكل غير آبهة بنظرات من حولها، ثم تجولها في الصالة بلامبالاة وجلوسها ومراقبتها لكل من في الحفلة كأنها آتية من كوكب آخر، كنت غاضبًا ومحبطًا وشعرت أنها دمرت جزءًا كبيرًا من صورتي أمام زملائي خصوصًا الذين لا توجد علاقة جيدة لي معهم، كانت فرصة لهم للتهكّم المبطن وللنظر لي من بعيد مع ابتساماتهم المتبادلة، والتي كنت أعرف معناها جيدًا. أما سيلفيا، فقد كانت متفهمة لأنها كانت تعرف الوضع بشكل كامل فلم يكن مفاجئًا بالنسبة لها، الوحيدة التي أحبت كامالي كانت مدام كوليت، والتي اتصلت بي لتؤكد علي أن أحضرها من حين لآخر لزيارتها.

كـان يمكن أن أفكر بتلك الحفلة وتأثيرها على وضعي المهني لفترة طويلة، ولكن ما حصل غير كل تفكيري وجعلني أنسى تلك الحفلة، وذلـك حين اتصلت بي السيدة التي كانت تؤجر لي البيت السابق حيث كنت أسكن قبل أن أنتقل مع كامالي لبيتنا الحالي، قالت لي إنـه يوجد شابان يبدو أنهما من أفريقيا، يتكلمان الفرنسية وقـد سـألاهـا عني إن كنت أسكن فـي بيتها وأن تعطيهما رقـم هاتفي، سألتها إن كانت أخبرتهما بعنواني الجديد فقالت:

- لا، لم أخبرهما، فأنا لا أعـرف عنوانك الجديد لذلك اتصلت بك، فقد أخبرتَني أن أتصل بك إذا سأل أحدهم عنك.

سألتها باهتمام:

- سألا عني بأي اسم؟

- عفوا، ماذا تقصد بأي اسم؟

أجبتها بعصبية:

- أقصد، أقصد هل سألا عني باسم تافارا أم باسم آخـر، ربما يبحثان عن شخص

يشبهني أو اسمه يشبه اسمي.

- سألوا باسم تافارا وكانا متأكدين من الاسم.

أجبتها بصوت حاولت جعله عاديًّا:

- إذا عـادوا للسؤال عني أرجـو إخبارهم أنني تركت فرنسا، ولا تعرفين إلـى أي بلد سافرت، لأنني سأترك فرنسا خلال بضعة أيام وربما لن أعود.

- حسنًا، سـألانـي أيـضًـا إن كنت تسكن وحـدك أو مـع عائلتك، أخبرتهم أنك كنت تسكن مع زوجتك فقط.

- حسنًا، أخبريهم بما قلت لك وأشكرك كثيرًا على الاتصال.

- عـفـوًا، ألــن تخبرني عنوانك الجديد بحال طلبوه مني أو أن أعطيهم رقم هاتفك!

- لا، لا داعــي، لأنني سأترك فرنسا مع زوجتي كما أخبرتك في السابق ولا داعي للاتصال.

انتهت المكالمة، وذهبت لغرفة كامالي وقلت لها على الفور:

- سوف نغادر هذا البيت غدًا صباحًا، سوف نذهب للسكن ببيت آخر.

نظرت لي بدهشة:

- ولماذا؟

- لقد أتــى شخصان للسؤال عني فــي البيت القديم، ووجــدوا صاحبة البيت، سـألا عني باسم تـافـارا هـذا يعني أنهم لا يعرفون اسـم فرانسوا وهــذا جيد. أنت تدركين الآن لماذا تغيير الأسماء كان ضروريًّا جدًا.

- أجل بالطبع، لكنهما لا يعرفان أسماءنا الجديدة ولا يعرفان هذا البيت فلماذا يجب أن نغادر لبيت آخر.

- لأن صاحبة البيت تـعـرف رقـم الهاتف لـهـذا البيت، وربــمـا يجبرانها على

إعطائهما رقـم الهاتف ومـن رقـم الهاتف سيعرفون هـذا العنوان، أخبرتها أن تقول لهم بأننا غـادرنـا فرنسا، والآن سـوف أتصل بصاحب المكتب الـعـقـاري لننتقل لأي بيت متوفر لديه، حضّري جميع أغـراضـك، غـدًا صباحًا سـوف نـغـادر، ربما لن نستطيع النوم الليلة بسبب تحضير أغراضنا لكن يجب القيام بذلك، سـوف أختار بيتًا مفروشًا لأنني كنت أتوقع أن يحصل هذا، ولم أكن أريد أن أنشغل بنقل الأثاث أيـضًـا، مـا علينا سـوى نقل أمتعتنا، وسـوف أدفـع بقية الأجـرة لصاحب المكتب العقاري ليوصلها إلى المالك ويخبره أننا تركنا فرنسا. غـدًا سوف أتحدث مع مدير المستشفى الجديد وأحــاول الانتقال لمستشفى آخـر، لأن صاحبة البيت القديم تعرف بأي مستشفى أعمل حاليًا ولابد من محو أي آثار تعرفها عني.

حزمنا حقائبنا في الليل، وكنت قد اتصلت مع المكتب العقاري، الـذي وجد لي على الفور بيتًا في بناية سكنية كبيرة بصورة مؤقتة إلـى أن ننتقل لبيت آخر. وفـي الصباح كنا في الشقة الجديدة التي كانت عبارة عن شقة صغيرة مفروشة بأثاث قديم ورخيص، وتقع بأحد شـوارع باريس المكتظة بالسيارات والسكان، لم يعجبني البيت ولكن كان لابد من الانتقال دون أي تأخير، إلى أن أجد بيتًا مناسبًا بعد انتقالي لمستشفى آخـر. بقيت كامالي صامتة طـوال الـوقـت، فهي لـم تكن تـدرك الخطر الـذي لا يـزال يلاحقنا، ورغـم انزعاجي بسبب هـذا الانتقال المفاجئ وعـدم الاستقرار، شعرت بشيء من الراحة لأنها أدركـت أخيرًا أننا في خطر، وأن ما أقوله لها لم يكن مجرد ضغط عليها، لذلك لزمت الصمت ولـم أكـن أحتمل سماع أي كلام أو الحديث معها.

قابلت مدير المستشفى وقد تفهم الوضع بشكل كامل، وساعدني بإتمام عملية نقلي بسرعة لمستشفى آخـر، في منطقة بعيدة عن مركز المدينة، وأخبرت سيلفيا بما حصل وأنني لن أتمكن من رؤيـة الأولاد بنهاية هذا الأسبوع لانشغالي بالانتقال إلى البيت الجديد، وطلبت منها أن تذهب لإحضار الأولاد من المدرسة وأن يقضوا معها عطلة نهاية الأسـبـوع، وأن تخبرهم بأني في رحلة عمل وسـأراهـم الأسبوع الـقـادم. وخـلال بضعة أيـام كنت قد انتقلت لمكان عملي الجديد، ووجـدت بيتًا آخـر، عبارة عن شقة كبيرة مفروشة بشكل أنيق تقع بالقرب من المستشفى حيث

يمكنني الذهاب لعملي سيرًا على الأقدام مما يوفر الكثير من الوقت.

بقيت كامالي صامتة طـوال تلك الأيـام ولـم تخرج من البيت، وكنت قد نسيت معهد اللغة إلى أن اتصلت بي مديرة المدرسة تسألني أين كامالي، فقلت لها إننا اضطررنا للانتقال لبيت جديد وأنها غـدًا سـوف تأتي للمعهد. كـان معهد كامالي بعيدًا عن البيت الجديد، وكـان يجب أن أوصلها بالسيارة أو أن تأخذ المترو لتصل إلـى هناك، أخبرتها بذلك، فنظرت لي ولـم تطلب مني أن أوصلها للمعهد، قالت بهدوء:

- سوف آخذ المترو.

- لكن أنت لا تعرفين بعد أي محطة سوف تتوقفين عندها.

- أعـرف الذهاب لبعض الأماكن في المترو ولكن سـوف أسـأل الناس في محطة المترو.

- هنا لا يحبون أن تسأليهم، أعتقد أنني سـوف أذهــب معك لتعرفي كيفية الـذهـاب إلــى هـنـاك، وســوف أنتظرك عند انتهاء الـــدروس لأعــود معك أيـضًـا في المترو، هكذا تعرفين أسماء المحطات وتذهبين لوحدك كل يـوم وتتعودين على الطريق. أعتقد أنـك يجب أن تبدأي بأخذ دروس لقيادة السيارة، سـوف تشعرين بالاستقلالية حين تصبح لديك سيارتك الخاصة.

نظرت لي بدهشة كأنها لم تتصور أن تتعلم قيادة السيارة وقالت بتردد:

- هـل تعتقد أنني سأستطيع قـيـادة السيارة فـي مدينة ضخمة مثل باريس، هذا شيء مخيف.

- سـوف تتعلمين وحين تحصلين على الرخصة سـوف أشتري لك سيارة صغيرة مناسبة لك.

يمكنك البدء بالدروس من الأسبوع المقبل.

- لا، أريــد أن أنتهي من دروس اللغة ثم أبــدأ شيئًا آخـر، لن أستطيع التركيز

خصوصًا بعد الذي حصل، أحتاج لبعض الوقت.

- حسنًا، كما تريدين.

وقفنا في الصباح ننتظر وصول المترو، وكانت تلك أول مرة ترى بها كامالي الأعداد الكبيرة للناس الذي يأخذون المترو، ويتوجهون لمكان عملهم أو الطلاب لمدارسهم، كان يقف العشرات من الناس بانتظار المترو، لم يكن بالأمر الممتع ولا المريح ولكن كامالي لم تتذمر ولم تتكلم، إلى أن وصل المترو وصعدنا مع بقية الناس، وكان الجميع صامتًا، لا أحد يتحدث ولا يبتسم، ولا أحد ينظر إلى الآخر، منهم من أمسك كتابًا ليقرأ فيه، ومنهم من كان ينظر عبر النافذة، ومنهم من ينظر إلى أرضية المترو دون أي اهتمام بمن حوله، وكانت كامالي تنظر عبر النافذة كأنها تراقب فراغًا لا ينتهي، لم يكن لدي أي كلمات لأخفف عنها، فتابعتُ النظر إلى بعض الأطفال الذين سيذهبون برحلة ما مع مدرستهم، واستمع لأحاديثهم الخفيفة لأتجاهل عبء تلك الرحلة، التي تكاد لا تنتهي في مترو أكتظ به الناس من كل الأجناس، وذاهبون بكل الاتجاهات.

وحين أتى موعد عودة كامالي، كنت بانتظارها عند باب المعهد، ونزلنا الدرجات الطويلة باتجاه محطة المترو، وكان يوجد أعداد من الناس أكثر من الذين كانوا في الصباح، العشرات منهم يصطفون بانتظار وصول المترو، وكان الجو حارًا وخانقًا، نظرت نظرة خاطفة لكامالي التي كادت أن تبكي لشدة شعورها بالحر والضيق، ولكنها لم تبكِ، أشاحت بوجهها تراقب أي شيء حولها كي لا تلتقي نظراتنا. أتى المترو وصعدنا سريعًا مع كل تلك الأعداء الكبيرة، كان أغلب الركاب واقفين لعدم وجود مكان للجلوس، وبقيت واقفًا قربها إلى أن وصلنا. نزلنا من المترو وتنفست الصعداء، لقد كانت رحلة فظيعة مع ذلك الحر ومع كل تلك الأعداد من الناس.

وصلنا للمحطة القريبة من منزلنا وصعدنا الدرج الطويل المؤدي للشارع، مشينا بهدوء دون حديث، ثم رأيت رجلًا أسود البشرة يقترب منا، شعرت بالخوف ولكنه كان يبتسم، وبصورة عفوية أمسكت بيد دومينيك التي نظرت لي باستغراب ثم نظرتْ لذلك الرجل القادم نحونا وقالت:

- هل تعرفه؟

- لا...

أقترب ذلك الرجل طويل القامة ووسيم الوجه وقال لي ضاحكًا:

- تـافـارا...هـل نسيتني؟ أنـا نـاجـا، أول طـالـب أفريقي استقبلك حين أتيت لباريس...

نظرت إليه للحظات ثم ضحكت بدوري وسلمت عليه بحرارة وقلت:

- صديقي ناجا، أجل أتذكر الآن، أقدم لك زوجتي دومينيك...

- أهلا سيدتي، هل تزوجت أيضًا؟

- هل نسيت! لقد كنت متزوجًا قبل أن آتي إلى باريس...

- ولكن اسم زوجتك فرنسي وليس أفريقيًّا.

- دعنا من الأسماء، أخبرني ماذا تفعل الآن؟

- بعد انتهاء دراستي وجـدت عملًا مناسبًا في باريس، ولـم أتـزوج ولكني أفكر في الزواج قريبًا، ما رأيك أن نلتقي غدًا ونتناول الغداء معًا.

- فكرة جيدة، لكن هل يمكننا تناول الغداء في مطعم قريب من المستشفى حيث أعـمـل؛ لأنـه بعد الـغـداء بساعة لـدي موعد مـع مريض ولا أستطيع تأجيل الموعد. ما رأيك؟

- حسنًا، وسوف نتقابل هناك، هذا رقم هاتفي.

أعطيته رقـم هاتفي وذهـب مسرعًا بطريقه، نزعت دومينيك يدها مـن يدي ولـم تقُل أي كلمة، لقد كانت تعلم أنني أمسكت يدها بدافع الخوف لا المحبة، ولـم تعد تطالبني بـأي قـدر من المشاعر، فرغم أنها امـرأة قروية وبسيطة إلا أن شعورها بكرامتها يذهلني أحيانًا بل ويثير إعجابي، ولكني لم أعد أريـد أي مساحة من الشعور ما بيني وبينها، لقد أغلقتُ ذلـك الباب ولـن يُفتح من جديد، تحررت من قيود لن أعيدها حـول رقبتي، لقد اعتادت على هـذا الـزواج وهـو يناسبني ولن

أستطيع تقديم أكثر مما أعطيه لها الآن.

وصلنا إلـى البيت بعد أن مشينا لبضع دقائق، ذهبت كامالي لتحضير الطعام، وبقيت متمددًا على الأريـكـة لشدة شعوري بـالإرهـاق، أكلنا بصمت وسألتها قبل أن تذهب للنوم:

- دومينيك، هل تستطيعين الذهاب للمعهد وحدك غدًا والعودة وحدك؟

قالت دون أي تعبير على وجهها ولـم تعترض على مناداتي لها باسم دومينيك رغم كوننا وحدنا:

- أجل، لا تقلق فرانسوا، حين تعود ستجد الطعام جاهزًا.

نظرت باستغراب إليها، لقد نادتني باسم فرانسوا لأول مـرة حين نكون وحدنا، فقالت قبل أن أرد:

- لقد كنت محقًّا يجب أن ننسى أسماءنا القديمة، لم أكـن أدرك أن الخطر سيأتي إلـى هنا كنت أعتقد أنـه بعيد أو أنـه ابتعد أو اختفى أو ربما نسيته، لكنه فعلًا هنا بأي زاوية من الطريق.

- لا أريــد أن تشعري بكل هــذا الـخـوف، فليس لهذه الـدرجـة، نحن الآن بخير ومحونا كل آثـار لنا، يمكننا العيش بهدوء على الأقـل إلـى أن تأتي المرحلة التالية وأرجــو ألا تأتي. شـيء آخـر لا داعــي لتحضير الطعام غــدًا، سآكل مع زملائي الجدد في المستشفى، في الأيام التي آكل فيها في الخارج لا داعي لتحضير الطعام لي.

- حسنًا، سوف أذهب للنوم، أنا متعبة. ليلة سعيدة.

الأيام التي مرَّت كانت مُتعِبة ومليئة بالتوتر، وأخيرًا في هذه الليلة أستطيع ومن جديد التقاط أنفاسي لأنني ومن جديد رتبت كل شيء، وكان هناك أسئلة تؤرقني وبشدة:

إلى متى سوف أعيش بهذا القلق؟ إلى متى أرتب حياتي في مكانٍ ما ثم يتبعثر كل شيء وأعيد ترتيب الأمور من جديد؟ إلى متى سوى أعيش متنقلًا من بيت لآخر؟ حتى أنني لا أستطيع شراء أثاث خاص بي لأنني أخشى أن أضطر فجأة للانتقال لبيت آخر، وهل سأضطر فعلًا يومًا ما

لمغادرة فرنسا لأنجو بحياتي؟ ومن جديد أدرك أنني اتخذت القرار السليم بوضع ولدايَّ بمدرسة داخلية وإلا فسوف يشعرون بهذه المعاناة التي لا تُطاق.

كامالي

من جديد أقف في بيت آخر، لابد أن أعتاد عليه واعتاد على الأثاث والشوارع التي تحيط به، أشعر الآن بالخوف، وأنظر كثيرًا عبر النوافذ لأرى إن كان هناك أحد ما يراقب البيت، خصوصًا إذا كان أسود البشرة، لم أعد أشعر بالأمان كالسابق، وهذا الشقة الكبيرة بنوافذها الواسعة التي تطل على الشارع تجعلني أشعر بغربة فظيعة. لم أعد أتجادل مع فرانسوا، وقررت أن أناديه فرانسوا لأنني أدركت حجم الخطر الذي نعيش فيه، أصبحت مرتبطة به أكثر من السابق، ليس بدافع الحب بل بدافع الخوف، وهو كذلك أصبح أكثر ارتباطًا بي ويسأل عني عبر الهاتف أكثر من السابق، وأعرف أن ذلك ليس بدافع الحب، بل أيضًا لأننا معًا في مواجهة هذا القلق والخوف الذي يتلاشى أو يزداد حسب الظروف؛ لذلك لم يعد بيننا أي جدال أو مناقشات طويلة، فقط ذلك الصمت الذي يجمع بين اثنين لا يجدان ما يتحدثان عنه، ولكنهما مرتبطان بالشعور بعدم الأمن. حتى أنني أحيانًا أشعر بالتعاطف معه لأنه من يحمل كل تلك المسؤولية، فهو من ينظم كل شيء وهو من يجد البيت الذي سننتقل إليه، وهو من يتابع تفاصيل حياتنا جميعها، إضافة إلى عمله في المستشفى، وأحيانًا يعود للبيت مرهقًا ولا يقوى حتى على الكلام، ويتناول طعامه أغلب الوقت في المستشفى، سألته في صباح أحد الأيام:

- لو كنت تعلم بأنك ستتعب بعملك بهذه الصورة، هل كنت ستختار أن تأتي للدراسة في باريس؟

نظر إلي متفاجئًا من السؤال وقال:

- أجل، كنت سآتي، أشعر بالأسى لشيء واحد فقط.

- ما هو؟

- أمي، كنت أتمنى لو أنها بقيت على قيد الحياة وأتت هنا لترى ابنها الجراح الناجح، وأشتاق لها كثيرًا.

نظرت إليه بدهشة وقلت:

- غريب، اعتقدت أنك ستقول إنك تفتقد تاكي وسيمو أكثر من والدتك!

ارتبك قليلًا ثم قال:

- هذا شيء بديهي، فهما دائمًا في أفكاري رغم أنني لا أحب الحديث عن ذلك، لأنه يسبب الحزن لي ولـك، ولكن أمي شيء آخـر، أمي هي السبب الرئيسي لكل ما أنا فيه من نجاح ولكل ما حققته بحياتي، كانت تهمس لي بكل ليلة، سوف تنجح، سوف يكون لك شأن كبير. ولا أدري كيف كانت تشعر بذلك، ولم يفكر أحد في كل القرية بـأن أي شـاب منها سـوف يسافر ويـدرس الطب، لا أدري من أيـن أتـت بذلك الإحساس في عالم لا يوجد فيه أي إشارة توحي بذلك النجاح.

- أنـا أعـلـم، لقد عشت مـع والـدتـك لـسـنـوات وفاجأتني بحكمتها العميقة ومعرفتها بأشياء كثيرة، حتى الـرجـال لـم يكونوا يعرفونها، لقد كانت حكيمة ومقاتلة ولا تستلم لأي ضعف، وتـرى مـا لا يـراه الآخـــرون، كانت تتبع إحساسها بكل شـيء، حتى لو كان الـذي أمامها مستحيل، إذا أخبرها شعورها أنه ممكن تتبع ذلك الشعور دون تـردد، أمك لم تترك أثـرًا بك فقط بل تركت أثـرًا كبيرًا في حياتي وعلمتني أشياء كثيرة.

كانت والـدتـه هي الـرابـط الوحيد بيننا، كنا نتحدث عنها لساعات ولكنه كان يرفض الحديث عـن أولادنـــا؛ لما يسببه ذلـك مـن الـحـزن لـي ولــه، كنت أستغرب ذلك حتى أنني أحيانًا لم أكن أشعر بأنه حزين لموتهما، وفكرت أن سبب ذلك أنه لم يعرفهما جيدًا ولـم يعِش معهما لقد رآهما وهما طفلان صغيران، ثم لسنوات طويلة غـاب عنا ولا يعرفهما، لذلك وجـدت من الطبيعي ألا يكون في قلبه الحزن الذي بقلبي لموتهما.

لم أنـسَ أن أحضر اللوحة هدية مـدام كوليت حين تركنا منزلنا السابق، وضعتها من جديد أمامي لأنظر لتلك الفتاة الأفريقية الجميلة، وأعـود لقريتي حيث كنت أشعر بـالأمـان عبر نظراتها الساحرة للحظات، حين أشعر بالاختناق مـن كـل ما حـولـي. البيت الجديد يجعلني أشعـر بـوحـدة فظيعة خصوصًا وأنــه يُـطـل على مدرسة صغيرة لأولاد وبنات بسنّ تاكي وسيمو، وأرى كل صباح الأهـل يحضرون

أولادهـــم يقبلونهم ويراقبونهم إلـى أن يدخلوا إلـى المدرسة، لو كـان تاكي وسيمو حَيينِ لكانا بسن هـؤلاء الأولاد، ولذهبت معهما للمدرسة بكل صباح وعـدت للبيت لأعـد لهما الطعام الـذي يحبانه، ولذهبت للسوق لأشتري لهما الملابس والأغـراض التي يحتاجانها، ثم أذهـب معها إلى الحدائق وإلـى مسبحٍ ما، حيث يلعبان بالماء وبالألعاب المائية الكبيرة، وسـوف نذهب للمكتبات الكبيرة والعديدة الموجودة في باريس، سـوف يحبان كل تلك الكتب الجميلة الملونة التي تتحدث عن البلاد، وعــن القصص وعــن الطبيعة وعــن كـل شــيء فـي الـحـيـاة، وســوف يـعـودان للبيت جائعين ومتعبين، يأكلان ويقوما بتحضير واجباتهما، ثم في الليل أضمهما لصدري وأحكي لهم قصصًا قديمة يحبانها وقصصًا جديدة سوف يحبانها أيضًا، وربما أغني لهما الأغنية التي تعلمتها فـي المدرسة وحفظت كلماتها، أردد الأغنية بصوت خافت واقفة خلف النافذة، أراقبهما وأنظر إلـى الطريق ربما يأتي تاكي وسيمو من خلف ذلـك الـجـدار، يحملان حقائبهما ويركضان باتجاهي، ولكن لا أحـد يأتي وأغني أغنيتي الفرنسية التي حفظتها:

الثلج يتساقط

لن تأتي هذا المساء

وقلبي يلبس الأسود

كل شيء مغطى بالدموع البيضاء

الطير على الأغصان يبكي حزنًا

كل شيء حزين ويرتدي اللون الأبيض

البرد والغياب

وهذا الصمت المقيت...

لا يأتي ولــداي، ولــن يأتيا، لن أراهــمـا، لن أسمع صوتهما أو أشـم أنفاسهما، أو ألمس شعرهما، لن يعودا، وكأنهما لم يكونا في حياتي، تمر الأيــام وأخبئ شوقي لهما، تمر الأيـام وأقـول لنفسي بأنني يجب أن أحيا، ولكنني دونهما لا أشعر بالحياة،

أراهـا أمامي تتحرك والناس يعيشون فيها، تشرق الشمس وتغرب، أنـام وأستيقظ، أخـرج من البيت وأعـود، آكـل وأشـاهـد التلفاز، أعيش مثل كل البشر ولكنني هنا بداخلي أبـدو ميتة، هنا بداخلي يوجد شيء صامت جامد كأنه صخرة ثقيلة تجثم على قلبي، لا تتحرك ولا تتفتت، لا تقتلني ولا تجعلني أشعر بالحياة، لقد ارتبطت حياتي بهما، بأنفاسهما، بضحكاتهما، بساعات الليل حين يمكثان في حضني إلى أن تغفو عيونهما، حين أذهـب معهما برحلة ما إلـى المدينة، أو حين نمشي على شاطئ البحيرة، لم يكونا ولـديَّ فقط بل كانا صديقيَّ، كانا أجمل ما في حياتي، ولا أشعر ولـن أشعر بالحب لأي مخلوق على الأرض مثلما شعرتُ بحبهما، كانا حقيقية في قلبي وحضني والآن أصبحا خيالًا أو وهمًا بعيدًا، أحـاول أن ألتقط بعض ملامحه ولكنه يهرب مني ويختفي عند أول محاولة للتذكر؛ الآن يبدو كل شـيء صامتًا، الشمس تشرق فـي الـخـارج والتلاميذ يلعبون فـي ساحة المدرسة، ولكن في قلبي الثلج يتساقط بغزارة يملأ كل شيء بالبرد والحزن والوحدة.

استيقظت من أفـكـاري ومسحت دمـوعـي، فهذا البيت لا يتركني وشـأنـي، هذه المدرسة تجعلني أتـذكـر أولادي بشدة فـي الصباح حين يأتي التلاميذ للمدرسة وفـي المساء حين يـغـادرون، ولا أتمالك نفسي بـأن أقـف وأنظر إليهم، وأتخيل في كل مرة بأن تاكي وسيمو سوف يأتيان من خلف ذلك الجدار، أعلم أنهما لن يأتيا أبـدًا ولكنني أريد أن أحيا، أريد أن احتمل الحياة دونهما حتى ولو استعنت بالخيال لأجل أن أبقى على قيد الحياة، لأجل أن يهدأ الحزن، لأجل أن ينطفئ الشوق لأجل أن أبقى إنسانًا طبيعية أو على الأقـل شبة طبيعية، لئلا أتحول لإنسان تمشي في الشوارع تبحث عن أولادها الذين لن يعودوا أبدًا.

أمسكت دفـاتـري وغـادرت لأذهـب للمعهد، واتجهت كالعادة لمحطة المترو، لقد تأخرت اليوم لذلك كـان يوجد عـدد أقـل من الناس يقفون بانتظار حضوره، وهـو مـا منحني فرصة النظر لكل مـا يـدور حـولـي، رأيـت بعض الأشـخـاص ينامون على الأرض يبدو عليهم الفقر الشديد، يضعون قطعًا مـن الكرتون على الأرض ينامون عليها، ومنهم من يجلس بثياب رثة يتسول النقود، نظرت إلى امـرأة كانت تجلس معهم، وحين رأت نظراتي تجاهها نهضت من مكانها وهـي تترنح وقالت

لي بصوت مرتفع:

- أعطني نقودًا...

شعرت بالخوف منها وابتعدت عنها لأتجنب رائحة الكحول التي كانت تفوح من فمها، فلحقت بي تطلب النقود، لم يحرك من حولي ساكنًا، كانوا ينظرون بسلبية كاملة بل ويتجاهلون النظر لي أو لها، أخرجت محفظة نقودي الصغيرة لأعطيها بعض الـنـقـود، فمدت يدها بسرعة وسـرقـت المحفظة وهـربـت، وقفت عاجزة عن التصرف أو عن اللحاق بها، فالخوف الـذي شعرت به منعني حتى من اللحاق بها، وكل من حولي لم يهتموا بما حصل ولم يحاول أحد مساعدتي والركض خلفها، وقفوا جميعهم، ينظرون للجهة الأخـرى أو يتصفحون كتابًا ما أو الجريدة اليومية، حضر المترو فصعدت مع بقية الـركـاب، وجلست عند أول كرسي محاولة أن أمنع نفسي من البكاء، وبقيت قلقة من أن يأتي مفتش التذاكر فالتذكرة كانت في محفظتي، جلست بجانبي امرأة كبيرة في السن شاهدت ما حصل، وقالت لي:

- اسمحي لي، يبدو أنك جديدة في باريس!

نظرت إليها باستغراب ولكنني كنت بحاجة للحديث مع أحد ما، قلت لها:

- أجل، أنا جديدة هنا، أو بالأحرى بدأت من جديد أركب المترو.

- هــذا واضــح، يجب ألا تنظري للأشخاص الـذيـن ينامون على الأرض، هـؤلاء لا سكن لهم ولا عمل فهم مـشـردون، ينامون فـي الـشـوارع وبمحطة المترو أو القطارات، بالطبع هم فقراء جـدًا، المهم هو أنـك لا يجب أن تنظري إليهم، حين تنتظري المترو حافظي على نظراتك على الأرض، أو بـأي كتاب، المهم ألا تنظري إليهم لأنهم حين يلاحظون ذلك لن يتركوك وشأنك.

شــيء آخــر، لا يجب أن تحضري معك نـقـودًا كثيرة فقط التذكرة والقليل من المال؛ لأنهم أحيانًا ينشلون محفظتك.

هززت رأسي موافقة، ثم قلت لها:

- لماذا تتركهم الحكومة هكذا يعيشون في الشوارع؟

- الحكومة تـحـاول مساعدتهم، منهم مـن ينجح ومنهم مـن يـذهـب بطريق المخدرات أو إدمــان الكحول، ومنهم من يريد أن يعيش بهذه الصورة دون عمل ويتسولون النقود مـن الـنـاس، ويـذهـبـون لأمـاكـن معينة ليحصلوا على وجبات طعام مجانية.

- أجل، فهمت.

- لابـد أن أنـزل في المحطة التالية، لا تنسي ما أخبرتك بـه، إذا حصل لك شيء لن يساعدك أحد فالجميع هنا يخافون ولا يريدون التدخل، حافظي على نفسك.

نزلت من المترو، وجلست أفكر بهذا العالم المتناقض، فهناك في الأعلى في باريس توجد تلك الطبقة الغنية التي رأيتها في الحفلة ببيت مدام كوليت، وتوجد تلك المحلات والمطاعم والمقاهي والحدائق والمتاحف والشوارع الجميلة، وهنا تحت الأرض محطة المترو يوجد عالم آخر من الفقر والجوع والإدمان والتشرد. عالمان مختلفان لمدينة واحدة، شعرت بالقشعريرة وضممت دفاتري إلى صدري بصورة لا شعورية، وتذكرت أنه في قريتنا لم يكن هناك أي إنسان مشرد وكل إنسان كان له بيت صغير أو كبير، لم يكن أحد يعاني الجوع فكل القرية ستعطيه الأكل، لم يكن هناك من يدمن المخدرات أو الكحول، وفكرت أنني ورغم كل جمال باريس إلا أنني أتمنى العودة لقريتي، ولكنها احترقت ولم يعد لها وجود، لم يتبقَ منها سوى ذاكرتي التي تحملها بكل مكان. وصل المترو حيث يجب أن أنزل، نزلت مسرعة دون أن أنظر لأي شخص حولي كما نصحتني تلك السيدة، ولحسن الحظ لم يأتِ المفتش ليبحث عن التذكرة. حين وصلت للمعهد كنت متأخرة، سألتني المعلمة عن سبب تأخُّري، لم أخبرها بأنني كنت أراقب تلاميذ المدرسة ونسيت الوقت الذي مرّ، ولكني أخبرتها أن امرأة ما سرقت محفظتي في محطة المترو، لم تتفاجأ وقالت لي إن هذا شيء يحصل أحيانًا هنا وإنني لا يجب تحت أي ظرف أن أخرج محفظتي أمام الناس هنا، وأن أضع بعض النقود فقط بجيب السترة التي ألبسها.

تافارا

قابلت ناجا في اليوم التالي في مطعم مقابل للمستشفى، تحدثنا كثيرًا حول ذكريات الدراسة وعن عمله وسألني الأسئلة المعتادة عن حياتي، شعرت بالملل وكنت أنظر للساعة طوال الوقت، وكان يبدو أن لديه وقت فراغ زائدًا، فلاحظ توتري ونظري للساعة، ابتسم وقال لي:

- لم تتغير يا تافارا، لقد كنت تريد دائمًا أن تكون فرنسيًّا بطباعك وثقافتك، حتى أنني مستغرب لماذا لم تتزوج امرأة فرنسية؟

نظرت إليه بدهشة وقلت:

- لأنني متزوج.

- أجل بالطبع، لكن اسم زوجتك فرنسي، هل ولدت في فرنسا؟

- لا، هذه قصة أخرى، لقد اضطررت لتغيير اسمها واسمي كذلك، لقد حدثت حرب أهلية في بلدي وهجم مسلحون على قريتي، أبي وأخ لي قتلا عددًا منهم، وقد أقسموا على الثأر، قتلوا أبي وإخوتي، وتوعدوا بقتلي أيضًا، لذلك اضطررت لتغيير الأسماء، أنت تعلم أن الثأر لديهم لا ينتهي.

- ولكن من الصعب إيجادك في باريس.

- هذا صحيح خصوصًا وأني غيرت اسمي واسم زوجتي، منذ فترة سألوا عني في البيت الذي كنت أسكن فيه سابقًا واضطررت لتغيير السكن والمستشفى الذي أعمل به، لقد سألوا عني باسم تافارا هذا يعني أنهم لا يعرفون اسمي الجديد.

- هذا شيء صعب فعلًا، وما اسمك الآن؟

- اسمي فرانسوا، وأفضل أن تناديني به، فأنت تعلم أنه يوجد عدد كبير من الأفارقة في باريس ويبدو أنهم لم ينسوني.

- هل تعتقد أنهم سيحاولون إيذاء زوجتك أيضًا؟

- لا أدري، ولكن أعلم أنهم مستعدون لقتل أي شخص حتى الأطفال.

خيَّم جو ثقيل على المكان، ورأيت القلق بعيون ناجا الذي تابع قائلًا:

- إذا احتجت أي مساعدة اتصل بي على الفور وكذلك زوجتك، أرجو ألا تتردد بذلك.

- أشكرك كثيرًا.

لم أخبره شيئًا عن أولادي؛ لم أكن أريد أن يعلم أي شخص من معارفي عنهما، غيرت الموضوع وتابعت الحديث عن طبيعة عمله واهتماماته، قضينا بعض الوقت معًا وبعد انتهاء الغداء كان لابد من المغادرة، وقف مصافحًا وقال من جديد:

- لا تنسى أن تتصل بأي وقت تحتاج فيه لصديق.

- بالطبع، وأرجو أن نتقابل بمناسب أخرى.

اشتقت لولديَّ، انتظرت نهاية الأسبوع بفارغ الصبر لأذهب لمقابلتهما وقضاء عطلة نهاية الأسبوع معهما، كانت تلك الأوقات التي أقضيها معهما هي التي تعطي المعنى لحياتي، حين أراهما يضحكان، يتكلمان، يلعبان أو يكتبان، كل تلك الأشياء البسيطة كانت تشكل حياة كاملة أراها أمام عيني وتأخذني بعيدًا عن جو العمل المُرهق، وبعيدًا عن حضور كامالي الذي كان يُغرقني بالكآبة والصمت. قررت أن أذهب معهما هذا الأسبوع إلى قرية بعيدة حيث حجزت غرفتين في فندق ريفي يقع بجانب بحيرة هادئة وعدد قليل من الزوار. لم تتمكن سيلفيا من الحضور معنا لرغبتها بالذهاب لزيارة والدتها.

وصلنا لتلك القرية التي تبعد قليلًا عن باريس، ودخلنا لمطعم ريفي نوافذه واسعة تغطيها ستائر بيضاء، مرسوم عليها زهور حمراء وصفراء وتحركها نسمات الهواء اللطيفة من حين آخر. جلسنا معًا لتناول الكرواسون الساخن والشاي، ونراقب البحيرة الجميلة عبر النوافذ المفتوحة جميعها؛ لتدخل نسمات الصيف الصباحية تنعش المكان وتحضر معها رائحة الزهور والأشجار مع أصوات تغريد العصافير. ثم ذهبنا للتجول في الحديقة الواسعة التي تقع مقابل المطعم، كان الجو رائعًا، كان يومًا صيفيًا منعشًا انعكست أشعة الشمس على العشب الأخضر الطري، وعلى أغصان الأشجار التي أحاطت بالحديقة من كل جانب؛ جلسنا معًا على العشب الأخضر، وبدأ رولاند بالعزف على الغيتار الذي أحضره معه، فقد بدأ يأخذ دروسًا في الموسيقى وكان

ما يعزفه قريبًا للموسيقى الأفريقية دون أن يدري، الألحان التي يعزفها ذكرتني بتلك الموسيقى التي كنا نعزفها على الآلات الحديدية المربوط بها أسلاك مطاطية وتصدر أصواتًا ناعمة، ليست بجودة صوت الموسيقى الصادر من الغيتار، ولكنها كانت ألحانًا تصدر من نفس القلوب والأرواح، سألت رولاند عن الموسيقى التي يعزفها فقال مبتسمًا:

- هذه الموسيقى كنت أعزفها في قريتي مع أولاد الجيران على آلة قديمة حديدية ولا أزال أتذكر ذلك اللحن رغم بساطته، أحب أن أعزفه فهو يذكرني بقريتنا.

قال ميشيل:

- أجل، وأنا كنت ألعب معهم وأحب هذه الموسيقى.

سألتهما متمنيًا أن تكون إجابتهما بالنفي:

- وهل لا تزالون تتذكرون تلك القرية البعيدة؟

قال رولاند وهو يحرك أصابعه فوق الأوتار بنعومة:

- وكيف ننساها! كل يوم في الليل، نتحدث أنا وسيمو، عفوًا ميشيل عن قريتنا، عن جدتي وجدي وأعمامي وخصوصًا أمي، لا ننساها ولو ليوم.

- ولكنكم لم تخبروني بذلك؟

- أنت دائمًا مشغول وحين نراك نكون جميعًا مع سيلفيا وهي لا تهتم بهذه القصص...

قاطعه ميشيل قائلًا:

- وأنت يا أبي أيضًا لا تهتم بهذه القصص، أليس كذلك! أعني أنك طبيب ومشغول دائمًا وهي أشياء لم ترَها منذ وقت طويل، فأنت لم تكن تأتي للقرية وقد نسيتها منذ زمن بعيد.

شعرت بالأسى لما سمعته لأنهما لا يزالان يتذكران القرية، ولم ينسيا أنني لم أكن آتي لرؤيتهما، والأصعب من ذلك هو ذلك الحنين الذي ينبعث من كل كلمة ونظرة منهما، كأنهما اقتُلعا من جذورٍ جفت وماتت، لم يكن هناك شيء أعمله سوى تغيير الموضوع قبل أن يبدآ بالحديث عن والدتهما، فلم أكن لأحتمل حديثهما عنها وأنا أعلم بأنها على قيد الحياة وأنها بعيدة عنهما بضعة كيلومترات فقط، لم أكن لأحتمل نظراتهما حين يذكرانها، فقلت لهما لتغيير الموضوع:

- توجد بحيرة صغيرة على هذه الجهة من الحديقة، أما على الجهة الأخرى للبحيرة فيقع فندق ريفي جميل، لا يمكننا السباحة في ذلك الجزء من البحيرة إلا إذا كنا نزلاء في الفندق، وسوف نذهب حين تغيب الشمس لذلك الفندق حيث حجزت غرفتين لنا، لا يمكننا السباحة بهذا الجزء المطل على الحديقة لوجود صخور كبيرة، وسوف تسبحون غدًا في الفندق حيث إنكما أصبحتما تجيدان السباحة، وهذا شيء جيد. لقد أحضرت صنارات الصيد وطعام السمك سوف نجلس على الصخور ونصطاد السمك، وإذا اصطدنا شيئًا ما سوف يقوم المطعم الذي كنا فيه بشويه وإعداده لنا. هيا بنا.

جلسنا على الصخور الكبيرة، وأخذ كل منا صنارته ومكثنا بهدوء ننتظر حضور السمك، لم يمضِ وقت طويل حتى بدأت الأسماك بالحضور بحثًا عن الطعام، وبانتظار صيد السمك وسعادتهما بالصنارات التي تتحرك بسبب اقتراب الأسماك، كانا قد نسيا القرية وذكرياتهما وانتقلا لعالمها الوحيد الحقيقي في فرنسا، وبذلك كنت أهرب من ذاكرتيهما عبر المزيد من الأشياء الجذابة، المزيد من الرحلات، المزيد من المفاجآت إلى أن تستوطن فرنسا كل ذرة في كيانهما، وينسيا تلك القرية وينسيا كل من كان فيها وكل ما فيها.

لقد تعلموا اللغة بشكل ممتاز واندمجوا بالدراسة، وتعلموا لعب التنس الأرضي وتنس الطاولة وتعلموا العزف على الغيتار، وأحضر رولاند الغيتار الخاص به معه ليجعلني اسمع عزفه في المساء، وتعلموا السباحة، فمدرستهم لم تكن فقط مرحلة أكاديمية في حياتهم بل كانت أيضًا تعلمهم مهارات عديدة سواء فنية أم رياضية، كنت سعيدًا بهذا التقدم المتواصل الذي يسيران به، وأشعر بالاطمئنان لأنهما بهذه الطريقة سوف يكون لهما مستقبل جيد في باريس، فقد كان التعليم العالي هو الوسيلة الوحيدة ليتجاوزا العنصرية والشعور بأنهما أقل من الآخرين، وحيث إنهم لن يعودا لأفريقيا فلابد أن يعيشا مثل أي فرنسي ويعتادا على هذه الحياة بشكل دائم..

علت أصواتهما بالحماس والفرح لأن كلًا منهما استطاع أن يصطاد سمكة متوسطة الحجم، وضحكا كثيرًا حين شاهدا بأني لم أصطد سوى سمكة فضية صغيرة وقالا لي:

- أبي أعدها للماء، حتى أنها لا تصلح للأكل، سوف تكبر ونصطادها المرة القادمة.

ضحكت وقلت لهما:

- أجل، لقد أصبحتما أفضل مني في صيد السمك.

كانت سعادة رائعة ودافئة أن أكون معهما وحدنا، نضحك ونتحدث، ونراقب المياه الصافية، عسى أن تقترب سمكة ما، كانت عيونهما السود الواسعة من أجمل ما رأيت في ذلك اليوم الصيفي الجميل، عيونهما تشبه عيون كامالي حين أحببتها، وشفتاهما الممتلئتان تشبه شفتيها، وأسنانهما بيضاء ومصفوفة بعناية مثل أسنان كامالي أيضًا، أنفهما فقط يشبه أنفي كبير الحجم وجبينهما عريض مثلي، وممشوقي القامة مثل كامالي قبل أن يزداد وزنها، أخذا كل ما هو جميل من والدتهما ومني عدا عن أنفي الكبير. ولكنهما ورغم ذلك الأنف كانا غاية في الوسامة والجمال ببشرتهما السوداء النضرة الناعمة. لم أكن أتصور أن الأبوة تمنح هذا الشعور الرائع، لو كنت أعلم ذلك لما كنت تغيبت عن القرية لسنوات بعيدًا عنهما، ولكنهما الآن هنا وأستمتع بكل دقيقة معهما، فهما ليسا ولديَّ فقط بل أصبحا صديقين لي أيضًا، أحب أن أكون معهما أكثر من أن أكون مع أي إنسان آخر.

وحين بدأت الشمس بالغروب، وبدأت أشعة الشمس تصبح فضية مائلة للون البرتقالي الذي يلمع فوق مياه البحيرة، التي كانت تتراقص مع هبوب النسمات المسائية الرقيقة، أصبح معنا أربع سمكات وقلت لهما:

- هيا الآن، لابد من العودة للمطعم، سوف يحضرون طعام العشاء ويشوون هذه السمكات، سوف يكون عشاءً لذيذًا، وحين ننتهي من الطعام نتوجه على الفور إلى الفندق، حيث سنقضي الليلة هنا واليوم بأكمله غدًا قرب شاطئ البحيرة لنسبح ونلهو معًا. هيا بنا.

أضاء المطعم الشرفة الخارجية بأنوار خافتة انعكست على سطح البحيرة، وأشعلوا الشموع على كل طاولة ليصبح جو المطعم غاية في الجمال والرومانسية، وبعد قليل من الوقت كانوا قد أعدوا الطعام، أطباق السلطة والخضروات المقلية، ثم السمك المشوي الذي اصطدناه، وقطع البطاطا المشوية مع بعض قطع التفاح المقلية أيضًا وعصير العنب الطبيعي، جلسنا معًا نتناول ذلك الطعام الشهي، حول الشموع المضاءة على الطاولة، وقرب مياه البحيرة حيث تهب النسمات اللطيفة من وقت لآخر، كانا سعيدين معي، وكأنهما كانا بحاجة لأن يكونا معي وحدنا، تحدثا عن المدرسة وعن المواد التي يحبانها والمواد التي لا يحبانها وعن المدرسات والأساتذة، وعن الأشياء التي يرغبان بشرائها... وهكذا أستمر حديثنا كعائلة صغيرة سعيدة لبضع ساعات، وحين انتهينا من الطعام، نهضنا سيرًا على الأقدام نحمل حقائبنا الصغيرة باتجاه الفندق على

الضفة الأخرى للبحيرة.

وصلنا للفندق بساعة متأخرة، ولم يكن هناك سوى موظف الاستقبال، ثم ذهبنا مباشرة لغرفنا لشعورنا بالتعب، كانت غرف النوم مؤثثة بأثاث خشبي قديم ومرتبة بعناية فائقة، الأغطية بيضاء تفوح منها رائحة النظافة ومعطرة برائحة الورود، والنوافذ الخشبية المطلية باللون الأحمر معلق عليها أحواض من الزهور الصفراء والحمراء، وعبر النوافذ نرى البحيرة وانعكاس نور القمر على صفحة الماء الرقراق، كان كل شيء غارقًا في الهدوء والجمال، ورائحة الزهور تملأ المكان، ثم النسيم الذي يأتي من خلال مياه البحيرة فيضفي جوًا من الانتعاش والرغبة بالنوم العميق.

في الصباح الباكر سمعت صوت ضحكهما ولعبهما وهما يسبحان في البحيرة، استمتعت بمشاهدتهما عبر النافذة لبضع دقائق ثم بدأت بتغيير ملابسي للحاق بهما، وخلال ارتدائي ملابسي سمعت صوتًا مرتفعًا لامرأة تقول بعصبية:

- أيها النادل، أنت هناك... من يصدر هذه الأصوات المزعجة في الصباح؟

نظرت عبر النافذة من جديد ورأيت النادل يقف وسط الحديقة يؤشر إلى رولاند وميشيل قائلًا:

- إنهما هذان الصبيان الأسودان، لا أدري من أين أتيا.

- أطردهما من هنا، لابد أنهما قدما من مكان ليس من هنا، لم أرَ صبيًّا أسود من قبل هنا، هيا أخرجهما من الماء وأطردهما فورًا قبل أن يراهما بقية النزلاء.

وقفت لبرهة لا أدري كيف أتصرف، فلم أتوقع مثل هذا الموقف أبدًا، لم يخطر ببالي أن أولادي سيعاملون كأي أفارقة مشردين، وقبل أن أركض باتجاه الباب لمنع النادل من الإساءة لهما، سمعته يقول لهما باحتقار وبصوت آمر:

- هاي، أنتما أخرجا من هنا، كيف دخلتما لهذا المكان أصلًا؟ هيا أذهبا إلى الشارع بعيدًا عن هنا، اذهبا من حيث جئتما، هيا... لماذا تنظران إلي هكذا؟ إن لم تخرجا سوف أنزل للماء وأجبركما على الخروج أو أتصل بالشرطة.

نزلت الدرج سريعًا وخرجت للباب المؤدي للحديقة، ووجدت ميشيل يتشبث بيد رولاند وهما خائفان من الخروج من البحيرة، وقبل أن أقترب قال رولاند بصوت خائف:

- نحن مع أبي، أبي نائم في غرفته في الفندق.

- ماذا؟ وتكذب أيضًا ستقول لي أمك أيضًا معه في الغرفة!

قال ميشيل باكيًا:

- لا أمي، ماتت، ليست مع أبي...

وقبل أن يكمل النادل كلامه وقفت أمامه وقلت له بنبرة حادة:

- ألا تخجل من نفسك! هذان ولداي، ونحن ضيوف بهذا الفندق وصلنا بالأمس في ساعة متأخرة من الليل...

وقبل أن أكمل كلامي ظهرت تلك المرأة مرة أخرى عبر شرفة ما في الفندق وقالت بغضب:

- ألم يخرجا بعد، ماذا تنتظر هيا أخرجهما من الماء بسرعة...

قال لها النادل:

- سيدتي، هذا والدهما، يبدو أنهم نزلاء في الفندق.

قالت بعصبية:

- وهل صدقت هذا، لم يأتِ أحد إلى الفندق اليوم.

- لقد وصلوا ليلة البارحة.

- سوف أنزل وأرى ما هذا الموضوع.

وخلال دقائق وقفت أمامي امرأة في الخمسين من عمرها، صاحبة الفندق وتعيش فيه بجناح خاص بها، قلت لها بجفاء:

- ما هذه المعاملة، أنا طبيب جراح في باريس، أتيت بالأمس مع ولديَّ، ما هذه المعاملة السيئة؟ لقد أخفتم الأولاد، لو كانت بشرتهم بيضاء لما تصرفتم معهم بهذه الصورة أليس كذلك؟!

قالت معتذرة وبدا الارتباك واضحًا عليها:

- أرجو أن تقبلوا اعتذاري، أحيانًا يأتي أولاد إلى هنا عبر الضفة الأخرى، هذا شاطئ خاص لا يُسمح بالسباحة فيه إلا من قبل النزلاء، أعتذر فعلًا...

وقبل أن تكمل كلامها، خرج رولاند وميشيل وهما يبكيان، وقالا لي بصوت واحد:

- أبي، لا نريد البقاء هنا، نريد أن نعود لبيتن...

لم يكملا كلمة بيتنا، ولأول مرة أدرك أنه لا بيت لهما في باريس، وأنهما دائمًا كانا ضيفين عند سيلفيا، وأن بيتهما الوحيد هو مدرستهما الداخلية، نظرا لبعضهما البعض كأنهما تذكرا بأنه لا بيت لهما، وقفا تحت شجرة قريبة مني واحتضن رولاند أخاه الصغير بطريقة جعلتني أدرك بأنه معتاد على حمايته بهذه الطريقة دائمًا. بدأت تلك السيدة بتقديم الاعتذار خصوصًا حين ناولتها بطاقتي، فقالت على الفور إنه بإمكاننا البقاء لأسبوع كامل على نفقة الفندق، ولكن رولاند وميشيل استمرا بالبكاء وأصرا على المغادرة، جمعنا أغراضنا وغادرنا الفندق، وفي السيارة قال رولاند بصورة عفوية وحزينة:

- أعتقد أنه لو كانت سيلفيا معنا لما فعلوا هذا لنا، فهي بيضاء البشرة وحين نكون معها يعاملنا الجميع بصورة أفضل.

سألتهما باستغراب:

- ماذا تقصدان حين تكون معكما!

- أقصد أنه أحيانًا في المدرسة يقول لنا بعض الطلاب كلمات سيئة؛ لأننا من أفريقيا ولسنا بِيضًا، وحين تأتي سيلفيا وتتحدث معهم يتوقفون عن ذلك، وحين تمشي معنا في ساحة المدرسة لا يزعجنا أحد، أما إذا مر وقت طويل ولم تأتِ يبدأون بالضحك علينا وقول كلمات لنا مثل لماذا أنتم هنا؟ لماذا تركتم أفريقيا؟

قلت بغضب:

- لماذا لم تخبرني بهذا من قبل؟

- لأن سيلفيا طلبت منا ألا نخبرك، فأنت مشغول وقالت إن هذه أمور بسيطة تحلها هي بنفسها دون تدخل منك.

- وهل تكرر هذا كثيرًا؟

- لا بعض المرات، أو حين يحصل شجار مع بعض الأولاد.

صمتُّ ولم أعد أستطيع الحديث، أخبرتهما أننا سوف نذهب لفندق آخر، فقال رولاند بهدوء:

- أبي، لا داعي لذلك، هيا بنا نعود لباريس، اليوم الأحد وبعد عدة ساعات لابد أن نذهب للمدرسة، سوف نذهب لبيت سيلفيا نشاهد فيلمًا ما ونأكل معًا ثم نعود للمدرسة.

وقبل أن أرد قال ميشيل متسائلًا:

- أبي، ألا يوجد لك بيت؟ نحن دائمًا نذهب لبيت سيلفيا، أم أن بيتها هو بيتك أيضًا؟.

تفاجأت من سؤاله ولم يخطر ببالي ذلك السؤال من قبل، وفهمت أنهما أدركا بأنه لا بيت لهما في باريس، فقلت لهما متداركًا الموقف:

- بالطبع يوجد لي بيت، لكنه في المستشفى وهو بيت صغير لسكن الأطباء وغير مريح، بيت سيلفيا هو بيتي أيضًا، حين تنتهي فترة دراستكم في المدرسة سوف نسكن ببيت كبير معًا.

قال ميشيل بصوت خافت وهو ينظر عبر نافذة السيارة:

- أجل سيكون لنا بيت كبير.

قال رولاند دون أن ينظر لي:

- أنا أفضل أن أعود لقريتي، هناك الجميع يشبهوننا، جميعنا هناك سود البشرة ولا أحد يزعجنا أو يطردنا حين نلعب قرب البحيرة، أبي، ألا نستطيع أن نعود لقريتنا؟

شعرت بالغضب، ليس بسبب كلماته وشعوري بالعجز أمام تعلقهم بذكرياتهم، ولكن لأنني أدركت اليوم أنهما سيبقيان أفارقة سود البشرة يعاملهما المجتمع على هذا الأساس، إلا إذا نجحا يجب ألا يكون نجاحًا عاديًا بل نجاحًا يتفوقان به على الفرنسيين مثلما حصل معي، وإن لم يستطيعا ذلك سيبقيان دائمًا أفارقة سودًا غرباء على أرض أوروبية، وأنني أقدم لهما الحماية اللازمة بسبب كوني طبيبًا بارعًا، ولكن ماذا لو خرجا للمجتمع وواجها العنصرية التي تعرفا على جزء منها، خلال عدة مواقف في المدرسة كما أخبروني، وخلال الموقف الصعب الذي حصل اليوم، والذي جعلهما ينسيان السعادة التي كنا نشعر بها معًا، فغابت تلك السعادة أمام مرارة العنصرية لصبيين، لن يفهما بسهولة لماذا يكرههما الآخرون فقط لكونهما سود البشرة، وماذا سيحصل حين يخرجا من مدرستهما الداخلية ويواجها المجتمع الذي لن يحل مشاكلهمامثلما

تفعل المدرسة؟ ولن أستطيع أن أكون معهما طوال الوقت لحمايتهما من تلك العنصرية، وأمام كل الجهود التي أبذلها ليخرجا من حنينهما تجاه الماضي، ويندمجا في المجتمع الفرنسي المتحضر، يحصل شيء ما يعيدنا إلى المربع الأول، المربع الأساسي والذي انطلقت منه جميع الخيوط والدوائر وهي أننا غرباء، وأنني مهما حاولت وبذلت كل جهد ممكن بأن ينسيا ويندمجا، هناك دائمًا ذلك اللون الأسود الذي يفصلهما عن الآخرين، حاجز غير مرئي لبشرة داكنة ولكنها تحيط بكل تفاصيل حياتهما؛ وما قاله رولاند صحيح وهو أنهما لو كانا في قريتهما لن ينظر أحد لهما على أنهما سود البشرة؛ لأن الجميع هناك بلون بشرة واحد، الجميع هناك كيان واحد مرتبط ببعضه البعض باللون واللغة والنفس والعقل، أما هنا فلابد من بذل جهود جبارة وبشكل يومي لكي يصبحا جزءًا من هذا المجتمع؛ تفوقي جعلني أتجاوز حاجز العنصرية ولكنني أدركت وبعد كل هذه السنوات من حياتي في فرنسا، أنه إن كان هناك زميل ما أو أي شخص عادي يكرهني، فسوف يكون لون بشرتي الذريعة الأولى لهذا الكره، لن يقول إنه يتمنى أن يكون بارعًا مثلي ولكن سيقول هذا الأفريقي كيف حقق كل هذا النجاح هنا؟ يوجد العشرات أفضل منه، فلماذا يتم منحه كل هذه الفرص، أليس طبيب فرنسي أحق منه بهذا المركز أو ذلك؟ سوف يتحرج من قول هذا الأسود لأنها كلمة لا تناسب الوسط الطبي الراقي، ولكن الجميع يعلمون ماذا يقصد ويصمتون.

وتملكني غضب دفين وصامت لأنني أدركت أنني منذ أن أصبحت طبيبًا في فرنسا، أدافع عن كوني أسود بأن أقول للجميع حين توجد مشكلة ما، إنني طبيب وإنني جراح وإنني معروف، أي إنني في حالة دفاع عن النفس طوال حياتي هنا لمن لا يعرفني، أوقفت السيارة فجأة على حافة الطريق، نظر الأولاد لي باستغراب وخرجت من السيارة لأستطيع أن أتنفس لأني شعرت بأن أنفاسي تضعف في صدري، نزل رولاند ليقف بجانبي ويطمئن إن كنت بخير، ابتسمت وقلت له إنني شعرت بالدوار قليلًا وإنني تحسنت وسوف نتابع الطريق خلال دقائق. عدت لقيادة السيارة، وأفكر هل الحياة التي حصلت عليها في فرنسا رغم عشقي لها تستحق كل هذه المعاناة؟ معاناة لم تعد تقتصر عليّ بل تمتد لولديّ، إلى متى سيكون لوني ولون ولديّ جريمة؟ إلى متى سأدافع عن لوني عن طريق تفوقي ونجاحي؟ وهل سيعاني ولديّ هذه المعاناة أيضًا وأولادهم وأحفادهم؟ لو كنت وجدت في بلدي الأفريقي العلم والفرصة لتطوير ذاتي لما تركت وطني أبدًا، لما قبلت بأن أعيش متهمًّا بسبب لوني، ولكني الآن هنا ولابد أن أظهر أمام ولديّ

بمظهر الأب الصلب المتماسك، لابد أن أعالج نظرات الخوف التي ملأت عيونهما، ومن جديد أبدأ بترميم جرح آخر لهما، جروح تسببت أنا بها وجروح فرضها القدر علينا.

تركت الولدين لدقائق وذهبت للاتصال بسيلفيا:

- لماذا لم تخبريني بما يحصل مع الأولاد في المدرسة وأن هناك من يزعجهم بسبب لونهم؟

صمتت قليلًا، ثم قالت:

- لأنك لو ذهبت للمدرسة سوف يزيد تنمر أولئك الأولاد عليهما، في حين عندما أذهب ولأنني فرنسية يتراجعون ولا يكررون تصرفاتهم، ثم إنك مشغول طوال الوقت ولا وقت لديك للذهاب للمدرسة كلما طرأت مشكلة ما.

قلت محاولًا تهدئة نفسي:

- ماذا تعنين بكلامك؟ أنا أيضًا فرنسي أم نسيت ذلك، وولديّ أصبحا فرنسيين!

- فرانسوا، لا داعي لتجاهل الحقيقة، أقصد أنك أسود البشرة وأنا بيضاء البشرة وهذا ليس ما أفكر به، ولكن أولئك التلاميذ يفكرون بهذه الطريقة...

- سوف أذهب غدًا للمدرسة وأطلب مقابلتهم، ألا يعرفون من يكون والد رولاند وميشيل!

قالت بنفاد صبر:

- التلاميذ بهذه السن لا يهمهم ماذا يكون مركز والد أي منهم، هم يتنافسون بينهم ويهاجمون بعضهم وهذا شيء عادي في المدارس، لا أنصحك بالذهاب ومقابلتهم وإلا سوف يعودون لمضايقة ولديك، لقد توصلت لإنهاء المشكلة وقلت لهم بأنني كوالدتهم في باريس، فتراجعوا ولم يزعجوهم مرة أخرى، ربما يجب أن تتقبل أن العنصرية موجودة حتى وإن كنت بمركز كبير.

صمت من جديد وقلت لها:

- حسنًا، ولكن لماذا لم تخبرني المديرة بذلك؟ لماذا أخبرتك أنت؟

- لقد اتصلت بك في المستشفى ولم تكن موجودًا، فتكلمت معها وأخبرتني بالموضوع، ذهبت للمدرسة وطلبت منها أن تخبرني دائمًا إن كان هناك مشكلة ما، لأنك مشغول باستمرار.

- لا أدري هل أشكرك أم أغضب؟

- لابد أن تشكرني، صدقني، مرت فترة كان يوجد مشاكل بشكل شبه يومي، وكنت أنا من يقوم بحلها لأني أحب رولاند وميشيل، لذلك لم تشعر أنت أنه توجد أي مشكلة، لكن الوضع تغير الآن، وتوقفوا عن إزعاجهم.

- حسنًا وأشكرك كثيرًا، لكن المرة القادمة لابد أن أعلم إن حصل أي شيء.

- أجل، بالتأكيد.

عدت حيث كان ينتظرني الولدان وكان لابد من المغادرة ذهبنا باتجاه السيارة صامتين، وكل منا يشعر بالتعب وبالرغبة بالنوم، سارت السيارة بهدوء عبر الشوارع الناعمة باتجاه باريس، لم يعد أحد منا يتكلم، نام ميشيل، أما رولاند فبقي مستيقظًا ينظر عبر النافذة، وكنت أعلم أنه أشد وعيًا لما حدث أكثر من ميشيل، وأنه يتألم ويتمنى لو أنه يترك باريس، ولكنني لم أستطع أن أواجه مشاعره الحزينة التي كانت واضحة من خلال نظراته، وفكرت أنه خلال أيام سينسى وتمضي الحياة كالمعتاد، ولم يكن لدي كلمات أقولها، شعرت بالتعب فجأة حتى من الحديث، وكنت بحاجة للبقاء وحدي دون نظرات، دون حديث، دون مخططات للرحلة التالية، دون ضغط عمل، فقط أنا وسقف غرفتي.

كامالي

عاد تافارا من عطلة نهاية الأسبوع كعادته بنهاية يوم الأحد ولكنه عاد متأخرًا وبدا عليه التعب، ألقى التحية وذهب لغرفته مباشرة دون أن يتكلم، وحين رأيته بتلك الحالة لم أتجرأ على سؤاله إن كان يريد أن يأكل أو إذا كان قد حصل شيء ما. ذهب للنوم وبقيت كالعادة وحدي أقرأ الرواية التي أحضرتها من مكتبة المعهد، ثم خرجت إلى الشرفة المطلة على الشارع الواسع والبنايات الضخمة وبعض المحلات والمقاهي، أعددت لنفسي فنجانًا من الشاي وجلست أراقب الحياة التي لا تتوقف في باريس، والأضواء التي تلمع في كل مكان، لم يكن هناك نجوم في السماء، فقط القمر يبدو وحيدًا حتى نوره يبدو خافتًا أمام كل تلك الأضواء التي لا تنطفئ طوال الليل.

جلست أفكر بما سأفعله بعد انتهاء دروس اللغة، فبعد شهرين أكون قد أتممت سنة كاملة وقد أصبحت أتحدث الفرنسية، وأقرأ الروايات التي لطالما حلمت بقراءتها، وحين حققت أول حلم وهو أنني أقرأ هذه الروايات التي كنت أنظر إليها في السابق على أنها شيء صعب المنال، وها أنا قد حققته، إذًا لابد أن توجد أحلام أخرى أفكر فيها، لابد أن تكون لي حياة منفصلة عن تافارا، حياة أحاول من خلالها نسيان افتقادي الدائم لولديّ، فجزء مني يرافقهما دائمًا وينظر للخلف عبر الذكريات والحنين، وجزء آخر ينظر للأمام، لا يريد أن ينسى ولكنه يقول لي إنني لابد أن أحيا، وإننا إذا رافقنا الموتى ونحن أحياء فيصبح جزء منا ميتًا بموتهم، وإنه لابد بمرحلة ما أن نتقبل الموت لنستطيع أن نرى الغد.

جلست أفكر ما الذي أحب أن أتعلمه أو أعمله طالما أنني سأعيش هنا ولا عودة لي لقريتي، أنظر لهذه المدينة الضخمة الجميلة والتي تبدو غريبة عني مهما عشت فيها ومهما كان عدد الأيام التي أستيقظ فيها على شروق شمسها، فهي غريبة عني وأنا غريبة عنها، ولكننا لابد أن نتعرف إلى بعضنا البعض، لابد أن أجد شيئًا ما يربطني بها، لابد من وجود ولو جذر صغير أغرسه بهذه الأرض الباردة الغريبة، عسى أن ينبت ويكبر ويصبح شجرة أستظل بظلها، وأنسى غربتي لدى جلوسي تحتها.

هل أشتغل بمقهى ما؟ هل أتابع تعليمي؟ هل أتعلم الرسم؟ هل أتعلم الخياطة؟ ماذا

سأفعل؟ لابد أن أفعل شيئًا ما ليكون لدي مال خاص بي، لا يمكن أن أستمر بحياتي مع تافارا بهذه الصورة، أحيانًا أشعر بالحاجة لرجل يحبني بشكل حقيقي وأحبه، ولو وجدت هذا الرجل لكنت تركت تافارا دون تردد، يبدو هذا الأمر أصعب من أن أجد شيئًا ما أفعله، فنحن يمكننا أن نتعلم كل شيء بقرار وإرادة، ولكن الحب ليس قرارًا ولا إرادة، إنه شعور يكون أو لا يكون، وفي ظرفي أنا لا يمكن أن يكون، فأنا نسيت أنني امرأة منذ سنوات ولا أشعر أنني يمكن أن أثير إعجاب أي رجل، لذلك يبدو الطعام هو متعتي الوحيدة في الحياة، حتى أنني لا أهتم إذا كان بعض الرجال ينظرون لي أم لا، لأنه في الواقع لا أحد ينظر لي ولو بالتفاتة بسيطة، أشعر أنني بدينة وقبيحة، ولا أدري كيف سأتابع حياتي وأنا حتى لا أحب أن أنظر لنفسي في المرآة، لأنني لا أرى سوى صورة امرأة متعبة شاحبة الوجه، سوادء البشرة ثم تلك الهالات السوداء حول عينيها أشد سوادًا من بشرتها الداكنة، وشعري الخشن الذي أجمعه بأي طريقة كانت خلف رأسي كي لا يتناثر في الهواء لا أدري كيف أصففه ولا أهتم بذلك، وتلك الملابس التي أشتريها بمقاسها الكبير وبشكلها المربع وألوانها الداكنة؛ لأن تافارا لا يريدني أن أشتري ملابس كثيرة الألوان، لا يريد أن يرى أمامه امرأة أفريقية تقليدية آتية بالأمس من القرية، ثم هناك أحذيتي السوداء جميعها دون كعب عالٍ، لأني لا أستطيع السير بتلك الأحذية التي ترتديها النساء الباريسيات بكعوبهن العالية وبرشاقتهن، جربت أن ألبس أحد تلك الأحذية فكدت أن أقع، ثم توقفت حتى عن التجربة واكتفيت بأحذيتي السوداء المسطحة، والتي تبدو كأحذية من يخدم في الجيش بلا شكل ولا تصميم، فقط حذاء أمشي به بسهولة وأضمن عدم الوقوع حين أرتديه.

ثم تذكرت أنني ومنذ حضوري لباريس لم أرتدِ أي إسوارة أو حلق أو حتى خاتم، الحلي التي كانت لدي في القرية بألوانها الجميلة وأشكالها المتعددة تركتها كلها هناك حين هربت مع حماتي، ومنذ ذلك الوقت لم ألبس أي حلي، كأنني لست امرأة بل مخلوقًا يعيش ينام ويأكل دون الإحساس بمذاق الأشياء؛ ولكي أعرف ماذا سوف أفعل بعد انتهاء دروس اللغة، كان لابد أن يستيقظ شيء ما بداخلي، فأنا أشعر أنني بأعماقي نائمة أو كأنني تحت تخدير الحزن، أشعر أن هناك ضبابًا يجعلني لا أرى بوضوح، هناك شيء ما ثقيل يجثم على روحي ويمنعها من التحليق، وتافارا جزء من هذا الشيء الجاثم على روحي، حين أنظر إليه وألاحظ نظراته التي تنفر مني تغيب الشمس التي أبحث عنها بداخلي، تأتي الغيوم سريعًا لتغطي سماء عقلي وروحي، شيء ما بنظراته يجعل الحياة تجمد في عروقي، شيء ما في كلماته لا تجرحني فقط بل تخنق رغبتي

بالانطلاق، كأنني أريد أن أركض بين الحقول الخضراء وحين أراه تخور قواي وأعود للجلوس على الأرض غير قادرة على الركض، وأكتفي بالنظر للحقول الخضراء دون أن أركض بينها أو إليها، أشعر بالعجز وأنني أقل من أي إنسان آخر خصوصًا حين يحتقر كلماتي ومشاعري.

وبهذه الليلة أجلس أراقب باريس الجميلة، وأدرك أنني لابد أن أبدأ عملية ترميم لروحي المهشمة، وأنني لا يمكن أن أرى بوضوح، لا يمكن أن أقرر ما سأفعله دون هذا الترميم، فالأرواح المهشمة لا كيان لها ولا قرار ولا هدف، ليست سوى ذرات متناثرة في الكون، لا يراها أحد ولكنها تجعل الهواء ثقيلًا والعقل راكدًا، لأن الروح هي المحرك للجسد ولكل وجود الإنسان.

راقبت الناس الذين يسيرون على الطريق، منهم رجال ومنهم نساء، منهم من يمشي مسرعًا ومنهم من يمشي ممسكًا بيد حبيبته، منهم من يترنح بسبب الكحول ومنهم من يمشي ببطء لأنه لا يوجد من ينتظره في بيته، جميعهم لديهم قصص ما مثلما لدي قصة، سواء أكانوا فرنسيين أم أفارقة، هناك من فقد الشخص الذي أحبه وهناك من خان الذي يحبه، هناك من يجرح الآخرين وهناك من يمنحهم السعادة، وأنا مثل كل أولئك، ولكن من منهم يمتلك روح مهشمة، لا يمكن رؤية تلك الروح ولكنها تتجول بصمت وبصورة غير مرئية لتترك بصمتها على وجود الإنسان دون كلمات، وروحي هذه لم تعد تصلح لأن استمر بالحياة بها وهي بهذه الهشاشة، لابد أن يكون هناك شيء آخر، لابد أن أستيقظ، لابد أن تنتهي غفوتي التي استمرت سنوات طويلة.

وفي الصباح خرجت بساعة مبكرة من الوقت، لم أرغب برؤية تافارا حين يستيقظ، رغبت بالتجول قليلًا في الشوارع شبه الخالية قبل أن تمتلئ بالمارة وقبل أن أستقل المترو، كان صباحًا صيفيًا منعشًا، مشيت في الشارع الرئيسي الواسع والذي توجد به محلات تجارية في كل زاوية منه، بعضها مغلق ببوابة حديدية وبعضها مغلق ولكن الواجهة الزجاجية غير مغطاة بأي بوابات حديدية، تجولت بين تلك المحلات الكبيرة وشعرت بحرية كبيرة وأنا أمشى بهذا الشارع الطويل والواسع ولا يوجد سوى بعض المارة، خلال النهار هذا الشارع يتحول لخلية نحل كبيرة، مئات من الناس يمرون من هنا يذهبون ويجيئون وخلال ساعتين فقط سوف تبدأ هذه الحشود بالقدوم، لقد كانت فرصة جميلة أن أسير وحدي هنا دون عدد كبير من الناس أنظر لهذه المحلات الواسعة والبنايات الضخمة التي تحيط بالمكان، ثم تلك المقاهي والمطاعم المتناثرة بكل مكان؛ جلست في مقهى حيث تم ترتيب الكراسي والطاولات في جزء صغير من الشارع، جلست في ذلك

المقهى وكنت فعليًا أجلس في الشارع لأن الجزء الأكبر من المقهى يوجد على رصيف الشارع، شربت قهوتي الساخنة وطلبت فطيرة بالتفاح، وجلست أتناول طعامي وأراقب الشارع أمامي وحركة السيارات التي بدأت بالتزايد مع اقتراب موعد فتح المحلات التجارية.

اقترب موعد ذهابي للمعهد، ولكنني لم أرغب بالذهاب، شعرت أنني أريد أن أقضي اليوم بالتجول والاستمتاع بوقتي دون عمل شيء محدد، كان يومًا جميلًا وكنت أحمل معي روايتي التي بدأت قراءتها بالأمس، فكرت أن أتصل بنيفين وأن أطلب منها مرافقتي فاتصلت بها وأخبرتها أنني لا أريد الحضور للمعهد اليوم، وإن كانت تريد مرافقتي فأخبرتني بأنها وصلت للمعهد ولا تستطيع مقابلتي اليوم. وكانت تلك المرة الأولى التي سأتجول بها في باريس وحدي، وبدا لي أنها فكرة رائعة. أول مكان فكرت بالذهاب إليه هو شارع الرسامين، تجولت بين عشرات الرسامين، أنظر إلى لوحاتهم بألوانها المتعددة ولا أمنع نفسي التساؤل لماذا يستعمل الرسامون كثيرًا من الألوان في لوحاتهم، ولا يقول لهم أحد إنهم يستعلمون كثيرًا من الألوان؟ بينما نحن الأفارقة نحب أن نلبس ملابس فيها ألوان كثيرة فيقولون لنا إن ملابسنا فيها كل الألوان، واليوم فقط أرى أننا على حق بلبس ملابس كلها ألوان لأن هذا أجمل وينسجم أكثر مع بساطة الحياة، فالحياة نفسها مليئة بالألوان.

تجولت بين الرسامين الجالسين، يعرضون لوحاتهم أو يرسمون من يرغب بأن يرسمه رسام ما، كانت هناك لوحات من كل الأحجام والأشكال، من كل الثقافات والبلاد، لم تكن لوحات تقتصر على باريس أو فرنسا، بل لوحات من كل بقاع الأرض ومن كل أشكال الطبيعة، هنا تبدو الحياة مرسومة بكل أشكالها وألوانها وأشخاصها على لوحات تتناثر في المكان كالمطر، رغبت بأن يرسمني أحد أولئك الرسامين، ولكنني خجلت من الجلوس بلا حراك إلى أن ينتهي من رسمي، كما أنني لم أعد أرى نفسي بأنني امرأة جذابة لأطلب من أحدهم أن يرسمني.

وقفت أمام لوحة جميلة لبحيرة ولكنها بحيرة فيها أمواج عالية، وفيها مركب ضخم يتماوج فوق المياه الهائجة، نظر لي الرسام صاحب اللوحة، فقلت له متسائلة:

- هذه بحيرة أليس كذلك!

ضحك وأجابني:

- لا، هذه ليست بحيرة، بل هذا البحر، فالسفن الضخمة لا تذهب للبحيرات.

- هل هذا هو البحر؟

نظر لي باستغراب وقال:

- ألم تشاهدي البحر من قبل؟

- لا، لقد رأيت صورًا للبحر ولكنني لم أرَه، ولم أرَ مثل هذه الأمواج من قبل.

عاد لسؤالي بفضول:

- من أي بلد أنت؟

- أنا فرنسية.

- أجل ولكن يبدو أنك لست من أصول فرنسية.

- أجل، أنا من أفريقيا. كم سعر هذه اللوحة؟

سألته عن سعر اللوحة لأغير الموضوع وليتوقف عن سؤالي من أين أتيت، ولم أسمع سعرها لأنني لم أكن أريد شراءها، ثم تابع قائلًا:

- ألا ترغبين بأن أرسم لوحة لك؟

ابتسمت بلامبالاة وقلت:

- اللوحات للشابات الجميلات.

- وأنت لست كبيرة في السن ولا قبيحة.

نظرت إليه بدهشة، فلأول مرة أسمع أنني لست قبيحة أو كبيرة بالسن، ثم تابع قائلًا:

- ثم انظري حولك، هناك العشرات من اللوحات لأشخاص كبار بالسن أو لأشخاص ليس بهم أي قدر من الجمال، الفن يبحث عن الجمال بكل شيء، بل الفن هو الذي يجد الجمال في شيء يعتقد الآخرون أنه ليس جميلًا.

نظرت إليه باهتمام فقد أعجبتني كلماته، ثم قلت له:

- لماذا يريد الناس أن يرسمهم أحد ما برأيك؟

- لأنهم يعرفون أن الرسام سوف يجد شيئًا ما بوجوههم هم لا يعرفونه جيدًا، يكتشفون أنفسهم عبر اللوحة المرسومة بل يتعرفون على أنفسهم.

- ولماذا يستطيع الفنان اكتشاف ذلك الشيء المجهول للشخص نفسه؟

- لان الرسام لا ينظر إلى الشخص أو أي شيء بشكل مجرد، بل يبحث عن شيء أبعد من المجسم أمامه وأبعد من شكل الوجه أو الجسد، حين يرسم هو بحالة استكشاف للشيء أو الشخص الذي يرسمه.

- وهل دائمًا يحب من ترسم له لوحةً ما رسمته؟

- لا، هناك من يحبونها كثيرًا وهناك من ينزعجون؛ لأنها لا تشبههم بينما أرى أنها تشبههم كثيرًا، وهناك من يشعرون بالغضب لأنهم يرون أن اللوحة أبشع من شكلهم الحقيقي، هناك من يدفع ما أطلبه فقط وهناك من يدفع أكثر حين يكون سعيدًا وهناك من يرفض أن يدفع لأن اللوحة لم تعبر عنه. عالم رسم الأشخاص يشبه العالم الحقيقي، فليس كل منا راضيًا بشكله، وليس كل منا سعيدًا بصورته حين يراها بالمرآة، وليس كل منا يستطيع أن ينظر بواقعية للبشاعة التي توجد بالعيون أو الأنف أو الفم، بأحيان كثيرة نحن في صراع مع شكلنا الخارجي خصوصًا حين نتقدم في السن.

قلت له دون تفكير ودون شعور بالخجل:

- لا أرى أني جميلة، وأخشى إن رسمتني أن أرى نفسي أكثر قبحًا مما أراها أمام المرآة، أتكلم بصراحة لأنك تحدثت عن أشياء حقيقية وصحيحة.

ضحك وأمسك بفرشاة صغيرة بيده وبدأ يخط بعض الخطوط على اللوحة المعلقة أمامه وقال:

- كم من البشر يعتقدون أنهم يتمتعون بالجمال الكامل أو ما يكفي من الجمال؟

هززت كتفي وقلت:

- لا أدري، ولكني عن نفسي لا أرى أني جميلة خصوصًا مع بدانتي.

- اقتربي مني وانظري ما الذي سأرسمه، هل ترين هذه الزهرة هناك؟

- أجل.

- سوف أرسمها من هذه الجهة ثم من جهة أخرى وتلاحظين الفرق.

وخلال دقائق قليلة رسم رسمتين للزهرة بسرعة فائقة، ثم قال:

- هل ترين، الصورة الأولى لزهرة نحيلة ألوانها باهتة تكاد أن تذبل، وهي كذلك حين رسمتها من جهة الظل، فالألوان تخفت حين تبتعد عن النور، والصورة الثانية لزهرة يانعة ممتلئة نضارة وحيوية تهتز تحت النسمات الصيفية وألوانها تتألق تحت نور الشمس.

- أجل هذا صحيح.

- كذلك البشر، كل إنسان أرسمه وهو موجود تحت الظل سوف يكون باهتًا مثل هذه الزهرة، والإنسان الذي يتفتح تحت النور سوف تشاهدين ملامحه المشرقة، نحن مخلوقات ندور حول الشمس مثل دوار الشمس وحين تغيب الشمس يذبل شيء ما في أرواحنا، ربما هو شعورنا بتشابه الغروب مع اقتراب الرحيل عن الحياة.

- وما علاقة هذا بي؟

- لأنك قابعة تحت الظل.

قلت بدهشة:

- ماذا؟

- نحن الرسامين لا نرى الوجوه فقط بل نشعر بالأرواح كذلك، أقترح عليك أن أقوم برسمك وأن تحتفظي باللوحة حتى لو لم تعجبك، وبعد مضي فترة من الزمن شهور أو سنوات أن تعاودي النظر للوحة، وتلاحظي هل خرجت للنور أم بقيت قابعة في الظل، ما رأيك؟

صمت قليلًا، ثم قلت له دون أن أخبئ أيًّا من مشاعري:

- ولكني أخاف أن تكون الصورة بشعة وأشعر بالحزن أكثر.

- حتى لو كان كذلك، لابد أن تشاهدي هذا الشيء الذي لا تحبينه، لابد أن تشاهدي انعكاس روحك في تلك الصورة، أن تري كم أن هذا الظل ثقيل وأنه يهيمن على وجودك، الكلمات تُخفي الظلال التي في حياتنا، لكن العيون لا تخفيها أبدًا وأنا أراها بوضوح.

جلست بهدوء وقلت له:

- يمكنك أن ترسمني بكل وضوح ودون مجاملة.

وخلال دقائق، نظرت لتلك المرأة المرسومة على اللوحة، وتفاجأت بما رأيت، تلك الهالات السوداء، ذلك الحزن الدفين، والصمت المطبق وشعري الملفوف دون أي عناية، وملابسي البسيطة وطريقة جلوسي التي توحي بالتعب، وخطان رقيقان حول شفتاي تخبراني بأنني أتقدم في السن.

نظرت إليه وقلت له:

- أجل هذه أنا من الخارج والداخل دون تمثيل، لأول مرة منذ وصولي لباريس لا أمثل بأنني على ما يرام، فأنا لست على ما يرام.

- أجل، هذا واضح.

أخذت اللوحة وأعطيته مبلغًا أكثر من الذي طلبه مني وقبل أن أغادر قال لي:

- سيدتي، يمكنك أن تصبحي جميلة وأن تستعيدي رونق الحياة، فقط غادري منطقة الظل، تتبعي خيوط الشمس ولا تمكثي طويلًا في عالم الظل فليس هناك سوى الذبول.

مشيت ببطء في شوارع باريس المرصوفة بالأحجار المربعة الملساء، وأعجبني صوت وقع أقدامي على تلك الطرق القديمة، ومشاهدة كل تلك المحلات والمقاهي والحدائق، سرت طويلًا وأنا أحمل تلك اللوحة بيدي، كنت بحاجة لأشعر بنسمات المساء تهب على وجهي، وأشعر أنني بدأت أحب هذه المدينة، أحب جدرانها الحجرية القديمة وشوارعها المرصوفة بعناية، والمقاهي الموجودة بكل مكان كأن من يعيش في باريس لن يحيا دون شرب القهوة بكل زاوية من كل شارع، المقاهي في باريس ليست مقاهي بل بيوتًا صغيرة أخرى للناس. دخلت لإحدى تلك المقاهي الصغيرة، طلبت فنجانًا من القهوة، وجلست خلف النافذة أراقب الناس الذين يمشون في الخارج ويتحدثون بلغات متعددة، كل شيء في هذه المدينة ينبض بالحياة، كل شيء فيها يقول لك غدًا ستشرق الشمس، شربت قهوتي الساخنة ونظرت من جديد لتلك اللوحة وقررت الاحتفاظ بها وأعطيتها اسم: امرأة سوداء في باريس.

ثم قررت الذهاب إلى مركز تجاري كبير بمنطقة لاديفنس، وخلال سيري للتوجه لذلك المول الضخم سمعت صوتًا ينادي:

- أمي، أمي...

نظرت حولي باحثةً عمن ينادي، مر بجانبي باص أصفر كبير، نظرت باتجاه مصدر الصوت وكان ذلك الباص ولكنه خلال دقائق ابتعد، كل ما استطعت رؤيته هو عدد من طلاب المدرسة، ولكنني لم أتمكن من رؤية من ينادي، أو إن كان يناديني أنا، رغم أن الصوت كان مألوفًا بالنسبة لي، صوت يشبه صوت سيمو، كان اسم المدرسة مكتوبًا على الباص ولكنني لم استطع رؤية الاسم، فقد انطلق الباص مسرعًا بعد أن تحولت الإشارة إلى اللون الأخضر، ركضت قليلًا محاولة اللحاق بالباص ولكنني توقفت بعد دقائق، فقد اختفى الباص عن الأنظار، ولم أعد استطيع الركض بسبب وزني الزائد؛ تابعت سيري وأنا أحاول تذكر ذلك الصوت، وهل هو فعلًا يشبه صوت سيمو؟ لقد ناداني باللهجة الأفريقية وليس باللغة الفرنسية، لذلك وقفت في الشارع أنظر من جديد عسى أن يعود ذلك الباص، عسى أن أستطيع فهم ما جرى، ولم يكن هناك من تفسير سوى أنني تخيلت صوت ابني وأنه يناديني، مثلما تخيلتهما عائدين أحيانًا من المدرسة وأستقبلهما وأضمهما لصدري. لم أكن أريد أن أشعر بالحزن بهذا اليوم الجميل، فتابعت سيري محاولة نسيان ذلك الصوت وأنه لم يكن سوى وهم، ودخلت للمركز التجاري الضخم حيث عشرات المحلات والمقاهي والمطاعم كلها تلمع تحت الأضواء الكثيفة التي ملأت المكان، نظرت لمحلات الملابس الفخمة لنساء نحيلات وجميلات، ثم محلات الأحذية الغالية والراقية بألوانها وأشكالها الأنيقة التي لا تصلح لي، ثم محلات الجواهر والحلي الذهبية والأحجار الكريمة، كل شيء يوجد بهذا المكان كأنه حلم لا ينتهي بين البضائع والأضواء، فحتى من لديه ثروة سينفقها خلال أيام بهذا المركز الضخم الرائع الأناقة والجمال، وبعد أن تجولت لبضعة ساعات كان يجب أن أعود فلقد بدأت أشعر بالتعب، عدت للبيت ولم يكن تافارا موجودًا، فتوجهت بسرعة لغرفتي كي لا يأتي واضطر للحديث معه، أخذت حمامًا سريعًا وذهبت للنوم على الفور لشدة التعب بعد يوم مليء بالصور والمناظر والأشخاص ثم ذلك الصوت الذي ناداني أو نادى أمًّا غيري: أمي...أمي...

تافارا

اتصلت بي مديرة المدرسة خلال فترة عملي في المستشفى وطلبت حضوري على الفور للمدرسة، شعرت بالقلق وسألتها على الهاتف عن السبب فأجابت بصوت مضطرب:

- إنه ميشيل، لقد كان التلاميذ اليوم في رحلة لمنطقة لاديفنس وحين وصلوا إلى مركز التجمع التجاري، نزل جميع التلاميذ وساروا خلف المعلمة والمشرف على الرحلة، ولكن بعد فترة وجيزة أتى رولاند مسرعًا ليخبر المعلمة بأن ميشيل قد غادر المجموعة وأنه ذهب في اتجاهٍ ما، وحضرتك تعلم أنها منطقة ضخمة ولم نستطيع العثور عليه لغاية الآن، لقد أبلغنا الشرطة ونحن بصدد البحث المستمر عنه، سوف تصل الشرطة خلال دقائق، ولابد من حضورك.

لم أرد عليها، أغلقت الهاتف وخلعت ملابسي البيضاء وذهبت راكضًا لأخبر الدكتور المساعد لي بأنني يجب أن أغادر المستشفى على الفور. تجاوزت السرعة المسموح بها في قيادة السيارة وخلال بعض من الوقت كنت في المكان الذي وصفته المديرة لي، ووجدت عددًا من المعلمات والمدرسين، والشرطة كانت قد أتت، وبدأوا يتوزعون بحثًا عن ميشيل، ثم رأيت رولاند يقف بجانب المديرة باكيًا، وحين رآني أتى راكضًا باتجاهي وقال وهو يلهث:

- أبي، لقد ضاع سيمو.

لم يكن الوقت مناسبًا لأقول له لا تقول سيمو بل قل ميشيل، احتضنته محاولًا تهدئته ثم سألته:

- لماذا ترك بقية التلاميذ؟

نظر لي بتعب وقال:

- لقد أخبرني بأنه رأى أمي وهو جالس في الباص، حتى أنه نادى عليها من النافذة.

أجبت بانزعاج كبير وقلت:

- وكيف سيراها وهي ميتة؟

- لم أتمكن من رؤية المرأة التي رآها، كان هو يجلس بجانب النافذة وأنا بقربه، لم أنتبه

لما رآه في الشارع، ولكن حين صرخ بأعلى صوته: أمي، أمي، نظرت حيث كان ينظر ويصرخ، ورأيت امرأة سوداء بدينة تمشي في الشارع، ولكن لم أرَ وجهها.

- وماذا قال لك عنها؟

- قال لي وهو يصرخ، تاكي، لقد رأيت أمي، هذه المرأة هناك إنها أمي، انظر، وعاد ينادي عليها حتى حين ابتعد الباص لم يتوقف عن النداء؛ ثم أتت المعلمة وطلبت منه أن يهدأ وأنه ربما تخيل أنها والدته فهي وكل من في المدرسة يعلمون أن أمي ميتة، بقي جالسًا في كرسيه وصامتًا وحين توقف الباص بعد عدة دقائق، نزلنا جميعًا، وحين التفتُّ لأنظر أين سيمو رأيته ابتعد عن المجموعة وسار بعيدًا عنا، ذهبت مسرعًا للمعلمة التي لم تنتبه لغيابه وأخبرتها أن سيمو ليس هنا، ثم بدأوا البحث عنه في كل مكان...

عاد للبكاء وقال وهو يرتجف:

- أبي، هل يمكن أن يموت هو أيضًا؟ لقد مات الجميع في القرية، لم يبقَ سوى أنت وأنا والآن ربما سيمو سيموت أيضًا، إذا مات سيمو لا أريد أن أحيا...

وضعت يدي على فمه بلطف وقلت له:

- لا لن يموت، سوف نعثر عليه لا تقلق، والآن لابد أن أتركك وأذهب للبحث عنه فالمكان كبير جدًا ولابد أن يشارك الجميع بالبحث.

- أريد أن آتي معك.

- لا أنت لابد أن تبقى هنا وتقف بجانب المديرة ولا تتحرك من مكانك.

استمر البحث لساعات دون جدوى وطلبت من المديرة اصطحاب رولاند للمدرسة لأنه كان بغاية التعب، وبقينا طوال الليل نبحث عنه ونادي اسمه دون جدوى، بدأ الخوف يتسلل إلى نفسي أن يكون قد حدث له شيء وأن يكون قد مات، ولكني أبعدت تلك الفكرة وعدت للبحث من جديد في المحلات وبين البنايات الضخمة، وبين المراكز التجارية والساحات الواسعة، لم يكن هناك أي أثر له، كنت أريد أن أبكي كطفل ولكنني رجل ولا يجوز أن أبكي، وشعرت أن الموقف أكبر من كل طاقاتي، شعرت بشيء يشبه الانهيار يتسلل إلي، فكل ما خططت له أراه يفشل أمامي مرحلة تلو الأخرى. ولأول مرة منذ وصولي لباريس أتمنى لو أنني لم آتي إلى هنا،

لو أنني بقيت في قريتي ولم أغادرها أبدًا، فكل ما يدور حولي أصعب من أن أواجهه، لكن لم يكن ذلك وقت التفكير بمشاعري، كان الشيء الوحيد الذي لابد من فعله هو البحث في كل زاوية وخلف كل بناية، والتأكد إن كان ما أراه من خيال أو ظل شجرة ما، هو ميشيل الذي يختبئ هنا أو هناك.

طلع النهار ونحن لا نزال نبحث دون جدوى، كنت أريد أن أصرخ وأكسر كل شيء في المدرسة، لأنها أهملت في الرقابة ولم تتابع تحركات ابني مع بقية التلاميذ، ولكن لم يكن هناك وقت حتى للغضب أو اللوم؛ بدأت المحلات تفتح الواحد تلو الآخر، وحين أصبحت الساعة الحادية عشرة صباحًا فتحت جميع المحلات والمطاعم، وبدأ الناس يحضرون بأعداد كبيرة من السياح الأجانب ومن أهل باريس، وفجأة سمعت صوتًا ما يصرخ من بعيد:

- لقد وجدته، لقد وجدته.

كان أحد رجال الشرطة يمسك بيد ميشيل ويأتي به مسرعًا إلينا، ركضت باتجاه ميشيل احتضنه، كان يبكي ويبدو التعب الشديد والضعف على وجهه، نظرت إلى رجل الشرطة وسألته أين وجده، قال لي:

- لقد كان مختبئا بأحد المحلات التجارية، أغلقوا الأبواب بالأمس ولم ينتبهوا لوجوده، ربما اختبأ ونام ولم يرَه أحد. يبدو أنه شعر بالخوف الشديد لأنه حين رآني كان يصرخ ويبكي بشدة.

- أجل، أجل هذا واضح.

سألت ميشيل ماذا فعل طوال الليل:

- فقال بصوت متقطع ومشوش:

- كنت...كنت...في ذلك المتجر الكبير، اختبأت...خلف الملابس...ثم نمت وحين استيقظت كان المكان مظلمًا...أبي لقد خفت كثيرًا...كثيرًا.

احتضنته من جديد وهدأت من روعه، وسرنا معًا باتجاه سيارتي، سألته في الطريق:

- لماذا تركت بقية التلاميذ وذهبت رغم أن هذا خطر عليك؟

- أبي، لقد رأيت أمي، لقد كانت تسير في الشارع.

نظرت إليه نظرة سريعة وقلت بنبرة منزعجة:

- ميشيل، أنت تعلم أن والدتك ميتة، من المستحيل أن تكون تلك المرأة أمك!

كانت الدموع قد جفت على وجهه وتركت خطوطًا بيضاء على وجنتيه وعيونه حمراء ونظراته شاردة عبر النافذة، قال كأنه ينظر للفراغ:

- لقد كانت أمي، أعرف أنها هي، كان حجمها أكبر من السابق ولكنها أمي، شعرها ووجهها، كانت تسير ببطء وتنظر حولها، أجل أمي.

- ميشيل، استيقظ، هذه أحلام يقظة، فشوقك لأمك يدفعك للتفكير بأن كل امرأة سوداء هي أمك، توقف عن هذا الهراء، لقد وضعت نفسك في خطر كبير، كان يمكن أن يحصل لك حادث أو أن يعتدي عليك أحد ما أو حتى يتم خطفك، ما فعلته كان سيئًا جدًا.

- أبي، كنت أريد أن اللحاق بأمي وإيجادها قبل أن تختفي، لهذا تركت الآخرين، ركضت لأبحث عن أمي.

- ميشيل، هذا يكفي، حين تخرج من المدرسة بعد فترة سوف ترى كثيرًا من النساء القادمات من أفريقيا فهل ستعتقد أن كل واحدة منهن أمك، لقد ماتت أمك، افهم هذا وضعه في عقلك، والآن لن نتحدث بهذا الموضوع بعد الآن، عدني ألا تكرر ما قمت به مرة أخرى.

قال بصوت ضعيف ومتعب:

- أجل، أعدك.

وخلال ثوانٍ كان يغرق بنوم عميق، أخذته لبيت سيلفيا التي كانت تتابع كل ما يحصل معي على الهاتف، وأخبرتني بأنها ستبقى معه يومين إلى أن يستعيد نشاطه ويزول ذلك الخوف من نفسه.

ثم ذهبت للمدرسة لمقابلة المديرة، وتحدثت معها بغضب عن إهمال المدرسة وكيف سمحت بأن يحصل شيء كهذا فقالت لي:

- سيدي، أنت تعلم بأن التلاميذ خرجوا عدة مرات برحلات متعددة في باريس وخارج باريس، وهذه أول مرة يحصل معنا هذا الحادث منذ تأسيس هذه المدرسة، لقد أخبرتني المعلمة

بأنها كنت بصدد ترتيب طابور التلاميذ وخلال ثوانٍ كان ميشيل قد اختفى، ثم هو كان يعتقد أن والدته تسير بمكان قريب لذلك تركنا وذهب، لم يكن هناك أي إهمال ولكنه فعلًا تصرف بسرعة بدافع مشاعره الجياشة، حتى ولو كان ذلك مجرد وهم. عمومًا إذا تكرر هذا واعتقد أنه رأى والدته الميتة مرة أخرى فلابد أن تأخذه لطبيب نفسي، فهذا يدخل ضمن التخيل والتهيؤات ونحن لا نستطيع علاج هذه المشكلة لابد بهذه الحالة من علاج نفسي؛ يوجد استشاري نفسي نلجأ إليه بمثل هذه الحالات يمكننا أخذ استشارته.

قلت بامتعاض:

- حسنًا، إذا تكرر ما حصل اليوم فلابد من أن يرى طبيبًا نفسيًّا، هو الآن مع سيلفيا وسوف يبقى معنا ليومين، وحين يعود للمدرسة راقبي الوضع وأخبريني وسوف نتعاون إلى أن تمر هذه الأزمة.

- سوف نتابع حالته ونخبرك بكل التطورات وأتمنى أن لا يحصل شيء من هذا القبيل مرة أخرى.

حين عدت للبيت، كانت كامالي بانتظاري وكانت تراقب النافذة بقلق، قالت لي:

- أين كنت؟ أنت تقضي فقط ليلة السبت خارج البيت، وحين تضطر لعدم العودة تخبرني، لقد اتصلت بالمستشفى وأخبروني أنك غادرت فجأة، لقد قلقت كثيرًا.

كنت متعبًا فقلت لها والكلمات تخرج بصعوبة من فمي:

- لقد كانت حالة طارئة، اضطررت للذهاب لبيت أحد المرضى خارج باريس.

- لقد اتصلت بك ولم ترد، على الأقل كان بإمكانك إخباري.

- دومينيك، هذا يكفي، أنت تعرفين طبيعة عملي، واعتادي على أنني أحيانًا لا أعود في الليل، إذا حصل شيء سيئ لي فبالتأكيد سوف يخبرونك، والآن، هذا يكفي، أنا متعب أريد أن أنام.

- يوجد شيء آخر أود إخبارك به.

قلت بنفاد صبر:

- ما هو؟

- بالأمس، كنت أتجول في المدينة، وسمعت صوت صبي ما ينادي أمي، أمي، لقد كان يشبه صوت سيمو، نظرت لأرى من ينادي، مر بجانبي باص مدرسة كبير، ولكنني لم أتمكن من رؤية من ينادي، لقد كان ينادي بلغتنا وليس باللغة الفرنسية.

نظرت إليها بعصبية وقلت لها:

- ما هذه الأوهام، سيمو مات، ويوجد عشرات الأشخاص والأطفال في باريس يتحدثون بلغتنا، هذا مجرد وهم أو خيال، وحتى لو كان حقيقية فهذا الصبي قد ينادي والدته التي معه في الباص، هذا يكفي الآن، أريد أن أذهب للنوم.

تمددت على السرير، ونظرت للسقف الذي أصبح يُطبق على صدري، شعرت بالتعب ليس بجسدي ولكن بكل جزء من وجودي، وأنني كلما حاولت ترتيب أوراقي أراها تتبعثر على مائدة الأحداث، لقد تعبت من محاولة تسيير الأمور، من تنظيمها من السيطرة على كل التفاصيل، وتمنيت للحظات لو أنني أبعثر كل شيء بيدي، وأحطم كل شيء بيدي حتى أفقد السيطرة على كل شيء، حتى يعرف دماغي شيئًا من الراحة، وأدركت كم أننا بحاجة لفوضى في مرحلة ما من الحياة، فوضى حيث لا ترتيب ولا تنسيق، لا مجاملة ولا مهادنة، حيث لا يوجد كرسي بجانب الآخر ولا سرير بجانب الخزانة، حيث كل شيء ليس بمكانه، وحيث أكون مع أشخاص لا تربطني بهم أي صلة، أن أكون جالسًا حرًا طليقًا على كومة من الخراب، لا أعرف من حولي، ولا أحاول ربط الخيوط معهم، أن أغرق في فراغ اللاشيء أو بالأحرى أن أغرق في رفاهية الفوضى، وانعدام الشعور والروابط والمعاني، أن يسبح كل شيء في كونٍ لا نهاية له وأن لا يصطدم أي شيء بأي شيء آخر أو بأي شخص آخر، وأن يكون الفراغ هو سيد كل الأشياء والأشخاص، كنت بأشد الحاجة للفراغ، للصمت، للانحسار كأنني محيط تنحسر مياهه في الجزر إلى الأعماق وتختفي مياهه بعيدًا كي يأخذ قسطًا من الراحة من كونه المحيط الضخم الكبير، أن يتحول لجزيرة بعيدة ونائية لا يرغب أحد بأن يزورها أو يسكنها.

كامالي

لأول مرة لا يعود تافارا للبيت خلال أيام الأسبوع، كنت قلقة طوال الليل وخائفة أن يكون أولئك الرجال الأفارقة قد وجدوه وحصل له شيء، بقيت جالسة على الشرفة طوال الليل ولم يحضر، اتصلت بالمستشفى حيث يعمل وأخبروني أنه خرج مسرعًا ولم يقل لهم شيئًا، تمددت على الأريكة بانتظار حضوره إلى أن غفوت لشدة النعاس، وفي الصباح أيضًا لم يأتِ للبيت، فكرت بالاتصال بالشرطة ولكنني ترددت وانتظرت قليلًا، فقط في الظهيرة أتى للبيت بحالة سيئة جدًا وبدا واضحًا أنه لم ينَم طوال تلك الليلة؛ أخبرني أنه ذهب لرؤية مريض بحالة سيئة، ولم يوضح أين أو إن كان قضى الليلة في المستشفى؛ لم يكن ليكون مهمًّا فقد اعتدت على إهماله لي وعدم توضيحه لأمور كثيرة تخص حياته، ولكن التغيير الذي طرأ عليه بعد تلك الليلة هو ما أكد لي أنه حصل شيء سيء أو خطير بتلك الليلة، بالطبع لم يخبرني ولكني رأيت ذلك التغيير الواضح. لقد بدأ يعود متأخرًا كثيرًا إلى البيت، لا يتحدث معي إلا ببضع كلمات، توقف عن انتقادي كأنه مشغول عني بشيء آخر أهم، لم يعد يهتم إذا عدت متأخرة بالليل أو إذا خرجت متأخرة، كأنني غير موجودة في حياته، لم يكن الأمر يتعلق بامرأة بل بشيء أهم من أي امرأة فهو مشغول التفكير، قلق، حين يكون في البيت يجلس طوال الوقت أمام التلفاز صامتًا، ينظر للتلفاز ولكن يفكر بشيء آخر بعيد تمامًا عني وعن أي شيء حوله؛ حتى شكله تغير وأصبح مرهق الوجه وفقد بعضًا من وزنه، كان هناك شيء ثقيل يجثم فوق صدره، وددت بتلك اللحظات أن أقترب منه وأسأله عن سبب شروده وتشتته ولكنه لن يقول لي شيئًا، وربما يغضب أكثر مني، ولكني ورغم مخاوفي اقتربت منه ذات ليلة وقلت له بخجل:

- فرانسوا، ما بك؟ تبدو قلقًا ومتعبًا منذ فترة ماذا هناك؟

نظر لي كأنه يراني لأول مرة أو كمن يستيقظ من نومه فجأة وقال لي:

- ها، لا شيء، أنا متعب فقط، يوجد ضغط عمل كثير هذا كل شيء.

صمت، ثم عدت للحديث قائلة:

- أجل، ولكن يبدو أنه يوجد شيء آخر، هل عاد أولئك الرجل للبحث عنك؟

قال بعصبية كان يبدو أنها ستزداد إن تابعت كلامي:

- دومنيك، هذا يكفي، لم يسأل أحد عني، وهل تعتقدين أنه لو سأل أحد عني بأنني سأجلس هنا، كنا سنرحل على الفور. هذا يكفي إنه إرهاق الشغل، ونسيت أن أخبرك أنني سوف التحق بالعمل في عيادة خاصة مع طبيب آخر خلال أسابيع مما سيجعلني لا أتواجد بأوقات كثيرة في البيت، وطبعًا الوضع المادي سوف يكون ممتازًا لأنه عمل مستقل بجانب عملي بالمستشفى.

- هذا خبر جيد، لهذا السبب أنت متعب.

- أجل، فتحضير العيادة أخذ وقتًا طويلًا ورغبت أن أخبرك عنها بعد الانتهاء من كل شيء.

- أنا سعيدة لأجلك، كنت أتنمى لو أن والدتك حية لترى هذا النجاح الباهر.

ولأول مرة منذ شهور نظر لعيوني مباشرة وقال:

- أجل، وأنا كنت أتمنى ذلك، ولكن أنت هنا وتفرحين لي مثل والدتي.

- بالتأكيد، وأتمنى أن تحقق نجاحًا كبيرًا.

لم يرد ونهض من مكانه متجنبًا الاقتراب من دائرة المشاعر كعادته، وقبل أن يغادر لغرفته، قلت له:

- حسنًا، هذا جيد، والآن يجب أن أذهب للنوم لابد أن أستيقظ بوقت مبكر.

وتركته واقفًا في الغرفة، لم أكن أرغب بأن يعتقد بأنني أحاول استرجاع ولو القليل من مشاعره تجاهي، فأنا لم أعد أحمل له أي مشاعر سوى أنني بحاجة إليه على الأقل في الوقت الحاضر، وأدرك هو بهذه اللحظة انتهاء المشاعر ما بيننا، لأن نظراته ظلت تتابعني وأنا أغادر الصالة، كنت قد خسرت حبه لي، وفقدت حبي له، فلم يتبقَّ سوى كرامتي، فلن أخسرها ولن أفقدها لأجله، حتى لو اعتصرني الألم وحرقتني الحسرة لأجل نفسي ولأجله.

وبعد بضعة أسابيع، أتى تافارا إلى البيت، وكان سعيدًا بشكل غير عادي، قال لي:

- اليوم قمت بعملية صعبة جدًا ونجحت نجاحًا كبيرًا حتى أن الصحف تحدثت عن تلك العملية، لقد أصبحت من اليوم من الأطباء المشهورين في باريس، اليوم أصبح اسمي ضمن أسماء الأطباء الأفضل، وسوف تطلبني مستشفيات عديدة في العالم بسبب هذه العملية التي

استغرقت ثماني ساعات.

نهضت من مكاني، وقبلته بسرعة وقلت له:

- هذا رائع، مثلما توقعت والدتك تمامًا، أنا سعيدة جدًا لأجلك، لقد تعبت كثيرًا لتحقق هذا النجاح.

- أجل، وأنا سعيد، لقد أحضرت لك هذه الهدية، فأنت بجانبي دائمًا رغم أن علاقتنا قد تغيرت.

فتحت العلبة الفضية، ووجدت خاتمًا ذهبيًا فيه حجر أبيض شديد اللمعان، قلت له:

- ما هذا الحجر، لقد رأيت في محلات المجوهرات مثل هذا الحجر اللامع وخجلت أن أسأل عن اسمه، ما هذا الحجر؟

- إنه خاتم فيه حجر من الألماس، أغلى أنواع الأحجار.

وضعت يدي على فمي لشدة الدهشة، وقلت له:

- لابد أنه غالٍ جدًا.

- أجل، ولكني أصبحت بوضع مادي ممتاز وأستطيع شراء أشياء ثمينة كهذه، وكنت أريد أن أراك سعيدة معي.

- أشكرك كثيرًا، أنا فعلًا سعيدة، هذا رائع.

منذ مدة طويلة لم أشعر بتلك السعادة ولم أفكر بأن أرتمي بين أحضانه وأقبله، لأنني أعلم أنها مجرد هدية شكر لا غير، وأن المسافة الآن أصبحت أكبر وأشد بعدًا، فهو الآن طبيب مشهور وأنا مجرد زوجة ترافقه في حياته دون أن تكون زوجة بالمعنى الحقيقي، عدت للجلوس محاولة الابتعاد قليلًا عنه عبر نظري للخاتم، وأن ألبسه وأنظر إليه وإلى لمعانه الأخاذ تحت ضوء الغرفة. ثم قال لي فجأة:

- دومينيك، لابد أن أسافر إلى لندن لمدة أسبوع، موعد سفري بعد غد، لابد أن أقوم بإجراء عملية جراحية هناك، وإن حصل ظرف طارئ وتأخرت سوف أخبرك، هذا تليفون مدام كوليت وعنوانها، لقد سألت عنك عدة مرات وسوف تكون سعيدة بزيارتك لها.

سألته باستغراب:

- إلى لندن؟! تقصد بريطانيا، لقد درست أسماء الدول وعواصمها، هل هي بعيدة عن فرنسا؟

- لا، وأعتقد أنك يجب أن تعتادي على سفري هذا من حين لآخر؟

سألته دون تفكير:

- وهل سيلفيا ستكون معك؟

نظر لي بامتعاض وقال:

- ولماذا تقولين هذا؟

- ألم تكن تعمل معك في المستشفى السابق؟

- أجل، وهي مجرد صديقة، لا لن تأتي معي، فهناك يوجد ما يكفي من الممرضات.

- والعيادة؟

- سوف يتابع زميلي في العيادة العمل لحين عودتي.

قلت له بتردد:

- ألا أستطيع الحضور معك وأرى بلدًا جديدًا؟

- لا، هذا صعب، فهذه أول مرة أسافر إلى هناك، ربما مرة أخرى أو لبلد آخر. والآن لابد أن أذهب لتحضير بعض الأوراق.

وبعد بضعة أسابيع، غادر البيت حاملًا حقيبة ملابسه، ودعته وذهبت للشرفة أراقبه وهو يصعد في سيارة التكسي التي ستصحبه للمطار، ثم نظرت إلى البيت، لقد كانت تلك المرة الأولى التي أبقى بها في باريس وحدي لمدة أسبوع، كان ذلك مخيفًا بعض الشيء، وبنفس الوقت منحني شعورًا بالحرية الكاملة، بأنني ولأسبوع يمكنني أن أفعل ما أريد، فتهكمت على نفسي لهذه الفكرة، فأنا أفعل ما أريد كل يوم ولا يهتم زوجي بأي شيء أفعله، ولكن مجرد الشعور بأنه لدي أسبوع كامل أقضيه وحدي كان شعورًا غريبًا وجميلًا بنفس الوقت، اتصلت بنيفين وأخبرتها بأنني سأكون وحدي لمدة أسبوع، وإن كنا نستطيع الخروج معًا من وقت لآخر خلال هذا الأسبوع، اتفقنا على الخروج معًا بعد انتهاء دوامنا في المعهد. وخلال ذلك الأسبوع وبعد انتهاء الدوام كنا نذهب لشارع الشانزلزيه، نتمشى في الشارع الطويل، ثم نتجول بين المحلات

التجارية الفخمة، وكانت نيفين تعشق العطور فدخلنا لمحل كبير للعطور جميع جدرانه لونها أسود، وتوجد في الجدران والسقف أضواء قوية ينعكس ضوءها على الأرض السوداء أيضًا، ثم هناك عشرات الرفوف لعشرات الأنواع من العطور الثمينة والعطور الأرخص ثمنًا، وقفت نيفين تشم جميع العطور الواحد تلو الآخر، لقد كانت تعشق تلك العطور، ولم تكن تستطيع أن تشتري أي نوع غالٍ من تلك الأنواع التي كانت تضع قطرات صغيرة منها على يدها لتحتفظ برائحتها لأطول مدة ممكنة، راقبت أي نوع من العطور أحبت، ثم اشتريت لها ذلك العطر دون أن تلاحظ ما فعلت، وحين خرجنا قدمت لها زجاجة العطر المغلفة بورق أحمر قاني اللون مع رباط ذهبي غاية في الأناقة، فتحت الغلاف ونظرت لزجاجة العطر غير مصدقة ما ترى، ثم قفزت من الفرح وقالت بصوت مرتفع جعل من حولنا ينظرون لنا باستغراب:

- ماذا؟ شانيل، عطري المفضل، واو هذه أجمل هدية تلقيتها منذ سنوات...

احتضنتني بقوة وقبلتني لشدة سرورها بالهدية وقالت ونحن نتابع السير:

- ولكن هذا عطر غالٍ، هل معك ما يكفي من النقود؟

ضحكت وقلت:

- أصبح زوجي تقريبًا ثريًّا بعد كل سنوات العمل السابقة، وفتح عيادة مع زميل له، يعني معي ما يكفي، ثم إنني كنت أرغب بأن أشتري لك هدية ولكن لم أعرف ماذا يمكن أن أشتري لك.

- هذا رائع، لابد أن أتزوج من رجل ثري.

توقفت عن السير وقلت لها بجدية:

- نيفين، تزوجي برجل يحبك وتحبينه، يقولون إن المال لا يجلب السعادة، وهذا خطأ، المال قد يساعدنا بالشعور بالسعادة ولو بشكل مؤقت، ولكنه أحد أسباب السعادة، أما السعادة الحقيقية فهي بوجود الحب مع كمية لا بأس بها من المال، فالحب مع الفقر شيء صعب.

- أجل، وأنا أعرف الفقر جيدًا، فعائلتي عائلة فقيرة، ولولا تفوقي في الدراسة لما حلمت حتى بالحضور إلى هنا، بفضل هذا التفوق حصلت على منحة دراسية لدراسة اللغة الفرنسية، هل ترين الآن أن المال من أهم أسباب السعادة؟!

- أجل، أرى هذا خصوصًا حين شاهدتك تقفزين فرحًا لهذه الهدية.

ثم مشينا بين المقاهي والمطاعم التي توجد على يمين وشمال الشارع، وجلسنا في مقهى على الكراسي الموجودة على الرصيف لنشرب القهوة ونراقب الحياة التي تمر بنضارة حولنا، إلى البشر الذين يمشون من كل الألوان والجنسيات، على اللغات المختلفة التي نسمعها ونحن جالستان نشرب قهوتنا الساخنة، على رائحة الطعام التي تنبعث من بعض المطاعم، ثم رائحة الكريب الساخن مع الشوكولا التي أحضرها لنا النادل، وخلال حديثنا لاحظت نيفين الخاتم الذي ألبسه فقالت:

- ما هذا الخاتم الرائع، يبدو أنه غالٍ جدًا، دعيني ألبسه قليلًا.

نزعت الخاتم من يدي وناولته لنيفين التي لبسته وهي تنظر إليه بانبهار:

- كم إنه جميل، هذا خاتم من الألماس.

- أنت تعرفين الألماس؟

نظرت لي باستغراب وقالت:

- ومن لا يعرف الألماس؟!

- أنا، لم أكن أعرفه، تعرفت عليه قبل بضعة أسابيع.

- ماذا؟ لماذا أين كنت تعيشين؟

- لقد أخبرتك أنني كنت أعيش في قرية أفريقية بعيدة جدًا ولم نكن نعرف هذه الأشياء، حتى أنني لم أكن أعرف اسم هذا الحجر.

- قصتك فعلًا جميلة، هل أنت اشتريت الخاتم؟

- وكيف اشتريه وأنا لا أعرف هذا الألماس؟! إنه زوجي، هذا هدية منه.

- لابد أنه يحبك كثيرًا.

نظرت إليها وضحكت ثم قلت:

- لا، هذا هدية عدم محبته لي، لأشعر بشكل أفضل حين يقول لي دون كلمات بأنه لم يعد يحبني، وألا يكون لدي أي أمل بهذا الحب؛ إنها هدية إخماد الشعور.

نزعت الخاتم من إصبعها وأعادته لي وقالت بتعجب:

- ماذا تقولين؟ أول مرة بحياتي أسمع هذا الكلام، كل الرجال يعبّرون عن حبهم بهدايا كهذا الخاتم أو أشياء أرخص منه.

- هذا صحيح، ولكن زوجي نوع مختلف من الرجال، لقد أهداني هذا الخاتم لأنه نجح بعملية كبيرة وأصبحت له شهرة واسعة، ثم ليقول لي بأنه لم يعد يحبني ولن يحبني ولكنه يقدر بقائي معه رغم أنه لا يعاملني كزوجة، أي يشكرني لأنني رفيقة صامتة وغير مزعجة.

- حين كنا في الغابة وعدتني أن تخبريني بكل شيء عنك، وأنك سوف تقولين لي كل شيء حين تكونين بحالة من الحزن، ولم أرَك حزينة منذ مدة ولحسن الحظ، فهل ترغبين بأن تخبريني، لأن كلامك يقول إن قصتك مثيرة فعلًا.

ضحكت وقلت:

- أنا اليوم سعيدة، ولا أرغب بالحديث، ثم يبدو أنني حين أكون معك أشعر بالسعادة، لذلك ربما لن أخبرك أبدًا.

ضحكنا معًا وقالت وهي تأكل الكريب الساخن:

- أفضل أن أراك سعيدة وألا تخبريني بشيء على أن أراك حزينة وتقولين كل شيء، ولكن أنت تعلمين بأنني معك دائمًا سواء أردت الحديث أم لا.

- عزيزتي نيفين، أعلم ذلك، ولولا وجودك بقربي لا أدري ماذا كنت سأفعل؟!

ضحكت وقالت:

- كنت ستجدين صديقة أخرى، أو ستجدك صديقة ما، فباريس مدينة مليئة بالناس والأصدقاء والتعرف على الناس ليس صعبًا.

- أجل ولكن من الصعب أن أجد صديقة مثلك.

- أجل هذا أكيد.

ضحكنا معًا ثم نهضنا لنذهب لصالة السينما لنحضر فيلمًا ما معًا، فأنا حرة طليقة لأسبوع أعود متى أريد وأبدو طليقة كعصفور سعيد بحريته القصيرة.

تافارا

تحسّن وضع ميشيل بعد عدة أيام وعاد لمدرسته، وكنت أقوم بزيارته كل يوم إلى أن تأكدت بأنه استرجع وضعه الطبيعي، وتوصلت لإقناعه بأنه توجد نساء كثيرات يشبهن والدته في باريس. مرت تلك الأزمة وتابع الأولاد حياتهم المعتادة، ولكنني لم أشعر بالارتياح وظل القلق يساورني، فماذا لو رأى الولدان والدتهما بأحد شوارع باريس مرة أخرى، ماذا لو...ماذا لو...؟

قابلت سيلفيا في مقهى بجانب المستشفى خلال فترة الاستراحة وأخبرتها بما حصل فقالت ببرود:

- ربما من الأفضل أن تخبرهما أن والدتهما على قيد الحياة وتخبرها أن ولديها لم يموتا، بهذه الطريقة تشعر بالارتياح، سوف يغضبون قليلًا ولكنهم سيفهمون أسبابك بالتأكيد.

نظرت إليها مستنكرًا إجابتها وقلت لها:

- ماذا تقولين؟! كيف لي أن أفعل ذلك، لن تسكت زوجتي، لقد أصبحت فرنسية الآن وتعرف حقوقها جيدًا سوف تخبر السلطات بأنني كذبت عليها وكذبت على الولدين، وسوف تطالب بحضانتهم وتجبرني على دفع جميع تكاليف حياتهم هنا وربما ستطلب ألا أراهما أبدًا، أنت تعرفين كم أن القوانين هنا صارمة بمثل هذه الأوضاع.

أجابت وهي تنظر لمفاتيح سيارتها:

- ولكن سيكون من الصعب أن تسيطر على هذا الوضع لوقت طويل، سوف يكبر الولدان ويتجولان في باريس وحتمًا سيقابلانها يومًا ما في المترو أو في الشارع أو بمقهى ما...

فربما من الأفضل أن تخبرهما بالحقيقة وتعيشون معًا كأسرة عادية.

صمت وقد زادت سيلفيا من شعوري بالقلق:

- لا يمكن أن نكون أسرة عادية، أنا أحاول أن أجعل من ولديَّ نموذجًا للنجاح والتفوق، وإن عاشا معها سوف يكونان نموذجًا للامبالاة، وربما سيتعلمون الأكل بنهم مثلما تفعل والدتهم، ثم لا قدرة علمية لديها لتدرسهم المناهج التعليمية هنا، لقد قطعوا شوطًا كبيرًا في الدراسة وهم

بمستوى جيد جدًا، تأكدي بأنها لن تستطيع أن توفر لهما هذا المستوى ولن تستطيع مساعدتهما بدروسهما، ليس فقط بالدروس حتى على صعيد السلوك، لن يندمجا في المجتمع الفرنسي مع أم لا تزال تعيش كأنها في قريتها الأفريقية النائية، تنام وتستيقظ على ذكريات تلك القرية، حتى في غرفتها تضع لوحة فتاة أفريقية جالسة في مكان يشبه قريتنا، ثم أتت بلوحة أخرى رسمها لها فنان ما، لوحة لامرأة حزينة وتعيسة.

- ولكن فرانسوا، ألا تجد أنه من الطبيعي أن تكون حزينة، لقد قُتل أغلب الناس الذين تعرفهم وولداها، ثم أتت لبلد غريب ويبدو أنها تحاول العمل بجهد لا بأس به، لقد تعلمت الفرنسية أليس كذلك؟

- أجل، هي تتحدث بشكل ممتاز الآن وبعد شهرين سوف تنتهي دراستها في المعهد، ولكن المشكلة هي أنها لا يمكن أن تقدم لهما دعمًا دراسيًّا أو معنويًّا لحياتهما هنا، سوف يشعران دائمًا بأنهما غرباء مثلما تشعر هي بذلك. ثم لماذا تدافعين عنها؟

ابتسمت وقالت:

- لا أدافع عنها، ولكني أفهمها، فحتى لو كانت امرأة أفريقية بسيطة فهي إنسان، وأشعر أحيانًا بالحزن لأجلها.

شعرت بالغضب وقلت لها:

- ما هذا؟ كأنك ترغبين بإخبارها عن الولدين؟!!

- لا، بالطبع لا، فهناك مسألة الخوف عليهما، فلا يزال الخطر قائمًا بأن يحضر أحد ويجدك أو يجدهما، لذلك أفهم تمامًا موقفك، ولكن مجرد تعاطف معها، لابد أن الوضع ليس سهلًا بالنسبة لها.

- أجل ليس سهلًا، ولكن صدقيني، لو أعطيتها الخيار بين أن يبقى الولدان معها ويكونا في خطر أن يُقتلا أو نُقتل جميعًا معًا، وبين أن يبقوا في المدرسة الداخلية بأسماء غير أسمائهم الحقيقية سوف تختار أن يبقوا في المدرسة.

- أجل، هذا أكيد.

ساد الصمت بيننا قليلًا، ثم قالت وهي تنهض من مكانها:

- لابد أن أخرج الآن، لدي موعد مع صديقة لم أرَها منذ مدة طويلة، سوف نلتقي بنهاية الأسبوع كالمعتاد.

- أجل، إلى اللقاء.

مكثت مكاني أراقبها وهي تمشي مسرعة في الشارع، جميلة وأنيقة كعادتها، ولكن هناك شيء ما تغير بها، لا أدري ما هو ولكنها لم تعد كالسابق، فمنذ فترة لاحظت شرودها لدقائق ثم تعود للحديث بشكل طبيعي، واعتذارها أحيانًا عن عدم تمكنها من رؤيتي، وها هي اليوم تغادر لمقابلة صديقتها رغم أنني لم أرَها منذ أسبوع، ولاحظت وأنا أنظر إليها عبر نافذة المقهى بأنها لم تسِر باتجاه سيارتها، وقبل أن يختفي طيفها من الشارع، وضعت النقود على المائدة وخرجت مسرعًا للحاق بها، لم أكن أعرف ماذا سأقول لها إن سألتني لماذا لحقت بها، لم يهمني أن أجد أي عذر، ولكنّ شيئًا ما غامضًا دفعني لأمشي خلفها، كانت تسير مسرعة ثم توقفت كأنها تنتظر أحدًا ما، ثم أتت سيارة سوداء يقودها رجل ما، صعدت للسيارة وتبادلا القبلات، ثم انطلقت السيارة دون أن تراني.

كان يجب أن أعود للمستشفى، ولم يكن هناك وقت للتفكير بما رأيت، تابعت عملي، وأجلت التفكير أو بالأحرى خدرت شعوري بالخيانة التي قامت بها تجاهي، تناسيت الصدمة وتابعت عملي. وفي المساء عدت للبيت متعبًا وكالعادة لم أتحدث كثيرًا مع دومينيك، كنت بحاجة للذهاب لغرفتي والتفكير بكل ما حصل اليوم.

سيلفيا لديها عشيق، شاب وسيم وواضح أنه فرنسي، وهي تحاول الانسحاب بشكل بطيء من حياتي، ولكنها لا تعرف متى أو كيف، لقد تغيرت كثيرًا، وبجانب شعوري بالصدمة لخيانتها لي، ما يقلقني هو أنها تعرف كل شيء عني، والآن فهمت سبب تعاطفها مع دومينيك في الفترة الأخيرة؛ كان يجب أن أجد حلًّا لهذا الوضع المعقد، فلا شيء يمنعها من إخبار دومينيك بكل شيء، لذلك كان يجب أن أحافظ على هدوئي الكامل حين تطلب مني أن نفترق، وأعتقد أنها ترددت بالانفصال ليس لأجلي بل بسبب الأولاد لأننا نلتقي في بيتها في كل نهاية أسبوع، ويبدو أنها تعبت من هذا الوضع. كان يجب إيجاد حل، لم أعد أستطيع التفكير فنمت لشدة التعب إلى أن رن جرس المنبه في صباح اليوم التالي.

وفي المستشفى في اليوم التالي، أخبرني المدير بأنه لابد من إجراء عملية جراحية في لندن بعد بضعة أسابيع، وأن أهيئ نفسي لهذه العملية لأنها بأهمية العملية التي قمت بها من قبل في باريس، والتي تحدثت عنها الصحف. نظرت للمدير بتأمل للحظات، حتى أنه قال لي باستغراب:

- ماذا هناك؟ ألا تريد الذهاب؟!

أجبته كمن يستيقظ من النوم:

- بلى، بلى، حتمًا أريد الذهاب.

- هذا جيد، سوف أضع تفاصيل الرحلة على مكتبك مع التذكرة وجميع التفاصيل، وكذلك الفحوصات الطبية التي أرسلوها، بالطبع سيكون هناك فحوصات أخرى حين تصل ولكن من الأفضل أن تعرف أكبر قدر من المعلومات قبل سفرك.

- أجل بالتأكيد.

ذهبت لمكتبي، وطلبت فنجانًا من القهوة، وتأملت حديقة المستشفى من خلف النافذة، ورأيت الحل بكل وضوح، سوف ينتقل الأولاد للدراسة في لندن، فأكون بذلك تخلصت من الوضع مع سيلفيا وأعطيتها حرية الانفصال عني وأن تعيش حياتها، وأتخلص من ضغط معرفتها لكل شيء عني ولحسن الحظ أنني انتقلت لمستشفى آخر غير الذي تعمل به، ثم أتخلص من احتمالية أن يقابل الأولاد أمهم بالصدفة مرة أخرى، وقد أخبرني صديق لي أن أولاده يدرسون في مدرسة ممتازة في لندن وسوف يتابعون دراستهم للغة الفرنسية والإنجليزية أيضًا، ويمكنني زيارتهما لبضعة أيام من كل شهر، لقد أتت تلك العملية كطوق نجاة بالنسبة لي؛ وعلى الفور اتصلت بصديقي وطلبت منه جميع المعلومات عن المدرسة، وخلال أيام قليلة كنت قد حجزت لهم مكانًا هناك وأخبرتهم بموعد وصولنا.

أخبرت الأولاد بأنهم سينتقلون للحياة في لندن، وأنني سأزورهم مرة بكل شهر لعدة أيام، نظروا لبعضهم البعض وقالوا:

- ولكن نحن مرتاحون هنا، لا نريد أن نذهب لمكان آخر من جديد.

- أعرف هذا، ولكن هذه المدرسة من أفضل المدارس الأوروبية، وسوف تدرسون عدة لغات وسوف تأتون هنا في الإجازات أو أحضر أنا لزيارتكم، لقد أصبحت مشغولًا جدًا في عملي

خصوصًا بعد فتح العيادة الجديدة، ولن أتمكن من رؤيتكم بكل نهاية أسبوع كالسابق، فلابد أن تعتادوا على ذلك، ولندن مدينة عالمية ومهمة جدًا وسوف تحبونها أيضًا.

وقبل أن يتابعوا كلامهم ويخبروني أنهم لا يريدون ذلك قلت لهم:

- والآن سوف نذهب برحلة لصيد السمك، لقد جهزت كل شيء في السيارة.

- وسيلفيا، ألن تأتي معنا؟

- سيلفيا لديها عمل وهي مشغولة بهذه الفترة سوف نراها قريبًا.

وفكرت للحظة بأن قرار الذهاب للندن كان أفضل قرار لأنهم كانوا سيسألونني عن سيلفيا طوال الوقت، وسيكون الوضع صعبًا جدًا حين أخبرهم بأنها تركتنا أو على الأقل تركتني.

أخبرت دومينيك بسفري للندن، وخلال بضعة أيام كنت في الطائرة مع رولاند وميشيل، لم يتحمسا لركوب الطائرة وكانت نظراتهما متجهة نحو النافذة كأنهما ينظران للفراغ، لم يكن هناك حماس ولا سعادة، فقط فراغ كبير، وحزن لم يعرفا كيف يتخلصا منه، تجاهلت كل ذلك وفكرت أنهما سيتجاوزان هذه الفترة ويعتادا على الحياة في لندن، وسيكونان في أمان ومن المستحيل أن يلتقيا بوالدتهما، وأن موضوع سيلفيا قد انتهى أيضًا.

ركبنا التكسي من مطار هيثرو إلى مدينة لندن، الطريق مُحاط بالأشجار الخضراء وبالعشب داكن الخضرة، والمطر لم يتوقف عن الهطول، الضباب يغطي الأرض بطبقة شفافة رقيقة؛ شعرت ببرودة خفيفة تسري بعروقي، فرغم أن باريس باردة خصوصًا في فصل الشتاء إلا أنها رائعة ودافئة في فصلي الربيع والصيف، بل إن الصيف يكون أغلب الوقت حارًا في باريس، ولكن لندن مختلفة تمامًا عن باريس فهي أرض باردة وشيء بها منعزل، لم أعرف كيفية التعبير عن ذلك الانعزال الذي تغرق فيه رغم كونها من أكبر مدن أوروبا، لكنها منعزلة بمبانيها القديمة وأحجارها الحمراء الداكنة، وشوارعها الواسعة والضيقة، سارت سيارة التكسي ببطء ساعة الازدحام حيث يعود الموظفون من أعمالهم، ما منحني الفرصة لتأمل هذه المدينة الغارقة في المطر والضباب والبرودة، ونظر الأولاد بفضول شديد عبر النافذة، قال لي ميشيل:

- أبي، هذه المدينة باردة ولا تشبه باريس.

نظرت إليه وقلت:

- بالطبع هي مختلفة، كل مدينة لها صفات خاصة بها.

- ولكنني أحب باريس أكثر.

ابتسمت له مطمئنًا:

- سوف تعتاد عليها مثلما اعتدت على باريس، سوف تعجبك بعد مرور فترة من الوقت.

وصلت السيارة إلى العنوان الذي أخبرت السائق عنه في أرقى أحياء لندن، وجدت نفسي أمام مبنى قديم وعريق على الطراز الإنجليزي القديم، وكان الشارع الذي تطل عليه المدرسة شارعًا هادئًا، فيه أشجار خضراء كبيرة تكاد تغطي سقوف البيوت. وعلى الفور شعرت بالاختلاف الكبير بين الحياة في فرنسا والحياة في بريطانيا.

دخلنا للمدرسة الضخمة ببناياتها القديمة ذات الأحجار الحمراء الصغيرة، وحديقتها الواسعة شديدة الخضرة، كان المطر يتساقط والجو بارد رغم أن الصيف لم ينتهِ، وضع رولاند يده على كتف ميشيل وضمه إليه لشعورهما بالبرد، دخلنا مسرعين إلى المدرسة، وقفت المديرة لاستقبالنا، ومشينا خلفها بين تلك الصالات ذات الأرضية الخشبية اللامعة والأثاث الفخم، والنوافذ الكبيرة المغلقة التي تطل على الحديقة، ثم دخلنا لمكتبها الكبير وجلسنا على الكنب الجلدي الفخم، كانت مدرسة قديمة وعريقة، كل تصرف وكل كلمة لها أصول وطريقة معينة، لم يكن هناك أي مكان أو حتى احتمالية للعشوائية، كل شيء منظم ومرتب بعناية فائقة، حتى الكتب على رفوف المكتبة مصفوفة بعناية كبيرة. وكان ملف رولاند وميشيل أمامها، وبعد كلمات الترحيب والمجاملة بدأت المحادثة الرسمية مع الأولاد ومعي، ووضحت لهما قوانين المدرسة وأنها قوانين صارمة لا يجوز تجاوزها، جلسا صامتين وشعور بالخوف يبدو عليهما لاحظت ذلك فابتسمت وقالت:

- لا داعي للخوف، سوف نذهب معًا بجولة للمدرسة وتتعرفا على الناس هنا، هيا بنا.

مشينا معها بين أروقة المدرسة ذات الأرضية الخشبية والجدران الخشبية أيضًا، وشاهدنا الصالات الكبيرة حيث أماكن لعب الرياضة وعزف الموسيقى، ثم المسبح والمكتبة الضخمة، وحين رأى ميشيل الصالة الضخمة حيث جلس عدة طلاب يرسمون اللوحات ويستعملون أدوات الرسم المختلفة، تركنا وذهب يتجول بينهم، لم تمنعه المديرة من ذلك وقالت مبتسمة:

- يبدو أنه يحب الرسم.

قال رولاند بخجل:

- أجل، يحب ذلك.

استغرقت جولتنا بعض الوقت، ثم أتى موعد مغادرتي للذهاب للمستشفى، رافقتني المديرة حتى باب الخروج مع الأولاد وقالت لهما بلطف:

- اليوم تحدثت معكما باللغة الفرنسية، وسوف تتابعون دراسة الفرنسية والألمانية، ولكن اللغة التي سنتكلم بها في المدرسة هي الإنجليزية، وأعلم أنكما تتحدثان الإنجليزية ولكن ليس كالفرنسية، سوف تتعلمونها بسرعة من الواضح أنكما على درجة من الذكاء حسب ما رأيت في ملفاتكما، والآن سوف يغادر والدكما ونعود للداخل حيث أرافقكما إلى غرفتكما وتتعرفان على الفصل الذي ستتابعون دراستكم فيه وتتعرفون على الأساتذة.

وقفا بجانبي صامتين، احتضنتهما وقبلتهما، رأيت دموعهما، ولم يشعرا بالحرج من المديرة لشدة الحزن الذي كان باديًا على وجهيهما، احتضنتهما من جديد وأخبرتهما أنني سوف آتي لزيارتهما غدا وسوف نتجول في لندن معًا، وأنني سأبقى هنا لأسبوع وربما أكثر، صافحت المديرة وقالت لي بهدوء وهي تحاول تهدئة مشاعر رولاند وميشيل:

- لا تقلق، جميع الأولاد حين يحضرون لأول مرة يتصرفون بهذه الطريقة، ثم يعتادون ويشعرون بالسعادة هنا. حين يغادر الوالد سوف نذهب لرؤية المسرح، توجد مسرحية جميلة سوف يتم عرضها بعد ساعة، صحيح أنها باللغة الإنجليزية ولكنكما ستفهمان كلمات كثيرة منها لأنها ليست صعبة، هيا صافحا والدكما ولنذهب لنرى الممثلين وكيف يحضّرون أنفسهم لعرض المسرحية ويلبسون أشياء غريبة.

كانت تلك الكلمات كافية ليشعرا بشيء من الطمأنينة والفضول أيضًا، احتضنتهما من جديد وقلت لهما بأنني سوف أراهما غدًا، ونذهب للتجول في لندن ثم يخبراني بكل شيء عن هذه المسرحية، وأنه لو كان لدي الوقت لحضرتها معهما.

غادرت المدرسة مسرعًا دون أن أنظر خلفي، كان يجب أن أصل بسرعة للمستشفى، كان المطر يتساقط بغزارة، أوقفت تاكسي وأعطيته عنوان المستشفى، وجلست في الكرسي الخلفي

أنظر إلى لندن بشوارعها الواسعة، وحركة السير المنظمة والمطر الذي لا يتوقف عن الهطول، لم أعد أستطيع رؤية الشوارع بسبب غزارة المطر، وكأن أنهارًا صغيرة تنحدر من فوق زجاج النافذة لم أعد أرى أي شيء في الخارج، لم يكن هناك سوى هذا المطر الغزير ومساحات السيارة التي تعمل دون توقف يمينًا وشمالًا، شعرت أن الماء بلل كل شيء حتى مقعد السيارة الذي أجلس عليه، لم يكن مبللًا ولكن لشدة غزارة المطر شعرت بأن كل ما حولي قد غرق بذلك المطر الذي لا يتوقف.

كامالي

لا يزال تافارا في لندن، أرسل رسالة صغيرة أنه بخير وأنه سيعود بعد بضعة أيام. تذكرت مدام كوليت وفكرت بزيارتها، اتصلت بها، كتبت عنوانها على ورقة صغيرة وخرجت للذهاب لبيتها، كنت أعتقد أنني أعرف باريس ولم أتخيل أنني لا أعرف إلا أجزاء منها، والتي يعرفها أغلب السياح، أخذت المترو للوصول إلى المنطقة التي تسكن فيها، ثم نزلت في المحطة القريبة من بيتها، سرت بين الشوارع لأجد ذلك البيت ولكن دون جدوى، لم أعد أعرف أين أنا، وشعرت أنني ابتعدت كثيرًا وأنني لا أعرف الشوارع التي أمشي بها ولم أرَها من قبل، بدأت أشعر بالخوف ثم الحرج لأني تأخرت عن موعدي معها، كانت الشوارع التي سرت بها لمنطقة للأثرياء، البيوت بها عبارة عن فلل صغيرة أو كبيرة بحدائق جميلة أو بنايات فخمة وقديمة، لم يكن هناك من يمشي في الشارع، فجميعهم يمتلكون سيارات فارهة، نظرت حولي لأبحث عن أي شخص يساعدني لأعرف أين أنا وأين يجب أن اتجه، وأخيرًا وصل رجل يلبس بدلة أنيقة ويبدو من طريقة مشيه أنه من الأثرياء، اتجهت نحوه لأسأله عن العنوان، فأشار بيده لي بأن أبتعد كأنني أحمل مرضًا ما، تراجعت إلى الخلف ووقفت أراقبه من بعيد، لم أتمالك نفسي وبدأت بالبكاء، مشيت من جديد لا أعرف أين أنا ولا أين سأذهب، إلى أن أتت امرأة من بعيد، وقفت مترددة أن أسألها خشية أن تتصرف معي بنفس الطريقة وأشعر بالإهانة مرة أخرى، ولكنها نظرت لي ولاحظت أنني أبكي، اقتربت وقالت:

- هل يمكنني مساعدتك؟

نظرت إليها وأنا أبكي وقلت:

- لا أعرف أين أنا، اعتقدت أنني أسير في الطريق الصحيح ولكنني لا أعرف كيف أصل لهذا العنوان.

أخذت الورقة الصغيرة وابتسمت قائلة:

- واو، أنت ابتعدت كثيرًا عن هذا العنوان، هيا بنا، سوف أصحبك إلى هناك.

- ولكن المكان بعيد وربما أزعجك...

- كلا، أنا أمشي كل يوم بهذه المنطقة، وسوف أمشي معك هيا بنا.

سرت بجانبها فناولتني منديلًا صغيرًا لأجفف دموعي وقالت:

- أنت تتحدثين الفرنسية بشكل ممتاز؟

- أجل، لقد درستها طوال العام الماضي وبقي لي شهران وأنتهي من دراستها.

- هذا جيد.

تبادلنا أطراف الحديث وسألتني عن بلدي وعن الملابس والطعام، وأشياء يقولها الناس لبعضهم حين يلتقون لأول مرة، وحين وصلنا قالت بمرح:

- هذا هو البيت الذي كنت تبحثين عنه.

- أشكرك كثيرًا، هذا ليس بيتي وإلا لدعوتك لشرب القهوة.

- أشكرك لا داعي، إلى اللقاء.

فتحت مدام كوليت الباب وقالت بنبرة متفاجِئة:

- أخيرًا دومينيك، اعتقد أنك لن تحضري، لقد تأخرت كثيرًا.

- أعتذر منك، لم أجد عنوان البيت بسهولة، وقد نسيت رقم هاتفك في البيت.

- لا بأس، هيا تفضلي.

جلسنا معًا على الشرفة المطلة على الحديقة، وشممت رائحة الأزهار المنعشة، نظرت لي باستغراب وقالت:

- دومينيك، هل كنت تبكين؟

ضحكت قليلًا وقلت:

- أجل، لأني ضعت بين هذه الشوارع، فهذه منطقة لم آتِ إليها من قبل، وقابلت امرأة في الطريق هي التي ساعدتني على الوصول.

- المهم أنك هنا. كيف تقضين الوقت؟ لقد علمت أن فرانسوا في لندن.

- أجل، منذ بضعة أيام، توجد لي صديقة تركية أخرج معها من حين لآخر، وهناك دروس اللغة الفرنسية.

- أنت تتحدثين بشكل ممتاز الآن، ماذا ستفعلين بعد انتهاء دورات اللغة؟

- لا أدري.

- توجد فكرة جيدة لك، أفكر بأن أفتح "أتيليه" للمُنتجات الأفريقية، الملابس، الحلي، اللوحات وحتى بعض أنواع الأعشاب، وفكرت أننا يمكن أن نتعاون معًا بهذا المشروع، فوجودك كأفريقية في الأتيليه سوف يكون له تأثير جيد، ويجعل المحل يبدو أكثر أصالة وقربًا لأفريقيا فأنت تعلمين أنني أحب الثقافة الأفريقية، وسافرت لعدة دول وجمعت عددًا لا بأس به من التحف والملابس حتى بعض الكتب باللغات الأفريقية المتنوعة.

نظرت إليها بدهشة، فلم أتوقع مثل هذه الفكرة، وكنت حائرة ماذا سأفعل بعد انتهاء دورات اللغة، وكانت فكرة رائعة عدا عن أني أحب أن أتعامل مع كل شيء أفريقي، فقلت لها على الفور:

- أجل، هذه فكرة رائعة، بالطبع سوف أتعاون معك.

ضحكت وقالت:

- لقد التمعت عيناك فجأة، لم أرَ بريقهما بهذه الصورة من قبل.

- أفريقيا هنا في قلبي، لذلك حين أتذكرها أو يتحدث أحد ما عنها يخفق قلبي.

- أجل، هذا شيء طبيعي، المهم هو أننا سوف نبدأ بهذا العمل بعد شهر، أنت تعلمين أن زوجي تقاعد ولكنه لا يزال يسافر كثيرًا لإجراء بعض الأبحاث، لذلك لدي كثير من الوقت وكنت أفكر بهذا المشروع منذ سنوات، ولكن لم يكن ممكنًا تنفيذه بسبب عمل زوجي واهتمامي بأولادي، وحيث إن أولادي أصبح لكل منهم حياة مستقلة وزوجي أصبح يسافر أكثر من السابق، فكرت أن الوقت قد حان لأحقق هذا الحلم الصغير.

- حلم جميل، أنا جاهزة بأي وقت.

- سوف أعطيك بعض الكتب لتقرأيها حول التحف الأفريقية وأنواع الملابس والدول والعواصم،

لابد أن يكون لديك معلومات كافية عن كل تحفة أو كتاب، وكل نوع من الملابس من أي بلد تم إحضاره وهذا سيحتاج إلى دراسة وقراءة، تعالي معي.

أخذتني لغرفة كبيرة فيها عشرات الكتب مصفوفة بعناية، وأخرجت من بين الرفوف عدة كتب تتعلق بالدول الأفريقية، ومعلومات كثيرة عنها، كنت سعيدة بأن أرى هذه الكتب والصور، قالت لي وهي تتصفح كتابًا ما:

- الناس تعتقد أن جميع الدول الأفريقية مثل بعضها البعض، وهذا خطأ فكل بلد له خاصية معينة وهناك دول شمال أفريقيا، ودول وسط أفريقيا ودول جنوب أفريقيا لكل منها خصائص معينة ولغات خاصة بها، بعضها يتحدث اللغة الفرنسية أو الإنجليزية وبعضها يتحدث العربية، ولكن هناك عدد كبير من اللغات الأفريقية الخاصة بكل بلد، والتي لا يعرفها أحد في العالم سوى ذلك البلد، أو بعض القرى التي تتحدث تلك اللغة. لذلك سوف يستغرق التعرف على كل هذه المعلومات بعض الوقت، وأرجو أن تحضري نفسك جيدًا لهذا المشروع، افتتاح المشروع سيتم بعد شهر من الآن وربما شهرين، ولكن اعتقد أنك ستحتاجين لوقت أكثر لتكوني جاهزة لهذا العمل.

- أجل، هذا أكيد.

- حسنًا، حين تنتهين من قراءة هذه الكتب سوف تعودين لزيارتي، وتأخذين كتبًا أخرى وسنذهب أحيانًا للمكتبة العامة لنرى إن كان هناك كتب أخرى.

انتهت الزيارة وحملت تلك الكتب بسعادة، ولكنني شعرت بالقلق حين وقفت أمام الباب أودعها، فكيف سأعود للبيت، شعرت بالقلق الذي ساورني، فابتسمت وقالت:

- سوف أسير معك باتجاه المترو، وهكذا تعرفين موقع البيت بصورة سهلة وبسيطة، محطة المترو ليست بعيدة من هنا، ولكن أنت ذهبت بعيدًا، هيا بنا.

وخلال دقائق، كنت أجلس في المترو أتصفح تلك الكتب بفضول كبير، لم أنتبه لمن حولي، كنت غارقة بتلك الكتب التي أعادتني لوطني وقريتي، فالعديد من الصور كانت تشبه قريتي وبيتي، وصل المترو لمحطة النزول، نزلت سريعًا واتجهت نحو المنزل، كان الوقت قد تأخر وحل الظلام، فسرت بخطوات سريعة لأخرج من محطة المترو، شعرت أن هناك خطوات تلاحقني،

وبدت المحطة خالية من الناس بتلك الساعة من مساء يوم الأحد، أسرعت بالمشي فأسرع من خلفي بالمشي، ثم سمعته يركض خلفي، وفجأة شعرت أن هناك من يمسك بكتفي بقوة ويشدني إلى زاوية مظلمة من المحطة، صرخت بصوت مرتفع، ولكن لم يكن هناك أحد وحتى لو سمعني أحد ما لن يساعدني، كان رجلًا أبيض البشرة طويل القامة، بشع الوجه، رائحته كريهة، مزق قميصي ثم رمى الكتب التي كنت أحملها، لم أتوقف عن الصراخ والاستغاثة بأي إنسان يمر من ذلك المكان، وفجأة شعرت بقوة غريبة تتملكني، لا يمكن لهذا القذر أن يلمس جسدي، لن أسمح له باغتصابي، وقبل أن يرميني على الأرض ليتمكن مني، أمسكت أحد تلك الكتب الكبيرة التي كانت معي وضربته بها على رأسه، ثم وضعت إصبعي في إحدى عينيه، صرخ من الألم، وتركني ليضع يده على عينه ويمسح الدماء التي سالت من وجهه، فركضت بكل قوتي مندفعة نحو الدرج الذي يؤدي للشارع، سمعته يركض ورائي ويشتمني، تابعت الركض بكل ما أملك من قوة، إلى أن وصلت للشارع، اختبأت خلف إحدى السيارات، رأيته بملابسه القذرة ينظر حوله باحثًا عني وهو لا يتوقف عن الشتائم والصراخ، كنت أعرف أنه لن يساعدني أحد، فنظرت إلى مقهى قريب، ركضت باتجاه المقهى، وجلست على أول كرسي بجانب الباب وأنا ألهث، أقترب رجل يعمل في المقهى مني وقال:

- ماذا هناك؟ تبدين خائفة كثيرًا!

قلت له وأنا أبكي وأتنفس بصعوبة وأحاول تغطية صدري لأنه مزق قميصي:

- أرجوك اتصل بالشرطة، هناك رجل حاول اغتصابي.

وبعد دقائق وصلت الشرطة، وطلبوا مني الذهاب إلى المكان الذي حصلت فيه محاولة الاغتصاب، شرحت لهم كل شيء، ولحسن الحظ وجدت الكتب لا تزال مرمية هناك.

قال لي الشرطي:

- لابد أن تحضري معنا لتتقدمي بالشكوى في مركز الشرطة.

أجبته بتعب:

- ولكني لا أريد أن أذهب لمركز الشرطة، أنا متعبة، أنتم أخذتم أوصافه وهو لم يتمكن من اغتصابي.

- ولكن هذه هي الإجراءات.

- لا أريد أن أتقدم بشكوى، لا أريد أن يرد اسمي بمثل هذه الأمور.

- ولكن إن لم تقدمي الشكوى لن نستطيع ملاحقته وسوف يحاول اغتصاب نساء أخريات.

- أجل، أعلم هذا، ولكن...

- ولكن ماذا؟

- زوجي سوف يغضب ولا أريد أن أسبب مشاكل لنفسي معه، لو سمحت دعني أعود لبيتي.

جمعت الكتب وضممتها لصدري لأغطي صدري المكشوف وقلت له:

- لو حصل الاغتصاب كنت سأتقدم بالشكوى، أشكركم كثيرًا لأنكم قمتم بحمايتي.

- هل تريدين أن نوصلك لبيتك؟

لم أرغب بأن يعرفوا أين أسكن، وكنت متأكدة بأن تافارا سوف يستشيط غضبًا إن علم أنني قدمت الشكوى، وأنني تعرضت لمحاولة اغتصاب، فقلت له بحذر:

- لا أشكركم، البيت ليس بعيدًا سوف أعود وحدي.

كنت لا أزال خائفة كثيرًا وكنت أعلم أنهم يراقبونني من بعيد، فسرت مسرعة باتجاه بعيد عن اتجاه البيت، إلى أن تأكدت من ابتعادي عنهم وأنهم لا يسيرون خلفي، ثم أطلقت لساقي العنان بالركض باتجاه البيت، وحين وصلت أغلقت الباب بإحكام وأغلقت جميع النوافذ، وبقيت وحدي في الظلام جالسة في الصالة أبكي لشدة خوفي ولشدة وحدتي.

تافارا

انتهيت من إجراء العملية التي تمت بنجاح، وأصبح لدي الوقت الكافي للتعرف على لندن، فقد قضيت الثلاثة أيام الأولى من وصولي في المستشفى، وما أن انتهيت من عملي ذهبت على الفور لرؤية الأولاد، استقبلتني المديرة بلطافتها المعتادة، وقالت لي مطمئنة:

- الأولاد أحبوا المسرحية كثيرًا، وأحبوا المدرسة وذهبوا بجولة طويلة مع المعلمة في الحديقة، لقد اهتمت بهم كثيرًا وبالأمس بدأوا بحضور الحصص المعتادة.

- هذا جيد. سوف يقضون اليوم معي لأنني سوف أسافر بعد ثلاثة أيام، وأريد قضاء أغلب الوقت معهم.

- أجل، هذا أكيد، سوف أذهب لإخبارهم كي يجهزوا أنفسهم للخروج.

وبعد قليل من الوقت حضر الأولاد وكانوا سعداء بقدومي قلت لهما:

- هيا بنا، سوف نتجول في لندن ونقضي اليوم معًا.

صعدنا للتاكسي الذي كان بانتظارنا وطلبت منه الذهاب إلى مركز المدينة، كان يومًا صافيًا دون مطر ولكن دون شمس رغم أننا في فصل الصيف؛ وصل التاكسي وأخبرت الأولاد أننا سنتعرف على لندن سيرًا على الأقدام، مشينا في الشوارع الواسعة وهدوء غريب يخيم على كل أجزاء المدينة، والباصات الحمراء التي تجوب الشوارع لتمنح المدينة شيئًا من الحيوية، وسط ذلك البرد الجاثم على كل جزء منها، سرنا طويلًا في شوارع واسعة عريضة لا تنتهي، وتجولنا بين المحلات التجارية الفخمة والعادية، وفي سوق الخضار والفواكه؛ ثم لاحظت ذلك التنوع الكبير في المارة فهناك السود، والهنود، الباكستانيون، والعرب، الآسيويون، كان ثمة اختلاف كبير بينها وبين باريس، لم يكن في باريس هنود أو باكستانيون، أغلبية الأجانب في باريس من العرب من شمال أفريقيا أو السود القادمين من أفريقيا..

أحببت هذه المدينة الواسعة المترامية الأطراف، المتعددة العروق، المتنوعة الثقافات، كل ما فيها قديم وغارق بتاريخ بعيد، وتبقى هذه الأحجار داكنة اللون تروي قصص المدينة

التاريخية الباردة والتي لا تزال تجذب عشرات الجنسيات لها. ولكن التجول في لندن لم يكن سهلًا، خصوصًا وأن الشوارع تشبه بعضها البعض، والمترو لم يكن من السهل الاعتياد عليه، فمحطة أكسفورد للمترو كان لها أربعة مخارج، جميعها تقود إلى منطقة بيكاديلي وجميع هذه المخارج تشبه بعضها البعض.

اشترى الأولاد كل ما يحتاجونه أو ما يرغبون بشرائه، وبدأ المطر يتساقط، فدخلنا إلى أحد المطاعم، وطلبت نوعًا من السمك مع البطاطا المقلية، المطبخ الإنجليزي ليس مشهورًا مثل المطبخ الفرنسي، لم يكن على قائمة الطعام سوى الستيك والسمك والبطاطا المقلية مع سلطة الملفوف.

تناولنا طعامنا بصمت ونظر رولاند عبر النافذة وقال:

- أبي، ألا يتوقف المطر عن الهطول في هذه المدينة؟

لم أعرف بماذا أرد عليه ولم أرغب بأن أقول له إنها مدينة باردة وتُسمى مدينة الضباب، فقلت مبتسمًا:

- بالطبع يتوقف من حين لآخر، الجو هنا مختلف عن باريس، والجو بارد أغلب السنة.

قال ميشيل بضجر:

- لماذا أحضرتنا إلى هنا، الشمس تشرق في فرنسا وهنا لا يوجد سوى الغيوم.

- ميشيل، لقد تحدثنا من قبل، هذه المدينة جميلة جدًا وسوف تكتشفون أشياء كثيرة فيها، الحدائق هنا رائعة وواسعة ويوجد الريف البريطاني رائع الجمال حيث يمكننا زيارته حين أحضر في المرة القادمة، لكن لم تخبروني كيف وجدتم المدرسة الجديدة؟

قال رولاند بحماس:

- المدرسة أعجبتني، يوجد بها أشياء كثيرة وهي كبيرة جدًا، حتى الحديقة يمكن أن تمشي فيها لساعة أو ساعتين.

قال ميشيل:

- وأنا أعجبتني صالة الرسم، فيها كل أنواع الألوان والأقلام اللوحات، أريد أن أتعلم الرسم.

قلت بسعادة:

- هذا جيد جدًا، أنا متأكد أنكما سوف تنسجمان مع الوضع هنا.

وفي اليوم التالي عدت من جديد لاصطحابهما خارج المدرسة، وقلت لهما:

- اليوم سوف نذهب بجولة في باص كبير لونه أحمر سوف نتفرج على المدينة ونحن جالسون في الباص، ولحسن الحظ أن الشمس أشرقت اليوم، وهو يوم جميل حقًا.

ركبنا الباص ذا اللون الأحمر المكون من طابقين، جلسنا في الطابق العلوي المكشوف في الهواء الطلق، وكان برنامج الباص أن يأخذنا بجولة في المعالم المعروفة في لندن، مثل جسر البرج وساعة بيغ بين وقصر باكنغهام، والشوارع التجارية الضخمة التي تضم عشرات المحلات التجارية المشهورة عالميًا، ثم توقف الباص قرب حديقة هايد بارك الشهيرة، نزلنا مشينا لوقت طويل في تلك الحديقة رائعة الجمال، ثم جلسنا على المقاعد المطلة على بحيرة صغيرة فيها قوارب صغيرة، وطلب رولاند أن نركب في أحد تلك القوارب، ركبنا في قارب أزرق اللون واستمتعنا بالنظر إلى الطبيعة الخلابة، وإلى الأوز البري الذي يسبح حولنا في البحيرة، نظر ميشيل لما حوله بدهشة وقال:

- أبي، هذا المكان جميل جدًا، فرنسا أيضًا فيها أشجار كثيرة، ولكن هنا الأشجار لونها أخضر غامق، والعشب كثيف جدًا.

- أجل، لأنها تمطر بغزارة طوال السنة، ثم درجة الحرارة هنا أقل من فرنسا.

قضينا اليوم معًا وتناولنا طعامنا في مطعم يقدم البيتزا، وفي المساء عدت بهم إلى المدرسة وأخبرتهما أنني بعد غد سوف أعود لباريس، وأنني سوف آتي لرؤيتهم غدًا أيضًا قبل سفري.

وفي اليوم الأخير زرنا بعض المتاحف، وتجولنا في بعض الأسواق الشعبية، ثم ذهبنا لمسرح يقدم مسرحيات للأطفال، قضينا وقتًا ممتعًا معًا ثم عدنا إلى المدرسة. وكان يجب أن أودعهم

لأني سأسافر في ساعة مبكرة من الصباح؛ وقفا أمامي ملتصقين ببعضهما البعض، كأنهما يدركان أنهما سيكونان وحيدين بهذه المدينة الواسعة والجديدة، تجاهلت نظرات الحزن والخوف

التي اعترت وجهيهما، ثم لم يتمالكا نفسيهما وبدءا بالبكاء، وقفت عاجزًا أمامهما، أشعر بالذنب وأجد لنفسي تبريرات لكل ما أفعل، وأنهما خلال سنوات سوف يشكرانني على حمايتي لهما وتوفيري أفضل تعليم يمكن أن يحصلا عليه، أخذتهما بين ذراعي وقلت لهما إنني سأعود بعد شهر ولن أتأخر، حضرت المديرة وقالت لتخفف من صعوبة الموقف:

- رولاند، ميشيل، لا داعي للبكاء، سوف تقضيان وقتًا ممتعًا هنا ووالدكما لن يتأخر، الأسبوع القادم هناك رحلة إلى مدرين بلايموث، هي مدينة بقرب البحر وأعرف أنكما تحبان الصيد، سوف نذهب معًا مع بقية الطلاب، في كل شهر المدرسة تنظم رحلة لمدينة أو قرية ما في بريطانيا.

توقف رولاند عن البكاء أما ميشيل فقال وهو يبكي:

- لا أريد الذهاب في رحلات، لقد سئمت منها أريد البقاء مع أبي.

وقفت عاجزًا عن التصرف، وتلك الوسيلة التي كانت تنجح بأن أجعلهما يغيران تفكيرهما ومشاعرهما عبر الرحلات، يبدو أنها فقدت بعضًا أو الكثير من جاذبيتها، وفجأة قالت المديرة:

- إن كنت لا تريد الذهاب بتلك الرحلة، فسوف تذهب مع المشرفة إلى المتحف الوطني البحري، الذي سترى فيه السفن الحربية القديمة والأدوات التي كان يستعملها البحارة ويوجد فيه خرائط لدول كثيرة في العالم، خرائط قديمة جدًا وكتب قديمة ونادرة وآلاف القطع النقدية النادرة، والميداليات والأسلحة القديمة ونماذج المراكب والسفن، هذا عدا عن التصميم المعماري الجميل لهذا المتحف.

توقف ميشيل عن البكاء وقال:

- هل يوجد فيه قوارب صغيرة؟

- أجل بالطبع العديد منها.

- حسنًا، أنا موافق.

نظرت إلى رولاند وقالت:

- وأنت يا رولاند هل تفضل الذهاب للرحلة أم للمتحف؟

أجاب رولاند بخجل:

- أفضل الذهاب للبحر أريد اصطياد الأسماك، هل يمكنني شويها حين نعود؟

- سوف تشويها خلال الرحلة، سوف نحضر جميع أدوات الشوي والصيد، فهناك طلاب مثلك يحبون الصيد وشوي السمك.

- هذا جيد.

نظرت بامتنان للمديرة، وخلال دقائق قبلتهما وسرت عبر الحديقة الكبيرة، ثم التفتُّ لأراهما مرة أخرى، وقفا بجانب المديرة يلوحان لي، ثم غادرت مسرعًا قبل أن يعودا للبكاء مرة أخرى.

في الصباح الباكر كنت من جديد في التاكسي متجهًا للمطار، الجو بارد والمطر عاد يتساقط بغزارة، شعرت بالبرودة بهذا الجو الكئيب، الاختلاف كبير بين باريس ولندن، لم أكن أتوقع أن يكون الجو بهذه البرودة في الصيف، بينما في باريس تشرق الشمس في أغلب الأيام وأن أمطرت فلوقت قصير، ثم تعود المدينة لتحتفل بالشمس أغلب أيام الصيف، أما هنا فالجو مختلف تمامًا، خلال عشرة أيام من إقامتي في لندن لم تشرق الشمس سوى ليومين فقط، أما بقية الأيام فالمطر لم يتوقف عن الهطول وبغزارة، وإن توقف المطر فهناك الغيوم الكثيفة التي جعلت المدينة ترتدي حلة رمادية اللون طوال الوقت.

جلست في الطائرة وشعرت بارتياح لم أشعر به منذ فترة طويلة، الولدان الآن في لندن في مدرسة ممتازة، ولن يكون هناك أي احتمالية أن يقابلوا والدتهم، ولم يعد لدي الالتزام بأن أذهب برحلات في كل نهاية أسبوع، سوف آتي فقط لبضعة أيام من كل شهر لزيارتهما، مما يمنحني فرصة أكبر لتطوير عملي والقيام بأبحاث جديدة، رغبت منذ فترة أن أقوم بها، وحضور مؤتمرات كنت أعتذر عنها في السابق لانشغالي مع الولدين، ثم لن أشعر بالضغط النفسي لأن سيلفيا كانت تعرف كل شيء عني وعن الولدين واستطيع الانسحاب من حياتها بهدوء، أما زوجتي، فسوف أحاول أن أقنعها بأن تدرس شيئًا ما، أو أن تجد عملًا ما يجعلها تنشغل عني، ويصبح لكل منا عالمه الخاص.

تمددت على مقعدي في الدرجة الأولى في الطيارة، وتناولت وجبة لذيذة وساخنة، ثم شربت القهوة بهدوء وأنا أشعر بأنني نظمت جميع الأمور بشكل جيد، وأنني أستطيع الآن البدء بعملي كما أريد فعلًا ودون أي قلق أو توتر.

وصلت الطائرة لباريس بساعات الظهيرة، الشمس مشرقة والجو دافئ ومنعش، وقفت أمام بوابة المطار تحت أشعة الشمس، أتنفس هواء باريس بعمق وأستمتع بحرارة الشمس، وشعور قوي يتملكني بأن بداية رائعة ستنتظرني في باريس، وأنني أخيرًا أستعيد حماستي ورغبتي بالعمل، وأدركت وبعد كل هذا الوقت أن عالمي الحقيقي هو عملي، وأنني أجد نفسي بشكل كامل دون انتقاص فقط في غرفة العمليات وعلاج المرضى، استعدت ذلك الشعور القديم الذي كنت أشعر به حين كنت في قريتي، أقرأ بنهم كل شيء يتعلق بالطب، والآن أجد هذا الحماس والنهم للعلم يسري من جديد في عروقي، جلست في التاكسي تحت أشعة الشمس، وفكرت كم من البشر يدفنون حماسهم وطموحهم بل وذواتهم في مشاكل عائلية، في معاناة زوجية، وأن الفصل بينهم صعب جدًا ومن ينجح بذلك هو إنسان غير عادي، فتلك المشاكل أو المعاناة الأسرية تجعل الأقدام تنغرز في الأرض، تجعل كل شيء يبدو صعبًا وثقيلًا، ينظر من يقع تحت ذلك العبء إلى العالم كأن هناك غشاوة بينه وبين الحياة، لا يرى بوضوح، فكل ما يراه تنعكس عليه صورة الزوجة أو الأبناء، صورة الأوضاع أو الظروف، العلم يحتاج لصفاء ذهن، يحتاج لتجرد عن المشاعر، وقد قررت ومن هذا اليوم أن أعيش بتجرد عن كل المشاعر السابقة، وأن أستعيد عالمي الوحيد الذي أحببته بكل حواسي، إنه الطب.

وصلت للمنزل ولم تكن دومينيك هناك، لم أهتم ولن أهتم بعد اليوم، سوف آخذ قسطًا من الراحة وأقابل سيلفيا لينتهي آخر فصل من التوتر، ثم أبدأ الحياة التي أتيت لأجلها إلى باريس بلا مشاعر ولا قلق، أرى الآن بوضوح، فالغشاوة التي كانت أمامي اختفت وأرى بوضوح ما الذي يجب أن أفعله؛ فالرحلة إلى لندن جعلتني أعيد التفكير بكل شيء وبكل التفاصيل وأن أبدأ من جديد.

كامالي

عاد تافارا من لندن، لم يحضر لي أي هدية، ولم يتحدث معي كل ما قاله هو أن العملية تمت بنجاح، وأنه ربما سيسافر لدول أخرى لإجراء عمليات مشابهة، وأن وضعنا المادي أصبح ممتازًا خصوصًا بعد الشهرة التي يتمتع بها، والعيادة الخاصة التي يمارس فيها عمله بالإضافة لدوامه في المستشفى. ولكنه تغير كثيرًا، لم يعد يغادر البيت في عطلة نهاية الأسبوع ولم يعد ينام خارج البيت ليلة السبت، إن لم يكن لديه عمل طارئ في المستشفى في عطلة نهاية الأسبوع، فيقضي الوقت في البيت بقراءة الكتب حول الطب أو كتابة الأبحاث، بدأ يجلس بغرفة

منعزلة من البيت كان بها سرير للضيوف، قام بإخراج السرير من الغرفة ووضع مكانه مكتبًا كبيرًا ومكتبة كبيرة، وضع عليها كتب الطب التي كان يقرأ فيها؛ كان يقضي معظم وقته في القراءة أو مشاهدة البرامج الطبية؛ حتى أنه لم يعد يتجادل معي، ويوافق على كل ما أطلبه منه، مراقبته من بعيد وهو منهمك في القراءة ذكرتني به حين كنا في بيتنا الصغير، حين كان يعيش معي وينكب على القراءة، وكأن تافارا السابق الشاب النهم للمعرفة عاد الآن من جديد، شعرت بشيء من السعادة لأجله، لقد كان غاية في القلق والتعاسة طوال الفترة الماضية، والتعب بادٍ على وجهه حتى أنه كان يعتذر أحيانًا عن الذهاب للمستشفى؛ والآن يبدو بكامل تركيزه وحيويته، شيء ما تغير به بعد عودته من لندن، لم يكن السبب امرأة ولكنه شيء أعمق وأكبر من مجرد امرأة، يمكنني القول بأنه استرجع نفسه القديمة، وأنه منسجم مع نفسه أكثر من السابق، ورغم الجفاء الذي بيننا إلا أنني أحببت هذا التغيير والذي منحني مجالًا كبيرًا للحرية وللتفكير بصفاء دون أي ضغط نفسي أو فكري.

بعد شهر انتهت دورات اللغة وذهبت لأحتفل بنهاية دراستي للغة مع نيفين، تجولنا في باريس كعادتنا وشربنا القهوة مع الكريب الساخن والشوكولا، ومشينا بين الشوارع نتفرج على محلات الملابس باهظة الثمن، وكذلك محلات الملابس رخيصة الثمن، وخلال جولتنا في إحدى المحلات، نظرت إلينا سيدة فرنسية كبيرة في السن وقالت بعدائية:

- ماذا تفعلون في بلدنا؟! عودوا لبلادكم.

نظرت إليها وقلت لها على الفور:

- وأنتم أيضًا كنتم في أفريقيا ولكن مستعمرين ومحتلين، هل نسيت ذلك؟!

نظرت لي بذهول وخرجت من المحل بسرعة دون أن ترد، نظرت لي نيفين باستغراب وقالت:

- رائع، من أين أتيت بهذه الإجابة؟ لم أعرف بماذا أرد عليها...

- أقرأ كتبًا عن أفريقيا وفيها معلومات كثيرة استفدت منها كثيرًا، أشياء لم أكن أعرفها من قبل، لو لم أقرأ هذه الكتب لما عرفت بماذا أجيبها وربما عدت للبيت وأنا أبكي.

ضحكت نيفين وقالت:

- لقد أصبحت قوية، هذا يعجبني.

أمسكت بيدها ضاحكة وقلت وهذا يعجبني أيضًا، هيا لنذهب لتناول الطعام في مطعم أسعاره غالية، أنت ضيفتي.

دخلنا لمطعم فخم كراسيه من الجلد الأحمر، والموائد من الخشب داكن اللون ولامع، والأضواء الذهبية معلقة على السقف، وصورة كبير لبرج إيفل تتوسط المكان، وحين دخلنا نظر الجميع إلينا كأنهم يريدون أن يسألوا ماذا نفعل بهذا المطعم الفخم؛ ضحكنا من جديد وجلسنا على المائدة القريبة من النافذة، حضر النادل ووقف أمامنا وسألنا دون أن يبتسم:

- نحن لا نقدم القهوة هنا.

نظرت إليه وابتسمت:

- نعلم هذا، أين قائمة الطعام؟

- عفوًا، هل تعرفون الأسعار بهذا المطعم؟

نهضت من مكاني وقلت له بصوت منخفض:

- استمع لي جيدًا، أنا سوداء قادمة من أفريقيا وصديقتي تركية، ولكني لست فقيرة، وزوجي جراح مشهور في باريس، هل تريد أن أتصل به لتتأكد بأننا سندفع الفاتورة.

ارتبك وتغير لون وجهه، ثم قال بلطف شديد:

- لا مدام، لا داعي للاتصال، سوف أحضر قائمة الطعام على الفور.

ضحكت نيفين وقالت:

- أنت أصبحت خبيرة بباريس، هذا رائع.

طلبنا الطعام حسب التقاليد الفرنسية، أحضر في البداية السلطة مع الخبز الساخن والزبدة، وبعد بضع دقائق أحضر الطبق الرئيسي، الذي كان عبارة عن كبد الإوز مع شرائح البطاطا المقلية، والتفاح المسلوق والخضار مع الكريمة والبندورة المشوية، وحين انتهينا من الطبق الرئيسي، أحضر صينية صغيرة عليها جميع أنواع الجبن الفرنسي، وكان يجب أن نأخذ من كل صنف قطعة حسب الرغبة، وعندما انتهينا من الأكل، طلبنا القهوة مع الجاتو بالشوكولا الداكنة.

جلسنا حتى حلول الليل بذلك المطعم الجميل نستمع للأغاني الفرنسية القديمة، وننظر

للشارع عبر النافذة حيث يمر العشرات من الناس دون توقف، كانت ليلة جميلة من ليالي نهاية الصيف، وقبل أن ننهض للذهاب قالت لي نيفين:

- يوجد خبر لابد أن أقوله لك.

نظرت إليها بانتباه وقلت:

- ماذا؟

- لقد انتهت مدة دراستي أنا أيضًا لابد أن أعود لاسطنبول، سوف أستلم وظيفة جديدة سوف أقوم بتدريس اللغة الفرنسية للأطفال. بعد بضعة أشهر سوف أغادر باريس.

نظرت إليها بضيقٍ شديد وقلت:

- لماذا لم تخبريني من قبل؟

- لم أكن أعرف، طلبت تمديد إقامتي هنا وأن أسجل دورة تدريس ولكن لم يقبلوا وأخبروني أنني لابد أن أعود وأستلم وظيفتي الجديدة، وصلتني الرسالة بالأمس فقط.

امتلأت عيناي بالدموع، ونظرت عبر النافذة محاولة منع نفسي من البكاء، قالت نيفين:

- ما رأيك أن نخرج الآن ونتمشى قليلًا.

- أجل.

أشرت للنادل الذي حضر سريعًا، سددت ثمن الفاتورة وأعطيته بقشيشًا كبيرًا، فشكرني بحرارة واعتذر عن سوء الفهم السابق، ابتسمت وقلت له أن يتذكرني في المرة القادمة.

خرجنا معًا لنمشي في شوارع باريس القديمة، شعرت بالبرد، وقلت لنيفين:

- أشعر بالبرد أو ربما الحزن جعلني أشعر بالبرد، ونحن أيضًا بنهاية الصيف وهذا يزيد من حزني، هيا بنا لنذهب لمكان ما بجانب نهر السين، يوجد مقهى صغير هناك، نشرب الشاي ثم نعود للبيت.

جلسنا في ذلك المقهى على شاطئ النهر وقلت لنيفين:

- الآن فقط أشعر بالحزن الحقيقي، قلت لك سابقًا أنني سأخبرك بكل شيء حين أكون حزينة،

والآن أنا حزينة كثيرًا، لذلك يمكنني أن أقول لك كل شيء، خصوصًا قبل سفرك.

اقتربت من المائدة بجلستها لشدة اهتمامها بما سأقوله لها، وبدأت أحكي لها القصة منذ البداية منذ أن كنت كامالي البنت الصغيرة السعيدة ثم الفتاة الجميلة، ثم الزوجة والأم، ثم المرأة المُهملة والمُفجعة بموت ابنيها، كنت أتكلم ويختلط صوتي مع صوت المياه التي تُحدث أمواجًا صغيرة بسبب النسمات الباردة التي تهب من حين لآخر، وأرى لمعان القمر على صفحة السماء ولكنني لا أرى النجوم، تلك النجوم التي كنت أحب تافارا بمقدار عددها اختفت الآن من سماء باريس كما تلاشى ذلك الحب. استمر حديثي معها إلى أن كانت آخر جملة:

- والآن، ترحلين يا نيفين، وترحل معك السعادة الوحيدة التي كنت أشعر بها في باريس، لقد كنت أختي وصديقتي، ماذا سأفعل دونك؟

لم أمنع دموعي، بكيت كثيرًا وبكت نيفين معي وقالت بصوت متأثر وحزين:

- لن أناديك دومينيك بعد الآن، أنت كامالي، أحب هذا الاسم صديقتي كامالي، قصتك حزينة كثيرًا، وسوف أحزن كلما تذكرتها، كيف احتملت كل هذا الألم ولا تزالين تعيشين معاناة كبيرة مع زوجك؟ لا أدري كيف سأتركك ولكنني مضطرة وإلا لبقيت معك هنا.

- أعلم ذلك، ولكن هذه هي الحياة، لقد اعتدت على أن تأخذ مني أشياء أحبها...

لم يكن أحد في المقهى بذلك الوقت، لم نخجل من البكاء رغم مراقبة صاحب المقهى لنا من بعيد، وبعد أن تأخر الوقت كان يجب أن نغادر، مشينا معًا بصمت، مسحت دموعي وقلت لها:

- رغم أنك ستغادرين، إلا أنني سعيدة جدًا أنني تعرفت عليك.

- أجل، وأنا أيضًا.

ضممتها بين ذراعي ثم تابعنا سيرنا، قالت لي قبل أن تذهب بطريق بيتها:

- سوف أكتب لك عنواني في إسطنبول وأنتظر زيارتك لي، والآن تصبحين على خير.

عدت للبيت بساعة متأخرة، وكان تافارا يجلس في مكتبه يقرأ ويسجل ملاحظات، نظر إلي حين دخلت وقال:

- دومينيك، يمكنك الخروج متى شئت ولكن التأخر بالعودة خطر في باريس، هناك من

يهاجم النساء ويوجد عدد كبير من حالات الاغتصاب.

- أجل، أعلم ذلك.

- تعلمين ذلك وتتأخرين بهذه الصورة، ألم تخافي في طريق العودة؟

- لم أحضر سيرًا على الأقدام ولا في المترو أخذت تاكسي، لأنني تعرضت...

صمت قبل أن أتابع كلامي، وغيرت الموضوع ولكنه نهض من مكانه وقال لي:

- توقفي، كرري ما قلت من قبل، تعرضت لماذا؟

شعرت بالارتباك والخوف، وحين رأيت إصراره قلت له:

- عندما كنت في لندن، حاول شخص ما اغتصابي، ولكني دافعت عن نفسي وحضرت الشرطة...

قال بغضب:

- وهل عرفوا من أنت ومن يكون زوجك؟

نظرت إليه باستنكار وقلت:

- هل كل ما يهمك هو ألا يعرفوا اسمك، ألا يهمك ما حصل لي؟

- بالطبع يُهمني، ولكن أنت قلت إنك دافعت عن نفسك، ولم تتم عملية الاغتصاب.

- اطمئن لم يعرفوا من أنا ولا من زوجي، تصبح على خير.

دخلت لغرفتي والغضب يخنقني، لا يهمه ما يحصل لي المهم مركزه واسمه، شعرت بالكره الشديد تجاهه، دخلت إلى سريري في المكان الوحيد الذي أشعر فيه بالدفء، وبكيت كثيرًا لأنني بعد أسبوع لن أرى نيفين، وتمنيت لو أنني أستطيع الذهاب معها لبلدها وأن أعيش دائمًا بجانبها، فلم يكن لدي أخت وهي أختي وصديقتي الوحيدة، بكيت كثيرًا وفي الصباح كانت عيناي محمرتين لشدة البكاء، ولم أهتم لأن دوام معهد اللغة انتهى، وحين رآني تافارا في الصباح بعيوني الحمراء قال لي:

- ما هذا؟ هل كنت تبكين طوال الليل؟ لحسن الحظ أنه لا دوام في المعهد وإلا كانوا

سيتصلون بي.

قلت له دون أن أنظر إليه:

- هذا كل ما يهمك، ماذا سيقولون؟ كيف سينظرون لك؟ هل زوجتك سوف تُسيء لسمعتك؟ لا يهمك ما أشعر به، لا يهمك...

صمت فجأة وتذكرت أنني لا أعني له شيئًا، وتذكرت كرامتي، تداركت نفسي وقلت له:

- لا عليك، الأمر غير مهم، لم أبكِ بالأمس، يوجد حساسية في عيوني، سوف اذهب للصيدلية الآن.

- حسنًا، يجب أن تبدأي بأخذ دروس قيادة السيارة، هذا أفضل من المترو.

- لا أريد أن أتعلم قيادة السيارة، الشوارع صعبة هنا ومزدحمة، أحب أن أركب المترو، المهم أن أذهب بأوقات حيث يوجد ناس بأعداد كبيرة، لا أركب به في الليل نهائيًا.

- لا أفهم لماذا لا تريدين تعلم قيادة السيارة؟ هذا مهم.

- أخبرتك لماذا والآن يجب أن أذهب للصيدلية.

لم أذهب للصيدلية، تمشيت في الشارع إلى أن أتى موعد مغادرته للمنزل، ثم عدت وأعددت لنفسي فنجانًا من الشاي، جلست على الشرفة تحت أشعة الشمس أتصفح آخر كتاب من الكتب التي أخذتها من مدام كوليت، وبعد الانتهاء منه لابد أن أذهب لزيارتها لأحضر المزيد من الكتب، وكانت تلك الكتب وسيلتي المُثلى لأنسى تافارا وأنسى حياتي معه.

تافارا

جلست سيلفيا أمامي، وقالت متسائلة:

- فرانسوا، أين الولدان؟

- لقد غادرا باريس.

- ماذا؟ متى وإلى أين؟ ولماذا لم تخبرني؟

لم أرغب بإخبارها أين يوجد الأولاد لأنني لم أعد أريد أن تعرف عنهم أي شيء، فقلت لها:

- سوف أخبرك لاحقًا، لأنهم سيعودون قريبًا إلى باريس، هي مرحلة قصيرة وسوف يعودون إلى هنا. لقد ذهبوا برحلة ثقافية مع مدرسة أوروبية في رحلة تُسمى تبادلًا ثقافيًا بين طلاب بعض الدول.

- لماذا لا تريد إخباري بأي بلد هم الآن؟

- طلبا مني ألا أخبرك، لأنهما يريدان مفاجأتك حين يعودان ويخبرانك هما أين كانا، وكل القصص التي حصلت معهما.

كنت أعلم أنهما لن يعودا لباريس ولكني لم أرغب بأن تعلم أي شيء عنهما، لأننا على وشك الانفصال وأريد أن تنقطع علاقتي بها، ولكن لابد أن تطلب هي الانفصال، لا أريد أن يكون هناك أي مشاكل بيني وبينها، فربما بلحظة غضب تذهب وتخبر زوجتي بكل شيء، لذلك كان يجب أن أنسحب بكل هدوء.

قالت بعد فترة صمت قصيرة:

- كنت أريد أن أحدثك بموضوعٍ ما، ترددت بسبب الولدين، أما الآن فأعتقد أن الوقت مناسب.

كنت أعرف ماذا تريد أن تقول ولكنني تصنعت عدم المعرفة وقلت لها بعيون مليئة بالفضول:

- أجل، سيلفيا ماذا هناك؟

قالت وهي مُحرجة:

- أنت تعلم أنني بلغت من العمر ثلاثين عامًا، ونحن معًا منذ سنوات، في البداية لم أكن أفكر بالزواج ولم أرِد حتى إنجاب الأطفال، ولكن حين رأيت رولاند وميشيل واستمتعت معهما كثيرًا واهتمامهما بي واهتمامي بهم، شيء ما تغير بداخلي وبدأت الرغبة بالزواج وإنجاب الأطفال تراودني، وأعلم أنك لن تنفصل عن زوجتك ولن نتزوج أو ننجب أولادًا.

تململت في مكاني مصطنعًا أنني أشعر بالضيق بينما أشعر بالارتياح الكامل، فتابعت قائلة:

- لقد قابلت رجلًا يكبرني بأربع سنوات، يعمل في مجال التعليم، عرض علي الزواج، لم أجِب على طلبه، كان لابد من الحديث معك...

كانت تنتظر أن أقول لها أنني سأنفصل عن زوجتي ونتزوج ولكنني قلت لها بنبرة حزينة:

- لسوء الحظ، لا أستطيع الانفصال عن زوجتي، فكما أخبرتك من قبل هي ما تبقى لي من وطني، ولا أستطيع تركها وحدها في باريس وهي لا تستطيع العودة لأفريقيا، ومنذ أن بدأنا هذه العلاقة أخبرتك أنني لا أستطيع الانفصال عنها وحتى لو تم هذا الانفصال، لن أتزوج مرة أخرى، لقد قررت أن يكون كل وقتي لعملي وأبحاثي ومحاضراتي. وأرى أنه من الحكمة أن تفكري في الزواج وإنجاب الأولاد فهم فعلًا سعادة كبيرة في الحياة، وسوف نبقى أصدقاء دائمًا.

شعرت أنها كانت سعيدة لذلك الجواب، وكان من الواضح أنها تحب ذلك الرجل، وكان هذا مصدر ارتياح لي، فلو كانت لا تزال تحبني لبقيت بانتظار ذلك الزواج أو لغضبتْ إن لم آخذ قرار الزواج بها، وكنت أنتظر لحظة الحرية هذه بفارغ الصبر؛ لتنتهي آخر الروابط التي تقيدني في مشاعري والتي يمكن أن تكبح اهتمامي الكبير بعملي.

ذهبت لتحضير القهوة ثم عادت لتجلس أمامي وقالت:

- حسنًا، اعتقد أنك تفهمت وضعي، هل ستحضر لحفل زفافي؟

قلت بتردد:

- لا أعتقد، سوف يكون ذلك صعبًا بالنسبة لي، ولكن أرسلي لي الصور، أحب أن أراك سعيدة.

- حسنًا، أفهم ذلك وسوف أرسل لك الصور.

- ولكني سوف أرسل لك هدية زواجك.

ضحكت وقالت:

- ما رأيك أن نتمشى معًا، فهذه آخر مرة سنكون بها معًا، الرجل الذي سأتزوجه يسكن في ليون وسوف أذهب للسكن معه، لقد رتبت موضوع انتقالي لمستشفى هناك.

شعرت بالمزيد من الارتياح بأنها لن تكون في باريس وقلت لها:

- هذا خبر مؤسف، ألا أتمكن من رؤيتك، لكن أنا سعيد لأجلك هيا بنا.

مشينا لوقت طويل بين الشوارع الواسعة، كانت ليلة باردة ولكني كنت أشعر بالدفء لأني لن أراها من جديد، وأن صفحة أخرى طويت من حياتي، ولم يكن لدي أي رغبة بأي علاقة مع

أي امرأة، سرت معها طويلًا، تحدثنا طويلًا وتذكرنا أشياء كثيرة كانت تجمعنا، كانت تتكلم عن ذكريات كثيرة وتفاصيل كنت قد نسيتها، ولكنني لم أقاطعها لأنني لم أرغب بالحديث، فتركت لها حرية الحديث كما تشاء، وتعجبت من قدرتي على النسيان، وعلى تجاوز تلك المشاعر التي يغرق بها بعض الناس، وأن تتحول حياتهم إلى كوكب مهجور يدور حول تلك المشاعر التي لن تؤدي إلا إلى المزيد من التشتت، لقد كنت أمتلك تلك القدرة التي تجعلني أتوقف عن الشعور، ربما السبب هو دراستي للطب، لأني كطبيب أرى كل يوم الانفصال بين الناس، أرى المرض، أرى الموت، أرى تمزق العلاقات، فكنت أكثر من يعلم أن المشاعر هشّة لدرجة الهباء المنثور في الهواء، لذلك روضت نفسي على تجاوز الشعور مثلما روضتها على تجاهل الشعور في غرفة العمليات الجراحية، لابد للطبيب من أن يسيطر على مشاعره يطردها أحيانًا، يقمعها أحيانًا أخرى ويوقظها بأوقاتٍ أخرى، لابد أن يتحكم بهذا الجهاز المندفع وأن يكون آخر جهاز يعمل في دماغه، والطب كان معلمي الكبير في هذا المجال، لذلك وحين وقفت أودع سيلفيا، كانت قد غادرت مساحة شعوري بكل سهولة، وبدأت أشعر أنها لا تمت لي بصلة؛ قبل أن أكتشف خيانتها كنت أفكر فعلًا بالزواج بها لأنني أحببتها كثيرًا، وشيء ما بداخلي جعلني أشعر بأنها كانت تفضل أن تتزوج برجل أبيض، رأيت ذلك في لمعان عيونها حين تحدثت عنه، لن تعترف بأنه نوع من العنصرية المبطنة ولكني كنت أشعر بذلك؛ كنت أخطط أنه بعد أن أجد عملًا ما لدومينيك، وتعتمد على نفسها وتجد طريقها في الحياة في باريس أن أطلب سيلفيا للزواج، ولكن بعد خيانتها انتهت تلك الفكرة وقررت ألا أتزوج أبدًا وأن أبقى مع دومينيك إلا إذا قررت هي الانفصال عني، ولكني لن أتزوج مرة أخرى. فجأة انطفأت تلك الشمعة المضيئة منذ أن رأيتها تصعد مع عشيقها في السيارة، لم أكن أقبل على نفسي أن أبكي لأجل خيانتها ولا أن ألومها، كنت أريدها أن تخرج من حياتي دون رجعة، لقد أصبحت ذكرى حتى وهي واقفة أمامي تريدني أن أضمها لصدري لأودعها، أجل، ضممتها لصدري وكأنني أضم قطعة من الجليد، شعرت ببرودتها ورغبت بأن تذهب وألا أراها من جديد، لم أخنق شعوري تجاهها ولكن يبدو أنه مات من تلقاء نفسه، مثل أي مريض أقوم بعملية جراحية ناجحة لإنقاذ حياته، ثم يموت فجأة دون أي سبب، ومات ذلك الشعور دون أي ضغينة ولا عتاب ولا رغبة بالعودة للوراء، وحين غادرت، اعتقدت أنني واقف أنظر إليها لشدة تأثري، ولكنها لم تكن تعلم أنني وقفت أنظر لجزء آخر من حياتي يرحل بلا أسف ولا ندم، بل بسعادة عميقة وباردة بأنني تخلصت من ذلك الجزء

الذي كنت أعتقد أنه ينتمي لي، ولكنه في الحقيقة غريب عني، شاهدتها تبتعد شيئًا فشيئًا، وحل الهدوء لنفسي شيئًا فشيئًا، مشيت وحدي بعض الوقت، وأدركت أن ما يربطني بدومينيك أو كامالي شيء أقوى من الحب وأقوى من الشعور، إنه الانتماء، لقد كانت كامالي بيتي الذي أهرب إليه حين أخاف، مسكني الذي أجد الدفء به حين يشتد البرد، لقد كانت كل ما تبقى لي من ذاتي ووطني، لم يكن ذلك حبًا بل انتماء، كأنني شجرة لا تجد جذورها إلا بجانبها، عدت سريعًا للبيت لأشعر بالدفء بوجودها حتى ولو لم أخبرها بذلك، يكفي أن أراها فأستعيد توازني في الحياة، لم يكن حبًا لذلك لا أستطع أن أعبر عنه، ولكنني كنت أعلم بأن لديها هذا الانتماء تجاهي، وأنني مصدر الأمان الوحيد في حياتها كما هي بالنسبة لي.

توالت العمليات الجراحية الناجحة، وتابعت بحماسٍ كبير جميع الأبحاث والمؤتمرات الطبية، التي كنت أعتذر عنها بسبب انشغالي بالأولاد أو الاهتمام بأمور دومينيك، وحافظت على ذهابي إلى لندن مرة في الشهر حيث أبقى هناك لعدة أيام ثم أعود لباريس، المدرسة التي كان فيها الولدان مدرسة ممتازة، لم يتصلوا بي بأي وقت يخبروني بوجود أي مشكلة، لديهم كادر كامل لحل مشاكل الأولاد، حيث إن أغلب التلاميذ في تلك المدرسة آباؤهم مشغولون بالسفر أو العمل خارج بريطانيا، لذلك كان لدى المدرسة خبرة طويلة وممتازة بالتعامل مع مشاكل الأولاد، الذين يعيشون بعيدًا عن آبائهم. كنت ألاحظ الحزن والوحدة بعيون رولاند وميشيل ولكنني كنت أتجاهل مشاعرهما لأنه يوجد ما هو أهم من المشاعر، ثم أنني وصلت لمرحلة أن لا أفكر بعد الآن بمشاعر من حولي، كان كل تركيزي أن أستعيد مكانتي الطبية، وأصبح من الأطباء المشهورين عالميًا، لم يكن طموحي يقتصر على باريس ولكن يمتد لأبعد من ذلك. وتعلمت من تجربتي السابقة حين كان الأولاد في باريس، ألا أجعل المشاعر تسيطر على قدراتي العقلية، فالمشاعر السلبية مثل القلق أو التفكير الدائم بمشاعر الآخرين، هي من أقوى العوامل التي تُضعف التطور الشخصي، وهو ما أدركته ولم أكن مستعدًا للرجوع إلى الوراء، حتى لو كان الثمن الحزن في عيون ولديّ، وكنت أفكر دائمًا بأنهما سوف يتجاوزان هذا الحزن حين يتفوقا في الدراسة، ويكون لديهما طموح علمي مثلما كان لدي ذلك الطموح، المشكلة هي أنني لم ألاحظ الاهتمام بالعلم لديهما، لقد كانا بمستوى جيد في الدراسة ولكنهما لم يكونا شغوفين بالقراءة، ولم أعرف بعد أي مواد ينجذبا إليها أكثر من غيرها، وحين سألتهما أجابا إجابة واحدة وهي أنهما لا يعرفان بعد.

لم أفكر كثيرًا في الأمر، وكان ذهابي إلى لندن بمثابة استراحة منعشة بعد شهر متواصل من العمل الدؤوب، توالت نجاحاتي وأصبحت العمليات التي أقوم بها لها شهرة كبيرة، وتوالى سفري لدول عدة لإجراء العمليات الصعبة، وبدأت أرى اسمي في الصحف اليومية التي تتحدث عن أخبار الطب، وعن الإنجازات المميزة لبعض الأطباء، حتى أن بعض الجامعات اتصلت بي لأقوم بإلقاء محاضرات لطلبة الطب وهو ما رحبت به كثيرًا، وهكذا أصبح برنامجي اليومي مكتظًا بالمواعيد والمراجعات ثم المحاضرات.

كامالي

قرأت جميع الكتب التي أخذتها من مدام كوليت، وكان يجب إرجاعها وإحضار كتب أخرى، اتصلت بها وأخبرتها بأني سأحضر بعد ساعتين، كالعادة ذهبت لمحطة المترو انتظرت وصوله على الرصيف، أقترب المترو وبدأ بالظهور عبر النفق المظلم من بعيد، وكان سيصل خلال ثوانٍ قليلة، وفجأة ظهر شخص ما راكضًا باتجاه المترو، وما أن وصل حتى ألقى بنفسه أمامه، رأيت الدماء وقطع اللحم تتناثر في كل اتجاه، أصابني الذعر وبدأت بالصراخ:

- لقد ألقى بنفسه أمام المترو...

لم أتوقف عن الصراخ والبكاء، ولكن من كان يقف بجواري لم يصدر عنهم أي رد فعل، تراجعوا للخلف كأنه لم يحصل شيء ما، ومنهم من غادر ليأخذ مترو آخر يسير بخط موازٍ لذلك الخط، لم أستطع الوقوف على قدماي، جلست على الأرض لشدة الصدمة وأنا لا أزال أبكي، وحين مر المترو ورأيت الجثة الممزقة على القضبان الحديدية عدت للصراخ وشعرت أنني أكاد أفقد الوعي، اقترب مني شاب، ناولني زجاجة ماء وقال لي:

- مدام، اهدئي وأشربي قليلًا من الماء.

قلت له وأنا شبه منهارة:

- لماذا يقفون هكذا؟ لماذا لم يصرخ أحد غيري أمام هذا المشهد الفظيع؟

- لأنهم اعتادوا على ذلك.

نظرت إليه باستغراب وقلت:

- ماذا تقصد؟

- أشخاص عديدون ممن لا مأوى لهم ويعيشون في الشوارع، يلقون بأنفسهم أمام المترو من وقت لآخر، أصبح هذا منظرًا اعتياديًّا بالنسبة للناس، سوف تحضر الشرطة والإسعاف ثم ينسى الناس ما حصل، وغدًا أو بعد غد وربما بعد أسبوع سوف ينتحر شخص جديد رجل أو امرأة، سوف تعتادين على ذلك، يبدو أنك جديدة في باريس.

نهضت من مكاني بصعوبة وقلت له دون أن أتوقف عن البكاء:

- لن أعتاد على هذا المنظر أبدًا، ولن أحضر إلى هنا مرة أخرى. أشكرك.

مشيت ببطء باتجاه البيت، وشعرت بأنني مريضة وكأن حمى قد أصابتني، كان تافارا في البيت وحين رآني قال على الفور:

- ماذا هناك؟ ماذا أصابك؟ تبدين بحالة فظيعة.

- أشعر أنني مريضة.

مكثت في الفراش لأسبوع لا أستطيع النهوض من سريري، ولا أستطيع أن أتكلم، اتصل تافارا بمدام كوليت وأخبرها بأنني مريضة، لم أكن أفعل شيئًا سوى النظر عبر النافذة، وتذكر ذلك الإنسان الذي ألقى بنفسه بتلك الصورة الفظيعة تحت المترو، ثم صرخاته التي ملأت النفق، ثم الصمت المطبق عدا عن صوت المترو وهو يحاول التوقف بأسرع ما يمكن، ولكن دون فائدة فالجثة أصبحت قطعًا صغيرة متناثرة بكل مكان. في أفريقيا كان هناك جوعى، وهناك أيتام وهناك فقر شديد ولكن لم يفكر أحد منا بالانتحار، كنا نتقبل الفقر والجوع والمرض كجزء من الحياة، بل ونتابع الضحك ونتزوج وننجب الأولاد ويعلم الناس أن أولادهم سيكونون فقراء مثلهم، ولكنهم رغم ذلك يحبون منح الحياة لأولادهم لأنهم كانوا يعتبرون أن الحياة جميلة، حتى ولو كانت تحت شجرة في وادٍ ما في أسفل الجبل أو على قمة الجبل، أدركت بعد تلك الحادثة أننا نحن البسطاء نقدر الحياة أكثر من الدول الثرية، وأن الإنسان قيمته ليس فيما يملك بل لكونه إنسانًا، لذلك نتقبل الفقر والمعاناة ونستيقظ كل صباح ليومٍ جديد مع ابتسامة وقطعة خبز جافة أو طرية، ولكننا تآلفنا مع الحياة ومع أنفسنا، أما أولئك الذي يلقون بأنفسهم تحت المترو أو من فوق عمارة ما، فقد فقدوا هذا التآلف مع الحياة، رفضوها فرفضتهم، وفي مجتمعٍ أوروبي متحضر تبدو القسوة حادة صارخة رغم صمتها، فكل شخص هنا يمشي مع نفسه، لا ينظر حوله، كل شخص مشغول بذاته، يمشون في الشوارع معًا ولكنهم وحيدون في أعماقهم، هناك مسافات شاسعة ما بينهم، هناك خوف من الغريب ومن صاحب البشرة السوداء والسمراء، هناك خوف من الآخر لأنه قد يحمل مفاجآت سيئة، هناك حذر من الحياة ذاتها، كل شيء مخطط له، كل شيء محسوب حسابه وكل شيء فقد عفويته حتى الحياة ذاتها أصبحت بلا عفوية، فحتى الضحك أصبح ظاهرة غريبة، تذكرت حين ضحكت فتاة في المترو مع صديقتها، فنظر الجميع

لها كأنها ارتكبت جرمًا ما، فخجلت وتوقفت عن الضحك.

اعتنى تافارا بي طوال فترة مرضي، أجل مواعيد كثيرة لأجلي، وشعرت أنه خائف من فقدي، فمنذ عودته من لندن أشعر بهذا التمسك بحضوري، وأعلم أنه ليس بدافع الحب ولكنه يجد الأمان معي كما أجده معه؛ وحين تحسنت جلس بجانب السرير وسألني لماذا حصل هذا معي، أخبرته بما حصل وكنت أبكي كلما تذكرت ذلك المنظر المؤلم، قال لي بحكمته المعتادة:

- يجب أن تعتادي على هذه الأشياء المؤلمة، هذه مدينة ضخمة وفيها مئات بل آلاف من المشردين والذين لا يجدون بيتًا ينامون به، فينامون في الشوارع أو محطات المترو والقطارات، يشعرون باليأس، الفقر في الغرب مأساة، لأن الفقير يفقد عمله ثم سكنه ثم ملابسه ثم طعامه، ويتحول إلى مخلوق لا يريده أحد، لأجل أن تعيشي هنا لابد من وجود المال وإلا ستتحول الحياة إلى مأساة، فلا أحد سيمد يد المساعدة، يمرون في الشوارع ولا ينظرون حتى لأولئك الذين يفترشون الأرض، ومنهم من يموت منتحرًا ومنهم من يموت من البرد أو من الجوع أو من المرض.

- ولكن هذه دولة غنية، ونحن في أفريقيا فقراء ولكننا لا ننتحر، بل نعيش بسعادة مهما كان الطعام قليلًا، ونبني بيوتًا من القش والخشب أو الطين، لم يكن هناك أي شخص ينام على الأرض في قريتنا، أتذكرُ ذلك؟!

- أجل، بالطبع، هذه دولة غنية للأغنياء، وللذين يعملون من الصباح إلى المساء، حين تفقدين عملك هنا الدولة تنسحب من حياتك وتصبحين عبئًا لا يريده أحد، عمومًا هذا موضوع صعب وأرجو أن تنسي الذي رأيته فهذا أفضل لك، ونحن لا نستطيع أن نحل مشاكل كل الناس، هذا عمل الدولة، اعتقد أنك تشعرين بتحسن الآن، ويمكنك بعد عدة أيام زيارة مدام كوليت.

ثم ما هذه الكتب التي كنت تحملينها؟

ترددت بإخباره ولكن كان لابد أن يعلم فقلت له:

- هذه الكتب من مدام كوليت، إنها كتب عن أفريقيا، فهي تريد أن تفتح أتيليه فيه كل ما يتعلق بأفريقيا من تراث وتحف وحلي ولوحات، وتريدني أن أعمل معها حيث إنني أفريقية، ولكنها طلبت مني قبل ذلك أن أقرأ أكبر قدر من الكتب حول الدول الأفريقية؛ لأن الزبائن الذين سيأتون سوف يسألون أسئلة عن كل شيء يتعلق بأفريقيا.

ابتسم مشجعًا للفكرة وقال:

- هذا ممتاز، فكرة رائعة، يمكنني أن أصحبك لمكتبة كبيرة فيها موسوعات ضخمة عن أفريقيا، حين تنتهين من قراءة الكتب التي لدى مدام كوليت.

- بالطبع، سيكون هذا جيدًا جدًا.

نهض ليغادر إلى عمله فقلت له قبل أن يترك الغرفة:

- فرانسوا، أريد أن أبدأ بتعلم قيادة السيارة، لن أستطيع أن أذهب لمحطة المترو مرة أخرى، ما حصل معي من قبل كان فظيعًا، ثم ما رأيته بعد ذلك، أصبحت أخاف من ذلك المكان، وإذا ذهبت هناك سوف أتذكر ما حصل، لن أنسى ما رأيت أبدًا.

- هذا قرار ممتاز، سوف أرتب موضوع دروس القيادة وتبدأين الأسبوع القادم.

خرج من البيت، وأعددت لنفسي فنجانًا من القهوة، استعدت عافيتي وقررت أن أنسى كل ما رأيته وأن أذهب لزيارة مدام كوليت بسيارة أجرة؛ وحين وصلت لبيتها، قالت لي مستغربة:

- يبدو أنك كنت مريضة جدًا.

- أجل، لقد كانت الحمى ولكني الآن أفضل. لقد أحضرت الكتب، وسوف آخذ كتبًا جديدة لأقرأها.

لم أخبرها بما حصل، لأنني لم أرغب بتذكر ذلك المشهد وأجبرت نفسي على النسيان أو التناسي، شربنا الشاي معًا وتحدثنا حول الكتب التي قرأتها، وأخبرتها بأن فرانسوا سوف يصطحبني لمكتبة ضخمة فيها كتب كثيرة عن أفريقيا، قالت بحماس:

- هذا جيد، أنا سعيدة لأنك ترغبين بهذا فعلًا، ويبدو أنك مهتمة بموضوع أفريقيا.

- أجل، كثيرًا، خصوصًا أنني لم أكن أعرف عنها أي شيء، سوى معرفتي بقريتي والمدينة القريبة منها، أما عدا ذلك فلم أكن أعرف شيئًا، والآن أكتشف عالمًا ضخمًا وواسعًا اسمه أفريقيا، لقد انبهرت بالصور الموجودة في الكتب، وعدد اللغات وعدد القبائل والأعراق والثقافات، ثم موقع كل دولة، وأن اسمها القارة السوداء، وأنا اسمي نفسي امرأة سوداء في باريس، بل توجد لوحة عندي رسمها لي أحد الرسامين بهذا الاسم.

ضحكت وقالت:

- الحديث معك مشوّق، لقد أصبح عند معلومات لا بأس بها. هيا بنا لنرى بقية الكتب.

عدت للبيت ومعي الكتب الجديدة، واتصل بي فرانسوا وأخبرني بأن دروس قيادة السيارة ستبدأ بعد خمسة أيام، كنت سعيدة لذلك وجاهزة أن أتحمل الخوف من القيادة، على أن أتخلص من النزول إلى محطة المترو.

خلال ثلاثة أشهر، أصبح لدي سيارة صغيرة أتجول بها في باريس، حصلت على رخصة القيادة بصعوبة ولكنني نجحت في الامتحان، وكنت أشعر بالخوف الشديد حين أقود السيارة وحدي لذلك رافقتني نيفين في البداية لعدة أسابيع، إلى أن زال ذلك الخوف أو جزء كبير منه. وأصبحت أتجول معها في باريس في كل المناطق وكل الشوارع قبل أن تغادر إلى تركيا، وكنا نذهب بجولات بعيدة إلى مناطق ريفية خارج باريس، رائعة الجمال حيث توجد المزارع الخضراء والبحيرات الصغيرة والمطاعم الريفية، التي تقدم وجبات صحية تحت الأشجار أو قرب شاطئ البحيرة. لقد قضينا وقتًا رائعًا معًا، إلى أن أتى يوم سفرها، وضعنا حقائبها في السيارة وتوجهنا نحو المطار، كنت أعتقد أنني سأتمالك نفسي ولن أبكي، ولكنني وبمجرد أن رأيتها تحمل جواز سفرها وتذكرة الطائرة وتبدأ الدخول لصالة المغادرين، حتى بدأت بالبكاء كأنني طفلة صغيرة، احتضنتني بقوة رغم أنني أكبر حجمًا منها، كأنني الطفلة وهي والدتي وقالت ودموع صغير تلتمع بعينيها:

- كامالي، عزيزتي، لا تبكي، سوف أعود لزيارتك، وأنت لديك عنواني، أنتظر زيارتك لي، إسطنبول مدينة جميلة جدًا، سوف نرى بعضنا قريبًا، لا تبكي...

لم أعد أستطيع الكلام، فغادرت دون أن أنطق بكلمة، ووقفت أراقبها وهي تبتعد شيئًا فشيئًا إلى أن اختفت عن الأنظار، لم أكن أستطيع قيادة السيارة وأنا أبكي بتلك الصورة، فجلست على مقعد بعيد عن أنظار الناس، إلى أن هدأت مشاعري وجففت دموعي، ثم توجهت إلى السيارة محاولة عدم التفكير بنيفين حتى لا أبكي من جديد، وأخيرًا وصلت للبيت دون أن يحصل أي حادث، دخلت لغرفتي وشعرت بالصمت الثقيل يخيم على حياتي بعد مغادرة نيفين، كان جزء مني قد رحل معها، قطعة أخرى مني ترحل، ولداي ثم صديقتي الوحيدة نيفين.

تافارا

اتصل بي ناجا في ساعة متأخرة من الليل، وقال لي بصوت قلق:

- فرانسوا، هناك من يبحث عنك من جديد، لقد أتى بعض الأشخاص لزيارتي، لقد رأى أحدهم صورة لك في الجريدة، أعتقد أنهم يعرفون اسمك الجديد...

نهضت بسرعة من فراشي، وقلت له بعصبية:

- ناجا، أخبرني بالتفصيل، كيف عرفوا اسمي؟

- اعتقد أنه يوجد أحد ما من السفارة قد ساعدهم بذلك، وأنت أصبحت مشهورًا وتوجد لك صور في العديد من الصحف والمجلات الطبية...

- وماذا سألوك عني؟

- أخبروني أنهم يعلمون أننا كنا أصدقاء، وإن كنت قد قابلتك في الفترة الأخيرة؟ وأين تسكن؟ حين سألتهم لماذا تسألون عنه أخبروني أنهم يحتاجون لاستشارة طبية.

- ولكن لماذا لم يسألوا عني في المستشفى؟ فإذا عرفوا اسمي سوف يعرفون بسهولة في أي مستشفى أعمل؟!

- لأنهم يعرفون أنهم إن سألوا عنك هناك سوف تأخذ حذرك، وربما تتصل بالشرطة واعتقد أنهم يريدون أن يجدوك دون ضجة.

- وماذا أخبرتهم بخصوصي؟ وهل سألوا عن زوجتي؟

- قلت لهم إنني لا أعرف عنك شيئًا، لم يسألوا عن زوجتك، كانوا يريدون أن يعرفوا عنك فقط. لقد شعرت أنهم يهتمون بموضوعك بسبب الشهرة التي تتمتع بها، وأنك ربما إن عدت يومًا ما لبلدك سوف يكون لك تأثير سياسي كبير لا يريدونه أن يحصل.

- ما الذي جعلك تفكر بهذا؟

- لأنني سألتهم لماذا تبحثون عنه، وقالوا إنه موضوع قديم وأنك حاليًا شخص مهم، ومن

الممكن أن يكون لك دور مهم في الحياة السياسية في بلدك.

- ولكني لم أفكر بهذا!

- هم لا يهتمون بما تفكر به، هم يهتمون بك الآن لأنك أصبحت مشهورًا، ويعتبرون أنك تهديد بالنسبة لهم، فكما قتل والدك وأخوك أشخاصًا منهم فقد قتلوا هم جميع أفراد عائلتك، ويعتقدون أنك ربما تريد الثأر منهم عبر نفوذ سياسي أو عبر شهرتك ومركزك.

- كم كان عددهم؟

- ثلاثة رجال. أعتقد أنك لابد أن تأخذ تدابير لحماية نفسك، لم يكن لديهم أي اهتمام بزوجتك، كانوا يسألون عنك فقط.

أغلقت الهاتف، وجلست على الشرفة في منتصف الليل، أراقب الطريق الذي كان خاليًا من المارة والسيارات، لم يكن هناك سوى الصمت وأضواء الشارع، وكان يجب أن أغير عنواني بأسرع وقت، وفجأة أدركت أنني حتى لو غيرت عنواني في باريس سوف يستمرون في البحث عني، فهم يعرفون اسمي الفرنسي الآن، ولأول مرة أندم لأجل الشهرة التي حققتها والتي أدفع ثمنها الآن. لذلك كان يجب أن أترك باريس، بل أن أترك فرنسا، وأول اسم مر ببالي هو لندن.

فقد عرضوا علي العمل هناك بأحد مستشفيات لندن حيث أجريت عدة عمليات هناك، لابد أن أذهب للندن.

لم أخبر دومينيك بمكالمة ناجا؛ لم أكن أريد أن أسبب لها الخوف، وكنت أعلم أنهم لن يبحثوا عنها، ولم أكن أريدها أن تأتي معي وكان يجب أن تعتاد على حياة مستقلة بنفسها، إلى أن أجد حلًا آخر، وفي اليوم التالي بدأت اتصالاتي مع المستشفى في لندن وأخبرتهم أنني موافق على عرض العمل، وأنني سوف أنتقل إلى لندن خلال أسبوع. أخبرت دومينيك بأنني سوف أنتقل للحياة في لندن وأنها ستبقى في باريس، وأنني سأستأجر لها بيتًا صغيرًا قريبًا من منزل مدام كوليت، وأنني سأخبر مدام كوليت بذلك، نظرت لي برعب وقالت:

- ماذا تقول؟ هل تريدني أن أبقى وحدي في باريس؟! لماذا لا آتي معك؟

- لأنني غير مستعد بعد لأن تأتي معي، لابد أن أذهب وأرتب أموري هناك وبعد ذلك إذا رأيت الوضع مناسبًا سوف تلحقين بي.

قلت لها ذلك وأنا أعلم بأنني لن أطلب منها اللحاق بي وأنها ستبقى في باريس، ولكن كان لابد من تهدئتها، وحين سمعت ذلك هدأت قليلًا ولكن بقي الخوف باديًا في نظراتها، وقالت:

- أنا أخاف من البقاء وحدي في باريس.

- دومينيك، أنت ستبدأين العمل قريبًا مع مدام كوليت، وسوف تكونين قريبة منها، وهي تسكن في منطقة هادئة وجميلة، سوف تكونين مشغولة طوال الوقت، والآن أنت تتكلمين الفرنسية بطلاقة وتقودين سيارتك الخاصة وسوف تلتحقين بعمل تحبينه، فرصة عملي في لندن مهمة جدًا لمستقبلي المهني وسوف يكون لها مردود مالي كبير، وسوف أرسل كل ما يلزمك من المال، فالوضع أصبح ممتازًا وربما نشتري بيتًا كبيرًا في باريس حين أعود، لابد أن تشجعيني على هذه الخطوة وألا تجعليني أشعر بالذنب لأنك وحدك.

صمتت وبدأت بالبكاء، وهي لم تكن تبكي أمامي إلا نادرًا، ولكنها بهذه المرة لم تمنع نفسها من البكاء كأنها طفلة ضائعة، وقالت من بين دموعها:

- أنا أعرف أنه لم يعد بيننا مشاعر الحب كالسابق، ولكني لا أريد أن أعيش وحدي، هذا صعب، لقد عشت طوال حياتي مع أسرتي ثم مع أسرتك وأولادي، لم أعرف هذه الوحدة إلا حين أتيت إلى هنا، وقد سافرت صديقتي الوحيدة نيفين، إن سافرت لن يبق لي أحد هنا، لا أعرف كيف سأعيش وحدي حتى لو أرسلت لي الكثير من المال، سوف أكون وحيدة وتعيسة، أحيانًا أندم لأني تزوجتك، لقد وضعت الكثير من الألم في حياتي، ولكني أقول لنفسي فحتى لو لم أتزوجك كنت سأكون مقتولة مثل بقية أهل القرية وهذا لا ذنب لك فيه، ولكن الآن ماذا سأفعل دونك؟

وقفت عاجزًا عن الرد، ولم أكن أرغب بالرد أو حتى باحتضانها وتهدئتها، لم أكن أحب أن أقترب منها وألمسها، لقد أصبحت غريبة عني، ولكني لا أزال مدركًا أنها زوجتي وأنني مسؤول عنها، وأنني لا أريد تركها ولم يكن هناك حل لكي تهدأ إلا أن أخبرها بأنهم يبحثون عني، وإلا فسوف تبكي وربما تقوم بشيء لا أستطيع تداركه، فقلت لها:

- دومينيك، لقد عرفوا اسمي الجديد وهم يبحثون عني، لابد أن أترك فرنسا على الأقل بعض الوقت، لم أخبرك بذلك من قبل لأني لم أكن أريد أن تخافي، ولكن لابد أن تعلمي الآن لتهدئي وتفهمي الوضع...

توقفت عن البكاء وقالت برعبٍ من جديد:

- ماذا؟ وكيف عرفت؟ ومتى عرفت؟ وهل سألوا عني أيضًا؟

- اهدئي، لقد أخبرني صديقي ناجا، وعرفت فقط قبل بضعة أيام، لم يسألوا عنك ولم يهتموا بموضوعك كل الأسئلة كانت عني، لذلك اعتقد أنهم لن يهددوا حياتك، ويعتقدون أنني قد أسبب لهم مشاكل إن عدت لموطني، لأني طبيب معروف وربما يكون لي نفوذ سياسي بسبب شهرتي هذه.

قالت بنبرة يائسة:

- لقد فهمت، حتى لو وجدوني وقتلوني، فحياتي ليست مهمة كحياتك، ولن أهتم إن قتلوني، بعد موت أولادي والآن غيابك لن أكون سوى امرأة وحيدة وتعيسة، وسوف يكون من الجيد أن يقوموا...

قاطعتها قائلًا:

- توقفي عن هذا التشاؤم، لديك أشياء كثيرة جميلة بحياتك، ولابد أن تفكري أن تكوني امرأة لها كيان واستقلال ذاتي.

- لا أريد أن أكون امرأة لها كيان، أريد أن أعود لموطني، أحجز لي تذكرة سفر وأعود لبلدي، لقد تعبت من هذه الغربة.

- ماذا؟ هل تعتقدين أنك حين ترجعين سيتركونك وشأنك، سوف تخضعين للتحقيق وربما التعذيب إلى أن تخبريهم أين أنا، الموضوع لم يعد موضوع ثأر فقط، بل يعتقدون أنني أشكل خطرًا عليهم، والحقيقة أنني لدي ثأر ضدهم لقد قتلوا كل أهلي، كنت أرغب فعلًا بالانتقام منهم، ولكني لن أجازف بما بنيته وبسمعتي ومكانتي لأجل الانتقام.

- أجل، أعرف أن مركزك ومكانتك أهم من أي شيء آخر.

- ماذا تقصدين؟

- أقصد حتى حين تركتني لسنوات وحدي مع الأولاد دون أن تحضر حتى لزيارة قصيرة، كانت دراستك هي الأهم، والآن وبعد كل هذه السنوات، طموحك ومركزك أهم من أي شيء آخر.

- هل تريدينني أن أذهب إلى هناك وأبدأ بالقتل لأنتقم؟

- لا، لا أريد ذلك، ولكن أريد أن ترى بأنني إنسان ولست جهازًا أو آلة، أنا بشر...

ساد الصمت بيننا، ولم يعد هناك أي شعور أقدمه لها، كان يجب أن أنسحب قبل أن تبدأ بتذكر أشياء أخرى ترغب بقولها لتشعر بالراحة قبل أن أسافر، ولم أكن أريد أن أعتذر ولا أن أخفف عنها، أريد أن تتركني وشأني، أريد فعلًا أن تكون لي حياة دونها، لقد تعبت من كآبتها ومن بدانتها، ومن خطواتها الثقيلة، ومن الدموع التي تلتمع بعينيها من حين لآخر ثم تشيح بوجهها كي لا أراها، أشعر كأنها إن لم تبكِ فكل شيء حولها يبكي، الجدران تبكي، المقاعد، الأبواب، الشبابيك حتى الفراش، حتى الشرفة تبكي، في كل مكان تذهب إليه يحل الحزن الثقيل، لقد تعبت من كوني ملاحقًا ولابد أن أهرب وتعبت من حياتي معها، وتعبت من نظراتها الغارقة في الفراغ والحزن، وربما حتى لو لم يكن أحد يتعقب أثري كان لابد من أن أهرب منها، ومن نظراتها التي تلومني لتعاستها، أن أهرب من رؤيتي لحاجتها لشيء من العاطفة ولا أستطيع منحها أي عاطفة، حتى أن أمسك يدها يبدو شيئًا صعبًا لا أقدر عليه؛ تركت البيت دون أن أتابع الحديث، أو بالأحرى هربت لتعالج حزنها بنفسها، فأنا تعبت ولم أعد استطيع مداواة أي من جراحها.

خلال أيام وجدت لها شقة صغيرة مطلة على حديقة عامة، قريبة من بيت مدام كوليت التي رحبت بفكرة سكن دومينيك قريبًا منها، تم نقل جميع أغراضها، واستقرت في شقتها الجديدة، وبدوري حضرت جميع أوراقي وجهزت نفسي للسفر. طلبت من دومينيك عدم مرافقتي للمطار لأنني لم أكن أريد أن أراها تبكي هناك، وقفت أمامي عند مغادرتي في الصباح الباكر، وتفاجأت بأنها لم تبكِ، وقفتْ بوجه جامد ودون مشاعر وقالت بهدوء:

- أتمنى لك سفرًا موفقًا.

كانت تلك آخر كلمات بيننا، ولم أكن أريد سماع كلمات أخرى، غادرت سريعًا متجهًا إلى سيارة الأجرة التي كانت تنتظرني، كان الوقت ببداية الخريف، بدأ البرد في باريس، وقطرات من المطر تتساقط على زجاج نوافذ السيارة، ورغم انزعاجي لمغادرة باريس إلا أنني ولأول مرة أشعر بالحرية الكاملة، وأن دومينيك ليست معي، وبإمكاني الآن أن أناديها كالسابق كامالي، أجلس وحدي في السيارة وأشعر بحرية لم أشعر بها من قبل، وأدرك أن أسوأ القيود هي تلك القيود العاطفية التي تُشعرنا بالمسؤولية تجاه الآخر، خصوصًا حين لا نكن أي مشاعر لذلك

الآخر، وحين تكون العلاقة ليست سوى مجموعة واجبات جافة وباردة لابد من تأديتها على أكمل وجه، اليوم فقط تتوقف كلمات المجاملة، اليوم فقط يتوقف ذلك الغيظ الذي كان يتملكني حين أراها تصر على أن تبقى امرأة أفريقية قادمة من القرية، ولا تريد أن تتأقلم نفسيًا وفكريًا من الحياة في باريس، اليوم فقط أبدأ حياة خاصة بي بعيدًا عنها، لقد كان بحثهم عني سببًا في تحريري من قيود كبلت روحي وتفكيري، اليوم أتذوق حريتي ببطءٍ شديد واستمتاع عميق.

كامالي

خرج من البيت ذاهبًا إلى لندن، لم يكن خروجًا بل هروبًا، كل ملامحه كانت تقول لي بأنه يهرب ليس ممن يريدون قتله فقط بل مني أيضًا، قبلني قبلة باردة وأعطاني تفويضًا للبنك لأسحب ما أشاء من النقود ثم خرج، نظرت عبر النافذة إليه وهو يركب في سيارة الأجرة وشعرت أنني لن أراه إلا بعد وقت طويل؛ نظرت حولي للشقة الجديدة إنها المرة الثالثة التي أغير فيها السكن، أشعر بالتعب من التنقل لدرجة أنني لم أعد أهتم بالنظر إلى هذه الشقة، وأين تقع أو إن كانت جيدة أم لا، أريد فقط أن يكون هناك سقف ما أشعر تحته بالأمان وألا أضطر للمغادرة من جديد، ولكن هناك شعور آخر أقوى من حاجتي للأمان، إنها الوحدة؛ فجأة شعرت بأنني أهبط إلى حفرة عميقة من الصمت، صحيح أنني لم أكن أتحدث كثيرًا مع تافارا، ولم يكن هناك تواصل حقيقي بيننا، ولكنني كنت أعرف بأنه هنا، بأنه معي وفي حياتي، وأنه سيعود في المساء حتى ولو تأخر قليلًا أو كثيرًا، أما الآن فهناك الصمت المطبق وأنا، هناك ذكريات أولادي وألم فراقهم، هناك كل تلك الذكريات الثقيلة والحزينة لزوجة مهجورة ثم منبوذة ثم وحيدة مع كل هذا الكم الهائل من الصمت والغربة والوحشة.

وقفت في مكاني لا أتحرك، لم يكن هناك من أتصل به وأتحدث معه، نيفين غادرت إلى تركيا، ومدام كوليت ليست صديقتي لأتصل بها وأقول لها بأنني أشعر بوحدة كبيرة وبالخوف أيضًا، لم يكن هناك سوى ظلي على الأرض وهذه الشقة الصغيرة، تجمدت في مكاني، وبكيت كثيرًا ولكن كان لابد من تلبية نداء الحاجة، الجوع والعطش والنوم، ذهبت للمطبخ الصغير لم يكن هناك أي نوع من الطعام، وكان يجب أن أخرج لشراء الطعام قبل أن يحل الليل وتغلق المحلات التجارية، ذهبت بسيارتي بجولة حول المكان، كانت منطقة هادئة لا توجد بها حركة سيارات مكتظة، ويبدو أنها منطقة يسكن فيها الأثرياء، فلم يكن بها سوى الفلل الصغيرة والعمارات ذات الطوابق القليلة والأنيقة، لقد اختار لي منطقة مناسبة على الأقل لن أخاف من السرقة أو الاغتصاب، ووجدت مركزًا تجاريًّا كبيرًا بنهاية الشارع، اشتريت كل احتياجاتي وعدت للبيت، خلال ساعات كان البيت جاهزًا للحياة العادية، قمت بتنظيفه وملأت الثلاجة بالطعام ووضعت كل ما يلزم للمطبخ، ونظرت من جديد لشقتي الجديدة، كانت عبارة عن صالة كبيرة

فيها طقم من الكنب الخمري اللون، وغرفة نوم صغيرة أنيقة بأغطية صفراء ونافذة تطل على فيلا مقابلة للبناية حيث أسكن، ثم المطبخ الصغير وشرفة صغيرة بجانب الصالة تطل على الحديقة العامة، جلست في الشرفة الصغيرة أشرب فنجانًا من الشاي، كان بعض الناس يأتون للحديقة مع أولادهم، وبعض الشباب يتجولون ويضحكون، المكان كان هادئًا والهواء نقيًا لقد أعجبني موقع هذه الشقة الصغيرة، وبعد ساعتين حل الظلام، فساد سكون كامل في كل مكان، لم يكن هناك أي صوت سوى صوت بومةٍ ما تسكن إحدى الأشجار في تلك الحديقة، وهي وحيدة مثلي.

تمددت في سريري، أفكر ما الذي سأفعله غدًا؟ لابد أن أبدأ حياة ما خاصة بي، لقد تركني وذهب، ولن أغرق في الحزن لأنني لم أكن عاشقة له، ولن أغرق في الذكرى لأنني لابد أن أحيا كل يوم ومن جديد، لابد أن يكون لي حياة، نظرت للوحة الفتاة الأفريقية الجميلة التي أهدتني إياها مدام كوليت، والتي ترافقني أينما ذهبت، وتمنيت لو أنني أنام هذه الليلة وكل ليلة في بيتي الأفريقي، بجدرانه المصنوعة من الخشب والحصير، وأن أراقب نور القمر عبر النافذة الصغيرة، وأرى بريق النجوم اللامعة في السماء، فهنا حين أنظر إلى النافذة لا أرى سوى الظلام، وبعض النور القادم من ضوء الشارع، هنا السماء تبدو بعيدة وغريبة كأنها لا علاقة لها بالأرض، السماء هنا ليست سوى لوحة أرسمها في خيالي، ورحلة أسير فيها بأحلام يقظتي، غربتي ليست فقط غربة الهوية والشعور بل غربة السماء والنجوم والقمر، كأنني تركتهم جميعًا في بيتي الأفريقي هناك مع ولداي اللذين كانا ينامان في حضني، لقد رحل كل شيء يتعلق بجذوري وبأصل وجودي، ولكني ورغم كل هذا الفقد، ورغم كل هذا الشعور بالضياع كأنني خيط معلق على شجرة غريبة لا أعرف سوى اسمها، لابد أن أجد حياة لنفسي، لا يمكن أن يتركني هنا في شقة بمكانٍ ما في باريس مع ما يكفي من النقود وتكون فقط هذه حياتي، لا يمكنني أن أستمر دون عنوان ولا معنى ولا هدف، نهضت من فراشي، ونظرت إلى نفسي في المرآة، ووجدت وجه امرأة عمرها خمسون عامًا وليس اثنين وثلاثين عامًا، هذا يعني أن كل سنة تمر هي بمثابة عشر سنوات بالنسبة لي في هذه الغربة، هذا يعني أنني لا أحيا بل في كل سنة أقترب من الموت، وهذا يعني أنني ربطت كل وجودي بذلك الذي تركني وراءه لسنواتٍ طويلة في أفريقيا، والآن يتركني من جديد في باريس، لا يمكن أن أحيا في انتظار عودته لأنه لن يعود، لا يمكن أن أحيا في الذكريات لأنها لن تعود، ولا يمكن أن أحيا في الحزن لأنه لا نهاية له، لابد أن أبحث عن حياة ما، حياة خاصة بي، ولم أتصور أبدًا أن البحث عن حياة جديدة هي من أصعب المهمات،

خصوصًا لمن تهشمت حياته السابقة، فكيف سيبني حياة جديدة على حطام حياة قديمة، لابد أن يكون هناك شيء آخر أبني حياتي به، عدا عن تلك القطع المهشمة من الألم والذكريات والهجر والموت.

في اليوم الثاني لوجودي في البيت الجديد بدأت حياتي الحقيقية في هذا البيت، لم يكن لدي حياة خاصة بي منذ وصولي لباريس، كنت أعيش في ظل تافارا، زوجة الطبيب المعروف، والآن أنا فقط كامالي أو دومينيك، كان البيت في الطابق الثالث من بناية مؤلفة من خمسة طوابق، والمنطقة التي أسكن فيها من الواضح أنه لا يوجد فيها أجانب أو أشخاص قادمون من أفريقيا، فكل سكان المنطقة من الفرنسيين، الحديقة ممتلئة بأشخاص بشرتهم بيضاء، لم يكن هناك أي شخص أسمر أو أسود اللون، خرجت من البيت لأتمشى في الحديقة وأفكر ماذا سأفعل في ثاني يوم لي في هذه المنطقة الجديدة، مشيت بين الأشجار التي بدأت تفقد أوراقها الخضراء، وتتساقط حولها أوراق جافة صفراء أو حمراء، كأن الأرض مغطاة بسجادة من الأوراق الجافة، صفراء حمراء وبنية اللون، منها ما يسقط كاملًا دون تكسير ومنها ما يتهشم تحت أقدام المارة، وحين أسير فوقها أشعر بنعومة تلك الأوراق رغم جفافها، ثم تسري برودة خفيفة في الجو بسبب فصل الخريف، الغيوم بدأت تأخذ مكانها وتحجب أشعة الشمس، ثم النسمات الباردة تهب من حين لآخر معلنة حضور الخريف، وذلك الصمت الذي يلف الأشجار والحشائش، حتى الطيور تبدو صامتة أمام وجود الخريف، إنه فصل الصمت عدا عن صوت حفيف الأشجار وتساقط أوراقها الواحدة تلو الأخرى، لم أنتبه لنظرات مرتادي الحديقة في البداية، ثم لاحظت أن نظراتهم غير ودودة، وكأنهم يتساءلون ماذا تفعل هذه المرأة السوداء هنا؟ جلست على أحد المقاعد، تجنبًا لنظراتهم من حين لآخر، ولكن تلك النظرات لم تتوقف، وتمنيت لو أنني سكنت في حي آخر حيث يوجد فيه أشخاص من جنسيات متعددة، فيبدو أنهم لا يحبون وجودي هنا، شعرت بالقلق والتوتر ولكنني قررت تجاهل نظراتهم، حتى الأطفال كانوا ينظرون لي بطريقة غريبة، دائمًا ذلك السؤال الخفي: ماذا تفعل هذه المرأة السوداء هنا؟

لا يقولونه بشكل واضح ولكن نظراتهم تقوله بل تصرخ به، وأنا أجلس على الكرسي أشعر بحدة تلك النظرات كأنها سياطًا تجلدني، كنت أريد أن أقول لهم لماذا تنظرون إلي؟ ولكني كنت أخاف من الإجابة، لم أكن لأستطيع الرد عليهم، ففعلًا ماذا أفعل هنا؟ ماذا سأقول لهم؟ إنني هاربة من وطني، إنني لحقت بزوجي إلى هنا وإني لم أكن أرغب بالحضور لهذا البلد،

ماذا سأقول لهم؟ خلال دقائق نهضت من مكاني وعدت للبيت؛ ماذا سأفعل الآن؟ هل سأبكي لأني وحيدة؟ هل سأبكي لأني مرفوضة؟ لو كان تافارا معي وعرفوا أنه الطبيب المشهور لنظروا لنا بإعجاب وترحيب، ولكنني الآن بلا غطاء، بلا حماية من العنصرية الجافة القاسية.

ولكنني قررت ألا أبكي، نظرت للكتب التي يجب أن اقرأها، أخذتها للشرفة الصغيرة وأعددت لنفسي فنجانًا من القهوة وبدأت بالقراءة، الساعة تلو الأخرى واليوم تلو الآخر، كل يوم أكتشف بأن أفريقيا ليست ذلك البلد المتخلف الهمجي، وأكتشف الثقافات المتنوعة، الملابس، الألوان، الجلود المصبوغة، صور الحيوانات البرية، عالم المشعوذين والسحرة، عالم المتدينين في الأديرة والمساجد، القبائل في الغابات البعيدة، المدن الكبيرة والصغيرة، اللغات والثقافات، التضاريس والجبال والسهول والهضاب، والبحيرات ثم الأنهار والجداول، وأنواع الأشجار والحيوانات، في قريتي الصغيرة لم أكن أعرف بأنني أنتمي لهذه القارة الضخمة، أخبرنا الأستاذ باكو بكل ما لديه من معلومات عن أفريقيا ولكن لم يكن لديه هذه الكتب، لم يكن لديه هذه الصور وهذه المعلومات الكثيرة، لم يخبرنا بأنه يوجد شمال أفريقيا وجنوبها وشرقها وغربها، وأن هناك دولًا متطورة في أفريقيا وهناك دول تقع على شاطئ البحر المتوسط، وأخرى على شواطئ المحيطات، عالم أفريقيا أخذني من وحدتي واصطحبني إلى مئات العوالم، عوالم ساحرة من الألوان والكلمات من الوجوه والشخصيات المتنوعة، وحين كنت أشعر بالملل كنت أذهب للمراكز التجارية الكبيرة، حيث أتجول قليلًا وأشتري شيئًا ما ثم أعود للبيت، كنت أذهب لتلك المراكز الكبيرة لأنه يوجد فيها العديد من الأشخاص الملوّني البشرة، لم يكن وجودي غريبًا، ولم يكن أحد ينظر إلي باستهجان، ولم أعد أذهب لتلك الحديقة، أنظر إليها فقط عبر الشرفة كي أتجنب تلك النظرات اللاذعة.

ولكن حتى هذه الحماية الذاتية البسيطة لم تنجح مع حدة العنصرية وهمجيتها، فقد دخلت لإحدى المحلات التجارية لشراء فستان أزرق اللون أعجبني، وكانت أسعار ذلك المحل غالية ولكني أملك المال الذي يمكنني من شرائه، وبمجرد دخولي للمحل نهض صاحب المحل وبدأ بالسير خلفي كأنني أريد أن أسرق شيئًا ما، شعرت بالضيق وفقدت رغبتي بالشراء، فوضعت الفستان محله وخرجت، فلحق بي وقال بصوت مرتفع:

- أنت، كنت تريدين سرقة الفستان، أليس كذلك؟! لقد عرفت أنك سارقة.

نظرت إليه ولم أستطع الرد وبدأ كل من في المكان ينظرون لي كأنني سرقت شيئًا ما، فحتى لو قلت أي شيء لأدافع عن نفسي فلن يصدقني أحد، مشيت مسرعة لأغادر المكان ولم أعُد له مرة أخرى. وفهمت أنني كامرأة سوداء سوف أكون محل الشك والشبهة أينما ذهبت، خصوصًا بمظهري البسيط فأنا لم أتغير، ولم أكن أعرف كيف سأتغير، لا أزال بدينة ولا يزال الطعام هو متعتي الوحيدة في الحياة بجانب القراءة، عدا ذلك لم يكن هناك أي فكرة لدي كيف سأتغير، كيف سأكون مثل أي امرأة يبدو أنها تعيش منذ فترة في باريس، أو امرأة باريسية ولم أكن مهتمة بذلك.

كنت أذهب أحيانًا إلى شارع الشانزلزيه وأذهب فقط خلال النهار لأنني كنت أخاف من الخروج في الليل، فقبل أن تغرب الشمس أكون دائمًا في البيت وأحرص على إغلاق الباب جيدًا، وحين أذهب لذلك الشارع التجاري الكبير وأجلس لأكل الكريب مع الشوكولا كالعادة، أرى بعض الأفارقة الذين يمرون لحسن الحظ أنهم لا ينظرون لي، ربما لأني أبدو كامرأة كبيرة بالسن وغير مثيرة للاهتمام وهذا كان يناسبني، ولكنني كنت أرى الفقر في ملابسهم والبؤس في عيونهم، وأغلبهم من الفقراء الذين يحملون أشياءهم الصغيرة، ويتجولون إما بحثًا عن عمل أو لأنه ليس لديهم من وسيلة تسلية سوى السير في هذا الشارع، ومشاهدة ما لا يستطيعون شراءه، فيكتفون بالنظر والتعليق على كل ما يرونه، وبعد أن قرأت عن الثروات الموجودة في أفريقيا تساءلت مئات المرات لماذا يأتون هنا؟ لماذا لا يبقون في بلادهم الغنية بالثروات الطبيعية وبالجمال والتي توجد فيها أشياء لا يمكن أن توجد هنا؟ كانت تلك الأسئلة تراودني دائمًا ولكنني لم أكن أبحث عن الإجابة، فأنا هنا رغم أنني لا أرغب بأن أكون هنا، وأنا كنت أجهل مدى الثراء الطبيعي والثقافي الموجود في أفريقيا، لم أكن أعرف من أنا ولا طبيعة الأرض التي أنتمي إليها، ويبدو أنهم لا يعرفون ذلك أيضًا، وإن عرفوه فهناك الصراعات السياسية والقبلية، وهناك الإبادة والقتل، كل تلك المتناقضات موجودة على تلك الأرض السمراء، وأنا وهم ضحايا لها وإن لم نتكلم عن المعاناة التي نعيشها، فلكل منا قصة أجبرته على القدوم إلى هنا، لذلك أنظر إليهم يمرون ويراودني الحنين لقريتي، حيث كنا جميعنا متشابهين، وحيث لم يكن ينظر إلينا أحد على أننا غرباء متطفلون ومزعجون، حتى وإن صمتنا، فلون بشرتنا الأسود يجلب ضجيجًا كبيرًا في هذه المدينة البيضاء.

وقبل الغروب أعود سريعًا لبيتي، أغلق الباب جيدًا وأشعر بالخوف لأقل حركة من حولي، ما

يطمئنني هو صوت تلك البومة التي لا تنام، أصبحت صديقتي، فاليوم الذي تصمت فيه لا أستطيع النوم وأتساءل ماذا حل بها، أتمدد في فراشي وأقرأ قليلًا قبل النوم، ثم أطفئ النور وأذهب إلى ولداي، أتذكرهم وكل ليلة أفكر كم سيكون عمرهما لو كانا أحياء، وبأي صف مدرسي سيكونان، وأنهما سيكونان بسن المراهقة، وأنهما بعد بضع سنوات سوف يصبحون شبابًا أقوياء، ثم تتلاشى تلك الأفكار ليحل محلها واقع لا يتغير أنهما ماتا، وأن الزمن توقف عند موتهما وأنهما لن يكونا بأي مدرسة ولن يعرفا سن المراهقة ولن يصبحا شابين، لقد توقف الزمن عند طفولتهما ولن يسير أبدًا للأمام، سوف أسير أنا بكل يوم في حياتي إلى الأمام، ولكن هما سيبقيان ينظران لي في تلك المحطة التي لا يتحرك عندها القطار، أسير كل يوم مبتعدة عن محطتهما الجامدة في سلسلة الزمن، أسير وهما يبقيان هناك لا يلحقان بي، وكلما مر يوم جديد أبتعد أكثر وتصغر صورهما أكثر ولكن وجودهما يكبر فقط في قلبي.

تافارا

إنه الخريف في لندن، البرد قارص وأوراق الشجر فقدت لونها الأخضر، والمدينة تغرق في ضباب لا ينتهي، كل شيء هنا مختلف عن باريس، المباني، الشوارع، الشجر، المواصلات الناس، كل شيء، حتى أنني أشعر بأنني تغيرت بمجرد وصولي لهذه المدينة الباردة شبة الصامتة، استأجرت منزلًا في منطقة اسمها كنجستون منطقة هادئة وراقية، فيها محلات تجارية معروفة ومطاعم وحدائق واسعة، البيت عبارة عن غرفتين وصالة كبيرة بأثاث إنجليزي تقليدي، الكنب لونه أبيض مع الورود من جميع الألوان، ثم هناك تلك النوافذ الكبيرة التي وجدتها في أغلب البيوت، النوافذ في الصالة تطل على الشارع الهادئ حيث لا يُسمع سوى صوت حفيف الأشجار وصوت الطيور، وستائر بيضاء شفافة غطت جزءًا من تلك النوافذ الكبيرة، ثم غرف النوم، غرفة نوم فيها سرير كبير، ونافذة كبيرة أيضًا مع ستارة صفراء اللون، ثم الغرفة الثانية فيها سريران بأغطية بيضاء ناصعة اللون، لقد كانت تلك غرفة رولاند وميشيل، وشعرت بالسعادة لأنهما يستطيعان أن يحضرا إلى بيت والدهما، وأنهما الآن لديهما بيت في لندن. أول ما لاحظت في هذا البيت الجديد هو الهدوء الكامل، بينما في باريس هناك صوت في كل مكان، صوت الناس والسيارات، الباصات والقطارات، المارة الذين يتحدثون طوال الوقت، صوت وقع أقدام الناس على الطرقات المرصوفة بقطع مربعة ملساء، كل شيء في باريس له صوت ونغم، مدينة تعج بالحياة والأصوات، حتى في الليل لا تنام باريس، فإن نامت الأصوات لم تنَم أبدًا الأضواء، وشعرت بالشوق الشديد لباريس، لقد أصبحت وطنًا لي، نظرت من خلال النافذة، الضباب لا يزال يغطي أعلى الأشجار وسقوف البيوت، والصمت مطبق والبرد في الخارج قارص رغم أننا لا نزال في بداية فصل الخريف، كان يجب أن أخرج لأشتري ما أحتاج له في البيت؛ تجولت بين الشوارع الضيقة حيث البنايات القديمة ذات الأحجار الحمراء وتلك النوافذ الكبيرة، وكأن أتساع النوافذ يحاول تعويض غياب الشمس في هذه المدينة الباردة، ثم هناك شوارع واسعة تمر بها عشرات السيارات، ورغم مروري بجانب العديد من الناس والسيارات والباصات الحمراء لم أسمع صوتًا للناس، الجميع يمشي بصمت، ومن يتحدث صوته لا يكاد يسمعه أحد، شعرت بالارتياح من جهة لأنني أحب هذا الهدوء، ثم شعرت بقشعريرة الوحدة من جهة أخرى، فهذه أول مرة أعيش بها

في مدينة بهذا الصمت وبهذه البرودة ثم هذا الضباب الذي لا ينتهي.

توجهت إلى محطة المترو ونزلت درجات السلم المؤدية إلى المحطة، نظرت إلى خريطة المترو والأماكن التي يمكن أن أذهب إليها، لم يكن هناك اختلاف كبير عن المترو في باريس عدا عن ذلك الهدوء الذي يغلف كل شيء. ثم صعدت من جديد إلى الشارع وذهبت لأول مركز تجاري لأشتري كل ما يلزم البيت، وخلال ساعات كنت في البيت أعد لنفسي الطعام قبل الذهاب للنوم.

أول ليلة في لندن، الهدوء رائع قبل النوم، وكنت سعيدًا لأنني سأرى أولادي غدًا في الصباح ونقضي اليوم معًا، تصفحت بعض الجرائد قبل النوم وراجعت برنامج عملي خلال الأسبوع، ومع شعوري بالارتياح والأمان لأني ابتعدت عن باريس، غرقت في نوم عميق حتى ساعات الصباح.

وقفت في غرفة المديرة أنتظر حضور الولدين، وحين أتيا لاحظت كم تغيروا وكبروا خلال الأشهر التي مرت، أصبحوا أكثر وسامة وأناقة بزيهم المدرسي، احتضناني بقوة وقالا بمرح:

- هل سنخرج معًا؟

- أجل بالطبع، ويوجد خبر آخر لكما...

نظرا بتساؤل وقالا معًا:

- ما هو؟

- سوف أبقى في لندن، نقلت عملي إلى هنا.

- ماذا؟ أنت تمزح!

- لا، لا أمزح، سوف نذهب الآن إلى بيتنا ثم نذهب بجولة في المدينة.

قفزا من السعادة وقال ميشيل:

- أخيرًا يوجد بيت لنا، أخيرًا...

ذهبنا معًا إلى البيت وتمدد كل منهما على سريره بسعادة غامرة وقال رولاند:

- أبي هذه أول مرة يكون لنا بيت منذ غادرنا قريتنا، هذا رائع.

فجأة قال ميشيل:

- أبي، أين سيلفيا؟ لماذا لم تأتِ معك؟

- سيلفيا تزوجت من شخص آخر وهي ترسل لكما تحياتها.

نظر إلي ميشيل باستغراب وقال:

- ألم تكن تريد الزواج منها؟

ضحكت وقلت:

- أجل، ولكنها اختارت غيري. والآن هيا بنا نذهب لنرى نهر التايمز والبجع الأبيض.

وقفنا عند حافة النهر نراقب البجع الأبيض الذي يسبح بهدوء في النهر، وبقايا الضباب لا تزال تغطي صفحة المياه، ولكنه أقل كثافة من الأمس، مشينا بجوار النهر وتجولنا في الحديقة الكبيرة المجاورة لبيتي، قال رولاند:

- لون الحدائق هنا أكثر خضرة من الحدائق في باريس، الأخضر هنا غامق والعشب شديد الخضرة.

- أجل، لأن المطر لا يتوقف هنا في الفصول الأربعة، ثم هناك الثلج في فصل الشتاء أيضًا، هذه مدينة باردة فعلًا.

تجولنا لساعات في المدينة بين المحلات التجارية والشوارع الواسعة، وتناولنا الطعام في أحد المطاعم التي تقدم السمك مع سلطة الملفوف والميونيز والبطاطا المقلية وقال ميشيل:

- أبي، الطعام في باريس ألذ من هنا، لقد اشتقت لباريس، تشرق شمس أكثر هناك، كل يوم استيقظ وأنتظر أن تشرق الشمس ولكن لا يوجد سوى الضباب والمطر، حتى في الصيف تمطر، في باريس الشمس تشرق في كل مكان، ما رأيك أن نعود لباريس بعد أن تنتهي من عملك هنا؟

- لا نستطيع العودة على الأقل ليس قبل بضع سنوات، لقد ارتبطت بعمل هنا، وأنتم في المدرسة، ويبدو أنكم مرتاحون في مدرستكم، والمديرة أخبرتني أنكم جيدون في الدراسة، ولكن يمكننا الذهاب في إجازة إلى إيطاليا أو إسبانيا فهناك الشمس تشرق أغلب الوقت، ما رأيكما؟

- أجل هذه فكرة جيدة.

- والآن، أخبراني عن المدرسة، كيف تأقلمتما مع الوضع؟

نظر رولاند عبر نافذة المطعم ثم نظر إلى ميشيل وقال:

- كان هناك من يضايقوننا لأننا قادمان من أفريقيا، خصوصًا ميشيل، في البداية كنا نخجل منهم ونهرب، أخبرنا المديرة وتحدثت معهم ولكنهم تابعوا مضايقتهم لنا، ثم لاحظت أنني أطول منهم وأن جسمي أقوى من أجسامهم، فبدأت بضربهم كلما ضايقوني أو ضايقوا ميشيل، كانوا يذهبون ليشتكوا للمديرة، وتأتي لتنهرني بسبب ضربي لهم، فقلت لها وأنا غاضب: (هل تتوقعين أن أسكت وهم يضايقوني ويضايقون أخي؟ لقد تحدثت أنت معهم ولم يتوقفوا، سوف ترين خلال أيام سوف يتوقفون عن مضايقتنا لأنهم سيخافون منا.) تحدثت كثيرًا ولم أستمع لشيء من كلامها وكنت مصممًا على ضربهم مهما حصل...حاولوا ضربي ولكنهم لم يتمكنوا مني، ومنذ ذلك الوقت ابتعدوا عنا، المشكلة هي...

- ما المشكلة؟

- أننا لا يوجد لدينا أصدقاء، لقد جعلوا الجميع يبتعد عنا بحجة أننا نضرب دون سبب، والآن أقضي الفرصة مع ميشيل، وحين لا يكون ميشيل معي أبقى وحدي.

لاحظت الحزن باديًا على وجهيهما، وشعرت بالعجز عن فعل شيء ما، فقال ميشيل:

- أبي، لماذا لا نذهب لمدرسة أخرى، فهم لا يحبون لوننا ولا يحبوننا...

كنت أريد أن أقول له إنه ليس من المؤكد أن يحبوهم في مدرسة أخرى، فقلت وأنا أحاول أن أجعل الموضوع أقل حزنًا:

- سوف أتحدث مع المديرة بهذا الخصوص...

قال رولاند:

- وماذا ستقول لها؟ أن تجد لنا أصدقاء، لا أحد يحبنا هناك، المدرسون لطيفون معنا أما بقية الطلاب فلا يحبون الحديث معنا. لقد كانت المدرسة في باريس أفضل.

- حسنًا، سوف أجد حلًا لهذه المشكلة لا تقلقا.

وخلال شهر سألت بعض زملائي في المستشفى عن مدرسة داخلية يوجد بها جنسيات متعددة

حيث لا يشعر الطالب القادم من أفريقيا بأنه غريب فيها، أقترح أحدهم مدرسة دولية ينضم إليها طلاب من جميع جنسيات العالم، وكانت تلك فكرة جيدة، قمت بنقلهم إلى تلك المدرسة الجديدة خلال شهر، وكانت مدرسة حديثة ومبانيها واسعة وفيها ملاعب كبيرة وصالات رياضية داخلية ومسبح ضخم داخلي، أحب الولدان المدرسة الجديدة كثيرًا رغم كونها بعيدة عن مكان سكني، لم تكن كالمدرسة السابقة بما فيها من صرامة وأسلوب تقليدي بريطاني قديم، كانت مدرسة عصرية تناسب طبيعة ولديّ أكثر من المدرسة السابقة. وخلال بضعة أسابيع اشتريت سيارة سوداء جميلة وأصبح ذهابي لرؤية الأولاد سهل وممتع. وبعد انتهائي من العمل في المستشفى وإن تبقى لي بعض من الوقت، كنت أتجول في سيارتي عبر شوارع لندن الواسعة الجميلة، وأرى الفنادق الفخمة، والبنايات القديمة الكلاسيكية، ثم المحلات التجارية الضخمة، والحدائق المنتشرة في كل مكان، لقد كانت مدينة جميلة ولها طابع خاص بها، تتميز به عن جميع العواصم الأوروبية، وبدأت أحب لندن منذ أن اشتريت سيارتي السوداء الواسعة. أحببت كثيرًا شعوري بالحرية والأمن في لندن، وأنني أستطيع رؤية أولادي متى شئت، وأنني لن أعود للبيت وأرى كامالي، كل شيء كان يسير كما أحب، حتى أنني أصبحت أحب المطر المنهمر أغلب أيام الأسبوع، حتى الضباب أصبح جزءًا من حياتي وأصبحت أرى به جمالًا فائقًا، كأنه حلم شفاف يمر على الأرض يحمل معه الرغبة بالدفء والرغبة بالبدء بشيء جديد، وحين تشرق الشمس بعد انقشاع الضباب، تحتفل المدينة بحضور الشمس، يجلس الناس في الحدائق العامة تحت أشعة الشمس، المقاهي تُخرج الكراسي كي يجلس الناس في الخارج، السيارات تفتح سقوفها إن كانت متحركة كي يشعروا بدفء الشمس، لندن تحتفل بالشمس في كل شروق، بينما باريس اعتادت على رؤية الشمس أغلب الأيام، فتمر مثلما يمر أي مسافر في كل يوم لا أحد يلتفت لحضوره أو غيابه، بينما لندن تستقبل ذلك الزائر الذي لا يـأتي كثيرًا بحفاوة وسعادة صامتة ولكن عميقة.

كامالي

سنة كاملة مرت منذ ذهاب تافارا إلى لندن، ولا أزال أسكن في نفس الشقة، أصبحت أذهب للحديقة رغم نظرات الناس هناك، ومع الوقت اعتادوا على وجودي وربما نسوا لوني، كنت أجلس لساعات أقرأ أو أراقب الطيور وأحيانًا لا أفعل أي شيء مجرد الجلوس هناك بهدوء ثم العودة للبيت، لم تكن القراءة كافية ولا الخروج للحديقة أو الأسواق، كان لابد أن أفعل شيئًا آخر، تحدثت مع مدام كوليت وأخبرتها بأنني جاهزة للعمل، لقد قرأت كل تلك الكتب وأصبحت لغتي الفرنسية ممتازة فنظرت لي نظرة عميقة وقالت:

- دومينيك، هناك شيء آخر مهم جدًا وأنت لا تلاحظينه.

- ما هو؟

- مظهرك الخارجي، الأتيليه تقريبًا جاهز، وسوف أبدأ العمل فيه خلال شهرين، ولكن لا يمكنك العمل فيه بهذا المظهر، لا أقول لك هذا لأجرحك، ولكن الزبائن في باريس يهتمون بالمظهر وإن لم يعجبهم لا يدخلون إلى المحل، الثقافة الفرنسية جزء كبير منها ثقافة مظهر، نحب العطور والأزياء والفنون، وكل ما له علاقة بالمتعة الحسية، وحين نرى امرأة وزنها زائد نعتبر أنها لا تهتم بنفسها، فيقل اهتمامنا بها.

نظرت إليه وتفكيري مشوش لا أدري كيف أرد عليها، فتابعتْ:

- أرجو ألا تعتبري هذا انتقادًا، فلو كان ما بيننا صداقة فقط لم أكن لأقول لك هذا الكلام، ولكنها ستكون علاقة عمل، وسيأتي لهذا الأتيليه أشخاص أصحاب ثقافة عالية فهناك الكثير من الناس يهتمون بكل ما يتعلق بأفريقيا، بل ويسافرون بشكل شبه دائم لأفريقيا.

قلت لها بصوت مخنوق:

- ولكنني أفريقية ولا أستطيع أن أغير نفسي أو لوني، هذه طبيعتي.

ضحكت وقالت:

- بل تستطيعين أن تغيري نفسك، تعالي سوف أريك بعض الصور التي وصلتني حديثًا.

فتحت مغلفًا أبيض فيه صور بحجم كبير، لفتيات أفريقيات بمنتهى الجمال وقالت لي:

- هذه الصور لفتيات أفريقيات وهن عارضات أزياء في أشهر دور الأزياء العالمية، انظري إلى رشاقتهن وجمالهن بل إن بعضهن أجمل من النساء الفرنسيات.

- أجل، إنهن رائعات الجمال، ولكنني لست بجمالهن.

- بلى، أعتقد أنك كنت جميلة في فترة ما قبل أن تأتي أمور كثيرة تغير هذا الجمال، وقد أخبرتني عن أحداث صعبة مرت في حياتك وهذا شيء فظيع لأي امرأة، وكفيل بأن يضع على وجهها عشرات السنين من الحزن، ولكن دومينيك، يجب أن تتغيري، وسوف أساعدك في ذلك بشرط أن تتعاوني معي.

نظرت إليها باستغراب وقلت لها:

- وكيف ستساعدينني؟

- لأنني أعرف أنك لن تستطيعي ذلك وحدك، سوف تبدأين بالذهاب لنادي لياقة كل يوم، وتتبعي حمية غذائية، يجب إنقاص وزنك وأن تسترجعي لياقتك البدينة، وبعد أن تفقدي كل هذا الوزن الزائد سوف تغيري تسريحة شعرك، وتعتني ببشرتك لتبدو نضرة ولامعة، لابد أن تتوقفي عن أكل الحلويات وتُكثري من أكل الخضروات والفواكه، ثم نبدأ بالمرحلة الأخيرة وهي طريقة المشي والملابس التي سوف ترتدينها.

شعرت بالدهشة لكل ما تقول، لقد وضعت برنامجًا كاملًا لي، وحين فكرت قليلًا، قلت لها:

- أعتقد أنك على حق، سوف أتابع كل شيء معك، أريد فعلًا أن أسترجع لياقتي، لقد كنت جميلة ورشيقة قبل زواجي، وأحلم أن أعود لأكون تلك الفتاة.

- سوف تسترجعين ذلك، لكن لابد أن تكون عندك إرادة بخصوص الطعام، وأن تتبعي حمية لن أقول قاسية ولكن مناسبة لتفقدي هذا الوزن الزائد.

وخلال أيام كنت أذهب إلى النادي الرياضي، وأقوم بالتمارين كل يوم إلى أن يتصبب العرق من جسمي، ثم أتناول وجبات خفيفة، وفي المساء أمشي لساعة في الحديقة، لقد تغيرت حياتي بمجرد أن بدأت هذا النظام الجديد، وكل فترة كنت أشعر فيها أن وزني قد نقص، كان ذلك سبب

سعادة بالنسبة لي، وخلال أربعة أشهر كنت قد فقدت الكثير من وزني حتى ملابسي أصبحت واسعة ولا تصلح لأرتديها، لم أتوقف عن متابعة التمارين الرياضية وأصبحت لا أرغب بالأكل كثيرًا، وبعد شهرين آخرين، أصبحت أتمتع بلياقة ممتازة، وأشعر كم أنا خفيفة حين أمشي أو أتحرك، لقد كنت بدينة حقًا.

ثم ذهبت مع مدام كوليت إلى الكوافير وتم قص شعري، أصبح شعري قصيرًا وناعم الملمس وفيه خصلات شقراء، ثم بدأت العناية ببشرتي فذهبت عدة مرات لصالون تجميل للبشرة، إلى أن أصبحت بشرتي نضرة وناعمة، وكان آخر ما يجب القيام به هو أن أتعلم المشي بطريقة أنيقة وخفيفة، علمتني مدام كوليت ذلك في بيتها في عدة مرات، حيث أجبرتني على التدرب لساعات إلى أن أتقنت طريقة المشي، وأن أمشي بحذاء كعبه عالٍ مثل النساء اللواتي يمشين مسرعات في شوارع باريس، لم يتبقَّ سوى شراء الملابس الجديدة، قضينا ثلاثة أيام نشتري الملابس العصرية والأحذية بألوان مختلفة، ثم العطر المناسب لي، وفي نهاية الرحلة كان هناك أدوات الزينة التي اختارتها مدام كوليت بعناية لي، ثم ساعدتني على كيفية استعمالها بشكل يناسب لون بشرتي.

وخلال ثمانية أشهر كنت جاهزة للعمل، دخلت إلى الأتيليه، فنظر كل من في المكان نظر إلي حين دخلت، امرأة سوداء طويلة القامة رشيقة القوام، بشعر أسود قصير وخصلات شقراء، تلبس فستانًا أخضر اللون مرسوم عليه زهور صفراء، وحذاء أسود لامع بكعب عالٍ أسير به بخفة ورشاقة، ناسية خطواتي الثقيلة السابقة، ثم الوجه الجميل والبشرة الناعمة ولون الشفاه الأحمر الفاتح، ومكياج العيون الذي جعل عيوني تبدو أكثر اتساعًا ولمعانًا، نهضت مدام كوليت من مكانها وتقدمت نحوي وهي تصفق قائلة لمن في الأتيليه:

- هيا، سوف تتعرفون إلى دومينيك، التي ستعمل معنا من اليوم، وإلى زبائني الكرام هذه دومينيك التي ستنضم إلى فريقنا في العمل.

صفق الجميع وشعرت بسعادة بالغة، لقد كانت ولادة جديدة بالنسبة لي، كأن العالم فتح أبوابه لي على مصراعيه، نظرت إلى نفسي في تلك المرآة الخشبية القادمة من أفريقيا ورأيت كامالي، ليست الفتاة الجميلة بل المرأة الجميلة ولم أصدق ما أرى، كانت سعادة غامرة لم أشعر بها من قبل في حياتي، وقررت أن أتمسك بتلك السعادة بكل قوتي، في تلك اللحظة التي رأيت

فيها نفسي بذلك الجمال على المرآة قررت ألا أعود لأعيش في ظل الأحزان وانتظار تافارا، في تلك اللحظة فقط علمت أنه خرج بشكل نهائي من قلبي ووجودي، وأني لا أتمنى عودته ولا أريد رؤيته، بتلك اللحظة التي وجدت فيها نفسي غادر هو حياتي بلا عودة.

بدأ العمل وتعرفت على كل شيء في المكان، وكان لدي المعلومات الكاملة عن كل قطعة من أين أتت وعرفت سعرها، وكنت أعرف كل تلك الكتب الموجودة على الرفوف لأني قرأتها كلها، كنت أعرف الخرائط وأسماء البلاد والعديد من المدن والقرى، ثم الطب الشعبي الأفريقي والذي تعلمت الكثير عنه من حماتي قبل موتها، لم يكن مسموحًا ممارسة ذلك الطب في فرنسا، ولكن كان يثير اهتمام الناس لغرابته وللقصص المرافقة له، وأنا كنت على دراية كبيرة بهذا العلم الأفريقي النادر، ثم كل تلك الأقنعة والتحف والجلود وصور البيوت، وأنواع الحيوانات والحشرات، أصبح الأتيليه عالمي الجديد الذي أجد فيه نفسي؛ لأنه يأخذني إلى قريتي وبلدي وإلى أفريقيا كلها، كل يوم أسافر إلى هناك ولا أشعر بغربتي في باريس.

كنا نذهب في كل يوم في استراحة الظهيرة للمطعم مع مدام كوليت وبقية العاملين في الأتيليه ونتناول طعام الغذاء معًا، قالت لي مدام كوليت وهي تبتسم:

- دومينيك، أنت رائعة، الجميع معجبون بك، ولديك معلومات كثيرة عن كل شيء، أنا فخورة بك كثيرًا.

ضحكت وقلت لها:

- لولا نصائحك واهتمامك بي لم أكن لأحقق أي شيء من هذا.

- أنا متأكدة أن زوجك سوف يتفاجأ حين يراكِ.

صمت ولم أرد، فنظرت لي وقالت بصوت هامس:

- هل أنتما منفصلان؟

أجبتها بصوت منخفض:

- يمكنك أن تقولي هذا، لكل منا حياته الخاصة، أنا سعيدة بحياتي الآن، لا أحب الحديث عنه.

- أجل، أجل، أفهم هذا، ربما تبدأين حياة جديدة مع رجل آخر، فأنت جميلة ونظرات

الإعجاب تلاحقك.

- لا أريد الارتباط بأي رجل، أحب حريتي ولن أتخلى عنها، لقد عشقت هذه الحرية منذ كنت فتاة صغيرة، ولم أكن أريد الزواج، ولكنني تزوجت وأدرك الآن ما معنى الزواج، ولا أريد أن أكون زوجة مرة أخرى لرجل، لا أريد أي رجل في حياتي، أنا سعيدة مع نفسي.

ضحكت وقالت:

- أنت لم تتغيري في المظهر فقط بل من الداخل أيضًا.

- لا، لقد كنت بهذه الاستقلالية منذ كنت فتاة صغيرة، ولكني أحببت زوجي، واعتقدت أنني سأكون سعيدة معه، ثم اكتشفت أن شعوري لم يكن خطأ تجاه الزواج، فعدت الآن لتفكيري القديم، لا أريد أن أكون مع أي رجل.

- وإن عاد زوجك؟

- سوف أطلب الطلاق، لن أحتمل أن أكون معه مرة أخرى، لقد وجدت الحياة التي تناسبني ولا مكان له فيها.

نظرت لي بإعجاب وقالت:

- لقد كانت شخصيتك هذه مخبأة من قبل، والآن تصعد إلى السطح بالتدريج.

- أجل، لأنه الآن وجدت المساحة التي تناسبني، وأنت من ساعدني على ذلك، زوجي لم يساعدني إلا بأن أبقى يائسة ومحبطة، والآن تلك الشرنقة القديمة اهترأت ولم تعد تناسبني، أشكرك كثيرًا مدام كوليت.

- أنا سعيدة جدًا لأجلك.

ثلاث سنوات مرت وأنا أعمل مع مدام كوليت، أصبحت أحصل على المال من عملي، ولا يزال تافارا يرسل لي المال ورسالة صغيرة يطمئن علي بكل شهر، ثلاث سنوات من العمل المتواصل والمتعة الكبيرة بالإنجاز الذي حققته، حتى أنني بدأت بعمل بعض المحاضرات حول أفريقيا وفنونها وثقافتها وطبيعتها الساحرة، بجانب عملي في الأتيليه، ثلاث سنوات من الاستقلالية والاستمتاع بكل لحظة في عمل أشعر بالشغف تجاهه، وأصبح لدي صديقات وأصدقاء ولكني

كنت أرفض أي علاقة عاطفية، لم أكن أريد أي رجل في حياتي، لم أكن أريد انتظار أي رجل، ولا استجداء مشاعره، ولا البحث في نظراته عن الحب لي، لقد علمني تافارا أن أعيش دون الحاجة لهذا الشعور بسعادة كاملة ودون أي شعور بالنقص؛ لم أخبر تافارا بأي شيء عن حياتي ولا بالتغيير الذي طرأ عليها، لا يزال يعتقد أنني تلك المرأة القروية السوداء البدينة التي تسير بخطوات ثقيلة، والتي قلبها مليء بالأحزان والدموع، لم أرسل له أي صورة لي، لم يكن يهمني أن يعرف أي شيء عني. في كل يوم أستيقظ وأشعر بأنني أحلّق في عالم خاص بي، عالم رائع منعش وجميل، غيرت الشقة التي كنت أعيش بها، وانتقلت لشقة كبيرة أرضيتها خشبية لامعة، وأثاثها عصري بألوان كلاسيكية تطل على شارع تجاري كبير، وفيها ثلاث غرف نوم حولت واحدة منها إلى غرفة مكتب، وعلقت على حائط غرفة المكتب لوحة تلك الفتاة الجميلة الأفريقية، وبجانبها اللوحة التي رسمها لي ذلك الرسام من سنوات في شارع الرسامين، تلك اللوحة التي كانت لامرأة تعيسة من يراها يعتقد أنها تبلغ الأربعين أو الخمسين من العمر، بكل ذلك الحزن والهالات السوداء تحت العينين والنظرات التائهة المشتتة، وكتبت تحت تلك اللوحة الجملة التي قالها لي: (لا تعيشي في الظل أخرجي إلى النور). وفي كل صباح أجلس في الشرفة الواسعة المطلة على حي تجاري كبير من الأحياء الراقية، أستمتع بشرب القهوة وبالنظر إلى الشارع الذي يستيقظ مثلي وتدب الحياة فيه، ثم أذهب إلى عملي أو إلى عالمي الذي أحب والذي جعلني أكتشف أن السعادة ليست دائمًا هي الآخر، الحبيب أو الزوج أو الابن، وأن السعادة يمكن أن تكون بكل بساطة هي المكان الذي نجد أنفسنا فيه، وأن السعادة الحقيقية هي إيجاد هذه الذات سواء في المكان أو في الآخر الذي يدخل لحياتنا، وأنا وجدتها في مكان عملي.

أصبح لدي سيارة جميلة حمراء اللون بسقف مكشوف، أتجول بها في شوارع باريس، خصوصًا حين تشرق الشمس، أضع الموسيقى الأفريقية التي أحبها وأتوجه كل صباح إلى عملي وألاحظ نظرات الإعجاب من بعض الرجال، ولكنني لا أهتم بها ولا تعني لي شيئًا، كنت أود إخبارهم بأنني سعيدة دون أي قصة حب، وأن قصة حب واحدة كلفتني سنوات من التعاسة، وأن ذلك الثمن كان كافيًا لأمضي في حياتي دون أي قصة أخرى.

تافارا

سبع سنوات مرت منذ غادرت باريس، أتصل بين الحين والآخر لأطمئن على دومينيك، لا تسألني متى سآتي لباريس، ولا تسألني أن كانت تستطيع القدوم إلى لندن، وهو شيء مريح بالنسبة لي، فأنا لا أريد الذهاب ولا أريدها أن تأتي، لقد كانت دائمًا تبهرني بتمسكها الشديد بكرامتها، لم أقابل أي امرأة بمثل هذا الإصرار على الحياة بكرامة ولسنوات طويلة، ولكن حين أتحدث معها الآن أشعر أنه ليس موضوع كرامة فقط، أشعر أنها تغيرت فعلًا وأنها هي أيضًا لا تريد رؤيتي، اختفى القلق والخوف من صوتها، يوجد شيء ما تغير بنبرتها، لقد تغيرت دومينيك ولا أدري كيف أو بأي طريقة، ولكن صوتها يبدو متماسكًا ولا تحتاج لأي كلمات مني، لا تتحدث عن نفسها، قالت لي فقط إنها تعمل مع مدام كوليت في الأتيليه الخاص بها، ولم تزد على ذلك شيئًا.

انتهت مرحلة المدرسة بالنسبة للأولاد، أصبح رولاند في السنة الثانية في كلية الهندسة، أما ميشيل فأصر على دراسة الأدب الإنجليزي، جلست معه محاولًا إقناعه بأن يدرس أي مادة علمية أخرى ولكنه قال لي:

- أبي، لماذا يجب أن أدرس ما تريد أنت؟ أنت تريدني أن أدرس الطب أو الكيمياء أو أي مادة علمية، وهذا المجال لا صدى له في نفسي، أحب الفنون والأدب، أحب أن اقرأ الروايات التي تحلل الذات الإنسانية، التي تصف البشر والأماكن، التي تتحدث عني وعنك وعن البشر والثقافات.

- ولكن لماذا الأدب الإنجليزي؟

- لأنه عميق، وفيه شيء ما حزين كما يوجد شيء ما حزين في نفسي، حين اقرأ تلك الروايات أشعر بحضور والدتي معي، لقد كانت تقص علينا القصص الجميلة مع ذلك الحزن الدافئ، وذلك الحنين للمشاعر الإنسانية، أمي كانت أديبة دون أن تدري، كانت تحمل ذلك الكم الهائل من المشاعر الإنسانية الصامتة، والتي لم تكن تجعلها تطفو على السطح إلا حين تحكي لنا تلك القصص، تبتسم، تضحك، تدمع عيناها كأنها بطلة كل تلك القصص التي تحكيها لنا، أريد أن أدرس الأدب الإنجليزي لكي أبقى مع أمي، لأشعر بوجودها في كتبي ودفاتري في مسرحيات شكسبير، وفي روايات تشارلز ديكنز، دي أتش لورنس، جورج إليوت، الأخوات برونتي وآخرين، في الشعر

والنثر، ربما لا تفهم هذا الشعور يا أبي ولكنه هنا في قلبي وروحي، أمي هنا لا تغادرني.

قلت وأنا متفاجئ من كلماته:

- ألا تزال تتذكرها لهذه الدرجة؟

أجابني وهو شارد النظرات:

- وهل تعتقد أنني نسيتها ولو ليوم واحد منذ أن تركناها وغادرنا مع الأستاذ باكو، كانت تبكي وكأنها تشعر أنها لن ترانا مرة أخرى، كيف أنساها وأنسى تلك القصص التي كانت ترويها لنا كل ليلة، كيف أنسى صوتها حين تغني، وكيف أنسى نومي في حضنها كل مساء تحت ضوء القمر والنجوم، حتى أنني كلما كبرت أتشبث بتلك الذكرى، وكأنها لم تمت، كأن شيئًا ما في داخلي يجعلها حية دائمًا.

شعرت بالارتباك وقلت له:

- ماذا! هل ستعيد تلك القصة التي حصلت في باريس حين تخيلت أنك رأيتها في الشارع؟!

قال دون أن ينظر لي:

- لا زلت غير متأكد إن كنت أتخيل لغاية هذه اللحظة، ولكن هذا ليس مهمًّا، المهم هو أنها حية بداخلي. أنظر لقد أحضرت شيئًا ما سيعجبك.

فتح اللوحة التي أحضرها معه، وحين نظرت إليها أصابتني قشعريرة حاولت إخفاءها:

- بالطبع أنت تعرف من في هذه اللوحة؟

- أجل...أجل...بالطبع...هذه كامالي

- هذه أمي.

- أنت بارع في الرسم.

- لم أخبرك من قبل أنني تعلمت الرسم في المدرسة، وأنني كنت أتابع كل دروس الرسم وأشارك في كل المسابقات، فأنت كنت دائمًا مشغولًا ولم أكن أحب الحديث عن ذلك. ما رأيك؟

- إنها لوحة متقنة ورائعة، أنت تتذكر تفاصيل وجهها بدقة متناهية...

- أبي، أمي تعيش في ذاكرتي ووجداني لا أنسى وجهها ولا صوتها، أحب هذه اللوحة وسوف يتم عرضها في معرض لبعض الرسامين الشباب من أصدقائي.

شعرت بالقلق والتوتر، قلت له كي أغير الموضوع:

- إذًا هذا قرارك النهائي، أن تدرس الأدب الإنجليزي؟.

- أجل، لقد قدمت أوراقي وحصلت على الموافقة، سوف أبدأ دوام الجامعة الأسبوع المقبل.

- هذا جيد. إذًا سنلتقي الأسبوع المقبل.

عدت للبيت ومشاعر مضطربة فكيف لهذه الصورة أن تجعل كل الذكريات القديمة تتمثل أمامي كأنها حقيقة، كيف أخفى عني كل تلك المشاعر طوال هذه السنوات؟ لماذا لم يحدثني عنها؟ لقد قدمت كل شيء لولديَّ ولكني كنت بعيدًا عن مشاعرهما بل في مراحل ما من حياتهما تجاهلت مشاعرهما لأجل أهدافي أو خوفي، والآن أشعر أنهما يبتعدان، أنهما أصبح لهما عالم فعلًا بعيد عني، رولاند يقضي معظم الوقت في الكلية وفي وقت فراغه يفضل الخروج مع أصدقائه، ويعتذر أغلب الوقت عن الحضور إلى البيت، أما ميشيل فهو منذ صغره يعيش في عالم خاص به، ودراسته للأدب سوف تجعله يبتعد أكثر عني، فهو منذ الآن يبدو بعيدًا عني، حتى أنه قدم أوراقه للجامعة دون أن يخبرني، ووجد أستوديو صغيرًا سيعيش فيه بشكل مستقل، ويبدأ دراسته ولن يجد الوقت الكافي لنقضيه معًا.

فجأة تغير العالم من حولي، وواجهت واقع أنني وحيد في لندن، وأنني أصبحت أتقدم أيضًا في السن، كانت لدي علاقات عديدة مع نساء جميلات ولكنني لم أرغب بالزواج، ولم أرغب بأي علاقة تستمر لسنوات، العديد منهن طلبن مني الزواج وكانت ذريعتي أنني متزوج، فيغادرن دون رجعة، بدأ الشيب يكثر في شعري، وفجأة فكرت بكامالي، ماذا تفعل وكيف تعيش؟ لقد بقيت هي الشيء الوحيد المستقر في حياتي، ولكنني لا أزال أهرب من حياتي معها، ويبدو أنها هي من لا يرغب برؤيتي. اتصلت بالولدين لنجتمع في عطلة نهاية الأسبوع، ولكنهما اعتذرا لذهابهما في رحلة ما مع أصدقائهما.

المطر يتساقط بغزارة في الخارج ولندن تبدو باردة كئيبة وموحشة، وتمنيت للحظة لو أنني في باريس، أشرب القهوة الفرنسية وآكل الكرواسون الساخن، تمنيت للحظة لو أنني في مكانٍ

ما حيث تشرق الشمس، فقد تعبت من لندن وبردها وضبابها، أشعر كأن شيئًا ثقيلًا يجثم على صدري، اعتقدت أنه شعور سيزول حين أباشر عملي كالمعتاد في الغد ولكنه لم يزُل وبقي ذلك الشيء الثقيل جاثمًا على صدري، بدأت أشعر بالتعب النفسي والجسدي، وكأن شيئًا ما يقول لي لابد أن أذهب إلى حيث تشرق الشمس، حجزت تذكرة سفر وتوجهت إلى إيطاليا، حجزت غرفة في فندق على شاطئ البحر، وكنت أذهب كل يوم أستلقي على الرمال الساخنة لأشعر بدفء الشمس بأكبر قدر ممكن ولأنسى برد لندن وضبابها، مكثت عدة أيام أعيش بين الرمال الدافئة وبين أمواج البحر المنعشة، وفي نهاية الرحلة، لم يذهب ذلك التعب الجسدي، رغم أن الثقل النفسي قد تلاشى، وشعرت أنني فعلًا متعب جسديًا، فقررت إجراء الفحوصات الطبية حين عودتي إلى لندن، فما شعرت به ليس فقط حالة كآبة أو حزن، إنه شيء ما أشعر به في جسدي وأنني لست على طبيعتي.

ظهرت نتائج الفحوصات، ولكن الطبيب المشرف على الفحوصات طلب مني فحوصات أخرى أكثر دقة؛ وخلال يومين ظهرت النتائج لم يقابلني الطبيب المشرف على الفحوصات، ولكن ناداني أحد زملائي الأطباء، وطلب مني أن نذهب لمكتبه، شعرت بالقلق، فهذا ما نفعله نحن الأطباء حين يكون الوضع خطيرًا أو قريبًا إلى الخطورة، قال لي دون أن يبتسم:

- الفحوصات ليست جيدة، توجد خلايا سرطانية في البنكرياس، لابد من البدء بالعلاج على الفور.

جلست أمامه صامتًا، فرغم مئات الحالات التي صادفتها خلال عملي تتعلق بهذا المرض، إلا أنني جلست أمامه كأنها المرة الأولى التي أسمع فيها عن هذا المرض، شعرت بالخوف ثم القلق، ثم الهلع، وكان لابد من إخفاء كل تلك المشاعر، فقلت له دون تفكير:

- أريد أن أعود إلى باريس.

- ولكن سوف تتلقى أفضل علاج هنا.

- أجل، ولكني أريد أن أكون مع زوجتي.

- أجل بالطبع.

- هناك شيء آخر، لا أريد أن يعلم أحد عن مرضي. لن أخبر زوجتي ولكني أريد أن أكون معها.

- ولكن سوف تعرف حين تبدأ بأخذ العلاج.

- سوف أجد مبررات كثيرة تُخفي طبيعة مرضي على الأقل في البداية، ثم قد يضطرني الوضع لإخبارها أو أن حصل تحسن فلن أخبرها.

- أجل، أفهم ذلك.

اتصلت بدومينيك وأخبرتها أنني قادم وأنني نقلت عملي من جديد إلى باريس، كان جوابها فاترًا حتى أنها تكاد تقول لا أريد أن تأتي، ولكني تجاهلت ذلك البرود الواضح في صوتها وأخبرتها بموعد قدومي إلى المطار.

قابلت رولاند وميشيل ولم أخبرهما عن مرضي، وقلت لهما إنني سوف أنتقل إلى باريس، قال رولاند:

- لا أريد أن أنتقل من جديد، أريد أن أبقى هنا.

فقال ميشيل على الفور:

- وأنا كذلك، أريد أن أبقى هنا، أصدقائي هنا وجامعتي، لقد تنقلنا كثيرًا في السابق ولا نريد أن ننتقل مرة أخرى، يمكنك السفر وتأتي لزيارتنا حين تريد.

نظرت إليهما بهدوء وقلت لهما:

- المهم هو أنني اشتريت لكل واحد منكما شقة في لندن، ووضعت مبلغًا من المال يكفي لدراستكما ومصاريفكما بعد التخرج.

نظر لي رولاند باستغراب وقال:

- لماذا فعلت كل هذا؟ كأنك لن ترجع إلى هنا!

- لا، بالطبع سأرجع ولكن أفضل أن تشعرا بالاطمئنان على مستقبلكما، بهذا أسافر وأنا مرتاح أن كل أموركما مرتبة بشكل جيد. ولكن يبدو أنكما غير مهتمين بموضوع سفري!

قال رولاند:

- أبي، لقد علمتنا ومنذ سنوات أن نجعل مشاعرنا باردة، وأنت بنفسك لم تكن تهتم بتلك

المشاعر، حين كنا في المدارس الداخلية كنت ترى أننا غير سعداء فيها، ولكنك تجاهلت ذلك الحزن الذي كنا نعيش فيه دون أب أو أم، رؤيتك بنهاية الأسبوع أو مرة كل شهر في لندن لم تكن حياة أسرية، لقد عشنا وحيدين يا أبي، لابد أن تعترف لنفسك بذلك، ولنستطيع أن نعيش دون حزن، كان لابد أن نتجاهل مشاعرنا، وبعد أن تجاهلناها لسنوات طويلة أصبحت فعلًا جافة، فأنا لا أستطيع أن أحب بسهولة بل لا تتحرك مشاعري، كل شيء بالنسبة لي هو جدول يجب أن أقوم بتنفيذه، لقد قضينا أغلب سنوات حياتنا في مدراس داخلية دون أُم، وأنت كنت كأي زائر يأتي بأوقات معينة ثم يغادر.

لم أعرف بماذا أرد لشدة المفاجأة، ثم قال ميشيل:

- أبي، كنت أريد أن أسألك هذا السؤال منذ سنوات، لماذا لم نسكن معك؟ لماذا لم نكن معًا كعائلة، في باريس كنت تخاف علينا، وفي لندن لم يكن هناك أي خوف، ولكنك فضلت أن تعيش وحدك ونحن في مدرسة داخلية.

- لم يكن لدي الوقت للاعتناء بكم بسبب عملي.

- هذا غير صحيح، المدارس هنا تنتهي في الخامسة مساء، ويعود الأولاد لبيوت أهلهم، وأنت ينتهي عملك بهذا الوقت تقريبًا إلا إذا كانت لديك عملية طارئة، ولكنك أردت أن تعيش وحدك، أنت تحب حريتك كثيرًا يا أبي، ولم ننسَ أنك لم تأتِ لترانا لسنوات حين كنا في قريتنا في أفريقيا، كنت أرى أمي تبكي في الليل وتعتقد أنني نائم، كنت أعلم أنها تبكي لأن والدتك كانت تعتبرها السبب بعدم رجوعك للقرية.

جلست بينهما صامتًا لا أدرى ماذا أقول، لقد كان ما قالاه صحيحًا، وماذا لو عرفا بأنني كذبت عليهما وقلت لهما أن والدتهما حية؟! سوف تنتهي علاقتي بهما إلى الأبد مع كل تلك المشاعر المكبوتة داخلهما تجاهي، سألتهما بتعب:

- لماذا تقولان هذا لي الآن؟

قال رولاند:

- لأننا كبرنا، وأصبحنا نفهم أشياء كثيرة، ولأننا لن نقبل أن ننتقل لأي مكان آخر، بسبب تنقلنا في السابق، حتى أننا نكره السفر خارج لندن، لا نحب أن ننتقل لأي مكان، لقد تعبنا من التنقل،

وأنت تأتي الآن بعد كل تلك السنوات لتقول لنا من جديد أنك ستنتقل إلى باريس، ماذا تفكر بنا؟ نحن بشر! ألم تفهم ذلك بعد؟! نحن بشر...

فجأة بدأ بالبكاء فقال ميشيل:

- ألا تفهم يا أبي أننا بلا جذور، أننا لم نعد نحتمل هذا التنقل، لم نعد نحتمل أن تغيب من جديد وتعود لزيارتنا لمرة في الشهر، ثم تقول إننا عائلة، نحن لسنا عائلة، نحن أفراد في عائلة، وأنت من جديد تغادر غير مهتم بمشاعرنا، ماذا بعد، كنا نشعر بالسعادة والأمان معك لأنك أتيت إلى هنا، فحتى لو لم نرَك كل أسبوع فيكفي شعورنا أنك هنا معنا، ونستطيع أن نراك متى نشاء. هذا يكفي يا أبي، هذا يكفي.

رأيت الدموع بعينيه أيضًا ومنعت نفسي من البكاء، ومنعت نفسي من الضعف بأن أقول لهما لماذا يجب أن أسافر، لم أكن أريد أن أسبب لهما المزيد من الألم. فقلت لهما محاولًا تخفيف ثقل الموقف:

- سوف أعود كل أسبوعين، وربما نذهب برحلة معًا إلى إيطاليا، رحلتي هناك كانت رائعة...

قاطعني ميشيل صارخًا:

- لا نريد رحلات، لا نريد جولات، هذا يكفي، هذا ما فعلته معنا حين كنا صغارًا لننسى ونتوقف عن البكاء، الآن لن أتوقف عن البكاء، الآن أنا حزين وأخي حزين ومن حقنا أن نبكي، من حقنا أن نلومك، لو كانت أمي على قيد الحياة لما تركتنا في المدارس الداخلية، لما تجاهلت مشاعرنا...

نهضت من مكاني ووقفت أمام النافذة صامتًا أحاول السيطرة على مشاعري المنفعلة، ثم قال رولاند وقد توقف عن البكاء:

- أبي، أنا آسف، يمكنك السفر، بكل الأحوال أنا مشغول بالدراسة وميشيل كذلك. وكان من الصعب رؤيتك خلال دوام الجامعة سوف ننتظر زيارتك لنا كالسابق...

قاطعه ميشيل قائلًا:

- لماذا لا تريد أن يكون كل شيء واضحًا؟ لماذا غيرت الموضوع؟

صرخ بوجهه رولاند وقال:

- لأنه لا جدوى من كل هذا، السنوات الماضية لن تعود، وأمي لن تعود، نحن الآن في الجامعة والمهم هي الدراسة، وأبي كان حريصًا على تعليمنا أفضل تعليم وهو ما حصل، فلا داعي للكلمات الجارحة الآن، لقد انتهت تلك السنوات والآن كل منا يمتلك حياته.

- حسنًا، معك حق، أنا آسف يا أبي، أجل يمكننا الذهاب برحلة إلى إيطاليا حين تعود المرة المقبلة.

تساءلت بحزنٍ صامت إن كنت سأراهم مرة قادمة وكم من الوقت سيمهلني هذا المرض لأكون معهم. ومن جديد كتما مشاعرهما لتستمر الحياة معي، ورافقاني إلى المطار دون دموع أو عتاب، ولكني بهذه المرة الوحيدة بكيت وأنا أحتضنهما، شعرت أنها ستكون آخر مرة أراهما فيها، وقفا أمامي بذهول حين شاهدا دموعي، حملت حقيبتي واتجهت مسرعًا إلى داخل المطار كي لا يسألاني عن سبب بكائي. سرت ببطء وشعرت أنني كبرت عشر سنوات بعد سماعي لكلامهما، وأن كل تلك السنوات التي مرت والتي اعتقدت أنني نظمت فيها كل شيء بدقة وأنني أسيطر على كل جزء من حياتي، اتضح لي أن كل شيء كان خارج السيطرة، ربما عدا كامالي التي لا تزال في دائرة وجودي أو سيطرتي. جلست في مقعد الطائرة أشعر بالتعب الشديد بعد ذلك الموقف الصعب، على الأقل أنا هنا لا أسمع تلك الكلمات التي رفعت الغطاء عن سنوات من كبت المشاعر وإخفائها، سنوات من الحزن كنت أراه في عينيهما وأتجاهله، والآن يقدمانه لي كوجبة ساخنة لابد أن ألتهمها كاملة بطعمها المر الحقيقي، دون إضافات أو تحسينات.

كامالي

بعد سبع سنوات يتصل بي فجأة ويخبرني أنه قادم، شعرت أن عالمي كله سوف يتهشم ويتحول إلى قطع صغيرة، في غيابه وابتعاده عني استطعت أن أجد نفسي دون انتقاد، ودون نظرات احتقار لي ولمظهري أو بساطتي في التصرف، سنوات مرت وأنا أرمم ذلك الضرر الذي سببه لي في روحي، وفي كياني كامرأة، والآن يقول لي بكل بساطة أنه سيعود إلى باريس، وسوف يعيش من جديد معي، وربما بعد عدة سنوات سيقول لي مرة أخرى إنه سيسافر لا أدري إلى أين، وكأن حياتي مجرد محطة قديمة يمر بها قطار وحيد اسمه تافارا.

ولكني تغيرت وهو لا يعلم أنني تغيرت في مظهري وفي أفكاري، لن أعيش معه، بمجرد أن يصل إلى هنا سوف أطلب الطلاق، أصبح لدي دخل مادي جيد جدًا، أستطيع أن أعيش دون الحاجة إليه، لم أعد أخاف من غربتي في باريس، بل أصبحت باريس مدينتي وأصبحت جزءًا منها، وهي جزء مني بكل تفاصيلها وشوارعها، بكل ما فيها من جمال وتناقضات، لم أعد بحاجة إليك يا تافارا، لقد انتهى الخوف من حياتي، انتهت الحاجة المادية لك، انتهى هذا الزواج العقيم والتعيس.

وقفت في المطار أنتظر وصوله، وأشعر بالضجر والحنق لأنني لا أزال مضطرة لمجاملته ولو لبعض الوقت، قبل أن أخبره بأني أريد الطلاق، وخلال نصف ساعة رأيته من بعيد ينظر في كل مكان بحثًا عني، كان يتوقع أن يرى تلك المرأة السوداء البدينة والتعيسة، حتى أنه نظر لي بسرعة خاطفة ولم يعرفني، ثم حين نظر من جديد تسمرت نظراته عليّ، وبدت الدهشة على وجهه، اقترب مني مسرعًا وقال بتعجب:

- دومينيك، هذا أنت، لا أصدق، لقد تغيرت كثيرًا. لم أعرفك من الوهلة الأولى، هذا فعلًا تغيير كبير.

أجبرت نفسي على الابتسام، ولاحظت أنه تغير كثيرًا، فقد الكثير من وزنه وبعض الخصلات البيضاء بدأت تغزو شعره، ثم هناك تلك النظرة التي لم أرَها من قبل في عينيه، شيء ما مكسور في نظراته، فأنا أعرفه كما كانت تعرفه والدته، هناك شيء ما تغير، ولكني لم أسأله وأجبته

مبتسمة:

- أليس هذا ما كنت تريده دائمًا؟! أن أتغير وأصبح امرأة باريسية.

ضحك وقال:

- أجل، ولكن لم أتوقع أن تكوني بهذا الجمال والنضارة، أنت أجمل من السابق حين كنت فتاة في القرية، أنا فعلًا سعيد لهذا التغيير، يجب أن تخبريني كيف حصل هذا.

جلسنا معًا في أحد المقاهي الموجودة في المطار وأخبرته بكل ما حصل، وأنني سعيدة في عملي، كانت عيناه تلتمعان إعجابًا واستغرابًا بكل ما أقول، ثم قلت له فجأة:

- أنت كنت تعتقد أنني لن أتغير أبدًا، أليس كذلك؟ كنت تعتقد أنني لا أمتلك الذكاء أو الإرادة لذلك؟.

تململ في كرسيه ثم تابعت قبل أن يرد:

- أنت لم تمنحني الوقت الكافي لأتغير، كنت تعتقد أن هذا التغيير يجب أن يحصل خلال أيام، لم تفهم رغم كونك طبيبًا أن هذا التغيير بطيء وصعب، حتى أنني لم أكن أعلم من أين أبدأ، لولا مدام كوليت لما وصلت لهذه المرحلة.

لاحظت نظراته المتضايقة فغيرت الموضوع، وسألته عن عمله وعن لندن، فأجاب بصوت خالٍ من الحماسة المعتادة حين يتحدث عن عمله:

- لقد حققت نجاحًا كبيرًا هناك أيضًا، ولكن لندن مدينة كئيبة، لا يتوقف فيها المطر صيفًا وشتاءً، كل شيء يبدو غارقًا في المياه حتى ولو كان جافًا، ولكن حين تشرق الشمس تتحول إلى مدينة من أجمل المدن، إنها مدينة رائعة تختلف تمامًا عن باريس، غارقة في التاريخ وبكل ما هو تقليدي وبكل ما هو حديث أيضًا.

- لماذا لم تفكر ولو لمرة أن تدعوني لزيارتك؟

تململ من جديد باحثًا عن إجابة، فقلت له دون انتظار إجابته:

- أعتقد لو أنك علمت أنني تغيرت، وأنني أصبحت مناسبة للوسط الراقي الذي تعيش فيه لكنت طلبت مني أن أزورك، ولكني كنت أقل من أن تقدمني لمعارفك وأصدقائك.

بدا عليه الانزعاج فتابعت:

- عمومًا، لا ألومك، فذلك المظهر الذي كنت عليه لم يكن مناسب فعلًا، لذلك أتفهم موقفك دون أي تبرير منك.

شعر بالارتياح لأني أعفيته من الإجابة ثم اتجهنا نحو سيارتي، جلس بجانبي في السيارة وقال لي:

- أنت فعلًا أثرت إعجابي، السيارة جميلة جدًا وأنت تقودينها ببراعة، أهنئك يا دومينيك.

- أشكرك وأريد أن أطلب منك شيئًا ما، ألا تناديني دومينيك حين نكون وحدنا، أن تناديني كامالي.

- ولكن أنت تعرفين لماذا أناديك بهذا الاسم!

- أجل، ولم يعد يهمني، فحتى لو وجدوني لن أهتم إن قتلوني، لقد اكتفيت من كل ذلك الخوف.

لأول مرة لا يناقشني ولا يعترض، جلس صامتًا وهو ما أكد لي أنه هناك شيئًا غير طبيعي وأنه ليس تافارا الذي أعرفه، هناك صمت غريب في عيونه وانكسار في صوته، ولكني تجاهلت شعوري وتوجهت نحو البيت. وحين وصلنا أبدى إعجابه بالشقة التي أعيش فيها ولكنه قال لي:

- كامالي، سوف نترك هذه الشقة، أريد أن اشتري فيلا هادئة في إحدى ضواحي باريس، سوف أكتب هذه الفيلا باسمك.

نظرت إليه بدهشة وقلت له:

- ولكن لماذا؟! هذه الشقة جميلة واعتدت عليها.

- لا، أريد أن أعيش في فيلا أو بيت له حديقة جميلة، منذ سنوات وأنا أتنقل بين الشقق، لقد تعبت من هذا الأمر، سوف أبدأ من الغد بالبحث عن بيت جميل.

كل ما كان يقوله وكل تصرفاته كانت تقول لي بأن شيئًا ما قد تغير، ولكن كأنه لم يكن يريد الحديث عن ذلك، ولم أكن مهتمة بأن أعرف، فهناك سبع سنوات تفصل ما بيننا، وأنا تغيرت كثيرًا، فبينما صوته فيه ذلك الانكسار، تلاشى الانكسار الذي كان في صوتي، واسترجعت كامل

ثقتي بنفسي، ولم يعد يهمني ماذا حصل معه أو ماذا سيحصل معه، وفكرت على الفور بأنني لن أنتقل للعيش معه لذلك البيت الذي سيشتريه، ولكن لم يكن الوقت مناسبًا لأخبره بذلك؛ تذكرت أن أصدقاءه قد أعدوا له حفلة بمناسبة رجوعه وأن الحفلة بعد يومين، أخبرته بموعدها وقررت أن أخبره بأنني أريد الطلاق بعد تلك الحفلة مباشرة.

وفي المساء جلست أشاهد التلفاز، جاء وجلس بجانبي، وكانت تلك المرة الأولى التي يجلس فيها بجانبي منذ قدومي لباريس، نظر لي تلك النظرات التي ينظرها العاشق لمحبوبته، شعرت بالغثيان، لم أتحرك من مكاني للحظات، فقام بإمساك يدي وتقبيلها، بدأ التوتر ينتابني، ثم وضع يده على كتفي ليضمني إليه، عند ذلك وقفت بغضب وقلت له:

- ماذا تعتقد؟! هل تعتقد أنني سأنسى كل ما حصل بيننا بمجرد أن تمسك يدي، وبمجرد أن تبدي مشاعر ماتت بداخلك منذ سنوات، من تعتقدني؟ امرأة بلهاء تنتظر ولو لفتة اهتمام منك.

نهض من مكانه واقترب مني من جديد وقال بصوت هامس:

- كامالي، أنت جميلة، لقد تذكرت تلك السنة الرائعة التي عشناها معًا في بداية زواجنا، كل تلك المشاعر عادت لي بمجرد أن رأيتك في المطار، عدت لتكوني تلك الفتاة الجالسة بقرب البحيرة، والتي كانت أجمل فتاة في القرية، بل أنت أجمل الآن، لقد انتابتني تلك المشاعر من جديد، صدقيني وسامحيني أرجوك.

وقفت لا أدري ماذا أقول له، فلم يكن لدي أي مشاعر تجاهه، لم يكن سوى رجل غريب يأتي بعد سنوات غياب ولا أرغب بوجوده معي، ولكني مضطرة للصمت إلى أن تنتهي تلك الحفلة، فقلت له:

- وهل تعتقد أن مشاعري ستعود بهذه البساطة؟ أنت لا تعرف مدى الألم الذي سببته لي، لا أريد أن أعود لكل تلك الذكريات الماضية، لقد تجاوزتها بصعوبة ولكن لا تتوقع أن أعود لأكون تلك الفتاة العاشقة لك، والتي كانت تكره الزواج وقبلت به فقط معك أنت، ثم اكتشفت أن الزواج يمكن أن يكون أتعس علاقة في الوجود، أنت جعلتها أتعس علاقة في وجودي على الأقل، وحين تأتي لتمسك يدي وتجعلني أشعر بأننا نلعب لعبة الزوج والزوجة العاشقين، الحقيقة أن هذا يُشعرني بالغثيان.

ابتعد قليلًا عني وقال بخيبة أمل:

- لقد تغيرت فعلًا، ليس فقط في المظهر ولكن شيء ما بداخلك تغير، أنت...

- أنا ماذا؟ ألم تكن تريد أن أشبه نساء باريس، نساء باريس يطالبن بحقوقهن، ويقفن بوجه أزواجهن حين لا يعجبهن شيء، لديهن الجرأة والصراحة ثم القانون الذي يدعمهن، وأنا أصبحت أشبههن، ألم تكن تريد ذلك؟ فلماذا لا يعجبك هذا التغيير؟ لماذا رفضت كامالي البسيطة والقروية والتي كانت ترى بك كل شيء في حياتها؟!

- كنت أريد أن تشبهي نساء باريس في الأنوثة والأناقة وليس في قسوة المشاعر.

- وهل تعتقد أن كل امرأة أنيقة وفيها أنوثة ليست قاسية المشاعر؟ أنت إذًا سطحي التفكير، فأغلب النساء اللواتي تعرفت عليهن خلال السنوات الماضية خصوصًا الأنيقات والجميلات قلوبهن قاسية ومشاعرهن جافة، أنت غريب فعلًا، ما رأيك أن أعود لأكون كامالي القروية البدينة التي تحب أكل الحلويات، هل سيعجبك هذا أكثر؟

لم يرد على كلامي ودخل إلى غرفته وأغلق الباب، وتأكدت في تلك الليلة أننا لن نتمكن من الحياة معًا، الجروح قد تندمل ولكنها تبقى تذكرنا بمن تسبب بها، ولم أعد أستطيع أن أسامحه ليس على عدم حبه لي ولكن على إنكار كوني إنسانًا، على إنكار بشريتي وأنني أشعر وأحزن، على رفضه لي لسنوات وسنوات، ثم رفضه لأن يقول أنا آسف، حتى هذه اللحظة لا يعترف بكل الألم الذي سببه لي، حتى أنه كان يحاسبني على حزني لأجل أولادي، لقد انتهى هذا الزواج ولم يتبقَّ سوى توقيعي وتوقيعه على الأوراق الرسمية.

تافارا

وصلت لباريس، رأيتها أمامي، جميلة طويلة القوام جذابة المظهر أنيقة، لم أعرفها لأول وهلة ثم تفاجأت بأنها كامالي، لقد تغيرت كثيرًا أصبحت امرأة أخرى يتمنى أي رجل أن تكون زوجته، جلست معها وتفاجأت بإتقانها للفرنسية وبمستوى الثقافة التي استطاعت أن تحصل عليه، ثم خطواتها الخفيفة والرشيقة، لقد كانت رائعة بكل معنى الكلمة، أحببتها من جديد وبطريقة أكثر من السابق، كنت أريد أن أضمها بين ذراعي ولكنها مدت يدها تاركة مسافة ما بيني وبينها كي لا أقترب أكثر، وكلما تحدثت، وكلما رأيتها تتحرك ورأيت تصرفاتها ازداد إعجابي بها. وحين جلسنا معًا في المساء أمسكت يدها، كنت أرغب بكل قوة أن أضمها إلى صدري ولكنها رفضتني بكل قوتها، كل التجاهل لمشاعرها لسنين طويلة، كل الانتقادات الدائمة التي كنت أوجهها لها رأيتها فجأة كأنها جدار حديدي يفصل ما بيني وبينها، لم يتبقَّ لديها أي مشاعر تجاهي، في هذا الوقت الذي أنا بأشد الحاجة لها فيه، أراها تبتعد دون رجعة، أراها تتسرب من بين يدي ولا أستطيع استرجاعها، رفضتني بكل ما سببت لها من ألم، بكل هجري لها لسنوات طويلة، لم أستطع الاعتذار لها فانسحبت بصمت إلى غرفتي، لم أبكِ من قبل في حياتي، وكنت أحل كل مشاكلي بالمنطق والعقل، ولكنني الليلة أبدو عاجزًا أمام كل شيء، عاجزًا أمام مرضي وعاجزًا أمام حبي القوي لها والذي باغتني فجأة، وأدركت أنني أحببتها دائمًا ولكن كبريائي بل غروري منعني من رؤية ذلك الحب، وكنت أعتقد طوال الوقت أنها ستكون دائمًا في مكانٍ ما بانتظار حبي، وحين انكسر غروري بسبب مرضي أدركت كم أحببتها ولم أحب أي امرأة غيرها، إنها كامالي الجميلة الفريدة من بين النساء، أبكي لأول مرة بسببها وأفكر كم من المرات جعلتها تبكي، وهل ستجعلني أعوضها عن كل ذلك الألم؟ وكيف سأعوضها عن ذلك الألم وأنا مريض بهذا المرض الصعب؟ وهي ستعرف أنني رجعت لها بسبب مرضي، وأنني لو لم أمرض لبقيت مستمرًا في حياتي المريحة في لندن، لقد رجعت إليها حاملًا لها المزيد من الألم، لذلك لن أخبرها عن مرضي، ربما أستطيع استعادة حبها لي، ربما ستحبني من جديد حين أصبح زوجًا حقيقيًّا لها، ربما...ربما...

قضيت الليلة بطولها مع كلمة ربما، إلى أن أتعبني التفكير وذهبت بنوم عميق هاربًا من

حزني ومن مشاعري.

بعد يومين، أتى موعد الحفلة التي أعدها أصدقائي لي، وقفت أمامي بجمالها الباهر وفستانها الأسود الذي يكشف عن كتفيها والذي ينسدل ناعمًا على قوامها الطويل والجميل، والخصلات الشقراء تلتمع في شعرها الداكن السواد، وعيونها الواسعة اللامعة، كانت غاية في الجمال وكنت عاشقًا لها وكان لابد لي من إخفاء ذلك العشق العميق. نظرت لها طويلًا دون أن أتكلم ولكن نظراتي قالت كل شيء وهي فهمت كل شيء، فأدارت ظهرها وقالت لي إنها بانتظاري في السيارة.

دخلنا إلى الصالة الكبيرة وكان العديد من زملائي الأطباء موجودين بانتظاري، ومنهم من رأى كامالي في المرة الأولى التي تعرفوا بها إليها، حين كانت مختلفة تمامًا عن مظهرها الآن، وحين دخلنا التفت كل من في المكان لينظر إليها، لقد كانت أجمل امرأة في المكان، تعرف عليها الجميع وتحدثت معهم بالفرنسية بطلاقة، حتى أنهم لم يهتموا بي قدر اهتمامهم بها وبثقافتها ومعرفتها الواسعة حول أفريقيا، وثقافتها وطبيعتها الجغرافية؛ وبعد الانتهاء من الحديث لم تذهب كالسابق إلى مائدة الطعام، بل ذهبت إلى الحديقة لتشرب فنجانًا من الشاي، لحقت بها وقلت لها:

- الجميع معجبون بك، أنا فخور بك.

- أشكرك، أصدقاؤك يحترمونك كثيرًا، لقد حققت كل ما تريد يا تافارا، أصبحت من أفضل الأطباء وشهرتك واسعة.

- أجل، أعتقد ذلك، لم تخبريني، هل بحث أحد عني في غيابي؟

- لا، لم يسأل أحد، ربما تركوا هذا الموضوع، وتستطيع أن تعيش حياتك بأمان.

- أجل، أتمنى ذلك، سوف نذهب غدًا لرؤية بيت جميل، أتمنى أن يعجبك.

نهضت من مكانها ونظرت لي مباشرة وقالت:

- تافارا، لن أذهب معك، أريد الانفصال عنك، أنت تذهب لتعيش في بيتك، وأنا أعيش في بيتي، هذا الزواج قد انتهى.

وقفت أمامها تائهًا لشدة وقع المفاجأة ولم أكن أتخيل حياتي دونها:

- كامالي، أنا أحبك، لا أستطيع أن أعيش دونك، لقد سببت لك الكثير من الألم ولكني سوف أعوضك عن كل تلك المعاناة، امنحيني الفرصة؛ إلا إذا كنت تحبين شخصًا آخر.

- لا تافارا، لا أحب شخصًا آخر، ولا أريد أن أحب أي رجل، أحب حياتي فقط، أريد أن أكون وحدي بعد أن انتظرتك سنين طويلة، الآن لا أريد أن أنتظر أحد.

أدركت في تلك اللحظة أنني لن أستطيع أن أعيش دونها، وأنني مستعد لعمل أي شيء لتبقى معي، وأنها إن غادرت حياتي سأتمنى الموت، لقد كانت شمسي القادمة من قريتي، كانت ما تبقى من ذكرى والدتي، كانت رائحة الأرض والسماء، كانت بيت أهلي القديم وبيتي الأول الذي تزوجت فيه، كامالي كانت قطعة من روحي وكياني، لم أكن لأستطيع الحياة دونها، فقلت دون تردد:

- كامالي، أنا مريض بسرطان البنكرياس، أتيت إلى باريس لأكون معك، كان يمكنني أن أتعالج في لندن، ولكن أنت ما تبقى لي، أريد أن أغادر الحياة وأنا معك.

وقع الفنجان من يدها ونظر من في الصالة إلينا بسبب صوت الزجاج الذي تناثر في كل مكان، أتت الخادمة سريعًا لتنظف المكان، طلبت مني أن نغادر المكان وأنها لا تشعر أنها بخير، اعتذرنا من كل من في الحفلة وأخبرتهم أنها لا تشعر بخير، وأننا لابد أن نذهب للطبيب وخرجنا على الفور، طلبت مني أن أقود السيارة لأنها لم تكن بحالة تسمح لها بذلك.

وصلنا للبيت ودخلت إلى غرفتها دون أن تتكلم معي، وفي الصباح وجدتها جالسة بجانب النافذة صامتة وشاردة النظرات، وحين رأتني قالت لي:

- لن أطلب الطلاق، سوف أبقى معك، يمكننا الذهاب لرؤية ذلك البيت. ما فرقنا عن بعض في السابق يجمعنا الآن.

- ماذا تقصدين؟

- في أعماقك رفض لونك الأسود، رغبت أن تكون أبيض البشرة، لم تكن تستطيع أن تغير لون بشرتك ولكنك غيرت كل ما يتعلق بكل جذورك، رفضت حتى زيارة قريتك، رفضتني لأنني كنت امرأة تقليدية سوداء، غيرت الأسماء ليس فقط بسبب الخوف من القتل، ولكن لأنك أردت أن تكون أوروبيًّا بكل التفاصيل، حتى نجاحك وتفوقك كان بجزء كبير منه محاولة للخروج من

لونك الأسود، حتى أنك لم تقم علاقات نسائية إلا مع نساء شقراوات، لقد رأيت صورهن ولم أرغب بسؤالك لأنك لم تعتبر أنني زوجتك بالشكل الكامل، حتى اسمك حين غيرته لم يكن بدافع الخوف من الموت فقط، ولكن لأنك رغبت فعلًا أن تكون أوروبيًّا بكل ذرة بوجودك، وأنا كنت مجرد مكان تلجأ إليه حين تحتاج للأمان، وهذا صحيح، ومرضك الآن يجعلني أبقى في ذلك المكان ولا أتركه، هذا اللون الأسود الذي لم تحبه يجمعنا الآن، لأنك تدرك أنه لن يكون أحد معك سوى كامالي، وتدرك أنني رغم كل ما كان بيننا لن أتخلى عنك، مثلما لم تتخلَّ عني حين كنت بضعفي ووحدتي في باريس.

صمتُّ ولم أعرف بماذا أجيب، لقد كانت تلك المرة الأولى التي تواجهني بها بتلك الحقائق التي كانت صحيحة، لقد كانت كامالي دائمًا مرآتي التي لا تخفي عيوبي، كنت أتجنبها في السابق كي لا أرى تلك العيوب، والآن أنظر إليها بكل واقعية وأعترف بها، أجبتها:

- أجل، معك حق، كنت أريد أن أكون أوروبيًّا بكل كياني، ليس كرهًا للوني أو لجذوري ولكني وجدت نفسي في الثقافة الأوروبية، أشعر أنني أنتمي إليها أكثر من انتمائي إلى كوني أفريقيًّا.

- هذا غير صحيح، أنت كنت ترفض جذورك، حتى ولو لم تدرك ذلك أو تعترف به، نحن السود حين نهرب من جذورنا تلاحقنا لأنها ليست مجرد لون، إنها تاريخ وروح وثقافة، وأنت أردت أن تهرب من كل تلك المعاني الجميلة، وفي النهاية لا تريد أن تعترف أنك تعود لجذورك.

حتى ولو بلا وعي كامل منك، مرضك فقط هو من أجبرك على العودة لها، أحيانًا الضعف يكون أفضل الأشياء التي تحدث في حياتنا، لأنه يعيدنا إلى الجذور، يعيدنا إلى مكانٍ ما أو أحدٍ ما نلتمس منه بعض القوة في مواجهة التيار. لا ألومك يا تافارا، فالحضارة الأوروبية جميلة وفاتنة، حتى أنا اندمجت فيها وفُتنت بها، أنظر إلى مظهري وطريقة حياتي أليست أوروبية؟! ولكنني وفي أعماقي أفريقية حتى العظم، أحب هويتي ولوني، أحب قريتي وكل شيء يتعلق بجذوري لن أستطيع أن أحيا دون ذلك الانتماء لتلك الأرض السوداء.

أحسست بالتعب وجلست، ثم قلت لها:

- كامالي، إن لم ترغبي بالبقاء معي، ارحلي وسوف أساعدك بكل شيء، لست مضطرة للبقاء معي وأنت تحملين كل هذا الكم من المشاعر الثقيلة، التي لن أستطيع احتمالها، مرضي لن يسمح لي بتحمل كل هذا، هذا المرض يستنفد كل شيء من الإنسان، فلن تضيفي إلى تعبي تعبًا آخر.

- لا لن أتركك، لست لأني مضطرة بل لأني مقتنعة بأن أبقى معك، فإن شفيت يستمر كل منا في حياته، وإن لم يحصل ذلك، وأتمنى أن تشفى، سوف أبقى معك ولن أتخلى عنك، أنت أيضًا كل ما تبقى لي من وطني وجذوري.

اقتربت منها أريد تقبيلها ولكنها أبعدتني عنها وقالت:

- أبقى معك دون أن تطالبني بأي واجبات زوجية ولا تتوقع مني أن يعود حبي القديم، لن أتخلى عنك ولكن لن أعود لأكون تلك الفتاة العاشقة، أنت لم تتخلَّ عني حين أتيت إلى باريس امرأة وحيدة وضائعة، وساعدتني بأمور كثيرة، والآن لا أستطيع التخلي عن تافارا الذي أحببته بكل كياني لسنوات طويلة، والذي ربما لا أزال أحبه ولكن الألم الذي سببته لي يمنعني حتى من الشعور بذلك الحب، لنبقى معًا لأنني احتجت لك في السابق، وها أنت تحتاج لي الآن، وبكل الأحوال أنا لا أريد أن أتزوج مرة أخرى ولا أريد أية علاقة مع أي رجل، سوف أعتني بك ونتابع حياتنا كالسابق.

كان يكفيني منها أن تبقى معي، لم أكن أريد أكثر من ذلك، فلا حياة لي دونها، لقد كانت أنفاسي وخفقان قلبي، حتى لو توقفت عن حبها لي يكفيني أنها بقربي، أنها معي، أرى عيونها وأسمع صوتها، كامالي حبيبتي منذ سنوات طويلة ورفيقة دربي إلى أن أموت.

ذهبنا لتلك الفيلا الجميلة، حجارة المنزل من الطوب الأبيض وكذلك جدرانه من الداخل مطلية باللون الأبيض، ونوافذه واسعة تطل على حديقة كبيرة تزينها الزهور والأعشاب العطرية، أرضية البيت من الرخام الأبيض، والأثاث أنيق بألوانه الزرقاء والبيضاء، ثم غرف النوم الواسعة التي لكل منها شرفة واسعة تطل على الحديقة، أحبت كامالي البيت كثيرًا وخلال أيام انتقلنا للبيت الجديد. وكان لابد من البدء بالعلاج الكيماوي.

كامالي

منذ أن أخبرني بأنه مريض والعالم حولي تغير، لم أكن أتخيل بأن تافارا القوي النشيط الذكي يمكن أن يصيبه مرض كهذا المرض، كان دائمًا بصحة جيدة وحيوية لا تفتر، ولكنني أرى الآن أمامي إنسانًا ضعيفًا وخائفًا رغم محاولته إخفاء ذلك الخوف، كنت أريد أن أنفصل عنه ولكن مرضه منعني من ذلك؛ سنوات السعادة التي عرفتها حين كان في لندن بدأت تتلاشى، وضعه الصحي بدأ بالتدهور، وكان لابد لي من مرافقته إلى المستشفى طوال الوقت، تركت العمل مع مدام كوليت التي تفهمت الوضع، وبقيت بجانبه سواء في المستشفى أو في البيت، وعادت تلك الهالات السوداء من جديد إلى عيوني، وعاد ذلك الشحوب القديم، لم أعد أرغب حتى بالأكل، فقدت الكثير من وزني، كل شيء حولي أصبح داكنًا وحزينًا يرزح تحت أنين تافارا حين يتألم، وأجلس بجانبه محاولة التخفيف عنه عبر الأدوية أو بكلمات لطيفة.

أما دفتره الأسود المخملي، فلم أجده، ولم يعد يقدر على الكتابة، سألت الممرضة عن ذلك الدفتر فأخبرتني أنها لا تعلم، وشعرت أنها تكذب وأنه أخبرها بألا تعطيني إياه، لم أعد أهتم بذلك الدفتر، فقد أصبحت حياتي عبارة عن زيارات متتالية للمستشفى، وأرق في الليل وتعب في النهار، كان يمكن أن يستمر الوضع بهذه الطريقة لشهر أو لسنة وربما لبضع سنوات، وقد تقبلت هذا الواقع وكان لابد من التعايش مع هذا المرض الذي ينهش جسده، والذي سمّم حياتي أيضًا. إلى أن أتت طرقات على الباب، ذهبت لأفتح الباب، فوجدت أمامي ثلاثة رجال سود اللون، سألاني بلهجة آمرة:

- أين تافارا، أو فرانسوا؟

شعرت بالهلع فقلت لهما بصوت مرتجف:

- لا...لا أحد هنا بهذا الاسم.

- أنت تكذبين، ابتعدي عن طريقنا...

وخلال دقائق كانوا قد وجدوا غرفته، وقفت الممرضة خائفة بأحد زوايا الغرفة، وركضت

لأتصل بالشرطة، فركض خلفي أحدهم وأمسكني من يدي، ثم شهر مسدسه وهددني بالقتل إن تحركت من مكاني، أتت الخادمة راكضة بعد سماعها لصراخي فهددوها بالقتل إن لم تقف بجانب الممرضة بهدوء، وقفوا الثلاثة أمام تافارا الذي قال لهم بصوت ضعيف:

- ما هذه الوقاحة، كيف تدخلون لبيتي بهذه الطريقة؟

- أنت تعرف من نكون، وأننا بحثنا عنك طويلًا، إنه ثأر قديم ولكن لابد من أن نقوم بما يجب القيام به.

حاول النهوض من فراشه ولكنه لم يستطيع فقال لهم:

- ما هذا الهراء، لقد مرت سنوات منذ تلك الحادثة، وأنتم أصبحتم أصحاب النفوذ، فماذا تريدون مني؟ أنا مريض ويمكن أن أموت بأي لحظة اتركوني أموت بسلام.

أجاب أصغرهم سنًا قائلًا:

- عائلتك قتلت والدي وأحد قاربي، هل تعتقد أنني سأنسى هذا؟ حتى مرضك هذا لن يجعلنا نتنازل عن ثأرنا.

- ولكنكم قتلتم كل أفراد أسرتي، حتى أنكم قتلتم ولديَّ، لم يتبقَّ سوى زوجتي!

أجاب أحدهم:

- لا لم نقتل جميع أفراد أسرتك، ولداك أتيا إلى باريس، لم نقتلهما، ثم أين هم ألا يعيشون معك؟

نهضتُ فجأة من مكاني وقلت لهم:

- ماذا تقولون؟! أنتم لم تقتلوا ولديّ، هل صحيح أنهما أتيا إلى باريس؟

- أجل، لم نقتلهما، وكنا نعلم أنهما في باريس، قررنا عدم التعرض لهما أو لك، نحن نريد ثأرنا من زوجك فقط.

نظرت إلى تافارا، وقلت له بذهول:

- هل ما يقولونه صحيح؟

صمتَ وأشاح بوجهه، فصرختُ قائلة:

- أجبني، هل ولداي حيّانِ؟

أجاب نفس ذلك الرجل قائلًا:

- هل أخبرك بأننا قتلناهما؟ لقد كذب عليك، ولداكِ كانا في باريس، وعرفنا أنهما كانا في مدرسة داخلية وتم تغيير اسميهما، ألم يخبرك بهذا؟

امتلأ البيت بصراخي:

- تافارا، أين ولداي، ماذا فعلت بي وبهما؟ أين هما أيها المجرم، أين؟

قال وهو يئن من الألم:

- لن أخبرك، سوف يقتلونهما.

قال الأكبر سنًّا من بينهم:

- لو أردنا قتلهما لفعلنا ذلك حين علمنا بأنهم في تلك المدرسة، ولكننا لا نريد قتلهما ولا قتل زوجتك، أنت هدفنا فقط.

قلت لهم وأنا أبكي:

- أرجوكم، لا تقتلوه لابد أن أعرف أين ولداي، يجب أن يخبرني أين ولداي؟ ثم إنه مريض وربما يموت بأي لحظة، أرجوكم لقد حرمني من ولديَّ لسنوات طويلة، أتوسل أليكم، دعوه يعيش أريد أن أعرف أين ولداي.

قال تافارا:

- أخاف أن أخبرك، سوف يقتلونهما...

- قلت لك، إننا لن نقتلهم، أخبرها أين ولداها قبل أن تموت...

بدأ تافارا بالانهيار فقال قبل أن يفقد وعيه:

- مدام كوليت تعرف كل شيء.

وضعت يدي على فمي وقلت وأنا أبكي بشدة:

- لقد أخفيت عني كل شيء، دمرت حياتي ودمرت حياة أولادك، وكذبت علي وتآمرت معها، يا لك من وغد حقير.

قال بتعب شديد:

- لم أدمر حياتهما، لقد أنقذت حياتهما، كانوا سوف يقتلونهما، لا تصدقيهم، سوف يقتلونهما.

نظرت لذلك الرجل الذي يبدو صاحب القرار وقلت له وأنا أبكي:

- قل لي الآن، هل تريد قتل ولديّ، لم يتبقَّ لي غيرهما بهذه الحياة، أخبرني الحقيقة لن أستطيع أن أجبرك على شيء ولكن أخبرني الحقيقة، إن كنتم لا تريدون قتلهما فأعيش بقية حياتي معهما، وإن كنتم ستقتلونهما اقتلوني أنا أيضًا الآن لأني لا أريد أن أعيش دونهما، وبعد موت زوجي لم يعد هناك أي معنى لحياتي.

قال بنبرة ثابتة:

- لن نقتل أولادك، لو أردنا ذلك لفعلناه منذ أن كانا في المدرسة الداخلية، ولا نريد قتلك، ويمكنك العودة بأي وقت إلى وطنك مع أولادك، والآن لم يتبقَّ لدينا المزيد من الوقت.

صوب مسدسه باتجاه تافارا، وبعد لحظات أصبح تافارا مجرد جسد لا حياة فيه، ثم خرجوا مسرعين، بدأت الممرضة والخادمة بالصراخ، وركضت الخادمة لتتصل بالشرطة والإسعاف، وبقيت واقفة مكاني بلا حراك ولا بكاء ولا صراخ، أنظر إلى جسد تافارا الممدد أمامي وخيط رفيع من الدم يسيل من رأسه، ساد الهدوء في المكان، ولم أشعر بأي شيء يدور حولي، كل ما أذكره أن الغرفة بدأت تدور بي ثم فقدت توازني وغبت عن الوعي.

بعد انتهاء مراسم الجنازة وأخذ أقوالي وأقوال الممرضة والخادمة من قبل الشرطة، أتت الممرضة وناولتني دفتر تافارا الأسود وقالت لي:

- لقد طلب مني أن أعطيك هذا الدفتر بعد موته، لم يكن بإمكاني إخبارك بذلك وهو على قيد الحياة.

أخذت الدفتر، وبدأت بقراءته قبل أن أذهب لمقابلة مدام كوليت، قضيت اليوم كله في البيت أقرأ كل ما كتب، وحين انتهيت ذهبت على الفور لمقابلتها، فتحت الباب وقالت بلطافتها

المعهودة:

- أهلًا دومينيك.

- أرجو ألا تناديني بعد اليوم باسم دومينيك، اسمي كامالي.

- أجل، واسم كامالي أجمل من اسم دومينيك.

كنت أشعر بالغضب ولكني تمالكت نفسي، جلسنا معًا في الصالة الكبيرة، ذهبت لإحضار بعض الأوراق وقالت:

- كامالي، زوجك أتى لزيارتي بعد أن عاد من لندن، أخبرني بموضوع مرضه وطلب مني أحتفظ بهذه الأوراق، لقد أخبرني بكل شيء.

- لماذا لم تقولي لي شيئًا؟

- حين حضر لزيارتي كان يبدو عليه المرض، وأخبرني بأنه إذا مات أن أعطيك هذه الأوراق، وإن شفى من مرضه أنه كان سيخبرك بكل الحقيقة، لأنه كان يرغب أن يبدأ حياة جديدة معك.

نظرت إليها باستغراب وقلت:

- كان يمكنك إخباري.

- لم يكن ذلك ممكنًا، بسبب مرضه، ثم لم يكن هناك مجال لذلك، لم أعرف عن هذا الموضوع من قبل، لو كنت أعرف من قبل لأخبرتك بالتأكيد. كامالي، لقد أخطأ ولكنه كان يعتقد أنه يحميهما بهذه الطريقة.

بكيت وتابعت قائلة:

- لقد حرمني رؤيتهما لسنواتٍ طويلة، سوف أراهما الآن ولكنهما سيكونان غريبين عني، أين هم الآن؟

- هذا عنوانهما، إنهما في لندن وفي هذا الملف كل شيء يتعلق بزوجك وأمواله، وكل ما يتعلق بولديك.

لم يكن هناك ما يمكن قوله بعد ذلك، وشعرت كم هي غريبة عني بعد أن أخفت وجود

أولادي، ولكني لم أنسَ بأنها ساعدتني كثيرًا، فقلت لها:

- مدام كوليت، أنت قدمت لي فرصة لأبدأ حياة جديدة، ولولا مساعدتك لما تمكنت من تجاوز مصاعب كثيرة مع تافارا، لن أراك مرة أخرى، فأنا لا أتخيل أبدًا أن أُخفي عن أي أُم حقيقة أن أولادها أحياء، في الوقت الذي تعتقد فيه أنهم أموات، كان يجب أن تخبريني، أشكرك ووداعًا.

تاكي و سيمو

وصلت للمطار في لندن، كنت أعرف أنهما سيكونان بانتظاري، طلبت من محامي في لندن أن يُبلغهما بجميع تفاصيل ما حدث؛ كي لا تكون صدمة قوية لهما أن آتي إلى لندن دون أن يعرفا بكل ما حصل، وحدّدت موعد وصولي إلى لندن. خرجت من بوابة القادمين ونظرت حولي لأرى أين هما، أو إذا كان بوسعي التعرف إليهما، ولشدة انفعالي لم أعد أميز الوجوه، فوقفت وسط المطار مرتبكة لا أدري أين أتوجه، ثم رأيت شابين وسيمين أسودا البشرة يمشيان ينظران لي بتساؤل، لم يعرفاني، فقد تغيرت كثيرًا بعد كل تلك السنوات، ثم مظهري الأوروبي جعل معرفتهما لي أصعب ولكني عرفتهما، تركت حقيبتي على الأرض وسرت باتجاههما...

- تاكي، سيمو.

نظرا لبعضهما البعض باستغراب، ثم اقترب مني سيمو أكثر وقال:

- أمي!

بكيت وقلت لهما:

- أنا والدتكما، أنا كامالي.

اقتربا مني واحتضنتهما لفترة طويلة بدموعنا الصامتة وبحزن السنين الطويلة دون اهتمام بنظرات الناس في المطار، قال سيمو:

- كنت أشعر طوال الوقت أنك حية، كنت دائمًا معي.

قال تاكي وهو ينظر لي بإعجاب:

- لقد تغيرت كثيرًا ولكنك جميلة كالسابق، أمي، سيمو إنها أمي نحن لا نحلم...

جلسنا معًا في أحد مقاهي المطار، وقال تاكي:

- لقد اشترى أبي شقة لي وشقة لسيمو، ووضع النقود في حساباتنا في البنك، لقد كان يعلم أنه سيموت ولم يخبرنا بذلك.

لم أرغب بأن أذكره بأي سوء، فقلت لهما:

- لقد كان خائفًا عليكما، ما فعله كان خطأ ولكن شدة حبه لكما جعلته يتصرف بتلك الطريقة.

قال سيمو:

- أجل، ولكن يا أمي لقد عشنا لسنوات بوحدة وحزن، لم يدرك هو حجم الألم الذي سببه لنا.

- أجل، ولي أيضًا، ولكن الآن لابد أن ننسى ونبدأ من جديد معًا.

احتضنتهم بقوة وشعرت بالفخر لأنهما أصبحا شابين وسيمين وناجحين في دراستهما، طلبا مني مغادرة باريس والقدوم للحياة معهما في لندن، وأن نبقى معًا بشكل دائم.

قلت لهما:

- بالطبع سأبقى معكما إلى أن تنتهيا من دراستكما، ثم سأعود لوطني وقريتي، أريد أن أبني مدرسة صغيرة هناك ويكون لدي مزرعة صغيرة، ولكما الخيار بأن تعودا معي أو أن تتابعا حياتكما في أوروبا وتأتيا لزيارتي من حين لآخر.

انتقلت إلى لندن وأحببتها كثيرًا رغم البرد والضباب وعشقت هدوءها الدائم، وكنت أريد أن أبتعد عن باريس لأنها كانت تذكرني بتافارا، وكنت أريد نسيانه؛ وبعد أن أتم تاكي وسيمو دراستهما، أتى موعد عودتي لأفريقيا، وتركت لهما الخيار إما باللحاق بي أو البقاء في أوروبا. وفي الطيارة جلست أنظر إلى مدينة لندن التي تبتعد شيئًا فشيئًا، وتذكرت كل ما مر بي في تلك السنوات التي مضت، لم أشعر برغبة بالحزن، كنت أريد فقط العودة لقريتي والجلوس بجانب صديقتي البحيرة من جديد.

وصلت أخيرًا لأحب مكان إلي على الأرض، كانت البيوت مهدمة، ولكن كان يوجد بعض العائلات التي عادت للقرية، ساعدوني في بناء بيتي من الخشب والقش والحصير، واشتريت أرضًا لتكون عليها المزرعة وأرضًا أخرى ليتم بناء المدرسة عليها.

وفي الليل، كنت أجلس تحت ضوء القمر وأتذكر تاكي وسيمو حين كانا طفلين ينامان بحضني، وأتذكر أمي وأبي وحماتي وكل من كان في القرية، ثم تلك السنة السعيدة التي قضيتها مع تافارا في أول زواجنا، وأدرك الآن أنني أحببته ولا أزال أحبه، وأنني كنت في رحلة طويلة مؤلمة وشاقة

ولكنني عدت، عدت إلى بحيرتي التي أجلس بجانبها كل مساء، أحدثها عن كل تلك الذكريات دون دموع ولا ألم، فيكفيني أنني هنا تحت الشمس، وتحت شجرة خضراء وارفة ومياه زرقاء صافية، وحين يتساقط المطر أعود لأمشي حافية القدمين بسعادة تحت قطرات المطر.

أكتمل بناء المدرسة وبدأت الدروس واكتشفت متعة لا تضاهى في التدريس، وبدأ التلاميذ يأتون من قرى أخرى بعيدة، أصبحت أدرسهم اللغة الفرنسية، وتاريخ أفريقيا وجغرافيتها وثقافاتها المتنوعة، وأحضرت العديد من الكتب والموسوعات لتصبح جزءًا من المدرسة.

وفي يومٍ جميل ومشرق، رأيت شابًا وسيمًا يأتي من بعيد، شعرت بالقشعريرة تسري بجسدي كأن السنوات عادت للوراء، كأنه تافارا يمشي بنفس طريقة المشي الرشيقة، ثم تلك الأسنان البيضاء والبشرة اللامعة والعيون السوداء الجميلة، لقد كان سيمو، نهضت من مكاني وركضت باتجاهه أحضنه وأقبله، قال لي بحماس:

- لقد أتيت يا أمي، أريد أن أعيش هنا، سوف أساعدك بزراعة الأرض وبالتدريس، العديد من الكتب سوف تصل بشكل مستمر، أريد أن يكون هنا مكتبة كبيرة كي لا يضطر الأولاد للذهاب إلى المدينة. كنت أحلم دائمًا بالعودة إلى قريتي، انظري أمي إلى هذه اللوحة.

لقد كانت اللوحة لي، رسمني بنفس التفاصيل حين كان طفلًا صغيرًا، قلت له بسعادة:

- هذه أنا، متى رسمت هذه اللوحة؟

- رسمتها قبل أن يموت والدي، وقبل أن أعرف أنك على قيد الحياة، لقد كنت دائمًا حية في مشاعري، ولم يكن وهمًا حين رأيتك تسيرين في شوارع باريس وناديت عليك.

- أجل، أجل، لم أنسَ ذلك، لوحة رائعة، وتاكي ماذا قرر أن يفعل؟

- سوف يبقى في لندن، فهو يحبها كثيرًا وسوف يأتي دائمًا لزيارتنا، أنا سعيد يا أمي بعودتي إلى هنا.

- أجل، وأنا أيضًا.

جلست قرب البحيرة ونظرت إلى حركة المياه الهادئة والعذبة، أصبحت هذه البحيرة صندوق ذكرياتي وأسراري، أرى على صفحتها كل أحداث حياتي، فأنا كتبت كل ذكرياتي في دفتري

الأصفر، وتافارا كتب ذكرياته بدفتره الأسود، وصديقتي البحيرة كتبت كل ذكرياتنا وذكريات أهل القرية على صفحة المياه، وأحب أن أقرأ عن كل تلك الذكريات فقط على صفحة المياه لأنها تتحرك، تتغير، تهب عليها النسمات وأحيانًا الرياح، ولم أكن أريد أن اقرأها في دفتر جامد لا تتحرك حروفه، فأغلقت دفاتر ذكرياتي وبدأت أتصفحها على صفحة المياه؛ كي تتغير وتتبدل، كي أشعر بأن الحياة أقوى من الذكرى وأن الماضي ليس سوى موجة تأتي ثم تذهب، وأن الغد هو الحقيقة الأقوى والأهم. مشيت تحت المطر حافية القدمين بلا أحزان ولا ذكريات، فقط أنا والسماء والمطر والأرض.

● ● ● ● ●

المؤلفة في سطور

- كاتبة وروائية ومحامية من مواليد مدينة الخليل – فلسطين.
- حاصلة على ليسانس حقوق من جامعة دمشق - سوريا.
- حاصلة على ماجستير قانون من جامعة مونبيليه - فرنسا.
- حاصلة على الدكتوراة في القانون والشريعة من الجامعة الإسلامية العالمية - القاهرة.
- عضو نقابة المحامين الأردنيين.
- عضو نقابة المحامين الفلسطينيين.
- عضو اتحاد كتاب فلسطين.
- عضو رابطة الكتاب الأردنيين.
- عضو نادي القصة بالإسكندرية.
- نُشرت لها العديد من المقالات الفكرية والأدبية والعلمية باللغتين الفرنسية والإنجليزية في العديد من الصحف العربية منها: القدس العربي - الرأي الأردنية - الدستور الأردينة - جريدة الغد - جريدة العرب اليوم. والعديد من المواقع الإلكترونية.
- تم مناقشة أعمالها في العديد من الندوات في القاهرة وعمَّان.
- البريد الإلكتروني : **novels2012@hotmail.com**

- صدر لها :

- اللاعودة : قصص قصيرة. دار الشروق، الأردن، ١٩٩٣م
- جداول دماء وخيوط فجر : قصص قصيرة. ندوة الاثنين في الإسكندرية، ٢٠٠٤م
- أنين مدينة : رواية. ندوة الاثنين في الإسكندرية، ٢٠٠٥م
- رائحة الميرامية : رواية. ندوة الاثنين في الإسكندرية، ٢٠٠٥م
- غيوم رمادية مبعثرة : رواية. ندوة الاثنين في الإسكندرية، ٢٠٠٥م
- في انتظار النور: رواية. دار الهلال المصرية، القاهرة، ٢٠٠٨م
- أساور مهشمة : رواية. مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠٠٩م
- لأني أشتاقُ إليك : رواية. دار الهلال المصرية، القاهرة، ٢٠١٠م
- رحلة ذات لرجل شرقي : رواية. مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١١م
- مدينة في الروح : رواية. دار الهلال المصرية، القاهرة، ٢٠١١م
- حالة روح لامرأة ما بعد الخمسين : رواية. دار الهلال المصرية، القاهرة، ٢٠١٢م
- رسائل الصمت من أمريكا : رواية. دار الهلال المصرية، القاهرة، ٢٠١٢م
- حين يتحول الوجود إلى ورقة وقلم : مقالات. الطبعة الأولى: دار الهلال المصرية، القاهرة، ٢٠١٣م. الطبعة الثانية: مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠٢١م
- أنا طفل : كتاب حول معاناة الطفل العربي المعاصرة. الطبعة الأولى: دار الهلال المصرية، القاهرة، ٢٠١٣م. الطبعة الثانية: مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠٢١م
- لست وحيدًا : مقالات دينية وأدبية. دار الهلال المصرية، القاهرة، ٢٠١٣م
- سويسرا الوطن والمنفى : رواية. دار الهلال المصرية، القاهرة، ٢٠١٤م
- أن تكوني امرأة : مقالات عن المرأة. مؤسسة دار الأهرام المصرية، القاهرة، ٢٠١٥م
- قصة حلم : رواية. دار المعارف المصرية، القاهرة، ٢٠١٨م
- تأملات امرأة : مقالات. مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠٢١م
- امرأة سوداء في باريس : رواية. مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠٢٢م



شمس للنشر والإعلام

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net